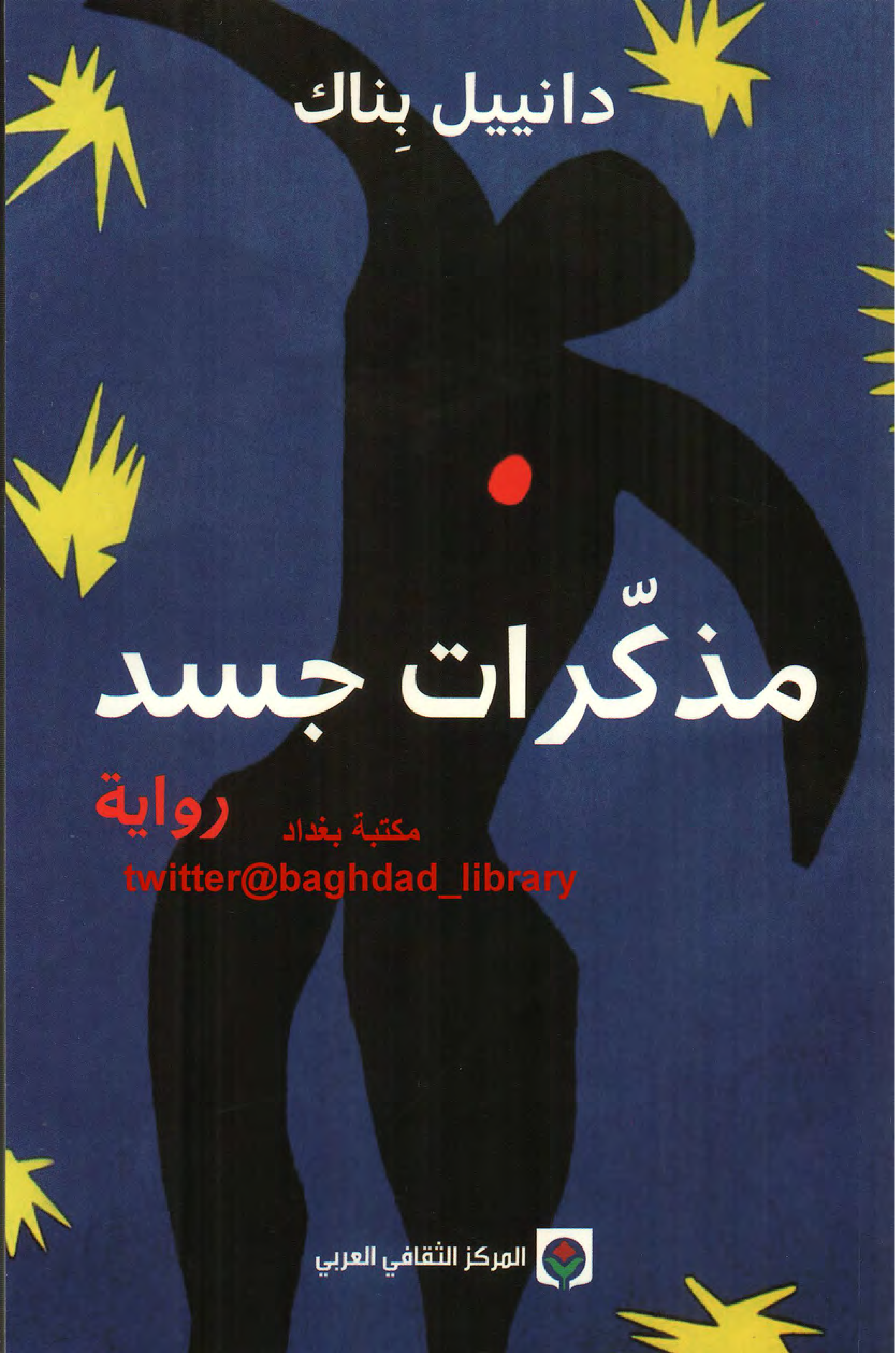

دانييل بِناك

مذكّرات جسد

رواية

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

المركز الثقافي العربي

دانييل بِناك

مُذكّرات جسد

رواية

ترجمة: محمد آيت حنّا

المركز الثقافي العربي

twitter @baghdad_library

العنوان الأصلي للكتاب:

Journal d'un corps

© Éditions Gallimard, 2012

الكتاب

مُذكّرات جسد

تأليف

دانييل بِناك

ترجمة

محمد آيت حنّا

الطبعة

الأولى، 2015

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-748-3

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

تنبيه

صديقتي ليزون -صديقتي العزيزة، صديقتي التي لا غنىً عنها، صديقتي المزعجة-، على طريقتها في تقديم الهدايا المُربكة، من قبيل هذا النّحت غير المكتمل الذي يحتلّ ثلثَي غرفتي، أو تلك اللّوحات التي تتركها تجفّ في بهو بيتي أو غرفة معيشتي بدعوى أنّ مرسمها صار ضيّقاً جداً؛ قلتُ على غرار تلك الهدايا المربكة، تجدون بين يديكم آخر هديّة قدّمتها لي. لقد أتتني ذات صباحٍ، واحتلّت مكانها على طاولة إفطاري، ثمّ وضعت أمامي حزمةً من الدفاتر خلّفها لها والدها الذي غادرنا مؤخراً. كانت عيناها المحمرّتان تشيان بأنّها قضت ليلتها في قراءة الدّفاتر. وذاك ما فعلتُه بدوري في اللّيلة الموالية. كان والد ليزون الذي قُيّض لي أن ألتقي به في حياتي خمس أو ستّ مرّات، مقتصداً في الكلام ومتهكّماً ومستقيماً كحرف الألف، ومكلّلاً بصيتٍ عالميّ يجعل منه عجوزاً حكيماً، وكان يغيظني. وإن كان ثمّة من شيء لا أستطيع أن أتخيّله بخصوصه، فهو تصوّر أنّه قد قضى حياته كلّها في تدبيج هذه الصّفحات! وإذ أصابني الذّهول، طلبت رأيَ صديقي بوستيل، الذي كان طبيبه لزمنٍ طويل (مثلما كانَ طبيبَ عائلة مالوسين). وقد أتى ردّه فوراً: النّشر! بلا تردّد. أرسل هذه الأوراق إلى ناشرك وانشرها!

twitter @baghdad_library

كانت ثمّة عقبة. أن تطلب من ناشرٍ نشرَ مخطوط شخصيّة معروفة بدرجة لا بأس بها، لكنّها تطلب أن تظلّ مجهولة، فذاك أمرٌ غير ميسّر. هل لي أن أبديَ بعض النّدم بعدما انتزعت ذاك الحقّ لصالح صانعِ كتابٍ فعليٍّ ونزيهٍ؟ أترك لكم الحكم.

دانييل بِناك

الثالث من شهر أغسطس 2010

عزيزتي ليزون،

ها أنتِ ذي قد عُدتِ من مراسيم دفني، ودخلتِ بيتك، حزينةً بلا ريب، لكنّ باريس تنتظرك، وأصدقاؤكِ ينتظرونَ، ومرسمُكِ، وبعض اللّوحات المعلَّقة، ومشاريعكِ العديدة، منها مشروع وضع ديكور الأوبرا، وغضبك السّياسي، ومستقبل التوأم، والحياةُ، حياتك. وها هي ذي مفاجأة في انتظارك، الأستاذ ر. يُعلمك بلغةِ الموثّقين أنّ والدك أوصى لك بعلبة. هديّة من أبي بعد وفاته! بالطّبع ستهرعين إليها. غريبةٌ هي الأمانة التي سلّمك إيّاها الموثّق: جسدي لا غير! لا ليسَ جسدي الذي من لحمٍ وعظم، وإنّما المذكّرات التي كتبتها طيلة حياتي. (وحدها أمّك كانت تعلم بأمر هذه المذّكرات، وعرفتْ ذلك مؤخّراً فقط). هي مفاجأة إذن. كانت لأبي مذكّرات! ما الذي دفعك إلى كتابة هذه المذكّرات يا أبي، أنت الذي كنت مميّزاً جداً وبعيد المَنال؟ وكتبتها طيلة حياتك! ليست هذه الدّفاتر مذكّرات حياة، فأنت تعرفين مدى تحفّظي من مراجعة أمزجتنا المتقلّبة، ولن تجدي هنا شيئاً من آرائي أو ما كنت أقوله في ندواتي،

twitter @baghdad_library

أو تلك الأشياء التي كان إتيين يسمّيها «معركتي»، لن تجدي هنا شيئاً عن الأب الاجتماعي، أو عن العالم ونظام سَيره. كلا يا ليزون، فهذه المذكّرات هي بالفعل مذكّرات جسدي فحسب. ستفاجَئين كثيراً، خصوصاً وأنت تعرفين أنّي لم أكن حقاً أباً «جسديّاً». لا أعتقد أنّ أبنائي أو أحفادي قد سبق لهم رؤيتي عارياً، لا بل نادراً ما كانوا يرونني بلباس السّباحة، ولم يسبق لهم أن باغتوني وأنا أتملّى عضلات ذراعيّ أمام مرآةٍ. أحسب أيضاً أني للأسف ما كنت أحسن فنّ العناق. أمّا أن أكلّمك أنت وبرونو عن جراحي، فقد أفضّل الموت بدلاً من ذلك -بالطّبع سأحدّثك عن كلّ ذلك، لكن بعد أن يكون أجلي قد قضيَ. لم يكن الجسد من مواضيع نقاشاتنا، وقد تركتك أنت وبرونو تتبعان تطوّر جسديكما بنفسيكما. لا أرى في الأمر نوعاً من اللامبالاة أو العفّة؛ لقد ولدت سنةَ 1923، وكنتُ دون إرادة منّي أحد برجوازيي ذلك العصر، أولئك الذين كانوا لا يزالون يستعملون النّقطة الفاصلة، ولا يفطرون بملابس النّوم، وإنّما يأتون مائدة الإفطار بعد أن يستحمّوا ويحلقوا ذقونهم وينحشروا في ملابس يومهم. إنّ الجسدَ هو أحد ابتكارات جيلكم يا ليزون. على الأقل بالنّظر إلى الاستعمالات التي أصبح يضطلع بها والعروض التي صار ينخرط فيها. أمّا بالنسبة إلى العلاقة التي يربطها بروحنا باعتباره كيس مفاجآت ومضخّة فضلات، فلا يزال الصّمت يضرب أوتاده تماماً مثلما كانَ عليه الأمر في عصرنا. إذا ما تمعنّا في الأمر، فسنُدرك أنّه ليس ثمّة مَن هم أكثر عفّة من ممثلي «البورنو» الأشدّ عرياً، وفناني الجسد الأشدّ جرأة. أمّا بالنّسبة إلى الأطباء (متى كانت آخر مرّة زرتِ فيها طبيباً؟)، فقد صار الأمر بسيطاً اليوم، ما

عادوا يلمسون الجسد. لا يهمهم سوى لعبة البازل (puzzle) الخلويّة، والجسد المصوّر بالأشّعة والصدى، الجسد الذي يتمّ تحليله، الجسد البيولوجي، الجيني، جسد الجزيئات، الصناعة المضادة للجسد. أتريدين الحق؟ كلّما حلّلنا الجسد، الجسدَ المعاصر، كلّما حاولنا إظهاره، ازداد اختفاءً. إذ يتمّ استبعادُه بقدْر إظهارِه.

لقد دوّنت أنا هذه المذكّرات اليومية عن جسدٍ آخر؛ رفيق دربنا، آلة وجودنا. كلمة «يوميّة» فيها شيء من المبالغة. لا تنتظري أن تجدي هنا جرداً مفصّلاً يوماً بيوم، وإنّما بالأحرى مفاجأةً بمفاجأة، جسدنا ليسَ بخيلاً- من سنتي الثانية عشر إلى سنة الرّابعة والثمانون (سنتي الأخيرة)، تفصل بينها صفحات طويلة من الصّمت، ستقفين على تلك السّواحل، سواحل الحياة، حيث يسلم جسدنا نفسه للنّسيان، لكن كلّما أظهر جسدي نفسه لروحي، إلا ووجدّني مستنفراً، ماسكاً قلمي بيدي، ومصغياً لمفاجأة اليوم. لقد وصفتُ تمظهرات الجسد تلك بما وسعني من دقّة، وبالوسائل المتوفّرة، دون أيّ ادّعاء علمي. إِبنتي حبيبتي، هي ذي تَرِكَتي: لا يتعلّق الأمر بدراسة نفسية، وإنّما بحديقتي السريّة، تلك الحديقة التي تُشكّل، مع فروق خاصّة، أرضنا المشتركة. أعهد إليكِ بتَرِكَتي. لمَ إليك أنت بالذّات؟ لأنّي كنت أحبّك كثيراً. ولأنّي لم أعبّر لك بما يكفي عن حبّي، فقد تركتُ لك هذه المتعة بعد وفاتي. لو أنّ غريغوار لم يمُت، كنت بلا ريب سأعهد بها إليه، لأنّها ستثير اهتمامه كطبيب، وتمتُّعه كحفيد. يا إلهي كم كنت أحبّ ذاك الفتى! غريغوار الذي مات في سنّ مبكّرة، وأنت التي صرت الآن جدّة، كنتما مخلاة

twitter @baghdad_library

سعادتي، قرباني في هذا السّفر الطّويل. حسنٌ لنوقِف النّزيفَ. اِصنعي ما شئت بهذه الدّفاتر: اِلقي بها مع النّفايات إن كنت تحسبينها هديّة متأخّرة من أبٍ لابنته؛ أو وزّعيها على العائلة، إنْ طاوعك قلبك؛ أو انشريها إن رأيت في النّشر ضرورةً. وفي حالة قرّرت نشرها، احرصي على إخفاء هويّتي، وغيّري أسماء الأشخاص والأمكنة، فلا أحد يدري أين يمكن أن يصل النبّاشون. لا تحاولي نشرها كلّها، فالأمر عبثيّ. لقد ضاع بعضها مع السّنوات، إضافة إلى أنّ العديد منها يكرّر أشياء مكتوبة في غيره. اِقفزي عليها؛ أفكّر مثلاً في دفاتر طفولتي حيث كنت أحسب عدد تماريني وعدد عضلات بطني، أو دفاتر المراهقة حيث كنت أحصي مغامراتي العاطفية كخبير حسابات مختصّ في حياتي الجنسيّة. خلاصة القول، اِفعلي بكلّ هذا ما شئتِ، وكما شئتِ، في جميع الأحوال، ستحسنين صنعاً.

لقد أحببتك.

بابا

1

اليوم الأول

(سبتمبر 1936)

وحدها أمّي لم أُنادِها.

twitter @baghdad_library

64 سنة، شهران، 18 يوماً   الاثنين 28 ديسمبر 1987

ذكّرني مقلب غبيّ دبّره غريغوار ورفيقه فليب لفاني الصّغيرة، بالمشهد الأصليّ الذي انبثقت منه فكرة هذه المذكرات، أقصد الصدمة التي وُلدت منها.

كانت مونا، المعروفة بولعها بإخلاء المساحات، قد أضرمت النار في ركام من الأشياء القديمة التي يعود أغلبها إلى زمن مانيس: كراسي هزّازة، أسرّة متعفّنة، عربة أكلتها السّوسة، إطارات عجلات لم تعد صالحة؛ لنقُل أنّ الأمر كان أشبه بمحرقة وبائية عملاقة. (وفي جميع الأحوال المسألة أقلّ كارثية من بيع تلك الأشياء كخردة). عهدت مونا بالمحرقة للأطفال الذين قرّروا أن يعيدوا تمثيل محاكمة جان دارك. اِنتشلني من غرقي في العمل صراخ الصغيرة فاني التي وقع عليها الاختيار لتمثيل دور القدّيسة. قضى غريغوار وفليب اليوم بأكمله في تعداد مناقب جان أمام فاني التي لم يسبق لها أن سمعت باسمها. لم يكفّا عن تضخيم مزايا النّعيم الذي كانت القديسة تبنيه بيديها وهي تقفز فرحاً بدنوّ الشهادة منها، لكنّها حين رأت شوّاية الفحم التي كانا ينويان إلقاءها حيّة فيها، هرعت إليّ وهي تصرخ. (مونا وليزون ومارغريت، كُنّ قد ذهبن جميعهن إلى المدينة). نشبت

twitter @baghdad_library

فيّ يديها الصغيرتين اللّتين صارتا من فرط الخوف كالمخالب. جدّي! جدّي! حاولت أن أهدئ من روعها بترديد كلمات من قبيل: «هنا، هنا»، و«لقد انتهى الأمر»، «الأمر بسيط» (لم يكن الأمر بسيطاً، كان بالغ الخطورة، بيد أنّي ما كنت على اطّلاع بمشروع التقديس الذي كانا يحضّران له). أجلستها على حجري وشممت فيها رائحة البلل. كانت قد فعلتها في تُبانها، لقد دنّسها الخوف. كان قلبها ينبض بسرعة مخيفة، وكانت تتنفّس مستنشقة جرعات ضئيلة جداً من الهواء. فكّاها كانا ملتصقين لدرجة أنّي خشيت أن تصاب بنوبة تكزّز. مدّدتها داخل حوض استحمام ساخن. وهناك، فقط، روت لي، بينما تشهق، نتفاً من المصير الذي كان يعده لها ذانك الأحمقان.

وها أنا ذا أعود بذاكرتي إلى منشأ هذه المذكرات. شهر سبتمبر 1936. كنت أوشك أن أغادر سنتي الثانية عشر وأخطو نحو الثالثة عشر. كنت عضواً في صفوف الكشفية. كنت قبل ذلك ذُؤيباً[1]، حاملاً اسماً من تلك الأسماء التي كانت موضة بسبب **كتاب الأدغال**. أنا إذن كشّاف، وهذا الأمر مهم جداً، لأنّه يعني أنّني ما عدت ذؤيباً، ما عدتُ صغيراً، أنا كبير، أنا من الكبار. كانت العطلة توشك أن تنتهي، وكنت في مخيّم كشافة في ناحية ما من جبال الألب. وكنا في حالة حرب مع مجموعة كشافة أخرى سرقوا منّا عَلَمنا. كان علينا أن نستعيده. قواعد اللّعبة بسيطة. كلّ واحد منّا يضع وشاحه على ظهره، ويثبّته في حزام سرواله القصير. خصومنا أيضاً

(1) أول الرتب في الكشفية الفرنسية هي رتبة Louveteau أي جرو الذئب، وفضلنا ترجمتها حرفياً. (المترجم)

فعلوا ذلك. نسمّي ذاك المنديل «حياة». ولم نكن مطالبين بأن نعود من تلك الغارة حاملين عَلَمنا فحسب، وإنّما كان علينا أن نحصل على أكبر قدر ممكن من تلك الحيوات. نسمّي المناديل أيضاً فروات رأس، ونعلّقها في أحزمتنا. من يحمل معه أكبر قدر يُعتبر محارباً مهاب الجانب، إنّه «بطل مطاردة»، مثل طياري الحرب التي تتزيّن قُمراتهم بصُلبان ألمانية [معقوفة] يتناسب عددها وعدد الطائرات التي أسقطوها. كنّا باختصار، نلعب لعبة الحرب. وبما أنّي لم أكن ضخم الجسم، فقد كنت أضيع منديلي ما إن تبدأ المواجهة. وقعت في كمين، طرحني عدوّان أرضاً، بينما افتكّ الثالث حياتي. ثمّ ربطوني إلى جذع شجرة حتّى لا أشارك في المعركة، حتّى وأنا فاقد الحياة. تركوني هناك. في قلب الغابة. موثّقاً إلى جذع صنوبرة يقطر منها الصّمغ ويلتصق بقدميَّ وذراعيَّ العارية. غاب أعدائي. اِبتعدت الجبهة. بدأتُ أسمع بشكلٍ متقطّع أصداءَ أصواتٍ تبتعد شيئاً فشيئاً إلى أن اختفت تماماً. أطبق صمت الغابة الشّاسع على مخيّلتي. صمت الغابة. ذلك الصّمت الذي يضجّ بكلّ الاحتمالات: تكسير الأعواد، الحفيف، الأنفاس، الضحكات المكتومة، الرّيح في الدغل... قلت لنفسي إنّ الضواريَ التي أزعجها لعبنا، ستظهر الآن حتماً. لا أعني الذّئاب حتماً، فأنا الآن كبير، أكبر من أخشى الذّئاب، كلا لا أعني الذّئاب، وإنّما الخنازير البريّة على سبيل المثال. ما الذي يمكن أن يفعله خنزير بريّ بطفلٍ موثق إلى جذع شجرة؟ لا ريب في أنّه لن يفعل شيئاً، سيتركه وشأنه، لكن ماذا لو كانت أنثى رتٍّ (أنثى الخنزير الوحشي)، أنثى رتٍّ رفقة صغارها؟ ومع ذلك لا أشعر بالخوف، أتساءل فقط، أطرح على نفسي الأسئلة التي

twitter @baghdad_library

تعبر الذّهن في مثل هذه اللّحظات المفتوحة على جميع الاحتمالات. كلّما حاولت أن أحرّر نفسي زاد وثاقي إحكاماً، وزاد الصّمغ التصاقاً بجلدي. هل يتصلّب فوقي؟ ثمّة أمر مؤكّد هو أنّي مهما حاولت لن أستطيع الفكاك من حبالي، فالكشّافة خبراء في ربط العُقد التي لا يمكن حلّها. أشعر أنّي وحيد حقاً، بيْد أنّي لا أقول لنفسي إنّهم لن يعثروا عليّ البتّة. إنّها غابة تطؤها الأقدام كثيراً، وكثيراً ما نصادف فيها لاقطي التوت البريّ، وعنب الأحراش. أعلم أنّهم ما إن يفرغوا من خصمهم حتّى يأتي أحدهم ليفكّ وثاقي. وحتّى لو نسيني أعدائي ستنتبه دوريتي إلى غيابي، سيُعلِمون بالأمر أحد الكبار وسيأتي ليحرّرني. كان ذهني قادراً على أن يستوعب دون مشاكل كلّ الوضعيات التي تقترحها عليه مخيّلتي. تسلّقت نملة حذائي، ثمّ من ثمّة ساقي العارية، وبدأت تدغدغها قليلاً. لا يمكن لهذه النّملة الوحيدة أن تهزم رصانتي. بالنّظر إليها في ذاتها، لا تُعتبر تلك النّملة خطراً، حتّى لو قرصتني، حتّى لو دخلت في سروالي القصير ثمّ في تُبّاني، ليست مأساة، أستطيع تحمّل ذلك الألم. ليس أمراً نادر الحدوث أن تقرصك نملة في الغابة. إنّ ألم قرصتها معروف، وبالإمكان تحمّله، قرصة رطبة وعابرة. كانت تلك حالتي الذّهنيّة، مرتاحٌ من جهة الحشرات، إلى أن وقع بصري على كثيب نملٍ على بعد مترين أو ثلاثة من الشّجرة، عند قدم صنوبرة أخرى: ركام ضخم من التراب وأشواك الصّنوبر يضجّ بحركة سوداء ضارية، ضجيج ضخم ساكن. وفقط عندما رأيت النّملة الثّانية تتسلّق ساقي فقدتُ السّيطرة على مخيّلتي. لم يعد الأمر محصوراً في لسعة أو لسعتين، سوف يغطّيني النّمل، ستلتهمني النّمال حياً. لم تكن مخيّلتي تتمثّل الوضع

في تفاصيله، لا أقول إنّ النّمال ستتسلّق ساقي، وأنّها ستلتهم عضوي وإستي، أو إنّها ستقتحم جسمي عبر محجريّ وأذنيّ ومنخاريّ، وأنّها ستأكلني من الدّاخل متنقّلة عبر أمعائي وتجاويفي، لا أرى نفسي أتحول إلى كثيب نمل بشريّ موثق إلى جذع تلك الصّنوبرة، أتقيّأ عبر فمٍ ميّت أسرابَ النّمل الشّغالة المنهمكة في نقل فتاتي إلى المعدة المرعبة التي تضجّ حول نفسها على بعد ثلاثة أمتار من قدمي؛ لم أكن أتمثّل تلك العذابات، لكنّها كانت حاضرة في صرخات الرّعب التي صرتُ أطلقها بعينين مغمضتين وفمٍ مشرع. كان نداء استغاثة بإمكانه أن يغطّي الغابة والعالم الذي يقبع خلفها. صرختُ بحدّة تكسّر عبرها صوتي إلى آلاف الإبر، كان جسدي بأكمله يصرخ عبر صوت ذلك الطّفل الصغير الذي صرتُه مجدّداً، وعضلاتي العاصرة أيضاً كانت تصرخ أعلى من فمي، أفرغت على ساقي، صرت أحسّ ذلك، امتلأ سروالي القصير، وغرقتُ، امتزج البراز السّائل بالصمغ، وضاعف ذلك الأمر من رعبي، إذ كنت على يقين من أنّ الرّائحة ستثير النّمل وستجذب وحوشاً أخرى. تشتّتت رئتايَ وسط صراخي طلباً للنجدة؛ أنا غارق في الدمّوع والريق والمخاط والصمغ والبراز. مع أنّي كنت أرى النّمل غير حافل بي، منصرفاً إلى عمله بجدٍّ، منشغلاً بهمومه الصغيرة، وباستثناء تلك النّملتين الشّاردتين، كانت البقيّة، وهي بلا شك ملايين النّمال، غير مهتمّة لأمري. أرى ذلك، أدركه، بل وأستوعبه، لكنّ الوقت قد فات، لقد تملّكني الرّعب وصارت يدُه الأطولَ، فلم يعد ثمّة مجال للواقع؛ إنّ جسدي بأكمله هو من يُبدي رعبه من أن يُلتهم حيّاً، ذلك الرّعب الذي شيّده ذهني وحده دون تواطؤ من النّمل. كنت أدرك كلّ ذلك، لا بل إنّ الأسقف شابوليي -

twitter @baghdad_library

كان يُدعى شابوليي- حين سألني عمّا إذا ما كنت أعتقد فعلاً أنّ النّمل سيلتهمني، أجبته نافياً، وعندما قال لي «اعترف أنّك كنت تمثّل»، اعترفت؛ وعندما سألني عمّا إذا كنت أستمتع بإرعاب المتجوّلين الذين فكّوا وثاقي بصرخاتي، أجبته أنّي لا أعلم، سألني حينئذٍ: أوَلستَ تخجل من نفسك وأنت تعود إلى رفقائك ملطّخاً بالبراز مثل طفل رضيع؟ قلت: بلى. أجبته عن كلّ الأسئلة التي كان يطرحها وأنا أنظّف نفسي بخرطوم ماء، نظّفت الجزء الأكبر من قذارتي بواسطة الخرطوم دون أن أنزع ملابسي، المشكّلة من بذلةٍ، وأيّ بذلة! بذلة الكشّافة. هل تساءلتَ للحظة أيّ فكرة سيكوّنها ذلك الزّوج المتجوّل عن الكشّافة؟ كلا لم أفكّر، أنا آسف. قل لي على الأقلّ، هل أمتعك الأمر؟ لا تكذب عليّ، لا تقل لي إنّك لم تجد متعة في الأمر! لقد استمتعتَ بالأمر، أليس كذلك؟ ولا أحسب أنّي استطعت الإجابة عن سؤاله ذاك، إذ لم أكن قد دخلت بعد دروب هذه المذكّرات التي أخذَت على عاتقها، طيلة السّنوات التي تَلَت ذلك، مهمّة فصل الجسد عن الرّوح وحماية جسديّ من شطط مخيّلتي، وصيانة مخيّلتي من الأعراض اللّامتوقّعة لجسدي. ماذا ستقول أمّك؟ هل فكّرت في ما ستقوله أمّك؟ كلا، كلا، لم أفكر في ما ستقوله أمّي؛ وإذ سألني ذلك، تذكّرت أنّ الشّخص الوحيد الذي لم أنادِ عليه عندما كنت أصرخ هو أمّي، وحدها أمّي أم أنادها.

فُصلت من فريق الكشّافة. أتت أمّي لتصطحبني. وفي اليوم الموالي دشّنتُ هذه المذكّرات بالكتابة: لن أخاف بعد الآن، لن أخاف بعد الآن، لن أخاف بعد الآن، لن أخاف بعد الآن، لن أخاف بعد الآن، لن أخاف البتّة بعد الآن.

2

12-14 سنة

(1936–1938)

بما أنّ الأمر يقتضي أن أكون على هذه الشّاكلة،
سأكون على هذه الشّاكلة.

twitter @baghdad_library

12 سنة، 11 شهراً، 18 يوماً الاثنين 28 سبتمبر 1936

لن أخاف بعد الآن، لن أخاف بعد الآن، لن أخاف بعد الآن، لن أخاف بعد الآن، لن أخاف البتّة بعد الآن.

12 سنة، 11 شهراً، 19 يوماً الثلاثاء 29 سبتمبر 1936

لائحة مخاوفي:

- الخوف من أمّي.
- الخوف من المرايا.
- الخوف من زملائي. خاصة فِرمانتان.
- الخوف من الحشرات. خاصة النّمل.
- الخوف من الألم.
- الخوف من أن يُدنّسني خوفي.

محضُ غباءٍ وضعُ لائحةٍ بمخاوفي، فأنا أخاف من كلّ شيء. وعلى كلّ حال، إنّ الخوف يفاجئنا دائماً. لا تكون تتوقّعه، وبعد دقيقتين يدفع بك إلى حافة الجنون. ذاك ما حدث لي في الغابة. أوَكان بوسعي توقّع أنّي سأخاف من نملتين؟ نملتين، وأنا أكاد أبلغ

twitter @baghdad_library

من العمر ثلاث عشرة سنة! وحتّى قبل [واقعة] النّمل، لمّا هاجمني أولئك الصبية، ارتميت أرضاً دون أن أدافع عن نفسي. استسلمتُ لهم وتركتهم يربطونني إلى جذع الشّجرة كأنّي ميت. لقد متّ من الخوف. متّ حقاً.

- أَتخاف أمّك؟ هَبها غير موجودة.

- أَتخاف زملاءك؟ تكلّم مع فِرمانتان.

- أَتخافُ المرايا؟ أُنظر إلى المرآة.

- أتخاف من الألم؟ لا شيء يؤلمك قدْر خوفك.

- أتخافُ الدنسَ؟ خوفك أشدّ مدعاةً للقرف من الخراء.

ثمّة ما هو أغبى من أن أضع لائحةً بمخاوفي: أن أضع لائحة حلول. إذ أنّي لا ألتزم بها مطلقاً.

12 سنة، 11 شهراً، 24 يوماً الأحد 4 أكتوبر 1936

منذ أن طُردت من الفصل، لم يبرح الغضبُ أمّي. وهذا المساء، أخرجتني من حوض الاستحمام قبل أن أغسل نفسي بالصابون. أجبرتني على النظر في مرآة الحمام. وما كنت قد تنشّفت حتّى. كانت تمسكني من كتفيّ، كأنّما أنا راغب في الهرب. كانت أصابعها تؤلمني. ولم تكفّ عن ترديد: انظُر إلى نفسك، انظر إلى نفسك! أحكمتُ قبضتيّ وأغمضت عينيّ. فظلّت تصرخ بي: اِفتح عينيك! انظر إلى نفسك! انظر إلى نفسك! كنتُ بردان. ضغطت فكيّ حتى لا تصطكّ أسناني. وظلّ جسدي يرتجف بأكمله. لن نبرح هذا المكان ما دمت لا تستطيع النظر في المرآة! انظر إلى نفسك! لكنّي

لم أفتح عينيّ. ألا تريد فتح عينيك؟ ألا تريد النظر إلى نفسك؟ دائماً ما تعيد القصّة نفسها؟ حسناً! أَتريدُني أن أصف لك نفسك؟ كيف هو الطّفل الذي أنظرُ إليه؟ كيف هو؟ في رأيك؟ كيف أنت؟ أوَتريد أن أخبرك؟ إنّك لا تشبهُ شيئاً! إنّك **لا تشبه شيئاً، مطلقاً**! (وأنا هنا أنسخ حرفياً **كلّ** ما قالته لي). ذهبَت مغلقةً الباب وراءها بعنف. وحين فتحتُ عينيّ كانت المرآة مضبّبة.

12 سنة، 11 شهراً، 25 يوماً **الاثنين 5 أكتوبر 1936**

لو أنّ أبي حضر سَورةَ غضب أمّي، لكان همس إليّ: ولدٌ لا يشبه البتّة أيّ شيء، قل لي إذن، إنّه لأمرٌ مثير للاهتمام! كيف ينبغي أن يكون، في نهاية المطاف، ولدٌ لا يشبه شيئاً البتّة؟ هل سيكون شبيهاً بالرّجل المسلوخ المصّور في **معجم لاروس**؟ حين يشدّد أبي على كلمة مّا، يبدو كأنّما ينطقها نطقاً مائلاً. ثمّ يسكت ليفسح لي المجال كي أفكّر. أفكّر في رجل لاروس المسلوخ، لأني قد درستُ فيه التشريح مطوّلاً مع والدي. أعرف تكوين الإنسان، أعلم موضع الشريان الطّحالي، أعرف كلّ عظم، وكلّ عصب، وكلّ عضلة، أعرفها بأسمائها.

13 سنة، عيد ميلادي **السبت 10 أكتوبر 1936**

مرّة أخرى لجأت أمّي إلى المنديل المتّسخ. بالطبع انتظرَت حتى وصل وقت الغذاء وحضر الجميع. كان دودو يمرّر طبق الزاكوسي[1]

---

(1) طبق روسيّ الأصل يقدّم مرافقاً للطعام. (م)

twitter @baghdad_library

فسألَته أن يضع الأطباق «من فضلِه»، وجرّته إليها برفق، كأنّما تريد أن تحضنه. وبدل أن تحضنه أخرجت منديلاً. مسحت به خلف أذنيه وعند ثنيات المرفقين والركبتين. ظلّ دودو متصلباً في مكانه. بالطبع كان المنديل (الذي أرته أمّي للحضور جميعهم) أقلّ بياضاً. عندما يكون المرء طفلاً متسخاً لهذه الدرجة، فلا ينبغي أن يتصرّف كفتيات المنزل المهذّبات. اِذهب لتنظّف نفسك، أيها الولد! ثمّ قالت موجّهة كلامها لفيوليت ومشيرة إلى دودو: اِحرصي على أن ينظّف كلّ ذرة وسخ من جسمه! لا يغفلنّ السرّة على وجه التحديد! أمنحك عشر دقائق لتفرغ من الأمر. في لحظات الأذيّة، يصير لأمي صوت فتاةٍ مرحة.

عندما كنت صغيراً وكانت فيوليت تنظّفني، كانت تصف لي قذارةَ ديوان الملك لويس السادس عشر، وكأنّما شهدَتها بنفسها. آه! لقد كان ضاجّاً بالروائح، صدقني! كان هؤلاء القوم يعطّرون أنفسهم مثلما نكنس الغبار إلى تحت الحصير. فيوليت تحبّ أيضاً نادرة نابليون وجوزيفين، حين قال لها (وكان عائداً من حملته على مصر): «لا تغتسلي، إنّي قادمٌ». كلّ هذا، لأقول لك، يا صغيري الجسور، بأنّنا نحن لا نحتاج إلى أن نتعطّر برائحة الياسمين حتى يحبّنا الآخرون، لكن لا تخبر أحداً بهذا!

على ذكر النظافة، ذات مرّة بينما أفرك ظهر أبي بليف من سعف النّخيل قال لي: هل سألت نفسك مرّة أين تذهب كلّ هذه القذارة البشرية؟ ما الذي نوسّخه عندما ننظّف أنفسنا؟

لقد فعلتها! لقد فعلتها! لقد أسقطت الستار عن دولابي ونظرت في المرآة! قررت أن أبتّ في هذا الأمر. أسقطت الستار، شددت قبضتيّ، تنفّست بعمق، ثمّ فتحت عينيّ ونظرت إلى نفسي! **نظرت إلى نفسي!** كأنّما أرى نفسي لأوّل مرّة. بقيت مدّة طويلة أمام المرآة. لم يكن الموجود داخل المرآة حقّاً أنا. كان ثمّة جسدي، لكنّي لم أكن أنا. لم يكن الموجود، حتّى أحد زملائي. بدأت أردّد: أأنتَ أنا؟ أأنت هو أنا؟ أأنا هو أنت؟ أنحن هذين؟ لستُ مجنوناً، وكنت مدركاً أنّي ألهو **بالانطباع** [الذي لديّ] بأنّه ليس أنا وإنّما هو طفل مّا تُرك في عمق المرآة. وأخذت أتساءل، منذ متى وهو هنا؟ لم تكن هذه اللّعب التي تثير ثائرة أمّي، تخيف أبي. يا بنيّ، إنّك لست مجنوناً، إنّما **أنت تلهو [فقط] بأحاسيسك**، شأنك شأن جميع الأطفال في سنّك. إنّك تسائلها. لن تتوقّف عن مساءلتها. حتّى لو صرت راشداً. حتّى حين تبلغ من الكبر عتيّاً. لتحفظ عنّي هذا: **طيلة حياتنا، ينبغي أن نجتهد لتصديق حواسنا**.

صدقاً، لقد بدا ليّ طيفي مثل طفل تُرك في دولابيَ ذي المرآة. هذا الإحساس صادق صدقاً مطلقاً. إذ هممت بإسقاط الستار، كنت أعلم ما أنا مُقدِم على رؤيته، لكنّي، بالرغم من ذلك، تفاجأت. فقد كان الطّفل كتمثالٍ ترك هناك، قبل حتّى أن أولد. بقيت أتملّى فيه مدّة طويلة.

وفي تلك اللّحظة خطرت ببالي الفكرة.

خرجتُ من غرفتي، قصدتُ المكتبة على أطراف أصابعي،

twitter @baghdad_library

وهناك فتحتُ **معجم لاروس** وقطعت صفحة الرجل المسلوخ باستعمال المسطرة (لن يلحظَ الأمرَ أحدٌ. فأمّي لا تستعمل معجم لاروس إلا لوضعه أسفل مؤخّرة دودو أثناء تناولنا وجبة في غرفة الطّعام)، عدتُ إلى غرفتي، أقفلت الباب وتعرّيت تماماً، ثبّتُّ صورة المسلوخ عند إطار المرآة وشرعتُ أقارن بيننا، بيني وبينه.

في الواقع لم يكن **ثمّة أيّ تشابه بيننا**. فالمسلوخ كان رياضياً بالغاً، عريض الكتفين. وكان يقف مستقيماً على ساقيه ذواتَي العضلات البارزة. أمّا أنا فلا أشبه أيّ شيء. إنّي طفل طريّ العود، أبيض البشرة، أجوف الصدر، نحيف لدرجة أنّ بالإمكان إدخال الرّسائل من تحت عظمتَي كتفي (كما تقول فيوليت) بيْد أنّ ثمّة نقطةً مشتركة تجمعنا معاً: كلانا **شفّاف**. عروقنا بارزة، وبالإمكان عدّ عظامنا، غير أنّ لا عضلة من عضلاتي أنا بارزة. ليس بي غير الجلد والعروق واللّحم الطري والعظام. لا شيء فيّ حسن الصّنع، على ما تقول أمّي. وفعلاً. بوسع أيّ كان، والحال هذه، أن يأخذ حياتي، أن يربطني إلى جذع شجرة، أن يتركني في الغابة، أو أن يُغرقني في النافورة، أو يسخر منّي، أو يقول بأنّ لا شكل لي. ولستَ أنت من سيحميني، أليسَ كذلك؟ أنت ستترك النمل يلتهمني! وستتغوّط عليّ!

حسن إذن، **أنا** سأدافع عنك! سأحميك حتى من نفسي! سأهبك عضلاتٍ، سأحصّن أعصابك، سأعتني بك كلّ يوم، وسأهتم **بكلّ** ما **تحسّه**.

13 سنة، شهر واحد، 4 أيام السبت 14 نوفمبر 1936

كان أبي يقول: كلّ شيء، هو في المقام الأوّل موضوعُ اهتمامٍ. جسدي إذن موضوع اهتمام. سأكتب مذكرات جسدي.

13 سنة، شهر واحد، 8 أيام الأربعاء 18 نوفمبر 1936

أريد كتابة مذكرات جسدي أيضاً لأنّ الجميعَ يتحدثون عن أشياء أخرى. كلّ الأجساد تُترك في الدواليب ذات المرايا. من يكتبون مذكراتهم، شأنَ لوك أو فرانسواز، يتحدثون عن كلّ شيء ولا يعرضون لشيء، يتحدثون عن عواطفهم وأحاسيسهم وقصصِ الصداقة والعشق والخيانة، ولا يكفّون عن تقديم تبريرات [لما فعلوه]، يتحدثّون عن ما يعتقدونه بخصوص الآخرين، وعمّا يخالون أنّ الآخرين يعتقدونه بخصوصهم، وعن الأسفار التي قاموا بها والكتب التي قرؤوها، لكنّهم لا يتحدثون قطّ عن أجسادهم. لقد خَبرت ذلك جيداً فرانسواز هذا الصيف. لقد أطلعتني على مذكراتها «في تكتّم شديد»، مع أنّها تطلع الجميع عليها، بحسب ما أخبرني إتيين. تكتب دائماً تحت تأثير انفعال مّا، لكنّها تكاد لا تتذكر أيّ انفعال. لمَ كتبتِ هذا؟ لستُ أذكر. وإذ ذاك لا تعود متأكدةً من معنى ما تكتبه. أمّا أنا، فأودّ أن تقول كتابتي بعد خمسين سنةً، ما تقوله اليومَ نفسه. أن تقول الشيء نفسه بالضبط! (بعد خمسين سنةً سيكون عمري ستونَ سنة).

twitter @baghdad_library

13 سنة، شهر واحد، 9 أيام　　　　　الخميس 19 نوفمبر 1936

إذ أعدت التفكير في كلّ مخاوفي، وضعتُ لائحة الأحاسيس الآتية: الخوف من الفراغ يجعل خصيتيَّ ترتجفان، الخوف من الضربات يشلّني، الخوف من أن أخاف يصيبني بالقلق طيلة اليوم، القلق يصيبني بالمغص، الانفعالات (حتى اللّذيذة منها) تصيبني بالقشعريرة، الحنين (أن أفكّر في أبي مثلاً) يدمع عينيّ، المفاجأة تجعلني أقفز (حتى لو تعلّق الأمر باصطفاق باب!)، الذعر قد يؤدي بي إلى التبوّل، أقلّ حزنٍ قد يجعلني أبكي، الغضب يخنقني، الإحساس بالمهانة يشعرني بالضيق. جسدي يستجيب لكلّ شيء. بيد أنّي لا أعلم دائماً كيف ستكون استجابته.

13 سنة، شهر واحد، 10 أيام　　　　　الجمعة 20 نوفمبر 1936

لقد فكّرت مليّاً. إذا ما وصفت بشكل دقيق كلّ ما أحسّه، ستكون مذكراتي سفيراً بين روحي وجسدي. ستكون ترجمانَ أحاسيسي.

13 سنة، شهر واحد، 12 يوماً　　　　　الأحد 22 نوفمبر 1936

لن أكتفيَ بوصف الأحاسيس القويّة، شأنَ المخاوف الكبرى والأمراض والحوادث، وإنّما سأصف كلّ ما يحسّه جسدي بإطلاق. (أو ما تخلقُه روحي من أحاسيسَ في جسدي). مَثلُ ذلك: مداعبة الريح لبشرتي، الضجيج الذي يُحدثه الصمت فيّ عندما أغلق أذنيّ، رائحة فيوليت، أو صوت تيجو. لتيجو منذ الآن الصوتُ الذي

سيكون لديه عندما يكبر. إنّه صوت متحشرج، وكأنّما هو يدخّن ثلاث علب سجائر في اليوم. في سنّ الثالثة! بالطّبع، حينما سيبلغ الرّشد، لن يحتفظ صوته بحدّته، لكنّه سيكون الصوت المتحشرج نفسه، مع تلك الضحكة المتوارية خلف الكلمات، إنّني متأكد من هذا الأمر. مثلما تقول فيوليت حين تتحدّث عن أطوار غضب مانيس: بوسع المرء أن يصرخ ما طاب له، لا نملك في نهاية المطاف سوى الصوت الذي نملكه!

13 سنة، شهر واحد، 14 يوماً الثلاثاء 24 نوفمبر 1936

صوتنا هو الموسيقى التي يعزفها الهواء حين يعبر جسدَنا. (حين لا يخرج من تحت، بالطّبع).

13 سنة، شهر واحد، 26 يوماً الأحد 6 ديسمبر 1936

تقيّأت أثناء عودتي من سان-ميشال. لا شيء يثير غضبي قدر أن أتقيّأ. أن تتقيّأ معناه أن ينقلب ظاهرُكَ باطنَكَ مثلَ حقيبة [يدوية]. يقلبون جلدك. يقلبونه بأن يهزّوك. وبأن ينتزعوه. تقاوم، لكنّهم يقلبون ظاهرَكَ باطنَك. يصير داخلُك خارجَك. تماماً مثلما يحدث حين تسلخ فيوليت أحد الأرانب. الجهة الأخرى من جلدك. هو ذا معنى أن تتقيّأ. يصيبني الأمر بالمهانة وتركبني سَورة غضب رهيبة.

13 سنة، شهر واحد، 28 يوماً الثلاثاء 8 ديسمبر 1936

ينبغي دوماً أن أهدئ من روعي قبل تدوين أيّ شيء.

twitter @baghdad_library

13 سنة، شهران، 15 يوماً الجمعة 25 ديسمبر 1936

مساء أمس، كانت هديّةُ أمّي إليَ هذا السؤال: أتعتقد حقاً أنّك تستحقّ هدية بمناسبة أعياد الميلاد؟ فكرت مجدّداً في الكشّافة، وأجبتها: كلّا. لكني أجبتها كذلك لأنّي، تحديداً، لم أكن أرغب في شيء منها. أهداني الخال جورج، من جهته، قطعتَي أثقال من وزن كيلوغرامين، وأهداني جوزيف آلةً لتقوية العضلات تسمّى المُوتِّر. هي عبارة عن خمسة حبال من المطاط مشدودة إلى قبضتين خشبيّتين. ينبغي إمساك القبضتين وشدّ الحبال أكثر ما يمكن من المرّات. وفي دليل الاستعمال تُرى صورة رجلٍ قبل أن يشتري الموتّر، ثمّ صورة الرّجل نفسه ستةَ أشهر بعدما اشتراه. لا سبيل إلى التعرّف عليه في الصورة الثانية. فقد تضاعف حجم صدره، وصارت عضلاته الرّافعة تمنحه هيئة ثور. بالرّغم من أنّ الرّجل لم يكن يتمرّن سوى ستّ دقائق في اليوم.

13 سنة، شهران، 18 يوماً الاثنين 28 ديسمبر 1936

لعبنا، أنا وإتيين، لعبة الإغماء. كان الأمر ممتعاً. يتموضع الآخر خلفك، ويعانقك بذراعيه، ثمّ يعصر صدرك بأشدّ ما يمكنه من بأس، بينما تُفرغ أنت رئتيك. مرّة ومرّتان ثمّ ثلاث، وهو يعصر صدرك بكلّ ما أوتي من قوّة، وإذ لا يبقى ثمّة هواء في رئتيك، تبدأ أذناك تطنّان، ويدور رأسك، ثمّ تسقط مغشياً عليك. إنّ الأمر لذيذ. يقول إتيين بأنّ المرء يحسّ نفسه راحلاً. أجل، أو يحسّ نفسه ينقلب أو يغرق... على العموم، إنّ الأمر حقاً لذيذ!

13 سنة، ثلاثة أشهر الأحد 10 يناير 1937

أيقظني دودو في كبد اللّيل. كان يبكي، سألته عن السبب، فلم يرغب في إجابتي. حينئذٍ سألته لمَ أيقظني. فانتهى به المطاف إلى أن أخبرني بأنّه صار محلّ سخرية زملائه، إذ لا يستطيع التبوّل أبعد منهم. سألته الحدّ الذي يبلغه. قال لي ليسَ بعيداً. أوَلم تعلّمك أمّي كيف تفعل؟ أجابني نافياً. سألته عمّا إذا كانت به رغبة في التبوّل ساعتها. أجل. فطلبتُ منه أن يلفّ جوربه قبل أن يتبوّل. سألني: ما هو جوربي؟ ذهبنا إلى الشرفة وأريته كيف يلفّ جوربه. فيوليت هي من علّمني الأمرَ، أثناء استحمامي، لمّا كنت صغيراً: لفّ جوربك، لا تجعله يسقينا كالفطر! برزَ طرف شيئه الصّغير، ثمّ بالَ، بالَ بعيداً جداً، حتى بلغ سقف سيارة هوتشكيس التي كان يملكها آل برجوراك، وكانت مركونة أسفل البيت. بالَ حتى بلغ طول الرّصيف. وكان فرحاً إلى درجة أنّه كان يتبوّل ضاحكاً. وباهتزازه كان خيط البول يذهب أبعد وأبعد. خِفت أن تستيقظ أمّي، فوضعتُ يدي على فمه. استمر يضحك في يدي.

13 سنة، 3 أشهر، يوم واحد الاثنين 11 يناير 1937

ثمّة ثلاث طرق للتبوّل بالنسبة إلى الأولاد: 1) التبوّل جلوساً. 2) التبوّل وقوفاً دون لفّ الجورب. 3) التبوّل وقوفاً مع لفّه. (إنّ الجورب، هو القُلفة. هذا ما يؤكده المُعجم). إذا ما لففتها، فستتبوّل أبعد. لا أصدّق أنّ أمّي لم تعلّم دودو هذا الأمر! ومن جهة أخرى، أليس الأمرُ غريزياً؟ إذا كان الأمر كذلك، فلمَ لم يتعلّمه

twitter @baghdad_library

دودو وحده؟ ما الذي كان سيحلّ بي لو لم تُبيّن ليَ فيوليت الأمرَ؟ أَوَيُعقل أن يرشّ الرّجال أقدامهم طيلة حياتهم، لأنّهم لم يفكّروا يوماً في أن يلفّوا جواربهم؟ ساءلت نفسي، طلية النهار، هذا السؤال، بينما أساتذتي يتحدّثون: لويليي، وبييرال، وأوشار. [تخيّل] الأشياء التي لا تعدّ ولا تحصى، التي يعرفونها حول «نظام سير العالم» (بحسب التعبير التي قد تقوله أمّي)، دون أن تخطر ببالهم، ربما، فكرة لفّ الجورب! لنضرب مثلاً الأستاذ لويليي، بهيئته التي تشبه مَن يريد أن يعلّم الجميعَ كلّ شيء، إنّي لمتأكد من أنّه يتبوّل على قدميه ويتساءل لمَ.

13 سنة، 3 أشهر، 8 أيام — الاثنين 18 يناير 1937

ما أُحبّ أن أقوم به، بينما أشرع في النّوم، هو أن أستيقظ لأَخبر لذة مُعاودة النّوم. إنّه لأمرٌ مدهش أن يستيقظ المرء في اللحظة التي يشرع فيها بالنوم! أبي هو من علّمني فنّ **الإغفاء**. تأمّل نفسك مليّاً: إنّ حدقتيك تثقلان، وعضلاتك ترتخي، وعلى الوسادة يأخذ رأسك، أخيراً، وزنه كرأس، تشعر أنّ ما تفكّر فيه لم يعد، تماماً، **فكراً**، كأنّما أنت قد بدأت تحلم، مع علمك بأنّك لم تنم بعدُ. كأنّما أمشي فوق سور، وأنا على أهبّة السقوط جهة النوم؟ تماماً! ما إن تحسّ نفسك تميل جهة النّوم هُزّ رأسك واستيقظ. اِبقَ على السور. ستستمرّ يقظتك بضع ثوانٍ، يكون بوسعك أن تقول فيها: سأعاود النوم! إنّه **لوعدٌ** ساحر. أيقظ نفسك مرّة أخرى، حتّى تستلذ بالأمر ثانية. وإذا ما اقتضى الأمر، اقرص نفسك إذا ما شعرت بنفسك تغرق! عدْ إلى السّطح ما أمكن من مرّات، ثمّ اترك نفسك في

النهاية تغرق. أستمع إلى أبي يهمس في أذني بهذه الدروس. مرّة أخرى، مرّة أخرى! هذا ما أردّده، بفضله، كلّ مساء ساعة النّوم.

13 سنة، 3 أشهر، 9 أيام الثلاثاء 19 يناير 1937

لعلّ الموت كذلك. سيكون جيداً إن لم نكن نخافه لهذه الدرجة. ربما لسنا نستيقظ كلّ صباح إلا بُغية تأخير اللحظة اللّذيذة، لحظة موتنا. عندما مات أبي، نام نومة أخيرة.

13 سنة، 3 أشهر، 20 يوماً السبت 30 يناير 1937

بينما أتمخّط قبل قليل، تذكّرت أنّي كنت أحاول تعليم دودو، حينما كان صغيراً كيف يتمخّط، لكنّه ما كان يزفر. كنت أضع المنديل أسفل أنفه قائلاً: هيّا ازفر! لكنّه كان يزفر من فمه. أو ما كان يزفر البتّة، كان يزفر إلى الداخل، وينتفخ مثل بالون ولا شيء يخرج منه. آنذاك كنت أعتقد أنّ دودو أحمق، لكنّ الأمر لم يكن صحيحاً. ذاك أنّ على المرء أن يتعلّم كلّ شيء عن جسده، كلّ شيء بإطلاق: نتعلّم كيف نتمشى، وكيف نتمخّط، وكيف نغتسل. ما كنّا لنتعلّم هذه الأشياء لو أنّهم لم يعلّمونا إيّاها. في البدء، لا يعرف الإنسان أيّ شيء. لا شيء البتّة. يكون بهيمة كسائر البهائم. وحدها هذه الأشياء لا يحتاج إلى تعلّمها: التنفس، والرؤية، والسمع، والأكل، والتبوّل والتبرّز، والنوم والاستيقاظ. لا بل إنّنا نسمع، لكنّنا نحتاج أن نتعلّم كيف **ننصت**. نرى، لكنّنا ينبغي أن نتعلّم كيف **ننظُر**. نأكل، لكنّنا ينبغي أن نتعلّم كيف نقطّع قطعة اللّحم خاصتنا. نتبرّز، بيد أنّنا ينبغي

twitter @baghdad_library

أن نتعلّم الجلوس على مقعد المرحاض. نتبوّل، لكنّنا حين نكفّ عن التبوّل على أقدامنا، ينبغي حينئذٍ أن نتعلّم **التصويب**. أن يتعلّم المرء، معناه أولاً أن يتعلّم كيف **يتحكّم في** جسده.

13 سنة، 3 أشهر، 26 يوماً الجمعة 5 فبراير 1937

أوَتحسبني **مغفّلاً** حتّى تشدّد **النطق** على الكلمات الأساسية في **تدليلك**؟ سألني الأستاذ لويليي أمام زملائي. فعلَ ذلكَ وهو يحاكيني، ما أضحك الجميعَ. أوَتعتقدُ أنّ أستاذك، أستاذ التاريخ، انتظرك طيلة حياته كي تأتي وتخبره أنّ إلغاء مرسوم نانت كان خطأً مكلِّفاً؟ من جهة أخرى، ألا ترى أن عبارة «خطأ مكلّف» عبارة **أرقى** من سنّك؟ أوَلن تكون سوى مدَّعٍ يا صديقي؟ أدعوك إلى المزيد من البساطة، وأن لا تهدم معرفتك.

حزنت كثيراً وأشهد ذاك التّهكّم من أبي بسبب نطقي المائل. (نطقي المائل، أخذته منه، وإذن كان هو موضوع تهكّمهم. كنت أريد أن أجيب لويليي محاكياً صوته الحادّ، لكنّ الحمرة صعدت إلى خديّ، وأوقفت أنفاسي حتّى أحبس دموعي، ولم أجِب بشيء. وعندما دقّ الجرسُ ارتبكت. مجرّد التفكير في أنّنا سنخرج وسنلتقي جميعاً، يصيبني بالشّلل. رفضت قدمايَ حملي. بقيت جالساً. ما عدت أملك جسداً. **لقد عدت إلى دولابي**. تظاهرت بأنّي أبحث في حقيبتي وفي قمطري عن شيء أضعته. يا للعار! وكان صراعي ضدّ هذا العار هو ما دفع بي إلى القيام في نهاية المطاف. في نهاية الأمر، بوسعهم أن يسخروا منّي كما يشاؤون. لستُ آبه. بوسعهم حتّى أن يضربوني أو يقتلوني، لا شأن لي بالأمر.

لكن كلا، في الخارج كانت فيوليت هي من ينتظرني. كانت تتسوّق، واغتنمت الفرصة كي تمرّ وتصطحبني. أنت يا صغيري الجسورَ، لقد خفت من شيء، الأمر جليٌّ في وجهك! في وجهي؟ وجهك أبيضُ مثل بيضة بطّ. كلا! بلى! إنّ وجوهنا تتحدّث أطول منّا؛ انظر إلى مانيس، سورة غضبٍ تنطبع على وجهه النّهر كلّه، ثمّ إنّي أسمع قلبك يخفق بقوّة. لم تكن تسمع شيئاً، لكنّها فيوليت، وقد خمّنت كلّ شيء. عندما وصلنا إلى المنزل، أعدّت لي وجبتي (خبز، دبس، حليب بارد جداً). طلبت منها أن لا تأتيَ مرّة أخرى لاصطحابي من المدرسة. تريد أن تدافع عن نفسك بنفسك يا صغيري الجسور؟ طبيعيّ في سنّك. لا تخشى أحداً، إذا ما عدت مجروحاً سأعالج جراحكَ.

13 سنة، 3 أشهر، 27 يوماً **السبت 6 فبراير 1937**

لمّا نبّهت أبي إلى أنّي ما عدت صغيراً، وأنّه ما عاد ينبغي أن يكلّمني بنبرة مائلة، أجابني: مستحيل يا بنيّ، إنّه الجانب **الإنجليزي** من شخصيتي.

13 سنة، 4 أشهر **الأربعاء 10 فبراير 1937**

في البداية، اعتقدت أمّي أنّي أمثّل حتى لا أذهب إلى المدرسة، لكن الأمر لم يكن كذلك، لقد كنت مصاباً بالفعل، بالتهاب اللّوزتين. صاحبَت مرضي في اليومين الأولين حمّى شديدة. فاقت حرارة جسمي الأربعين درجة! بدا الأمر أشبه بالإقامة داخل مغطس من الحساء المغليّ، وخشي الطبيب أن أكون

twitter @baghdad_library

مصاباً بالحمى القرمزيّة. قضيت عشرة أيام في السّرير. يبدأ الأمر بالإحساس بيدٍ تخنقك **من الداخل**، وتمنعك من ابتلاع الطعام. حتّى لعابك لا تستطيع بلعه، إذ يصير بلعه مؤلماً جداً. بيْد أنّا ننتج اللّعاب دون توقّف. كم لتراً من اللّعاب ننتج في اليوم الواحد؟ كلّ تلك اللترات نبلعها، إذ ليس من اللائق بصقها. أن تنتج اللّعاب ثمّ تبتلعه، تلك إحدى وظائف الجسد التي لا تقلّ آلية عن التنفّس. لولاها لأصابنا الجفاف مثل سمكة مقدّدة. أتساءل كم يلزم المرء من دفتر ليشرح فقط كلّ تلك الوظائف التي تقوم بها أجسادنا دون أن تخطر ببالنا قطّ. هل الوظائف الآلية غير قابلة للحصر؟ إنّنا لا نعير الأمر اهتماماً، بيد أنّه ينبغي أن تتعطّل إحدى تلك الوظائف حتّى تصير شغلنا الشاغل! كلّما ألفاني أبي كثير الشكوى، كان يردّد على مسامعي الجملة نفسها، جملة سنيكا: **كلّ إنسان يحسب أنّه يحمل من الأحمال أثقلها**. وذاك ما يحدث حين تتعطّل إحدى وظائفنا! نصير أكثر الأشخاص تعاسة في العالم. طيلة الفترة التي أصبت فيها بالتهاب اللّوزتين، ما عدتُ غيرَ حلقي. كان أبي يقول: إنّ الإنسان يركّز، هو ذا أصل المسألة كلّها! بالنسبة إلى الإنسان، لا شيء يوجد خارج الإطار. عزيزي، أنصحك بأن تكسر الإطار.

13 سنة، 4 أشهر، 6 أيام **الثلاثاء 16 فبراير 1937**

طيلة أسبوع ظلّت غرفتي مَمْرضاً. كانت فيوليت تغلي ماء الغرغرة في المطبخ ثمّ تعدّه على طاولة اللّعب الخاصة بأبي، والتي كانت قد وضعَتْها قرب النافذة وغطتها بفرش مائدة أبيض. كانت

راهبة سان-ميشال قد علّمتها كيف تصنع الكمّادات. كانت تخاطبها قائلة: «لا تقتري في استعمال الحبوب، بنيّتي». (في حين أنّ فيوليت قد تكون في سنّ جدّتها!).

تبسط فيوليت النسيج على غطاء المائدة، ثمّ تسكب فوقه عصيدة دقيق الكتّان، ثمّ ترشّ على العصيدة الخردلَ، تطوي النّسيج ملصقةً طرفيه، ثمّ تلصقه على عنقي، فتنطلق التوسّلات التي تدوم ربع ساعةٍ. النسيج يدفع إلى الحكّة، يحمّي الجلد، ويحرقه. كأنّ ألف إبرة تخترق حنجرتك التي تؤلمك أقلّ، ما دمت لا تفكّر سوى في هذا الحريق. تبادل مواقع الأهواء، ذاك ما يحدث يا بطلي الصّغير (الموقّع: أبي). كي تنسى ألماً جرّب الأصعب منه! (الموقّع: فيوليت). أصعبُ الأصعبِ كان هو حصّة التنظيف الذي أجرتها لي راهبة سان-ميشال. لقد أدخلت العود حتّى أعماق حلقي، وتقيّأت على وزرتها فوراً. شتمتها كأنّما أشتمُّ سرديناً عفناً، فلم تعُد مرّة أخرى. وكانت حكاية طويلةً مع أمّي: ألا تريد أن تعالج؟ تريد أن تصاب بالألبومين؟ تريد أن تصاب بالرّوماتيزم؟ يمكن أن تموت بسبب ذلك، لعلمك! ينتهي المطاف باللّوزتين إلى إصابة القلب! عندما تكون فيوليت هي من يجري لي حصّة التنظيف، فالأمر لا يطرح أيّة مشكلة: افتَح فمك جيّداً يا صغيري الجسور، استمرّ في التّنفس دون أن تقفل الصّمام بأكمله. لا تغلقه، قلت لك! (تقصدُ الحنجرة) ها نحن قد انتهيننننننا. لا ينبغي أن يُغمى عليك إذا ما خرج بولك أخضر، تلك زرقة الماء الذي نظّفنا به حنجرتك. بالضّبط: عندما يختلط أزرق المِتِلين بالبول الأصفر، نتبوّل بولاً

twitter @baghdad_library

أخضرَ. حسناً فعلت بتنبيهي، فهذا النّوع من المفاجآت هو ما قد يجعلني أفقد صوابي.

13 سنة، 4 أشهر، 7 أيام الأربعاء 17 فبراير 1937

الكمّادات، الغرغرة، والتّنظيف، كلّها علاجات نافعة. بيد أنّ أفضل علاج هو أن أنام في رائحة فيوليت. فيوليت هي بيتي. إنّها تعبق برائحة الشمع والخُضَر ونار الخشب والصابون الأسود وماء جافيل والخمرة المعتّقة والتبغ والتفاح. إذ تحتويني بشالها، آوي إلى بيتي. أسمع كلماتها توَشوِش في صدري فأنام. وحين أستيقظ تكون قد رحلت، لكنّ شالها لا يزال يغطيني. [هذا الشال] كي لا تضيع في أحلامك، يا صغيري الجسور. فالكلاب التّائهة تعود دائماً مهتدية بملابس الصيّاد!

13 سنة، 4 أشهر، 8 أيام الخميس 18 فبراير 1937

جسدي هو أيضاً جسد فيوليت. رائحة فيوليت هي بمثابة جلديَ الثّاني. جسدي هو أيضاً جسد أبي، وجسد دودو، وجسد مانيس... جسدنا هو أيضاً جسد الآخرين.

13 سنة، 4 أشهر، 9 أيام الجمعة 19 فبراير 1937

أطرافي لا تقوى على الحراك، لكنّ حرارتي لم تعُد مرتفعة. طمأنني الطبيب. قال «لو أنّ الأمر يتعلّق بحمّى قرمزية، لكانت أعراضها قد أعلنت عن نفسها». صدمني تعبيره، إذ أنّ فيوليت تقول دوماً عندما تتحدّث عن زوجها: «لقد كان ظريفاً حين أعلن عن

نفسه!» (لقد مات زوجها في الحرب، مبكراً، في سبتمبر من سنة 1914) الحروب أيضاً تُعلن عن نفسها[1].

13 سنة، 4 أشهر، 10 أيام السبت 20 فبراير 1937

أَتريد المزيدَ؟ المزيد من ماذا؟ من الحُمّى، أتريد المزيد منها؟ ولمَ سأرغب في المزيد من الحمّى؟ حتى لا تذهب إلى المدرسة، يا باردي! دودو في غاية السّعادة لأنّه يستطيع مجدّداً الانزلاق إلى فراشي. لا يتوقّف عن الثرثرة. إن أردتَ المزيدَ، عليك بتسخين المحرار لكن لا تضعه على المدفأة، قد ينفجر؛ يُستحسَن أن تنقر على رأسه، لا أقصد الرأس الذي نُدخله، بل الآخر، الدائري! انقر عليه بأصبعك برفقٍ وسيصعد زئبقه، بوسعك أن تفعل ذلك تحت الغطاء، حتى لو كانت أمّي تراقبك، لكن لا تنقر بشدّة، وإلا بدا الزئبق متقطّعاً، أفهمتَ؟ (سكتَ، ثمّ ما لبث أن عاد إلى الثرثرة). وحيلة المنشفة، أوَتعرفها؟ إذا ما وضع المرءُ ورق تنشيف في حذائه، إذا ما حشرها ما بين باطن قدمه وجوربه، سترتفع حرارته ما إن يبدأ المشيَ. ما هذا الحكي؟ أقسِمُ لكَ! من أخبرك بهذه الأمور؟ أحدُ أترابي.

---

(1) يتعلّق الأمر في الواقع بجناس لغوي يضمنه فعل Se déclarer الذي يفيد في الفرنسية معان كثيرة: من بينها في هذا السياق: الظهور (أعراض المرض) والتقدّم (للخطبة) والإعلان (الحرب)... فآثرنا الترجمة بفعل واحد «أعلن» بدل تنويع الصيغ، حفاظاً على أثر النصّ. (م)

twitter @baghdad_library

تتساءلُ أمّي كيفَ لي أن أحِبَّ الدّبس[1] الذي تعدّه فيوليت. تدَّعي أنّها تفضّل أن تموت جوعاً على أن تذوق ملعقة واحدة من تلك «الفظاعة»! تصرّ على أن أحتفظ بالبرطمان في غرفتي. لا أريد هذا النَّجَس في مطبخي، هل تسمع! فرائحتُه وحدها تكفي لكي أحسّ أنّ قلبي سينقلع!

[أمّا] أنا، فأحبّ كلّ شيء في الدّبس. أحبّ رائحتَه ولونَه ومذاقَه وكثافته. الشمّ والبصر والذوق واللمس، أربع حواس من خمس: حسبي هذا!

1- رائحته. مزيجٌ من العنب والتوت البري. أراني مع تيجو وروبير وماريان تحت التعريشة. الظلّ دافئ. الجوّ يعبق برائحة التوت البري. نحن بأفضل حال.

2- لونه. يكاد يكون أسود على بنفسجيّ. عندما أغمس شطيرتي في الحليب تتكوّن هالةٌ تتحلّل من البنفسجيّ الأسود حتّى الأزرق الشّديد الشّحوب، مروراً بكلّ أطياف اللّونين الأحمر والأرجوانيّ.

3- مذاقه، مذاق التوت البريّ: لكنّه أقّل حموضة من التوت البريّ.

4- كثافته. إذ يقع في مرتبةٍ ما بين المُربّى ومعقود الفواكه. يذوب دون أن يسيح. تصنع فيوليت الشيء نفسه بالعلّيق.

---

(1) الدّبس، مقطّر العنب، أو عصير العنب المركّز. (م)

5- آه! نسيت، حرارته، أيضاً. إذا ما تركتُ البرطمان ليلاً على نافذتي ثمّ غمّست خبزي المدهون في الحليب المغلي، أحصل على تمازج رائع ما بين الحرارة والبرودة.

لكنّ أكثر ما يعجبني، هو كون الدبس، دبس **فيوليت**. وأنا متأكّد من أنّ هذا السّبب نفسه هو ما يجعل أمّي لا تحبّه.

سؤال: هل تؤثّر مشاعرنا تجاهَ الأشخاص على باحات التذّوق لدينا؟

13 سنة، 4 أشهر، 17 يوماً السبت 27 فبراير 1937

منذ قليل كان دودو يغسل عينيه في الحمّام، بسبب تاجر الرّمل[1]. أخبرَته فيوليت أنّ تاجر الرّمل يأتي كلّ مساء، وهكذا ما إن أحسّ دبيب النّوم في عينيه حتى ذهب يغسلهما. بيّنتُ له أنّ **النّوم** هو ما يخزُ عينيه وليس تاجر الرّمل. ما نسمّيه تاجر الرّمل، [ليس سوى] الرّغبة في النّوم. فأجابني: وماذا إذن: إنّه تاجر الرمل! لا يزالُ دودو خاضعاً **لسطوة الصّور**. [أمّا] أنا، فأكتب هذه المذكرات لأتخلّص من سطوتها.

13 سنة، 4 أشهر، 27 يوماً الثلاثاء 9 مارس 1937

ردّ العمّ جورج على رسالتي. هو وفيوليت الشّخصين البالغين الوحيدَين اللذين يجيبان عن الأسئلة التي يطرحها الأطفال. وبسبب ذلك يعرف إيتيين من الأشياء أكثر ممّا أعرف.

(1) تاجر الرّمل، تعبير فرنسي وهو دلالة على النعاس. (م)

twitter @baghdad_library

صغيري،

[...] تسألني عمّا إذا كنتُ قد «فقدت شعري من الرّعب، أم بسبب صدمَة». [...] لا يا صغيري، لقد صرت أصلعاً إبّان الحرب العالمية، ولست الوحيد الذي حدث له هذا الأمر. لقد استيقظت ذات صباح وعلى خوذتي العسكرية نتف من شعري، ثمّ تكرّر الأمر نفسه في الصباح الموالي، فالصباح الذي يليه. صرت أصلعاً في أسابيع معدودة. شخّص الطبيب دائي تحت مسمّى «الثعلبة»، وقال لي إنّ شعري سيعود لينمو مجدّداً. أوَتصدّق؟! [...]

والآن تسألني، «بصفتي أحد ممثلي النّوع الأقرع»، هل سبق لي أن شعرت «بقشعريرة على رأسي الأصلع»؟ اِعلم، إذن، أنّ هذا الأمر حدث لي مرّة واحدة على الأقل: حين شاهدت سارة برنهارت[1] على المسرح، غِبَّ الحرب. إنّك لن تستطيع أن تتخيّل كيف كان صوت سارة برنهارت [...].

أمّا عن الأسئلة التي طرحتها عليّ بخصوص «الحيض وتلك الأشياء الأخرى»، فإنّي ألفي نفسي عاجزاً عن الإجابة عنها. إنّ المرأة، يا صغيري، لغزٌ بالنّسبة إلى الرجل، والعكس غير صحيح للأسف [...].

---

(1) ممثلة فرنسية (1844- 1923)، كانت تلقّب بالـ(الحنجرة الذهبية) وأيضاً بـ(الإلهية)، وأيضاً بـ (المرأة الفضائحية)، تعدّ أول ممثلة فرنسية تقوم بجولات ناجحة في القارات الخمس، وقد ابتدع لها المؤلف الفرنسي «جان كوكتو» لقب (الوحش المقدّس). (م)

أنا وجولييت نقبّلك بحرارة. بلّغ سلامي للسيّدة والدتك وتعالَ إلى باريس متى شئت، حتّى تُرينا عضلات ذراعيك.

عمّك جورج

بخصوص الدورة الشهرية، ما قاله، يعدّ طريقة لطيفة لإفهامي أنّ تلك الأسئلة لا تناسب سنّي. كنت أتوقّع ذلك. وفي أثناء ذلك، كانت فيوليت قد شرحت لي الأهمّ. كنتُ قد سألتها عن الأمر، بسبب جملة قالها فِرمانتان عن أخته: التي كانت لها «شؤونها»، والتي ما كان بالإمكان «إمساكها حتى بالملاقط»[1]. أمّا الباقي فنقلته عن المعجم:

الحيض. معجم لاروس:

«يشمل الحيض: 1- فترة النّمو التي توافق مرحلة البلوغ. 2- الفترة التي توافق الدورة البيولوجية للأنثى. 3- فترة انقطاع الطمث، أو سنّ اليأس.

تختلف فترة الإباضة، أو معدّل الفواصل الزّمنية بين حيض وآخر، من خمس وعشرين إلى ثلاثين يوماً، من امرأة إلى أخرى.

تتوقّف عمليات الحيض أثناء فترة الحمل، وبالطّبع أثناء الولادة أيضاً».

---

(1) ترجمة حرفية، للتعبير الفرنسي «Il n'est pas à prendre avec des pincettes»، والذي يشير إلى القذارة إلى درجة يستحيل معها إمساك الشيء، حتى باستعمال الملاقط. (م)

twitter @baghdad_library

13 سنة، 5 أشهر **الأربعاء 10 مارس 1937**

أتذكّر حديثاً بين العم جورج وأبي. وكانَ أبي آنذاك قد صارَ لا يقوى على الوقوف. وتقريباً، ما كان يأكل شيئاً. كان العم جورج يطلب منه أن يستعيد حيويّته. بلغ به الأمر أن توّسل إليه، بل إنّ عينيه اغرورقتا بالدموع. كان أبي يجيبه: مستحيل، يا عزيزي، لقد أصابني الصلع أنا من **الداخل!** وهذا الأمر لا ينبت من جديد، مثله مثل الشعر الذي لن ينبت على جمجمتك الشبيهة بالبيضة. العم جورج وأبي، كانا يحبان بعضهما كثيراً.

13 سنة، 5 أشهر، 6 أيام **الثلاثاء 16 مارس 1937**

كان أبي قد نبّهني للأمر! لكن أن تعرف الأمرَ شيءٌ، وأن يحدث لكَ شيءٌ آخر! استفقت وقفزتُ من سريري. كانت منامتي ملطّخة ويديّ لزجتين! كان ثمّة منه أيضاً على الملاءات. في الواقع، كان في كلّ مكان. وإذ نزعتُ منامتي، تذكرتُ كلام أبي. إنّه القذف يا بنيّ. إذا ما حدث لك الأمر ليلاً، لا تخف: لم تعُد إلى عادة التبول في الفراش، وإنّما هو المستقبل **يفتح لك ذراعيه**. لا تفزع، ومن الأفضل أن تتعامل مع الأمر من حينها، ستنتج المنيّ طيلة حياتك. في البداية نتحكّم في الأمر بدرجة أو بأخرى: احتكاكٌ، لذّة، ثمّ «هوبا» نطلق كلّ شيء! ثمّ نتعوّد الأمر، ونتعلّم كيف نتحكّم فيه، وفي الأخير نجني أفضل ما يمكن أن نجنيه منه.

كانت المنامة تلتصق بفخذيّ مثل الورق المشمّع. لحق بي دودو إلى الحمام بينما كنت أنظّف نفسي. كان لا بد أن يحشر أنفه في

المسألة. كان شديد الاستثارة. لا شيء هناك. إنّها حيوانات منويّة، وظيفتها صنع أطفال، النصف يؤخذ من الأولاد، والنصف الثاني من عند البنات!

13 سنة، 5 أشهر، 7 أيام الأربعاء 17 مارس 1937

عندما يجّف فوق الجلد يتشقّق المنيّ. يصير أشبه ما يكون بالميكا[1].

13 سنة، 5 أشهر، 8 أيام الخميس 18 مارس 1937

ما عدتُ أذكر حقاً وجه أبي. أمّا صوته فبلى. آه! أجل! إنّي لأتذكر كلّ ما قاله لي. صوته كان صوتَ نجوىً. كان يهمس قرب أذني. أحياناً، أتساءل إذا ما كانت الذكرى [فحسب] أم أنّ أبي هو من لا يزال يهمس داخلي.

13 سنة، 5 أشهر، 18 يوماً الأحد 28 مارس 1937

مرّة أخرى ألصقت المسلوخَ في إطار المرآة. بما أنّ الأمر يقتضي أن أكون على هذه الشّاكلة، سأكون على هذه الشّاكلة.

13 سنة، 5 أشهر، 19 يوماً الاثنين 29 مارس 1937

تمّ الأمر. لقد قصدت فِرمانتان. طلبتُ منه أن يدلّني على أشياء أقوّي بها عضلاتي. لم يُعرني اهتماماً في البداية. صنّفني

(1) مادة عازلة للكهرباء تشبه البلاستيك. (م)

twitter @baghdad_library

كحالة ميؤوس منها، وأخبرني أنّه لن ينحطّ إلى مستواي. حتّى وإن أنجزتُ لك تمارين الرياضيات؟ [عند سؤالي هذا] توقّف عن الضحك. ما الخطبُ؟ أوَترغبُ في أن تصيرَ لكَ عضلات ذات الرّأسين كي تغوي بها الفتيات؟ (أحسبُ أنّه كان يقصد عضلات السّاعد، والعضلة الدّالية والعضلات الرّافعة) أو تريد عتاداً رومانياً؟ (لا شكّ أنّه يقصد عضلات البطن) ينبغي إذن أن تقوّي عضلات بطنك وأن تكثر من الضخّ. لا يكبرني فرمانتان سوى بسنتين، بيد أنّ له مظهر رياضيّ حقيقي. وعموماً، حين يتعلّق الأمر بالرياضات الجماعية ككرة القدم أو لعبة سجين الكرة[1]، فإنّ فريقه هو من يفوز. هو مسجّل في عدّة أندية، وأرادني أن أرافقه. الأمر مرفوض. عليّ أولاً أن أخرج من دولابي. لا ألعابَ جماعية، وإنّما تمارين الجذب فقط (هذا ما قصده حين قال «الضخّ»)، وتمارين تقوية البطن. بوسع المرء القيام بهذه التمارين بمفرده. ثمّة أيضاً الحبلُ والعارضة وسباق التحمُّل، وسيعلّمني ركوب الدراجة (ستعيرني فيوليت دراجتها)، كما سيعلّمني السباحة. سبق لمانيس أن بيّن لي كيف أسبح، لكن حين كان يلقي بي في الحوض كنت أكتفي بالطفو فوق الماء مقلّداً الضفادع. مقابل تعليمي الرّكض وركوب الدراجة والسباحة، يريد فرمانتان أن أحرّر له مواضيع إنشائية وأن أنجز بدلاً منه تمارين الإنجليزية. صفقة ناجزة.

---

(1) لعبة تمارس عادة في المدارس وبين أطفال الحي، حيث ينقسمون إلى مجموعتين ويتمّ سبي كلّ واحد تلمسه الكرة. (م)

يتلخصّ تمرين الجذب (المضخة) في جعل الجسد يشكّل زاوية تقارب الخمسَ عشرةَ درجة مع الأرض، ومدِّه مستقيماً من أطراف أصابع القدم حتى الذراعين المفرودتين، ثمّ طيّ الساعدين حتى يلمس الذقنُ الأرضَ، ثمّ العودة إلى الاستقامة مجدّداً، ويستمرّ الأمر ما دامت في ذراعيك القوّة للتّحمل. على الجسد أن يظلّ مستقيماً، لا ينبغي للظهر أن ينحني أو أن تلمس الساقان الأرض عند نهاية الانثناء، كما أنّ الصدر ينبغي أن يلامس الأرض بالكاد. بوسع المرء أن يضع، أيضاً، قدميه على حافة السّرير حتى يشغّل عضلات الذراعين أكثر. هو ذا تمرين الجذب الأساسي. ثمّة أشكال عديدة أخرى منه. بيّن لي فرمانتان تلك الأشكال. لو تعلّق الأمر بالموسيقى لأَسْمَينا ذلك تنويعاً على الإيقاع. المضخّة المصفّقة: يرفع السّاعدان الجسد عالياً، حتّى يصير بالإمكان التّصفيق بالكفّين وإعادتها إلى الأرض (لا تحاول تجريب الأمر فور بدايتك التّمارين، سيسقط رأسك أولاً وتتكسّر أسنانك). المضخّة المصفّقة خلف الظّهر: العملية السّابقة نفسها، لكنّ الضغط ينبغي أن يكون أشد حتّى يمنحك الوقت لتصفّق خلف ظهرك. (لا تفكّر في الأمر حتّى، أو حاول القيام به فوق مرتبة). وأصعبها جميعاً مضخّة الدوران: يلفّ الجسد حول نفسه قبل أن يعود إلى نقطة الانطلاق. المضخّة على يد واحدة، ثمّ المضخّة على ثلاثة أصابع (ممتازة بالنّسبة إلى متسلّقي الجبال)... إلخ.

*

twitter @baghdad_library

إلى ليزون

عزيزتي ليزون،

إنّ الدفاتر الأربعة الآتية (أبريل 1937 - صيف 1938) من النوع الذي بوسعك أن تتخطيه. فلن تجدي فيها غير تصوير للتطوّر الذي يلحق عضلاتي (عضلات ذراعي، وساعديّ، وعضلات الجذع، والفخذين والساقين، وعضلات البطن. . .). طيلة فترة بداية مراهقتي أمضيت وقتي في قياس جسمي؛ حاملاً متر الخياط بيدي، صيّرتُ نفسي الإثنولوجيَ والمتوحش الطيب في آن. أنا الآن أبتسم، إذ أتذكر الأمر، لكنّي أحسب أني كنت قد عقدت العزم على أن أصير شبيه مسلوخ لاروس! وفي برياك، حيث كانت تصطحبني فيوليت لأقضي العطلة، مذ تمّ فصلي من فريق الكشافة، كنتُ أستبدل بتمارين الرّياضة أشغال الحقل والحطب. دهشَ مانيس ومارتا من مرأى مدى التعلّق الذي أبداه طفل من أطفال المدينة بحياة المزارعين. ولم يرتابا قطّ في كوني أختار الأشغال وفق معايير عضلية محض: قطع الأخشاب لتقوية عضلات الذراعين والساعدين، وحمل القش لتقوية الفخذين وعضلاتِ البطن والجذع، والركض خلف العنزات وضراوة السّباحة لتقوية القفص الصّدري. أحسّ اليوم أسفاً لأنّي أخفيت عنهم أسبابي الحقيقيّة، لكنّ فيوليت لم تكن مغفّلة، ولا شيء كان يبهجني قدر مشاركة فيوليت سراً من أسراري.

أخبريني يا ليزون، بما أنّي لم أحدّثك يوماً عن طفولتي، خطر ببالي فجأة أنّك لن تفهمي الشيء الكثير من هذه البدايات المفجعة:

وفاة الأب، الأم الحانقة، الجسد الصغير الذي تُرك في الدولاب ذي المرآة، وهذا الطفل ذو الثلاثة عشر ربيعاً الذي يكتبُ أصلاً برصانة أكاديمي. لقد حان الوقت لأقول لك شيئين.

أرأيتِ، لقد وُلدتُ من احتضارٍ. كان أبي أحد أولئك الذين لا يحصون، ممّن أعادتهم الحرب الكبرى إلى الحياة المدنيّة. لقد ناضل دون جدوى ليستمرّ في الحياة، رغم روحه المشبعة بالفظاعات ورئتيه المدمّرتين بالغازات الألمانية. وقد كانت سنواته الأخيرة (1919-1933) بمثابة المعركة الأكثر بطولية في حياته. لقد وُلدتُ من محاولة القيامة تلك. كانت أمّي قد احتفظت بي بُغية إنقاذ زوجها. إنّ طفلاً سيجعله يتحسّن كثيراً، فالأطفال هم الحياة! أحسب أنّه ما كان يملك لا الجهد ولا الرّغبة كي يسايرها في مشروعها، لكنّ أمّي رفعت معنوياته بما يكفي لكي أخرج إلى الوجود في العاشر من شهر أكتوبر سنة 1923. كنت مجرّد مضيعة جهد، ففي اليوم الموالي لميلادي بدأ والدي يحتضر. لم تغفر لنا أمّي ذاك الفشل، لم تغفر له ولا لي. لا فكرة لديّ عمّا كانت عليه حياتهما قبل ولادتي، لكنّي لا أزال إلى اليوم أسمع رجع صدى شكاوى أمّي: «إنّه يصغي إلى نفسه كثيراً»، «لا يهتزّ بما يكفي»، «لا يأبه لشيء»، «يظلّ قاعداً فوق ركامه»، يتركها «وحيدةً» في هذه الحياة حيث عليها «أن تدبّر كلّ شيء، وتقوم بكلّ شيء». كانت تلك الشتائم الموّجهة إلى شخص يُحتضر هي الموسيقى التي صاحبت طفولتي. لم يكن أبي يجيبها. بدافعٍ من التعاطف ولا ريب -إنّها امرأة تعيسة تشتمه- لكنّه كان يصمت أيضاً بدافع من الإنهاك، بدافع

twitter @baghdad_library

من كآبة كانت تعتبرها هي ضرباً من اللامبالاة. لم تجنِ تلك المرأة من هذا الرّجل ما كانت تنتظر، ولا تحتاج الأمزجة القلقة أكثر من ذلك كي تعيش حياة الحقد والاحتقار والعزلة، لكنّها بقيت مع ذلك. لم ترحل عنه. ما كان الطلاق شائعاً في ذاك الزّمان أو لعلّه كان شائعاً قليلاً، أو ربما أقلّ ممّا هو عليه اليوم، أو لم يكن الطّلاق موجوداً عندنا نحن، أو ربما عندها هي، لستُ أدري.

وإذ لم تؤدِّ ولادتي إلى بعث زوجها، فقد عدّتني أمي شيئاً بلا فائدة، شيئاً لا يصلح لشيء، بالمعنى الحرفيّ للكلمة، وتركتني له.

لكنّي أحببت ذاك الرّجل. لم أكن أعلم بالطّبع أنّه يحتضر، كنت أحسب بُطأه علامة على رقّته، وكنت أحبّه بسبب ذلك. وإذ كنت أحبّه، كنت أقلّده في كلّ شيء، لدرجة أنّي صرت مُحتضراً صغيراً فعليّاً. مثله، كنت قليل الحركة، كنت بالكاد آكل، وضبَطتُ حركاتي على إيقاع حركاته، وكنت أكبر دون أن أنموَ، باختصار كنت أحرص على أن لا يصير ليَ جسد. مثله كنت أسكت طويلاً، وعندما أتكلّم أنطق ساخراً سخرية لطيفة وتاركاً عينيّ تسرحان في كلّ الاتّجاهات مشّعتان بحبّ عاجز. إحدى خصيتيّ كانت ترفض بعناد أن تظهر، وكأنّما قررت أن أعيش بنصفي فحسب. وعند سنتي الثامنة أو التّاسعة، أعادت الجراحة خصيتي إلى مكانها رغماً عنها، لكنّي ظللت أحسب نفسي لزمن طويل أعورَ من تلك الجّهة.

كانت أمّي تدعونا شبحيها. «سئمت من هذين الشّبحين!» هكذا كنّا نسمعها تردّد خلف الأبواب التي تصفقها بعنف. (كانت تقضي وقتها في الهرب وهي ماكثة في مكانها، ومن هنا ذكرى الأبواب التي تصفق). لقد قضيت إذن سنواتي العشر الأولى في

صحبة ذاك الأب المتلاشي. كان ينظر إليّ كأنّما يأسف لأنّه سيرحل عن هذا العالم تاركاً خلفه الطّفل الذي أعاد إليه الثقة في الجنس البشريّ، لكن كان مرفوضاً أن يتركني دون أن يمنحني الذّخيرة اللازمة. رغم ضعفه، أخذ على عاتقه مهمّة تعليمي. وليس تعليمي القليل فقط، صدّقيني! لقد كانت سنواته العشر الأخيرة ركضاً محموماً بين انطفاء وعيه وإيقاد وعيي. حين يموت ينبغي أن يكون ابنه قد صار يعرف القراءة والكتابة والتصريف والعدّ والحساب والتّفكير والحفظ، والمنطق، والصّمت بحكمة. كان ذاك مشروعه. أن ألعب؟ لم أكن أملك الوقت لذلك. ثمّ بأيّ جسد سألعب. لقد كنت أحد أولئك الصّبيان ذوي العود الطريّ، الصبيان الحائرين الذين نلمحهم على حافة الملاعب، ينظرون متحجّرين إلى طاقة أترابهم. كانت أمّي تقول مشيرة إليّ بإصبعها: «أمّ هذا، فإنّه ظلّ الشّبح!».

لكن أيّ ذهن كنت أمتلكه يا ابنتي! حتّى قبل أن أعرف القراءة كنت أحفظ العديد من الأمثولات. وكنت أنا وأبي نناقش المغزى المتضمّن فيها في مسامرات طويلة كان يسمّيها تمارين «الفيلسوف الصّغير». ولم يمضِ وقت طويل حتّى أضاف إليها حكم الأخلاقيين، تلك الحكايا المصوّرة التي بوسع الطّفل أن يُفيد منها أيّما إفادة، خاصة إذا ما صاحبناها بتعاليق من تلك التعاليق التي كان يهمس بها إليّ، يهمس بها لأنّ صوته بدأ يخبو -في سنتيه الأخيرتين ما كان يتكلّم إلا همساً- لكنّي أحسب كذلك أنّه كان يقوم بذلك لأنّه كان يحبّ أن يخبرني بالحكم الخالدة في شكل مسرّاة حميميّة. ولم يمضِ وقت طويل حتّى صرت أملك معرفة كونية، حافظت عليها

twitter @baghdad_library

كأنّها تركة حبّ فريد. عندما كنتِ أنت وأخوك تضحكان عليّ وأنا أستظهر شذرة من مونتيني أو أسطراً من هوبز أو أمثولة للافونتين، أو إحدى تأمّلات باسكال، بينما أغسل الأواني أو ألمّع حذائي، تضحكان قائلين: «بابا يكلّم نفسه! بابا يكلّم نفسه!»؛ لم تكن تلك سوى بعض فقاعات الفيلسوف الصّغير، تصعد من طفولتي.

وفي سنّ السّادسة، عندما كان ينبغي إلحاقي بالمدرسة، حرص والدي على إبقائي قربه. اِستدعت أمي مفتّش التربية -كان يدعى السيّد جاردان- كي يقف أمام مشروع أبي. أدهشه مستوايَ، ومدى شساعة نقاشاتنا الهامسة. أعطانا تصريحاً، لكن ما إن رحل أبي حتّى ألحقتني أمّي بالمدرسة الوطنيّة. أجريت كما ينبغي امتحان الدّخول إلى الصفّ السّادس. أترك لك تخيّل التلميذ الذي كنتُه. ما كان يثير إعجاب مدرسيَّ أكثر من جودة معارفي، أو كوني أكتب وأتكلم مثل كتاب (أتكلّم هامساً مثل حاجب أمير، مبرزاً بنبرة مائلة جوهرَ كلامي)، قلتُ كان أكثر ما يثير إعجاب أساتذتي هو خطّ الموثّقين الذي علّمتني إياه صرامة أبي. كن مقروءاً، لا تجعلهم يظنون أنّك تحاول أن تخفي خلف كتابة ركيكة، فكراً لا تتقنه. ولك أن تخمّني المصير الذي كان يعدّه لي زملائي في فترات الاستراحة، لولا أنّ الأساتذة كانوا يأخذون على عاتقهم حماية الصّغير المسكين الذي كنتُه.

لقد خلّفت في وفاة أبي يتماً مضاعفاً. لم أفقده فقط، وإنّما فقدت معه كلّ أثر يدلّ على وجوده. فمثلما تفعل جميع الأرامل -إنْ جنوناً بالألم أو انتشاءً بالحريّة- مسحت أمّي كلّ أثر قد يذكّرها بوجود ذاك الرّجل. صارت ملابسه إلى الأبرشيّة، وأشياؤه الحميمة

إلى النّفايات أو محلات البيع. إذّاك فقط صرتُ شبحاً! فإذ حرمتُ من أبسط ما يمكنه أن يذكّرني به، صرت أتنقّل تائهاً في المنزل كظلٍّ لا جسد له. صرت آكل أقلّ فأقلّ، ولا أكاد أتكلّم، وأُبدي خوفاً مريعاً من المرايا. كنت أكاد أحسّ أنّي لستُ من لحم، لدرجة أنّ انعكاسي في المرآة يبدو لي مريباً. (وبذكائك المتيقّظ، لطالما نبّهتني إلى نزعتي المرتابة تجاه المرايا والصور الفوتوغرافية، التي مردّها خوفي الطفولي على ما أعتقد). وفي الليل أكثر من النّهار، كانت ترعبني فكرة المرور أمام مرآة. لم أكن أستطيع أن أنزع من ذهني أنّها تحتوي صورتي، في الوقت الذي لا أستطيع أنا حتّى رؤية نفسي فيها بسبب انعدام الضّوء. باختصار يا ابنتي، في سنّ العاشرة ما كان والدك سليم الجسم أو الذّهن. إذّاك فقط، حاولت أمّي إعادة إدماجي في الحياة، بإلحاقي بجراء الكشّافة، ثمّ بكشّافة فرنسا. (كانت تقول غير متهكّمة) إنّ أنشطة الهواء الطّلق، «أنشطة العقل والجسد!»، ستفيدنا أيّما إفادة. كان فشلاً ذريعاً، كما تعلمين. فليست الكشّافة من الميادين التي يمكن أن ينجح فيها شخص بدأ حياته بخصية واحدة.

كلا، إنّ الشّخص الذي أعطاني حقاً جسداً، الشّخص الذي استطاع أن يجعل منّي ولداً ثابت الخصيتين، طفلاً يستمتع بجسده بلا خجل، ذاك الشّخص كان هو فيوليت؛ فيوليت التي كانت تشتغل خادمة عندنا، فيوليت أختُ مانيس، وعمةُ تيجو وروبير وماريان. كانت أمّي تفرط في استنفاد صبر الخادمات؛ فما إن تشتغل إحداهنّ عندنا حتى ترحل متبوعة بأقذع العيوب. إلى أن أتت فيوليت وصمدت في وجه الجميع وكلّ شيء، لأنّها كانت قد تبنّت سراً

twitter @baghdad_library

الطّفلَ اليَرقةَ الذي كان يسكن ذاك المنزل. لقد ترعرعتُ تحت جناحها. ما إن تمّ فصلي من فريق الكشّافة، الذي كان يهدف إلى إراحة أمّي منّي، حتّى صارت فيوليت المؤسسة الوحيدة التي بإمكانها أن تخلّص أمّي منّي لمدّة طويلة، إذ كانت تصطحبني لقضاء العطلة الدّراسية -بما فيها شهور الصّيف الطّويلة- في مزرعة أخيها مانيس وزوجته مارتا. فيوليت التي كانت حبّ حياتي الوحيد، لم تكن في الحقيقة سوى أحد الحلول السّهلة التي لجأت إليها أمّي. وستلاحظين كم سيتواتر ذكر فيوليت في هذه المذكّرات، حتّى بعد وفاتها.

حسن. اِنتهت هذه الملاحظة في السّيرة. بإمكانك الآن أن تنتقلي إلى أشياء أهمّ. في المزرعة عند مانيس ومارتا. صيفَ عام 1938. سترين، كنت هناك في حال أفضل بكثير.

*

14 سنة، 9 أشهر، 8 أيام — الاثنين 18 يوليو 1938

حتى أتغلّب على دُوار الارتفاع، طلبتُ من مانيس أن يسمح لي بإقامة سريري في مخزن الفاكهة. (على ارتفاع أربعة أمتار). كانت مارتا موافقة. اِصعد، لا بأس، السُلم عمودي وعليك أن تنظُر إلى أعلى. ولكي تهبط قُم بالعكس! في البداية، كنت كالضائع أحضن السلّم. وحدث أن بقيت خمس دقائق كاملة على درجة واحدة من الدرجات الواقعة في وسط السلّم! ظلّ روبير، الذي ينتظر في الأسفل، يصرخ بي أن لا أنظر أسفل وأن أتنفّس عميقاً. دع نظرتك في مستوى واحد مع الدرجات! أو افلِتْ كلّ شيء، وستصل أسرَع!

القفز فوق الحبوب، إحساس بطعم مختلف تماماً! إلى حدود الأسبوع الفائت ما كنت أجرؤ على القيام بذلك، بسبب دوار المرتفعات دائماً. كانت ماريان تهزأ منّي قائلة: تيجو يقوم بالأمر! رغم أنّه في الخامسة فقط! وقال لي روبير: ألا تحبّ الشاطئ؟ يشبّه روبير الأمر بالشاطئ بسبب السنابل «الشقراء كرمل الشاطئ، إن لم يكن العكس هو الصحيح». كنّا نتعرّى قبل ارتقاء السلّم، حتى لا نحمل معنا الحبوب في الملابس. القفز فوق القمح ممنوع، ووجود الحبوب في الملابس دليل دامغ. إذا ما وجدَ مانيس أو بيلوشا حبّة واحدة في ملابسنا، سيجلدان مؤخراتنا (هكذا يقول روبير). ترتفع دعامة السّقف سبعة أمتار، والرّافدة الأساسية خمسةً، بينما يبلغ علوّ الجُرن مترين. نصعد بواسطة السّلم، ونركض فوق الرّافدة ثمّ نقفز. نقفز ثلاثة أمتار في الفراغ. حريصين على أن لا نصرخ! إذ لو أنّهم سمعوا صراخنا واكتشفوا أنّنا نقفز عراة على الحبوب، فسيدبغون مؤخّراتنا! (روبير دائماً). وإلى حدود الأسبوع الماضي ما كان بوسعي الركض على الرّافدة، ولا حتّى أن أقف عليها ثابتاً. حيث كان بإمكان تيجو أن يركض مهرولاً، ما كنت أستطيع أنا أن أتقدّم إلا زاحفاً على أربع، وما كنت أستطيع أن أقفز إلا مغمضاً عينيّ. في المرّة الأولى كانت ماريان هي من دفعني لأقفز. صرخت من الرعب. ظللنا مختفين وسط القمح خمس دقائق؛ كان روبير يتثاءب ولا يستطيع الثبات، بينما تيجو يريد أن يقفز مرّة أخرى فوراً؛ لكنّ لا أحد سمع صرختي. قفزت المرّات الثلاث الموالية بمفردي، كان

twitter @baghdad_library

ذلك تعهداً. اقفزْ دون أن تصرخ! وابقَ واقفاً على الرّافدة! واترك عينيك مفتوحتين حين تقفز! قفزة ثلاثة أمتار، صعود أمعائي إلى حلقي، الحفرة التي يخلّفها جسدي في القمح، حرارة القمح الذي يصطدم به جسدي العاري، تلك المداعبة الحيّة جداً... رائع! الآن، صرت أقوم بالأمر بيسر. وغالباً ما كنت أقوم بذلك أنا وتيجو وحدنا. ومع ذلك، ما زلت أحسّ بالدوّار: بوسعنا أن نتحكّم في الدوّار، لكننا لا نهزمه البتّة.

14 سنة، 9 أشهر، 21 يوماً الأحد 31 يوليو 1938

أشعر بدوار المرتفعات، لكنّي لا آبه. بوسعنا إذن أن نمنع أحاسيسنا من إعاقة أجسادنا. الأحاسيس تُدجَّن كالحيوانات المتوحشّة، بل إنّ ذكرى الخوف تزيد المتعةَ! الأمر نفسه يسري على خوفي من الماء. صرت الآن أقفز في الحوض كأنّما روّضتُ قطاً بريّاً. القفز في الحوض، اصطياد أسماك ترويت بيديّ، إطعام مصتوف دون خوف من أن يعضّني، إعادة الصغير من الحقل، تلك مخاوفٌ انتصرتُ عليها. «إنّها جسور أركول» كان ليقول أبي.

14 سنة، 9 أشهر، 25 يوماً الخميس 4 أغسطس 1938

الخوف لا يحميك من أيّ شيء، إنّه يعرِّضك لكل شيء! غير أنّ هذا الأمر لا يمنع من أخذ الحيطة. كان أبي يقول: الحيطةُ ذكاءُ الشجاعةِ.

14 سنة، 10 أشهر الأربعاء 10 أغسطس 1938

أمسكت سمكتَي ترويت، والثالثة أفلتت من يدي. في السنة الماضية ما كنت أستطيع حتّى إمساك تروية حيّة بين يديّ. كنت أجد الأمر مقزّزاً. ما إن أمسكها حتى أفلتها، وكأنّما تصعقني تلك الحياة، يمسك روبير ستّاً أو سبعاً حين أكون أنا قد أمسكت واحدة أو اثنتين. اليوم الذي يبدأ فيه تيجو بممارسة ذلك، سيفرغ النّهر بأكمله.

14 سنة، 10 أشهر، 10 أيام السبت 20 أغسطس 1938

تصوّران عن الألم.

أثناء عملية الحلب هذا الصباح، أسقطت إحدى البقرات الدلوَ. اِنحنى روبير على ركبتيه ليجعل الحليب يتدفق داخل القناة، ثم عاد للنهوض حاملاً في يده الدلو، **وفي ركبته خشبة مسمّرة**. نزع الخشبة كأبسط ما يكون الأمر واستأنف عمله. وعندما قلت له ينبغي أن يعقّم الجرح فوراً، قال لي إنّ الأمر يمكن أن ينتظر حتّى الفراغ من الحلب. سألته عمّا إذا كان يحسّ بالألم، فأجابني: قليلاً. وفي السّاعة الرابعة جرحت جلد إبهامي بينما كنت أقطع خبز اللّمجة. تدفّق الدّم، شعرت فوراً بالغثيان، أُصبت بالدّوار، تركت نفسي للحائط أنزلقُ عليه، وجلست على الأرض حتى لا يغمى عليّ. أنا وروبير مختلفان تماماً. وإذا ما سألتَ أمّي عن مصدر هذا الاختلاف، ستجيب ببساطة: «هؤلاء النّاس يفتقرون إلى الخيال، وهذا كلّ ما في الأمر!» كثيراً ما قالت ذاك عن فيوليت. (مثلاً،

twitter @baghdad_library

حين فقدت فيوليت أحد أبنائها ولم تبكِ) إغمائي إذن راجع إلى درجة التحضّر الرفيعة التي أتمتّع بها! مجرّد كلام! إنّ روبير، الذي في سنّي، يعيش صداقة مع جسده، وهذا كلّ ما في الأمر. لقد تربّى جسده وروحه **معاً**، إنّهما رفيقان جيّدان. لا يحتاجان إلى أن يُعيدا التعارف عند كلّ مفاجأة. إذا ما أُدميَ جسد روبير، فإنّه لا يُفاجأ. إذا ما أدميَ جسدي، يُغشى عليّ من المفاجأة. يعرف روبير، حقّ المعرفة أنّ جسده مليء بالدّم! يدمى لأنّه يعيش داخل جسد. مثلما يدمى الخنزير الذي يتعرّض للفصد! **أما أنا، فكلما عرض ليَ شيء جديد، أكتشف أنّ لي جسداً!**

14 سنة، 10 أشهر، 13 يوماً الثلاثاء 23 أغسطس 1938

تمّ وضع حبلٍ بدل سلّم مخزن الفواكه. وُضع الحبل أساساً لمنع تيجو من الصعود. إلى حدّ الساعة، لم أتمكن من الصعود إلا إلى المنتصف، دون الاستعانة بقدميّ.

14 سنة، 10 أشهر، 14 يوماً الأربعاء 24 أغسطس 1938

تيجو هو النقيض التام لما كنت عليه حينما كنت طفلاً. طفلٌ بدنيٌّ خالص. لا علاقة له بالبوذا البدين الصغير الذي يكون عليه الأطفال في سنّه. إنّه أشبه ما يكون بعنكبوت كلها أعصاب وعضلات وأوتار. شديد الحركة، ويصير فجأة سريعاً. لا تندّ عنه حركة بطيئة قط. إنّه سريع حدّ أنه لا يمكن تخمين أي كارثة قد يُحدثها عنفوانه. أراهن على أنّه لن يحتاج إلى أكثر من ثلاثة أيام ليتمكن من صعود الحبل المؤدي إلى مخزني. الأسبوع الماضي كان

قد خطَّط لملاحقة غُرير عسل داخل وِجاره. أخرجته مانيس من الحفرة باستخدام المعول، مثلما نستخرج الكلاب العالقة في الجحور. كان الغرير غاضباً، **لكنّه لم يخدشه!** ولا عضّه. لو أنّ تيجو كان كلباً لبقرَ الغرير بطنه! (هل تدرك الحيوانات المتوحشة معنى الطفولة؟) كان تيجو متسخاً تماماً، لكنّه كان يضحك ما طاب له الضحك. كلّ يوم له عمل جريء من هذا القبيل. ورغم ذلك، حين يجنّ الليل، يطالبني بأن أحكيَ له حكاية، مثله مثل أي طفل وديع. يستمع إليّ جامداً في سريره، وعيناه جاحظتان تحت غرّة شعره الأسود (أمس كان موعدنا مع حكاية عقلة الإصبع)، يصير بأكمله مجتمعاً في وجهه، قلقاً، نافد الصبر، مصدوماً، متواطئاً، ينفجرُ ضاحكاً، ثمّ فجأة ينام.

14 سنة، 10 أشهر، 18 يوماً الأحد 28 أغسطس 1938

لم أحسب جيداً حسابَ قفزتي في الحوض. قفزت مستقيماً أكثر ممّا ينبغي. كانت النّتيجة تسلّخ راحتَيّ وركبتيَّ. لم أشعر بألم كبير عندما كنت في الماء، لكن حين خرجتُ تألّمت ككلب! («لاذعة» هي حقاً الكلمة المناسبة.) عندما أخبرتني فيوليت بأنّها ستنظف الجرح بشراب مانيس، لم أستطع أن أمنع نفسي من سؤالها عمّا إذا كان الأمر مؤلماً. بالطّبع مؤلم، ماذا تظنّ، إنّ شراب مانيس ليس بوظةً! هات ساقكَ. مددت لها ساقي، وأنا أتشبّث بالكرسيّ. أنت مستعدّ؟ (فغر تيجو فاه وعينيه باهتمام بالغ). ضغطت أسناني وأجفاني، وأشرت لها بأنّي مستعد، مسحت فيوليت الجرح، **ولم أحسّ بأيّ شيء، لأنّها أخذت تصرخ بدلاً منّي.** كانت تصرخ

twitter @baghdad_library

صراخ ألم فعليّاً وكأنّما يسلخونها حيّة. ذهلنا في البداية أنا وتيجو، ثمّ انتهى بنا المطاف إلى الضحك. ثمّ أحسستُ بعد ذلك على ركبتي برودةَ الكحول الذي يتبخّر. تبخّر معه جزء من الألم. قلت لفيوليت إنّ الأمر لن ينجح مع السّاق الثّانية لأنّي بتّ أعرفه. هل تراهن؟ هاتِ السّاق الثّانية. هذه المرّة أطلقت صيحة **مغايرة**. صيحة طائر حادّة، زعزعت طبلةَ أذني. النّتيجة نفسها. لم أشعر بشيء. يسمّى هذا يا صغيري الجسورَ **بالتّخدير السّمعي**. لم تصرخ بينما تنظّف يديَّ، وأدهشني سكوتها أكثر من صراخها. اِنتهت قبل أن أحسّ بأيّ شيء.

إذا ما استطعنا إذن تخليص النفس من الألم، فإنّ المصاب لا يشعر به. أخبرتني فيوليت بأنها اكتشفت هذا الشيء بينما كانت تعالج مانيس حين كان صغيراً. مانيس كان صغيراً؟ اِبتسمت قائلة: أجل، حتّى مانيس كان ولداً صغيراً.

14 سنة، 10 أشهر، 20 يوماً الثلاثاء 30 أغسطس 1938

وجدت تيجو على سريري حين هممت بالنّوم. لقد تمكنّ إذن من صعود الحبل! لم تطاوعني نفسي على أن أطرده. وكيف السبيل أصلاً لذلك؟ ينبغي حمله وإنزاله بالحبل! ينام مثل جرو. يظلّ يخبّ ويثب ويجري. وفي الآن نفسه ينام نوم طفل. حتّى قنبلة لا تستطيع إيقاظه. كان نومي أنا دائماً خفيفاً. حتّى عندما أكون منهكاً تظلّ روحي يقظة. وذاك الملقط الذي ينزع قلبي من صدري دائماً لحظة الاستيقاظ! كانت فرانسواز تقول: أنت مثل أمّك، إنّك تعاني القلق. أجل، لكنّي أشعر هنا بقلق أقلّ من ذاك الذي أشعر به في المنزل.

14 سنة، 10 أشهر، 23 يوماً الجمعة 2 سبتمبر 1938

فاجأتني فيوليت عارياً، في حوض السّباحة الصغير. كنت أغتسل بعد قطف الثمار. كانت يداي وذراعاي حمراء مثل مجرم. نظرت إليّ، وقالت: أرى أنّ العشب قد نبت حول النافورة! (لا أحد يتحدث عن زغب عانتنا، لكن فيوليت تفعل.) هل بدأ الزغب يعشش أيضاً تحت إبطيك؟ رفعت ذراعي حتى تستطيع أن تلاحظ بنفسها. ما عادت تعرف جسدي. منذ ثلاث سنوات تقريباً ما عادت تنظف جسدي. حتّى الناس الذين يعرفونك جيداً لا يعلمون شيئاً عن حياتك الحميمية حين تكبر. كلّ شيء يصير سرياً. ثمّ نموت، فيعود كلّ شيء للظهور. كانت فيوليت آخر من رافق أبي إلى الحمّام.

14 سنة، 10 أشهر، 25 يوماً الأحد 4 سبتمبر 1938

نصحني مانيس بأن أمارس الملاكمة. أنت مرنُ الجسم، وتتحرك بخفّة، وعضلاتك قوية، وعندما ستكبر سيكون لديك ذراعان جيّدان. ينبغي أن تلعب الملاكمة. هو نفسه كان بطلاً عسكرياً عندما كان لا يزال في الخدمة. أهمّ ما في هذه الرياضة هو فن التملّص. رسم مانيس على الأرض في مخزن الحبوب، آثار أقدام متواجهة. يقف كلّ واحد فوق آثار أقدامٍ، وعليّ أن أحاول لمسه بقبضتيّ. هيّا، اضربني، حاول لمسي. هي ذي اللّعبة، أنا أقف فوق آثاري وهو فوق آثاره؛ إنّه طوع قبضتيّ، وعليّ أن ألمسه. يستحيل أن تصيبه. كنت في البداية ألكم ببطء، لكنه لم يتوقف عن ترديد: أسرع! أقوى! أسرع! اُلكُم بقوة أكبر! حاول لمسي! هيّا! اِستحالة

twitter @baghdad_library

مطلقة. يستطيع التملّص من كلّ اللّكمات. فإمّا أن يتراجع إلى الخلف، وتصل قبضتي إلى نهاية سيرها دون أن تلمسه (وهذا الأمر مؤلم بالنسبة إلى المرفق)، أو ينحنيَ وتمرّ لكمتي فوقه (الأمر الذي يُفقدني توازني)، أو أن يميل بأحد جانبيه، فأضرب جانباً (ما يفرض عليّ الخروج عن حدودي). أحياناً يكتفي بإدارة وجهه لناحية أو لأخرى. ومرة أخرى أُفلته. أكون قريباً، لكني أضيع الهدف. ويفعل كلّ ذلك ويداه خلف ظهره وقدماه داخل حدود آثاره. لا تلتقي قبضتيّ سوى الفراغَ. إذا ما أردتُ تمويهه وضربت جهة بعد أن مثلت أنّي سأضرب الجهة الأخرى، فإنّه يتملص من الضربة ضاحكاً: أيها العفريت، هيّا! كم هو شاقٌّ أن يحارب المرء شبحاً! تتقطّع أنفاسك، وتؤلمك كتفاك وكوعاك وأوتارك، تفقد أعصابك، ثمّ تخور قواك. وتلك هي اللحظة التي يختارها الخصم لشنّ هجوم مضادّ. بضربتين أو ثلاث على طريقة القطّ، يكاد مانيس يلامس كبدي وذقني وأنفي. يتمتّع بمرونة وخفة لا توصفان. ومع ذلك تقول فيوليت إنّ وزنه تضاعف منذ عام 1923، السّنة التي شهدت التحاقه بالخدمة العسكرية وولادتي.

14 سنة، 10 أشهر، 27 يوماً الثلاثاء 6 سبتمبر 1938

من سيصدّق أنّ طفلاً في الخامسة يرتقي حبلاً طوله أربعة أمتار؟ لن يصدّقني أحد، لكنّ ذلك ما صار يفعله تيجو كلّ مساء. وفي مكمنه يصير وديعاً جداً. ينام فور تسلقه الحبلَ. وحين يستيقظ يضرب معي كيس النخالة الذي علّقه مانيس على العارضة. رسم مانيس وجهَه بالفحم على الكيس وقال لي: اِمسحني. كانت تلك

تعليمته الوحيدة. ينبغي أن أمسح الرسم أثناء تماريني. كان الرسم يشبهه كثيراً: إنه أوتوبورتريه! شعره وحاجباه وشاربه الكثيف: إنّه حقاً مانيس.

14 سنة، 10 أشهر، 27 يوماً الثلاثاء 6 سبتمبر 1938

ماتت فيوليت، ماتت

twitter @baghdad_library

فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت
فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت
فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت
فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت
فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت
فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت
فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت
فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت
فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت
فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت
فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت
فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت
فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت
فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت
فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت
فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت
فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت
فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت
فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت
فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت
فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت
فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت
فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت فيوليت، ماتت

فيوليت، ماتت فيوليت. قُضيَ الأمر.

*

إلى ليزون

عزيزتي ليزون،

عند هذا الحد، تستطيعين القفز إلى الكتاب الموالي. فلن تجدي فيه غير تلك الجملة، تتّردد إلى ما لا نهاية. في الواقع، ماتت فيوليت. وبالنسبة إلى الطّفل الذي كنته، ما كان ينبغي لها أن تموت. كانت تحت حمايتي، أفهمتِ. ذاك أنّ القوة كلّها التي نهلتها من قوتها الهرِمة جعلتني منطقياً حاميها. ما كان لشيء أن يصيبها، طالما أعيش بقربها. ومع ذلك، ماتت. ماتت، وكنت هناك. ما كان ثمّة أحدٌ سوايَ. كنت الشاهد الوحيد على وفاتها. ذات ظهيرة بينما أمسكت خمساً من أسماك الترويت، صاعداً مجرى النهر، وكانت هي تنتظرني جالسةً على كرسيها الأحمر الذي يطوى (هي من علّمني كيف أصطاد سمك الترويت بيديّ: حاصرها جيداً لصق الأحجار

twitter @baghdad_library

ولا تخشى الثعابين، فالحيوانات الصغيرة لا تأكل الكبيرة)، تلك الظهيرة كنت قد رميت في سلّتها خمس سمكات حيّة (كانت هي من يتكفّلّ بقتلها، تضربها ضربة واحدة قاسية على الحجر)، لقد ماتت. ماتت عندما اصطدت السمكة السّادسة. وجدتها، وقعت عن كرسيّها، كانت تختنق، باحثة عن الهواء مثل السمكة التي أفلتها من يدي وأنا أركض شطرها. ناديتها، وضربت على ظهرها، إذ اعتقدت أنّها بلعت شيئاً مّا واختنقت به، شققت صدريّتها، وأغرقت قميصي في الماء لأصنع لها كمّادة باردة، وأثناء كلّ ذلك كانت لا تزال تلاحق أنفاسها، تفرغ رئتيها من الهواء الذي يخنقها، الهواء الذي ينبغي أن ينقذها، هو نفسه الهواء الذي صار يخنقها الآن، كانت عيناها مذهولتين أمام هذه الخيانة التي شفّت عنها الحياة، يداها تتعلّقان بذراعيّ مثلما يتشبّث غريق بآخر غصن أمامه، وما كانت تستطيع أن تتكلّم، ما كانت تستطيع أن تقول لي حتى إنّها تموت، ما كان ثمّة غير أصابعها المتجمّدة وصرخاتها المبلوعة وهذا التمزّق المرعب لقصبتها الهوائية، ما كان ثمّة غير هذا الموت الأجش المُزرقّ، لأنّها كانت تموت، كنّا نعرف ذلك، أنا وهي. فيوليت، لا أريدك أن تموتي! هذا ما كنت أردّد. لم أصرخ قائلاً: النجدة! أو: ساعدونا! ظللت أردد فقط: فيوليت، لا أريدك أن تموتي! رددت ذلك، حتى اللحظة التي لم أعُد أرى صورتي في عينيها، وحيث لم تعُد عيونها القريبة ترى شيئاً، تلك اللحظة حيث صار لها فوق ذراعيّ وزن امرأة ميّتة. إذاك ما عدنا نتحرّك. أفرغ جسدها كلّ الهواء الذي خنقه، وتركتُ النهارَ يمضي. حين لحق بنا روبير وماريان كانت الترويتة لا تزال حيّة.

ما إن أعادتني أمّي إلى المنزل، دخلت غرفتي وأغلقتُ على نفسي الباب وبدأتُ أكتب هذه الجملة الوحيدة: «ماتت فيوليت» كرّرتها دون توقّف. كان ذاك الدفترَ الذي بين يديك، ثامن دفاتر مذكراتي، وما إن امتلأ ذاك الدفتر حتى شرعتُ في تحبير دفاترَ أخرى، كانت تلك نيّتي، ملأ الدفاتر بهذه العبارة الوحيدة، ماتت فيوليت، دفتراً بعد آخر، قرّرت الكاتبة دون أخذ نفس، إلى أن تخور قوايَ. وإذا ما نظرنا إلى الأمر انطلاقاً من شكل خطوطي، أقول إنّه كان قراراً هادئاً، ففيوليت كانت قد ماتت وخطّي كان قد نضج تماماً، فكان أن حررت عواءً صارماً، صفحاتٍ من الكتابة في خدمة ألم رهيب. صرخت بعبارة: ماتت فيوليت، إلى أن أسقط الإنهاكُ القلمَ من بين أصابعي. لم يكن تعب الكتابة ما يُرهقني وإنّما خواء بطني. لأنّي كنت قد بدأت معركة جوع. لم تحضر أمّي جنازة فيوليت. كانت أمّي تتحدّث عن فيوليت ميّتة مثلما كانت تتحدّث عنها حيّة. كنت أرى أنّ أمّي تسيء إلى ذكرى فيوليت - لستُ أسيء إلى أحد، أنا فقط أقول ما أعتقده!- وبدأتُ إضراباً عن الطّعام حتّى لا أجتمع بأمّي. كنت أجهل حتّى تلك اللّحظة أنّ أمّي تنتمي إلى ذاك الصّنف من البشر الذين «في ذهنهم ووعيهم»، يسمّون «رأياً» و«يقيناً» و«اعتقاداً»، بل وحتّى «شعوراً» و«رأياً»، الأحاسيس المبهمة والطّاغية التي تغذّي أحكامهم: فيوليت كانت خبيثة، فيوليت كانت سوقيّة، فيوليت ما كانت تثبت في مكانها، فيوليت كانت على الأرجح تسرق، فيوليت كانت مهملة وسكّيرة ومزاجيّة، فيوليت كانت نتنة، فيوليت كانت نهايتها متوقّعة، وأنا ما عدت أرغب في العيش مع أمّي. المدرسة الدّاخلية أو

twitter @baghdad_library

الموت، كان ذلك شعاري. وكان إضرابي عن الطّعام هو وسيلتي للضّغط.

*

14 سنة، 11 شهراً، 3 أيام الثلاثاء 13 سبتمبر 1938

تُضربُ عن الطعام، أنت؟ سنتحدّث في الأمر غداً! كانت مخطئة. لقد صمدتُ. ثمّ إنّ الأمر ليس بالصعوبة التي نتخيلها. لا أغشّ. لا آكل خفية. حين يشتدّ جوعي، أشرب كأس ماء -مثلما يحقّ لنا قبل المناولة-. عند كلّ وجبة تقدّم لي الطبق نفسه، تماماً مثلما تفعل مع دودو حين لا يُعجبه ما تقدّمه له. أوَتعتقدُ أنّنا سنلقي بالطعام إلى القمامة! إنّها لا تفهم شيئاً. إنّه لَمُثير للاهتمام من يعتقد أنّه يفهم كلّ شيء، ومع ذلك لا يفهم النّاسَ إلا قليلاً، لكنّي لا أريد أن أعيرها اهتماماً. لن أناديها بعد الآن ماما.

14 سنة، 11 شهراً، 4 أيام الأربعاء 14 سبتمبر 1938

ذهبتُ إلى المرحاض للمرّة الأخيرة. أنا الآن بالفعل فارغ تماماً. معدتي (أو أمعائي) تقرقر، لأنّ جهازي الهضمي يشتغل بلا طائل. عندما نكون جائعين جداً، ننام مكوّمين على أنفسنا. ننغلق على معدتنا. كأنّما نضغطها لننسى الفراغ. ونهاراً لا نفكّر إلا في الأكل. يصير ريقنا حلواً. وأحسب أنّ بإمكاننا أن نأكل أي شيء. يريد دودو أن آخذه معي إلى المدرسة الداخلية. يقول إنّه لن يبقى وحيداً هنا.

14 سنة، 11 شهراً، 5 أيام الخميس 15 سبتمبر 1938

أمس مساءً، مضغت غطائي. لم أكن أريد أن أغشّ، أردتُ فقط أن أملأ فمي بشيء. أعتقد أنّي بقيت أمضغه حتى أثناء النّوم. اِستغّل دودو الأمر وهدّدني. جعلني أقسم له بأنّي سآخذه معي. قال لي: إنْ لم تأخذني معك، سأجلب كلّ الأشياء الشّهية وسآكلها أمامك. ضحكنا معاً.

14 سنة، 11 شهراً، 6 أيام الجمعة 16 سبتمبر 1938

هذا الصباح، أرادت تقبيلي. قفزتُ من سريري. لا أريد أن تلمسني، لكنّ الدوار أصابني، فسقطت. أرادت إعانتي على الوقوف، فتدحرجتُ أسفل السرير حتى لا تمسك بي. قالت إنّها لن تأخذني إلى المدرسة الداخلية وإنّما ستأخذني إلى مأوى المجانين. أضافت قائلة: ثمّ إنّ الأمر لا يعدو تمثيلية، فأنت تأكل خفية، لقد رأيتك! ظلّت تردّد الأمر طيلة الوقت، حتّى تطمئن نفسها. دودو هو من أخبرني بالأمر.

14 سنة، 11 شهراً، 7 أيام السبت 17 سبتمبر 1938

الطعامُ طاقةٌ. ليس لي طاقة بعدُ. باختصار ليس لي الطاقة اللازمة للجسد. أمّا بالنسبة إلى الإرادة، فالأمر لا يزال على ما يرام، لم يتغيّر شيء. لن آكل أو أتكلّم إلا حين توافق على ذهابي إلى المدرسة الداخلية. أيّ مدرسة داخلية، لا فرق عندي.

لا ينبغي أن أظلّ مستلقياً، لا ينبغي أن أنام. ينبغي أن أخرج.

twitter @baghdad_library

ينبغي أن أتمشى. كلّما أكلنا أقلّ، كلما شعرنا بأنفسنا أثقل، وكلما بدَت لنا المسافات أطول. حتّى أتمكن من التقدّم في الشارع، أسير قاطعاً المسافة من مصباح إلى آخر. حين أبلغ أحدها، أتوقّف وآخذ أنفاسي، ثمّ أنظر إلى المصباح الموالي وأواصل سيري. عليّ أن أقطع على الأقل مسافة عشرة مصابيح في الجولة الواحدة. عشرة ذهاباً، وعشرة إياباً. ربما سأسير بالطريقة نفسها عندما أصير شيخاً. أسيرُ عادّاً المصابيح.

14 سنة، 11 شهراً، 8 أيام الأحد 18 سبتمبر 1938

لقد أتت بطباخةٍ جديدة: رولاند. وبما أنّها ما عادت تأتي إلى غرفتي، فإنّها ترسل رولاند لتحمل إليّ غذائي. جعلَتها تطبخ أطباقي المفضّلة. هذا الصباح طبخت عجائن بالطماطم والحبق (صلصة أخذتها من مرطبانات فيوليت!) وهذا المساء طبخت طبق غراتان دوفينوا وحليباً رائباً بنكهة الدّبس. لم ألمس شيئاً. اِكتفيت بأن انحنيت على الصّحون، واضعاً منشفة على رأسي، حتّى أستنشق بعمق رائحة الطعام، وكأنّما أتشرّبها. رائحة الطماطم والحبق تفعمك حقاً. إنّها تنتشر في كلّ الفراغ الذي حفرَه الجوعُ فيك. رائحة الجوز أيضاً لها المفعول نفسه. هذا الأمر لا يُغذّيك، لكنّه يملؤك. كانت رولاند تأخذ الصّحون مليئة. لا شك أنّها تقول لنفسها إنّها انتهت في منزل مجانين. دودو يقول إنّي حقاً شديد البأس.

تلك الطماطم بالحبق، كنت قد ساعدت فيوليت في إعدادها شهرَ أغسطس. لا ينبغي الاحتفاظ بالبرطمانات مدة طويلة، يا صغيري الجَسور، شهر ونصف، أو شهران، لا أكثر، وإلا سيختلط

الحبق بالزيت ويمنحه مذاقاً سيئاً. (صحيح أنّه لم يعُد بصوتها الكثير من الهواء آنذاك). بكيتُ.

14 سنة، 11 أشهر، 9 أيام الاثنين 19 سبتمبر 1938

بالنسبة إلى تمارين الجذب العضلي، صار الأمر شاقاً. ما عادت في ذراعيّ قوة. لا أتجاوز عشر حركات. قبل إعلان إضرابي كنت قد بلغت مبلغاً ما عدتُ أحسب معه عددها. لا مشكلة لي في أن ينقص وزني، لكنّي لا أريد لعضلاتي أن تضمر. غير أنّه، ليس لي دُهن كثير لأفقده. رغم ثوبي الداخلي وقميصي المخملي وسترتي الثقيلة وغطاء أبي، أشعر بالبرد. ما كانت فيوليت لتحبّ مرآي أبكي كلّ هذا البكاء. كُفّ عن إفراغ نفسك يا صغيري الجَسور، ستضمر تماماً! ظلت لفترة طويلة، بعد وفاة أبي، تأخذني إلى الملاهي حتى تسليني، وربحت اثني عشر كيلوغراماً من السكّر في لعبة رمي السهام. غضب القيّم على اللّعبة جداً. هذا الفتى قناص محترفٌ سيجرّنا إلى الإفلاس، كفى! لم يكن عمري يتجاوز عشر سنوات ونصف! رافقونا إلى السّيارة وأعطوا السائق كيس سكّر. فيوليت، فيوليت، فيوليت... ردّدت: فيوليت، فيوليت، فيوليت، فيوليت، فيوليت، دون توقف، ردّدتها وأنا أستفرغ نفسي من دموعي كلّها، فيوليت، فيوليت، فيوليت، فيوليت، حتّى ما عاد لاسمها أيّ معنى.

14 سنة، 11 شهراً، 10 أيام الثلاثاء 20 سبتمبر 1938

هذا الصباح، ألقيتُ بالفطور من النافذة. كان الإغراء شديداً. لم تحمل لي رولاند شيئاً آخر، لا في الزوال ولا مساءً. تذكّرت أبي

twitter @baghdad_library

وأنا أنظر إلى أضلعي في مرآة الدولاب. أبي كان لِيَعُدّ مصابيح الشّارع أيضاً. في نهاية عمره كفّ عن الخروج تماماً. ما عدت أذكر وجهه جيداً، لكني لا أزال أحسّ يده فوق رأسي. كانت كفه ثقيلة وضخمة عند طرف ذراعه النحيلة جداً. كان ينفق جهداً بالغاً ليحملها. في أغلب الأحيان كان يضعها على يدي وأنا من يحملها حتى أبلغ بها رأسي، لكن كان ينبغي أن أمسكها جيداً حتى لا تسقط. أو، كنت أضع رأسي على ركبتيه وكان هذا الأمر أيسر بالنسبة له. لم يكن يحسّ بالجوع البتّة. وكان يظل جالساً إلى الطاولة، مدة طويلة، حتى بعد فراغنا من الأكل وتنظيف المائدة. أحسب أنّه ما كان يملك القوة للنهوض. وما كانت به رغبة في الكلام. ذات يوم، حطّت ذبابة على أنفه. لم يفعل أي شيء ليطردها. وحول الطاولة كان الجميع ينظر إلى هذه الذبابة. قال: أعتقد أنّها تخالني قد صرت جثّة.

14 سنة، 11 شهراً، 11 يوماً الأربعاء 21 سبتمبر 1938

عندما لا نأكل، لا تعود بنا رغبة في الكلام. وحتّى إن أردتُ الكلام، سأتحدث بصعوبة. ولا يكلّفني الصمت شيئاً، لا بل إنّ الصمت يريحني. وبالنسبة إلى دودو، فإنّي أكتفي بأن أشير له إشارات بأطراف أصابعي، وهذا يكفيه ليفهم. أن يصمت المرء فترة طويلة هو عِدلُ أن ينظّف نفسه حتّى القاع. ثمّ إنّ لعابي قد شحّ. صار فمي الآن جافاً. أظلّ فترة طويلة على سريري.

سقطتُ عن السلالم بينما كنت ذاهباً إلى المرحاض. هي لم تكُن هناك. اِزرقّت ذراعي، وازرقّ فخذي وصدري. أشعر بالألم في جسمي كلّه، خاصة حين أتنفّس. لا أستطيع أن أعبّ سوى رشفة صغيرة من الهواء كلّ مرّة. يمزّق التنفس رئتيّ مثلما يُمزَّق ورق التغليف. حملتني رولاند إلى فراشي. هالتها الكدمات الزرقاء. خاصة النتوء البارزة في الجهة الخلفية من جمجمتي: لم تكفّ عن ترديد هذه الجملة: غير معقول يا إلهي! أحضرَت الطبيب. لم يتكسّر فيّ شيء، لكنّ يحتمل أن أحد أضلعي قد رُضّ. عندما خرج الطبيب من غرفتي، بدأ بالصراخ. كان يصرخ قائلاً: «إنّه لأمر غير مقبول!». كانت رولاند تجيب قائلة إنّ الغلطة ليست غلطتها. أين هيّ مُشغّلتك؟ وما أدراني أنا؟ نمتُ. والعم جورج هو من أيقظني. لم يرجع إلى باريس بعد انقضاء العطلة. سيبقى عند جوزيف وجونيت حتى متمّ سبتمبر. يصطاد الفراشات مع إتيين. معه هو، تحدّثت. أخبرته عن الداخلية. وجد أنّها فكرة جيّدة. سيكون لك أصدقاء كثر. أتت رولاند تعلمه أنّ السيدة قد عادت. أقفلا على نفسيهما الصالون، لكنّهما ظلّا يتناقشان بصوت مرتفع، حتى إنّي سمعت كلمات، بل جملاً كاملة. كان صوت العم جورج يقول: أنت مجنونة تماماً! وصوتها: إنّه ابني! صوت العم جورج: انّه ابن جاك! صوتها: جاك ليس بوالدٍ! صوته مستشيطاً: إنّه ابن أخي، وضعي في حسبانك أنّني عمّه! صوتها، وقد ازداد حدّة شيئاً فشيئاً: أنت، تعطيني أنا، دروساً في التربية؟ تحت سقف بيتي! تحت

twitter @baghdad_library

سقفي، بيتي أنا! صفَق باب الصالون، ثمّ باب الغرفة. خيّم صمت طويل، وعدتُ إلى النوم. وأيقظني العم جورج مجدّداً. بالنسبة إلى الداخلية، اعتمد عليّ. ستذهب إلى داخلية إتيين. والآن، قل لي، ما الذي ترغب في أن تأكله؟ ما الذي سيرضيك أكثر؟ أجبته أني راغب في قدح حليب بارد وشطيرة بالدبس. أحضر لي طبقي، وقال لي: لا ينبغي أن تعيد الأمر مرّة أخرى، لا ينبغي للمرء أن يتلاعب بصحته. جسدك ليس لعبة! كُلْ، ثم ارتدِ ملابسك، سآخذك عند جوزيف وجونيت.

3

15-19 سنة

(1939–1943)

من الآن فصاعداً، كلّما طلب منّي أحد الكبار أن أتولّى مسؤوليتي، سأعده بذلك دون أن أخشى الكذب.

twitter @baghdad_library

15 سنة، 8 أشهر، 4 أيام — الأربعاء 14 يونيو 1939

أحسب أنّنا ارتكبنا حماقة ذاع خبرها في المهجع. حدث الأمر بسببي. كنت أودّ القيام بتجربةٍ. أردت أن أَخبِر الدّور الذي تلعبه حواسنا الخمس لحظة الاستيقاظ. المسألة علميّة. حينما نستيقظ، نستيقظ دائماً على منبّه إحدى حواسّنا. السّمع على سبيل المثال: يوقظني باب يصفق. البصر: أفتح عينيّ في اللّحظة التي يشعل فيها السيد داما الضوء. اللمس: كانت أمي توقظني دائماً بهزّي؛ على أنّ الأمر كان بلا جدوى، فما إن كانت تكاد تلمسني حتى أقفز من سريري. الشمّ: يزعم إتيين أنّ رائحة الشوكولا في بيت العم جورج، كافية وحدها لتنتزعه من نومه. بقي لنا أن نجربّ الذوق. هل يستطيع منبّه ذوقي أن يوقظ شخصاً مّا؟ هكذا بدأت تجربتنا. وضع إتيين القليل من الملح في فمي، فاستيقظت. وضعت القليل من الفلفل المطحون بدقّة بين شفتيه، فكانت النتيجة واحدةً. حينئذٍ تساءلت عمّا يمكن أن يحدث لو هُيّجت **الحواس كلّها في الآن نفسه**: السمع واللمس والبصر والشم والذوق. أيّ استيقاظٍ سينجم عن ذلك؟ عمّد إتيين تجربتنا باسم الاستيقاظ الكامل. وأصرّ على أن يكون أول من

twitter @baghdad_library

«يجرّب الأمر». وبما أنّي أصررت على الأمر نفسه، لجأنا إلى قرعة «ملك وكتابة»، وفزت. كان عليه إذن أن يوقظني بتوسُّط خمس إجراءات متزامنة: أن يصرخ بي وأن يهزّني وأن يسلّط عليّ الضوء وأن يضع في فمي ملحاً وأن يجعلني أشمّ شيئاً نفّاذ الرائحة. بالنسبة إلى الرائحة، ذهب إتيين يختلس بعض الأمونياك الذي ينظّفون به أرضية الحمامات. أجرينا التجربة هذا الصباح، ربع ساعة قبل موعد الاستيقاظ الرسمي. استثارت إذن الحواس الخمس كلها في وقت واحد. هزّني مالمان، ووضع روار ملعقة خلّ في فمي، وسلّط عليّ بومبيي ضوء مصباح كهربائي، ووضع زافران قطيلة أمونياك تحت أنفي، بينما كان إتيين يصيح باسمي في أذني. يبدو أنني أطلقت صيحة رهيبة وبقيت مشلول الحركة جاحظ العينين، مشدوداً مثل قوس، دون أن أستطيع النطق بكلمة واحدة. حاول إتيين تهدئتي بينما قفز الآخرون إلى أسرّتهم. وعندما وصل السّيد داما كنت لا أزال على تلك الحال نفسها. اِستمرّ وضعي القلق نصف ساعةٍ. اِتصلوا بطبيب. قال الطّبيب إنّي كنت في حالة «إغماء تصلّبي» وطلب نقلي إلى المستوصف. لم يستبعد فرضية أن أكون مصاباً بداء التصلّب وأوصى بمراقبتي. وبعد رحيل الطبيب، سلّم السيّد داما الأمر إلى السيد فلاش الذي استدعى إتيين ليعرف منه **ما الذي حدث بالضبط**. أقسم إتيين جهد أيمانه بأنّ لا علم لديه بما حصل، وبأنه سمعني أصرخ كأنّما استفقت من كابوس وبأنّه حاول فعلاً التهدئة من روعي. صرفه فالاش دون أن تبدو عليه أمارات التّصديق. أما أنا، فما عدت أذكر شيئاً. كانت دهشتي عظيمة إذ استيقظت في المستوصف، شبه دائخ. كان لدي الانطباع بأنّ آلة دكّ الحجارة قد مرّت فوقي.

النتيجة: إذا ما أثرنا حواس النائم كلّها دفعة واحدة، من الممكن أن نقتله.

16 سنة　　　　الثلاثاء 10 أكتوبر 1939

شَعرٌ دهنيٌّ. قشرة (تصير ظاهرة إذا ما ارتديت سترة غامقة). دمّلتان حمراوين في الوجه (واحدة على الجبهة والأخرى على الخد الأيمن). ثلاث دمامل سوداء على الأنف. حلمتان منتفختان، خصوصاً الحلمة اليمنى، وتؤلمانني عندما أضغط عليهما؛ تؤلمانني ألماً حاداً، كأنّما أغرز فيهما إبرة. كيف هو الأمر بالنسبة إلى الفتيات؟ في سنة واحدة ازداد وزني عشرة كيلوغرامات وطولي اثني عشر سنتيمتراً. (ربحت مجالاً أوسع في الملاكمة، كان مانيس محقاً) ركبتاي تؤلمانني، حتّى ليلاً. إنّها آلام البلوغ. كانت فيوليت تقول إنّ اليوم الذي تتوقف فيه هذه الأشياء سأبدأ في التقلّص. [أنظرُ إلى] صورتي في مرآة الحمام الكبيرة. لا أعرف نفسي فيها! أو، بالأحرى، يخالجني الانطباع بأنّي كبرت من دوني. ونتيجة هذا الانطباع يصير جسدي مثارَ فضولٍ. أيّ مفاجأة يخبئها الغد؟ لا يدري المرء البتّة من أين سيفاجئه جسده؟

16 سنة، 4 أشهر، 27 يوماً　　　　الجمعة 8 مارس 1940

يؤكّد إتيين أنّ الأخ دولارُوِّي يداعب نفسه بينما يراقبنا أثناء الدراسة. ما نفعله نحن تحت أغطيتنا يفعله هو خلف مكتبه. لم يبدُ لي الأمر عادياً ولا شاذاً؛ وإنّما بدا لي فقط في غير محلّه وإن كان شائعاً. لن يخطر لي قطّ الاستمناء أمام الملأ، لكنّي أستطيع أن

twitter @baghdad_library

أتصوّر أنّ نسبةً من استشعار الخطر قد تزيد من درجة اللّذة. يقول إتيين إنّ الأخ دولارُوّي يخرج شيئاً مّا من حقيبته، ربمّا صورةً، ليست مجلّة بالتأكيد، إنّ ما يخرجه أصغر بكثير من مجلة *Paris-plaisirs*، ثمّ يأخذ في النظر إلى الشيء الذي أخرجه ويداعب نفسه بهدوء. لعلّ الأمر صحيح، لكنّ من الصعب الجزم فيه، لأنّ الأخ دولاروّي يضع دوماً محفظته الضخمة فوق مكتبه، ما يُقيم سوراً بيننا وبينه. إتيين يصرّ: بلّى! أقسم لك! إنّه يفعلها بيده اليمنى، انظُر! هو أيمن إذن؟ يكاد يكون مستحيلاً الاستمناء باليسرى عندما يكون المرء أيمنَ. خُذها من متخصّص.

16 سنة، 5 أشهر **الأحد 10 مارس 1940**

أسقطني رُوَار بالضربة القاضية عند زاوية الحلبة. وبما أنّي بقيت في وضعية الدفاع وبقيت الحبال تسندني، لم ينتبه للأمر، فظلّ يضربني إلى أن انهرتُ تماماً. كانت أوّل ضربة قاضية أتلقاها (أتمنى أن تكون الأخيرة). هي تجربة مثيرة للاهتمام. في البداية، حظيت بالوقت لتأمّل كيف تفادى روار ضربتي: ثنى ركبته فجِذعه ثم عنقه. اِنزلق من تحت يديّ المتَّخذتين وضعية الدفاع ثمّ عاد منتصباً كنابض. كنت لا أزال مختلّ التوازن أتأمل سرعته وأستوعب فكرة أنّي قد قُضِي عليّ، حين ضربتني قبضته أسفل ذقني. سمعت صوتاً مثل «فلوك»، وكأنّما تحوّل دماغي إلى سائل. وبينما كان يواصل ضربي كنت لا أزال أسمع ما يُقال حولي، لكن دون أن أفهمه. لقد **فصلني عن العالم**، هكذا فكّرت. إذ في أثناء نصف-غيبوبتي تلك كنت أفكّر بما يكفي من الوضوح، بل كنت قادراً على الاستدلال،

وفي لحظة زمنية متوقفة، قلت مخاطباً نفسي: إنّها ضربةٌ مضادة جيّدة، عنيفة جداً! لا ريب في أنّ الصدمة في الضربات المضادة تنجم عن جهد جسدينا ووزنيهما. ثم: سيلقّنك هذا الأمر معنى أن تحسب نفسك الأسرع. ثمّ أيضاً: عندما يحسب المرء نفسه الأسرع، ينبغي أن يكون الأسرع. كنت أعلم وأنا أهوي، أنّني يغمى عليّ. لم تدم الغيبوبة نفسها سوى سبع ثوان أو ثمان.

16 سنة، 5 أشهر، يوم واحد الاثنين 11 مارس 1940

الأعراض الجانبية للضّربة القاضية. ضغط من الداخل يستبدّ بعينيّ هذا الصباح. وكأنّما ثمة مَن يريد أن يدفع بهما خارج محجريهما. تجاوزت الأمر في النهار.

16 سنة، 6 أشهر، 6 أيام الثلاثاء 16 أبريل 1940

في مطعم المدرسة، مساء، كانت الوجبةُ بيضاً مسلوقاً وزبل السبانخ. نبّهنا مالمان إلى أنّهم قد جزّوا العشب ذاك الصّباح. وبالفعل قاموا بذلك. يدّعي أنّهم يفعلون كلّ مرّة. حاولت جهدي أن لا أصدّقه -أن لا أصدّق بأنّهم يعلّفوننا عشبهم- بيْد أنّ ملاحظته أثّرت على رؤيتي الذّوقية لدرجة أنّ عصيدة السّبانخ المغليّة تلك صار لها مذاقٌ أخضر تماماً. عنصرٌ نباتي. إذا لم أخطئ التّقدير فإنّ هذا المذاق هو المذاق الذي سألفيه في السّبانخ طيلة حياتي. مذاق مالمانيٌّ.

twitter @baghdad_library

16 سنة، 6 أشهر، 9 أيام الجمعة 19 أبريل 1940

الأخ دولارُوّي يداعب نفسه أثناء الدراسة، ليس في الأمر شك. في جميع الأحوال، كانت لديه في محفظته الأدوات اللازمة: نساء عاريات على بطاقات بريدية. ما عاد يملكها. فبينما كنت أقوده ليرى تسرّب ماء (أنا نفسي من أحدثه)، سرقها منه إتيين. إنّها سرقة لا يمكن بالطبع أن يشتكي المسكين منها، ما يجعله يعاني في صمت مزيجاً من الغضب والخجل والشّك. قرّرت وإتيين أن نجعل النساء يعملن لحسابنا. كانت ثمّة مائة وخمس وعشرون صورة! وبما أنّنا كنا نتوقع أن يخضع المهجع لتفتيش تحت مبرّرٍ مّا، فقد أخفيناها في الكنيسة الصغيرة، حيث لا يمكن لأيّ كان أن يأتي للبحث عنها. كنا نختار من حين إلى آخر واحدة، ونجعل منها موضوعَ حبّنا الوحيد. كلّ واحد يأخذ صورته. نحب الصّورة إلى أن يحين موعد الأخرى.

هل تفعل الفتيات الأمر نفسه مع صور الرجال؟ هل تثيرهم صور المسيح والقديس سباستيان حين يتمّ تصويرهم عراةً يعذّبون؟

16 سنة، 6 أشهر، 15 يوماً الخميس 25 أبريل 1940

في مسألة النهود (نهود النساء): لا أعتقد أنّ ثمّة موضوع إعجاب أكثر إمتاعاً ولا أشدّ إثارة وتعقيداً من نهود المرأة. كانت أمّي تردّد دوماً: لقد سببتَ لي دمّلة في ثديي. تتحدث عن الزمن الذي كانت تُطعمني فيه بنفسها. كانت فترة قصيرة جداً من حياتي، لكنّها ظلّت تتحدّث عنها سنوات، كأنّما لا تزال تعاني آثارها. في بداية الأمر تساءلت -وكنت لا أزالُ حقاً صغير السنّ- عمّا بوُسعها أن

تكون هذه الدّملة؟ وإذ أفادني المعجم (الدّملة هي تكتل صديدي في أحد الأنسجة أو الأعضاء)، حاولتُ أن أتمثّل دمّلة في الثدي. وإذ لم أستطع ذلك -إذ كان يشقّ عليّ تخيّل حلمة متقيّحة- إلا أنّني أحسستُ بكدرٍ صادق. لم أكن حزيناً لأجل ثدي أمّي وإنّما لنهود النساء جميعاً. هذا الجزء البالغ التأثير من أجسادهن من المؤكد أنّه شديد الهشاشة حتّى يستطيع فمُ الطفل الأدرد أن يحوّل حلمته إلى دمّلة متقيّحة! ورغم ذلك حين أرتني ماريان صدرها وسمحت لي بلمس نهديها، لم يبدوَا لي هشّين، لا بل على العكس من ذلك كانا صغيرين وصلبين؛ وكانت لُعْوَتاها[1] واسعتين وورديتين بشكلٍ شاحب، ممّا يمنحهما مظهر قبّعة أسقف. والحلمة تلمع كحبة لؤلؤ. والحق يُقال، لم تكن ماريان تتعدّى حينئذٍ عامها الرابع عشر، فلا بد إذن أنّ نهديها كانا في طور التشكّل. وإذا ما استندت إلى صور حريمنا المقدّس، فإنّ شكل النّهود يتبّدل كثيراً مع تقدّم العمر. إنّها تكبر وتصير أكثر ليونة. وبشكل تناسبي يبدو أنّ حجم اللُعوة يتقلّص، والحلمة تزداد انتصاباً وتبدو أقلّ لمعاناً وأكثر سمنة. أعارني إتيين بوصلته الخاصة بجمع الفراشات، حتى أتمكن من الرؤية أقرب. تصير النهود أيضاً مرنة وتتخذّ جميع الأشكال، لكنّ جلدها يظلّ دائماً رقيقاً، خاصةً جلد الجزء الأعلى، ذاك الذي يشدّها إلى القفص الصّدريّ. مدهش أنّ جزءاً بهذه الرّوعة من جسد المرأة يمكن أن يكون وظيفيّاً. أن يكون بمقدور الرّضع أن يمتصّوا الحليب من هذا العضو ويُسيلوا ريقهم حوله، فذاك أمر يرتفع إلى جرم التّدنيس!

(1) اللُعوة: المنطقة المحيطة بالحلمة. (م)

twitter @baghdad_library

باختصار، أعشق نهود النّساء. أقلّه، أحبّ نهود صديقاتنا المائة وخمس وعشرون، أي نهود كلّ نساء العالم، بمختلف أحجامها وأشكالها وأوزانها وكثافتها ولون بشرتها. يخيّل إليّ أنّ راحتَي يديّ خُلقتا لاحتضان نهود النّساء، وأنّ بشرتهما ناعمةٌ لتناسب نعومة بشرتها. لن ينصرم وقت طويل قبل أن أجرّبهما حقّ التّجربة!

16 سنة، 6 أشهر، 17 يوماً السبت 27 أبريل 1940

مونتيني، الكتاب الثالث، الفصل الخامس:

«ما الذيّ يسبّبه الفعل الجنسي، وهو الطبيعيّ جداً والضروريّ جداً والصائب جداً، ما الذي يسبّبه لهم حتّى لا يعود بمقدورهم الحديث عنه دون إحساسٍ بالخجل، ويقصّونه من أحاديثهم الجادة؟ إنّنا ننطق بسهولة: القتل والسّلب والخيانة، لكنّنا بالكاد نستطيع التّفوّه بأمور الجنس؟ هل يعني أنّنا كلّما أقللنا الزّفير في الحديث، كلّما أغنينا به الفكر؟».

16 سنة، 6 أشهر، 18 يوماً الأحد 28 أبريل 1940

عندما أستمني، فإنّ الرائع في الأمر هو تلك اللحظة التي يمكن أن أسمّيها، عبور البهلوان: تلك الثانية التي أكون فيها على وشك القذف، لكنّي لم أقذف بعد. المنيّ هنا، مستعدٌّ للانطلاق، بيد أنّي أمنعه بكلّ قواي. خاتم حشفتي شديد الاحمرار، وحشفتي نفسها منتفخة بشدّة، على استعداد للانفجار، لدرجة أنّي أُفلت قضيبي. أحبس المنيّ بكلّ قواي وأنا أتأملّ قضيبي يرتعد. أشدّ قبضتيَّ وأغلق جفنيَّ أضغط فكيَّ حتّى يبدأ جسدي نفسه في الارتعاد قدر ارتعاد

قضيبي. تلك هي اللّحظة التي أسميها عبور البهلوان. تنقلب عيناي خلفَ جفنايَ، أتنفّس أنفاساً قصيرة متقطّعة، وأطرد كلّ الصور المثيرة -النهود، والأرداف، والأفخاذ، والبشرة الناعمة، [كل تلك الأعضاء] الخاصة بصديقاتنا- فيتوقّف المني داخل تلك القناة المليئة بالصهارة، هناك، عند فوهة البركان. بوسعنا حقاً أن نتخيّل بركاناً متأهباً للقذف. لا ينبغي السماح لهذه الصهارة بالرجوع. ما إن يفاجئنا شيء مّا، كأن يفتح السّيد داما باب المهجع، حتّى تعود الصهارة للنزول، لكن لا ينبغي ذلك. أكاد أجزم بأنّ جعل المنيّ ينقلب على عقبيه أمرٌ مضرٌّ جداً لصحتنا. ما إن أشعر به قد شرع في الرجوع حتى أُلُفّ حلقته بإبهامي وسبابتي، وأتلذّذ باستبقائه عند الحافة، بينما هو يغلي كلّ الغليان (به صهارة، أو لنقل عصارة نباتية لفرط ما يشبه في تلك اللّحظات غصناً مستقيماً معقوداً) ينبغي أن يحذر المرء وأن يكون دقيقاً، إنّها مسألة مليمترات، ولعلّها أقلّ. القضيبُ كلّه منتفخ تماماً، لدرجة أنّ الحشفة قد تنفجر بمجرّد أن ينفخ عليها أحدهم أو أن تحتكّ بالغطاء. بوسعي أن أمنع الانفجار مرّة أخرى، وثانية وثالثة، وكلّ مرّة تكون متعة حقيقيّة، لكنّ المتعة المطلقة، هي تلك اللّحظة التي أضيع فيها حقاً، فيغرق المنيّ كلّ شيء، ويسيل حاراً على ظاهر يدي. آه! يا للهزيمة الرّائعة! وهذه اللّحظة أيضاً متعذّرة الوصف، كلّ ذاك الدّاخل الذي سيصير بالخارج، وفي الوقت نفسه تلك اللّذة التي تغمرك... ذاك التّسرّب الذي هو إغراقٌ! إنّه سقوط البهلوان في الصهارة المشتعلة! آه! يا للوهج الذي يومض في تلك الظلمات! يقول إتيين إنّ فيما أقول نوعاً من «التّقديس».

twitter @baghdad_library

16 سنة، 6 أشهر، 20 يوماً **الثلاثاء 30 أبريل 1940**

إنّ ما يجعلنا نلوم تقديس ذاك الإحساس، هو بشاعة الكلمات التي نستعملها للتعبير عنه: «تداعى» يعطي المرء صورة مريض أعصاب، و«لامسَ» تعطي صورة البليد، و«داعب» صورة كلب السيّدة، واستمنى فيها معنى مقرف (ثمّة شيء لزج في هذه الكلمة، حتّى في أصلها اللاتيني)، أمّا «لمسَ» فلا تعني شيئاً: يقول لك القسّ: «هل لمستَ نفسك!»، بالطبع، أنّى لي أن أعتني بنفسي دون ذلك؟ لقد ناقشنا الأمر كثيراً، أنا وإتيين وباقي الأصحاب. وأحسب أنّي وجدت التعبير الصائب: أن أتوّلى نفسي [أن آخذ بيدي]. من الآن فصاعداً، كلّما طلب منّي أحد الكبار أن أتولّى مسؤوليتي، سأعِدُه بذلك دون أن أخشى الكذب.

16 سنة، 6 أشهر، 24 يوماً **السبت 4 مايو 1940**

لعبة مسار! فكرة مدهشة! ذاك هو القرار الذي اتخذناه بخصوص صديقاتنا المائة وخمس وعشرون. أن نختار أجملهن لتزيين لعبة مسار إيروتيكية. تحديداً، لعبة مسار الافتضاض. هكذا سيسمّون اللعبة. بعد مسار مشكّل من ثلاثة وستين مربعاً، مَن يربح يكون له الحقّ في الافتضاض. **لقد ربحتَ. هيّا انزلق فوقها**. إنّها لعبة غير مجانية. والنقود المستحصلة نضعها في صرّة مشتركة. أنشأنا نادياً يضمّ ثمانية لاعبين حتى تمتلئ الصرة بسرعة كافية. سينتمي إلى النادي كلّ من مالمان وزافران ورُوار، ذاك أنّ الفكرة تثير حماسهم. سنلعب النهائي بعد اختبارت البكالوريا الشفوية،

مباشرة قبل بداية العطلة الكبيرة. سيحصل الفائز على نقود الصرّة كلّها، شرط أن يستعملها في غرضٍ واحد: افتضاض البكارة. هكذا إذن. وستكون الصورة المهيمنة هي صورة الموناليزا، بابتسامتها الملغّزة، المفتوحة على جميع التأويلات.

لعبة مسار الافتضاض

قواعد اللّعب

يتم اللعب بحَجَرَيْ نرد.

لكي تبدأ اللعب ينبغي أن تكون محفظة نقودك ممتلئة، وأن ترميَ رمية رقمها مزدوج.

إذا ما وصلت إلى المربع رقم:

2- انتظر أن تكبر. اجتز ثلاثة أدوار.

4- عندما فحصت أمّك ملابسك، تفاجأت بوجود بقع، واصطحبتك إلى الطبيب الذي وضع لك جهازاً ضدّ القذف ليلاً. تقدّم أربعة مربّعات، واجتز ثلاثة أدوار.

6- ضبطك السيّد داما وأنت غارقاً في الانتشاء بنفسك. أجبرك على الاستحمام بالماء البارد. تقدّم خمسة مربّعات، واجتز دَورين.

8- ارتكبتَ خطيئة التّفكير الفاحش. تقدّم لتعترف سبعة مربّعات، واجتز دوراً.

10- خدعتك مناماتك؟ تقدّم تسعة مربعات لتغسل ملابسك خفية.

12- إذ عثر صدفة على ملابسك المتّسخة، هنّأك عمّك جورج: لقد صرتَ رجلاً. اِرم النّرد رميتين وتقدّم عدداً من المربعات يوافق مجموع الرّميتين.

twitter @baghdad_library

إذا ما وصلت في ما بعد إلى المربّع:

15- (هنا تجد بانتظارك صورة ابتسامة مونا ليزا الملغّزة) إنّها تبتسم لك! اِلعب مرّة أخرى.

19- كي تعجب الفتيات ينبغي أن تكون قويّاً. قوّي عضلاتك في صالة الرّياضة. اِدفع ثلاثة واجتز دورين.

21- (مونا ليزا) تضحك لك، لكنّ ضحكتها متهكّمة. هيّا أعد ترتيب أفكارك السّوداء. إلى المربّع 17.

23- كي تعجب الفتيات ينبغي أن تكون سبّاحاً ماهراً. تعلّم السّباحة. اِدفع أربعة واجتز دوراً.

27- (مونا ليزا)، تحاول أن تقبّلها، فتصفعك. اِذهب لتجترّ حسرتك. إلى المربّع 13.

29- كي تعجب الفتيات ينبغي أن تحسن الرّقص. خذ دروساً. اِدفع خمسةً واجتز دوراً.

33- (مونا ليزا)، تجدك قذراً. هيّا تغتسل، إلى المربّع 11.

39- (مونا ليزا)، تجد حلاقتك فظيعةً. هيّا عند الحلاق، إلى المربّع 31 وادفع قطعةً.

41- الحبّ أعمى. اجتز دوراً في انتظار أن تستعيد بصرك.

43- لسانك مشحون ورائحة فمك كريهة. طهّر نفسك واجتز دوراً.

45- (مونا ليزا)، تجد لباسك سيئاً. صمّم بذلة. إلى المربّع 37 وادفع عشرةً.

47- أصبت بحبّ الشّباب. عالج نفسك واجتز دوراً.

51- (مونا ليزا)، تجدك جاهلاً تماماً. ثقّف نفسك. إلى المربّع 1.

53- تضيع وقتاً ثميناً في محاولة جعل نفسك وسيماً. اجتز دوراً.

57- (مونا ليزا)، لا تخبر أحداً عمّا فعلته بك. إنّها مبتهجة وأنت كذلك. اِلعب مرّة أخرى.

59- الحبّ يهب أجنحةً... اِلعب مرّة أخرى.

61- ضبطك السيّد داما تلعب هذه اللّعبة. ليعُد الجميع إلى مربّع الانطلاق.

63- لقد فُزتَ. اِصعد فوقها. إضافة إلى ذلك، نقود الصّرة كلّها صارت لك.

كي تفوز ينبغي أن تبلغ المربّع رقم 63 بالضّبط. إذا ما أعلن النّرد رقماً يتجاوز الخانات الموصلة لـ 63، فتعود أدراجك إلى الوراء بعدد الخانات نفسها التي أعلنها النّرد.

16 سنة، 7 أشهر، يومان الأحد 12 مايو 1940

أحياناً بالمهجع، حين يوقظني القلق في منتصف اللّيل (غالباً بسبب التفكير في أبي أو فيوليت)، فإنّي أستعيد هدوئي شيئاً فشيئاً، بأن أترك نفسي تستسلم للإحساس بأنّي وجميع هؤلاء النائمين لا نشكّل سوى جسد واحد. جسد ضخم ينام على إيقاع الأنفاس نفسها، جسد يحلم ويئنّ ويعرق ويحكّ نفسه ويهتز ويزفر ويكحّ ويضرط ويشخر ويلوّث الجو ويرى الكوابيس ويستيقظ مذعوراً ويعود للنوم سريعاً. ليس إحساساً بالرفقة ذاك الذي يحركني في تلك اللحظات، وإنّما الانطباع بأنّ مهجعنا (نحن اثنان وستون نزيلاً)، من وجهة نظر عضوية، لا يشكّل سوى جسد واحد. [لكن] إن مات أحدنا، فيستمر الجسد الكبير المشترك حيّاً.

*

إشارة إلى ليزون

بين قوسين يا ليزون، كتبت ذلك بعد يومين من هجوم الألمان

twitter @baghdad_library

الذي كان بتاريخ 10 مايو. الحرب العالمية الثانية. أعدّ النّوع البشريّ المأدبة. وفي تلك اللّيلة أقسمت بذكرى أبي أنّني لن أشارك في الحفل. وكما سترين، أرادت الظروف غير ذلك.

*

16 سنة، 8 أشهر، 13 يوم الأحد 33 يونيو 1940

نصادف أناساً ظهورهم محنية ونظراتهم جوفاء وحركاتهم بطيئة. بعضهم شارد تماماً. بالمعنى الحرفي للكلمة. لاجئون متداعو الأجساد، رثّو الهيئة، ذقونهم غير حليقة، تائهون في شوارع مدينة لا يعرفونها. لا أستطيع استيعاب أنّهم، الشهرَ الماضي فقط، كانوا ينعمون بحياة عادية. أجساد على المنعطف...

اليوم الموالي

أجلنا نهائي لعبة مسار الافتضاض إلى أجلٍ غير مسمّى، لأنّ روار قد فقد أخاه في دونكرك. كان يحبه كثيراً. افتضاضاتنا ستنتظر ظروفاً أفضل.

16 سنة، 9 أشهر، 14 يوم الأربعاء 14 يونيو 1940

ميراك. خدشت صدري وباطن قدميّ والجزء الدّاخليّ من ذراعيّ وفخذيّ لصق جذع زان. سُلخت حياً في المحصّلة. حرفياً قُشّرت. كان تيجو هو السّبب. كان قد عقد العزم على أن يسرق صغير غرابٍ، لكنّ والدَيّ الطائر الصغير لم يوافقا على مشروع التبنّي ذاك. وبما أنّ تيجو كان يرفض التّخلي عن فريسته، فقد شرعا يهاجمانه حقاً. كان

يمسك الطائر الصّغير بيده لصق صدره، ويحاول طرد الأبوين باليد الأخرى. وكلّ ذاك جرى وهو يمتطي غصناً على ارتفاع ستّة أمتار! أسفل الشّجرة كانت مارتا تصيح به أن يترك الطائر، بينما ذهب مانيس يبحث عن بندقيّته ليقتل الغرابين. في المحصّلة، كان الجميع يدافع عن ذريّته. لم نكن نشكّ في أنّ مانيس سيطلق الرّصاص، صعدت خطوة خطوة، حتّى بلغت تيجو. صعدت الأمتار الثلاثة الأولى مثل قرد أو عامل كهرباء، معانقاً الجذع العاري بيديّ وساقيّ. وبما أنّي كنت عائداً من صيد جراد البحر، فقد كنت حافي القدمين، ومرتدياً لباس السّباحة. لم أجد صعوبة في الصّعود. تملّكني الانطباع بأنّي كنت أعانق جسداً حيّاً. أثناء نزولي، وإذ جرّني ثقل جسد تيجو إلى أسفل، التصقت بالجذع، لكن بما أنّ تيجو كان يخنقني بذراعه اليسرى (لم يكن يرغب في ترك رفيقه الجديد) فقد أرخيتُ ذراعي قليلاً كي أسرّع هبوطي. وتلك المرحلة من العمليّة، كانت هي اللّحظة التي سلخني فيها جذع الشّجرة. خاصة عندما أردتُ أن أبطّئ الحركة لأنّنا ننزل إلى أسفل بسرعة أكبر ممّا يجب. عندما لمسنا الأرض كنت أختنق، والغراب الصّغير كان قد مات، بالطّبع، مختنقاً بعطف تيجو. ومارتا تصيح: لم يترك مصيبة لم يجرّبها هذا! سبع سنوات فقط، وجرّب المصائب كلّها! بالطّبع أعطوني القليل من شراب مانيس لتنظيف الجرح. دون تخدير سمعيّ هذه المرّة. مارتا ليست فيوليت. وبينما كنت أغرز أظافري في راحتيّ، كان مانيس يتوعّد آخر العنقود الذي كان منهمكاً بدفن ضحيّته، لكنّه تخلّى عن وعيده، وبنبرة فخرٍ قال: في جميع الأحوال، هذا المزعج لا يخاف من شيء! النّتيجة: صرت أنام عارياً، دون أغطية أو ملاءات، مباعداً

twitter @baghdad_library

بين ساقيّ، شاعراً بأنّي أحرق حيّاً داخل نسيجي العصبيّ. من الآن فصاعداً سيكون هذا تمثّلي للجحيم: احتراق دون لهيب، احتراق دائم، بعينين مشرعتين على اللّيل الذي لا ينتهي. عذاب مارسياس.

16 سنة، 9 أشهر، 23 يوماً الأربعاء 2 أغسطس 1940

هذا الفرح، فرح أن يتسلّق المرء الأشجار! خاصة إذا ما تعلّق الأمر بأشجار البلوط أو الزان. ينخرط الجسد بأكمله في العمليّة. يداك وساقاك تتجاوزان الشّرط البشريّ. يا لسرعة الحركة! يا لسدادها! لا يتعلّق الأمر بالارتفاع، لسنا نتسلّق الجبال (أحسب أنّني سأصاب بالدّوار لو تسلّقت جبلاً). وإنّما يتعلّق الأمر بالعبور الحرّ بين أوراق الشّجرة! أين نحن؟ لسنا في الأرض ولا في السّماء، نحن في قلب الانفجار. أرغب في العيش على الأشجار.

16 سنة، 11 شهراً، 6 أيام الاثنين 16 سبتمبر 1940

عندما يثقل رأسي بسبب طول الانحناء على الكتب، أذهب لألاكِم الكيسَ. لقد غيّر مانيس رسمه الكاريكاتوري، ووضع مكانه رسماً كاريكاتورياً لِلافال. هيّا! اِمحه! (فروة الرأس كثيفة، الجفنان متهدّلان، السحنة متجهّمة، والسيجارة عند طرف الفم. يكاد يكون هو!). ولأنّ القنب يجرح رسغيّ فإنّي أعصب يديّ بزوج جوارب.

16 سنة، 11 شهراً، 10 أيام الجمعة 20 سبتمبر 1940

مِراك. لعبة مضرب في الإسطبل. رسمت خطاً بِعلُوِ شبكة كرة المضرب على السور الموجود أقصى الإسطبل. وبما أنّ الأرضية

وكلس الجدار غير مستويَين، فإنّ ارتداد الكرة لا يمكن توقّعه؛ وليس ثمّة ما هو أفضل من ذلك لتقوية القدرة على الاستجابة. وإذا ما أضفتُ إلى ذلك قفزي على القمح مع تيجو والآخرين، والرّكض خلف العنزات الحرونة، وأشغال المزرعة منع روبير الذي لا يتعب مطلقاً، فإنّ إقامتي هنا تماثل تدريبات كوموندو.

17 سنة، شهر واحد، 14 يوماً الأحد 24 نوفمبر 1940

أصاب مانيس ساقه بمنجل نسيه أحدهم تحت التبن. قواعد الصحّة بحسب مانيس ومارتا: خمر لتطهير الجرح، كالعادة، لكن لتعصيبها جلب مانيس من الإسطبل نسيج عنكبوت أسود تماماً بسبب الروث. «إنّه يتدفّق» قال بطريقته الموجزة المعتادة. طبعاً من العبث الحديث له عن مرض الكُزّاز. لطالما عالجوا أنفسهم بهذه الطريقة، ولا أحد مات. وأحسب أنّ لنسيج العنكبوت فائدة طبية تتجلّى في رتق الجراح، بل ومحو آثارها، لكن أيّ فائدة قد يحوزها الروث؟ كلّ ما في الأمر أنّ هذه الضمادات لم تقتل بعدُ أيّ فرد من العائلة.

17 سنة، شهران، 17 يوماً الجمعة 27 ديسمبر 1940

بينما كان ماراً بمِراك، سألني العم جورج عمّا إذا كنت أرغب في أن أصبح طبيباً. (إنّها السبيل التي اختار ابن عمك إتيين أن يسلكها). أمّا أنا فلا. اضطرابات الجسد! شكراً! يبدو لي أنّها كانت بداية طريقي! أمّا فيما يخصّ علاج الناس... فينبغي أولاً إنفاق الكثير من الوقت لعلاجهم من الخرافات التي يحملونها عن جسد لا ينظرون إليه إلا من الزاوية الأخلاقية. ليس لديّ الوقت

twitter @baghdad_library

لأشرح للعمّة نُوِيمي أنّ الأمر لا يتعلّق بمعرفة ما إذا كانت تستحق داء «انتفاخ الرئة» الذي أصابها، أم لا تستحقه. سألني عمّي الطيّب: «وما الذي يهمّك إذن في هذه الحياة؟» يهمني ملاحظة جسدي، لأنّه غريب بالنسبة لي بشكل حميمي (هذا ما لم أقله له بالطبع). مهما تعمّقت في دراسة الطّب، لن أتخلص من إحساس الغرابة ذاك. عليّ أن أحتَشّ في المحصّلة، مثلما كان يفعل روسو أثناء جولاته. عليّ أن أحتَشّ حتى آخر يوم في حياتي، وأن أفعل ذلك لنفسي فقط إذا ما كنت أرغب في أن ينفع هذا الأمر أحداً في يوم مّا. أمّا فيما يخصّ مسألة المهنة، فذاك أمرٌ آخر. وفي جميع الأحوال لن تجد المهنة مكاناً لها في هذه المذكرات.

17 سنة، 5 أشهر، 8 أيام الثلاثاء 18 مارس 1941

تشاجرنا كثيراً أنا وإتيين أمس حول فولتير وروسو. اِتخذّ هو دور المتهكم، في حين تقمصت أنا دور المدافع عن جان جاك. ما سيظل عالقاً بذهني عن هذه المشاحنة، ليس قطعاً الحجج التي أدلى بها كلّ واحد منا (لكي أكون صريحاً، لا أحد منّا يملك وسائل المحاجّة)، ما سأذكره بالمقابل، هو الحركة التي قام بها إتيين، الذي تناول مسطرة سبورة كبيرة وحشر أحد طرفيها في بطني والطرف الآخر في بطنه. في كلّ مرة كان أحدنا يتقدّم في اتجاه الآخر مدفوعاً بقوّة إقناعه، كانت المسطرة تنغرز في عضلات بطنينا. الأمر مؤلم! وإذا ما تراجعنا فإنّ المسطرة تسقط، وينتهي النقاش. هو ذا ما يمكن أن أسميه الإدلاء بكلام محسوب. ينبغي أن نسجّل براءة اختراع هذا النموذج.

17 سنة، 5 أشهر، 11 يوماً　　　الجمعة 21 مارس 1941

فيض الرغبة ذاك الذي يجتاحني أحياناً في أشدّ اللّحظات التي يكون مستبعداً فيها. في الحرارة المنبعثة من بعض القراءات على سبيل المثال. انتفاخ الأوعية الدّموية بسبب تهيّج الأعصاب! أقرأ فينتصب عضوي. ولا أتحدّث هنا عن أبولينير أو بيير لويس اللذين يغدقان علينا الهدايا بطيبة في هذه المسألة، وإنّما أتحدّث عن روسو، على سبيل المثال، الذي كان ليدهش لو علم أنّ عضو أحدهم ينتصب لقراءة عقده الاجتماعي! وَ. . . هُوبّا، هي ذي رعشة جنسية لا تُلزم سوى الذهن.

18 سنة، 9 أشهر، 5 أيام　　　الأربعاء 15 يوليو 1942

لم أكتب شيئاً أثناء الفترة التي شملت إعدادي لامتحان البكالوريا ولهذه السّنة، سنة الأقسام التحضيرية الأدبية[1]. إنهاكُ الجسد: الملاكمةُ، ضربُ الكرة ثمّ السباحة لإراحة الجسد. بعض اللّكمات لمانيس في الحقول. ثلاث بقرات تضع مواليدها، وست نعجات كذلك. ما زلت غير قادر على قتل الخنزير، لكنّي أستطيع أكله. المسكين المتراخي، كان يأتيني بينما أعملُ باحثاً عن لمسات حنونة. تلك الثقة البليدة التي تضعها الحيوانات في الجنس البشري. . .

---

(1) يقصد L'Hypokhâgne وهي السنة الأولى من سلك الأقسام التحضيرية تخصص آداب، وتكون بعد البكالوريا، بحسب النظام التعليمي الفرنسيّ. (م)

twitter @baghdad_library

كرة مضرب: جلدتُ الإخوة الثلاثة آل ج. لم يفُز ولا واحد منهم بأكثر من لعبتين من الأشواط الستة المشكّلة للجولات الثلاث. لقد بدأت المباراة بمحاولة إهانة، إذ عطفاً على سؤالي حول الحرف الذي يشير إلى عائلتهم، أشار أكبرهم سناً إلى أنّه لا ينبغي لي أن أضيف آل حين أتحدّث عن عائلة أرستقراطية مستعملاً أداة تعريف، فلا ينبغي أن أقول الـ آل ج (Les «de» G)، وإنّما الـ ج («Les «G»)، فحسب. ذاك أنّ التربية الحسنة تفرض تورية حرف الإشارة. في النهاية، الجميع يعرف هذا الأمر! حسناً. ثمّة أمر ثانٍ: ما كنت أملك سروالاً قصيراً ولا حذاء رياضياً، وما كان «لائقاً» أن ألعب في «زيّي المضحك»، (همسوا بينهم)، ضدّ خصوم في كامل أناقتهم. أعاروني طقماً مشكلاً من قطع جمعوها من هنا وهناك: سروال قصير، قميص قصير الكُمين، جوارب، حذاء ناصع البياض. ضيّقت السروال القصير (هل تعمّدوا إعطائي سروالاً قصيراً واسعاً؟) بواسطة مشبك غسيل وجدته في «بيت الخدم»، ثمّ جلدتهم ثلاث مرات غير قابلة للنقاش. كان الأمر أشبه بإعدام سلالة الدوق مونتمورنسي من طرف أدنى أسافل الشعب! وقد كلّفني ذلك الانجذابَ الممكن لأختهم والتي كانت تعجبني. ليكن ما كان، [المهم] أنّي انتقمت لفيوليت، التي كانت قد اشتغلت في شبابها لدى العائلة (وهذا الأمر يجهله الإخوة الثلاثة)، وطُردت من عملها بعدما انتهكت عذرية أحد أبناء العمومة الجرمان، والذي كان سنّه آنذاك اثنتان وثلاثون سنة! (لم يكن الأمر مختلقاً).

كان إحساساً مثيراً ذاك المتمثل في أن لا يكون لديّ سوى جسدي أواجه به تكبّرهم. وليس حتّى جسداً مدرَّباً، إذ لم يعلّمني أحد كيف ألعب التنس. كان مخزن حبوب مانيس وملاحظة بعض اللاعبين، أساتذتي الوحيدين. أن تضرب كرة المضرب دون أن تكون قد أخذت دروساً معناهُ أن تحسّ جسدك يتأقلم مع الوضعيات الطارئة دون الاستناد إلى **الحركات الملائمة**. كنت أتحرّك أكثر من اللازم، وأغلب حركاتي خاطئة، وفظيعة من الناحية الجمالية، إضافة إلى كونها تهدر الطاقة (عدم انتظام ضربات القلب، قفزة الشّبوط، جسد مفكّك، أطراف مبعثرة، بهلوانيات مضحكة) لكنّ كون هذه الحركات لا تمت بصلة إلى «فن اللّعب» يفعمني إحساساً بالتحرّر الجسدي، وبالتجدّد الدائم: إذ لا أعيد قطّ الحركة نفسها! أستمتع بكلّ مفاجأة تحضّرها العين لساقيّ ومضربي. ولا حركة من حركاتي معدّة سلفاً، ولا حركة تشبه سابقتها، ولا واحدة تشبه الحركات الأكاديمية لخصومي الموهوبين. لهذا كنت أفلت من توقعاتهم، وكانت كُراتي تشوّش تركيزهم، لم يستطيعوا قط توقع مسار ضرباتي. كانوا يحتجون بأنوف مرفوعة إلى السّماء، احتجاجاً ساخطاً ومتكبراً في آن. اِحتجّوا على بعض الكرات خاصة، كانت بطيئة بشكلٍ لا يُطاق، وكأنّما لم أكن أضرب وفق قواعد الحرب. أدهشتني سرعتي وشدّة مرونتي ومهارتي وردود أفعالي (آه، ذاك اليقين، يقين الضربة في تلك اللّحظة المكروسكوبية التي أضرب فيها الكرة!) وعلاوة على ذلك كلّه، لم يكن التعب ينال منّي، أستطيع ردّ جميع الكرات. يُفتِنُني هذا الاستخدام الحرّ لجسدي. حركاتي البهلوانية تفلّ عزيمة خصومي، وإذ أرى هدوءهم يتقوّض أبتهجُ. ليس انتصاري ما

twitter @baghdad_library

يفرحني، وإنّما وجوههم المهزومة. هكذا نحن سكان فالمي (Valmy) نفتقر إلى اللّباقة. (ولست أرتدي بعدُ تباناً). شعاري: أن أخوض كلّ ميادين حياتي، مثلما ألعب كرة المضرب!

19 سنة، 15 شهراً الأحد 25 أكتوبر 1942

يجري هذا المشهد في حانة. أنت تُجالس فتاة، طالبة مثلك. تنظران إلى بعضكما بعيون العاشقين. وفجأة تلقي الفتاة بالحجر في الماء: أرِني كفّك. ثمّ تفرض سلطتها وتأخذ يدك وتبدأ في تأمل راحة كفّك بعناية كبيرة، وكأنّما كلّ ما تريد أن تعرفه عنك مرتبطٌ بخطوط حياتك، وقلبك، وتفكيرك، وحظّك، وماذا آخر..؟ كثيرات هنّ اللّواتي درسن خطوط كفي حتّى يومنا هذا. ولا واحدة منهن سارت توقعاتها مسارَ توقعات غيرها. كلهنّ كنّا عرّافات، لكنّهن ما كنّ يرَين الشيء نفسه. أكان هذا التعلّق بالتنجيم علامة على تلك الأعوام البغيضة؟ أكان كلّ شيء ضائعاً ما عدا النجوم؟ معيار الانتقاء النهائي: سأختار الفتاة التي ستلقي بنفسها بين يديّ بعينين مغمضتين.

19 سنة، شهر واحدٌ، يومان الخميس 12 نوفمبر 1942

رؤية الألمان يزحفون بخطىً موحّدة. الصّيغة المقيتة للجسد الواحد.

19 سنة، شهر واحد، 17 يوماً الأربعاء 15 ديسمبر 1942

عجزي عن الرقص. جميعهن حاولن تعليمي الرقص: فرانسواز وماريان وأخريات عديدات، وأمس مساء أيضاً عند هِرفي حاولت

معي أخته الحسناءُ فيولين. أُترك نفسك تنقاد. عبثاً. أفقد الإيقاع سريعاً ويصير جسدي مجرد كتلة بين يدي مرافقتي. تندّ عنّي قفزات فظيعة أرمي بها إلى استعادة الإيقاع، فينتهي بي المطاف إلى أن أفقد الحماس. الرقص هو أحد الميادين القليلة جداً حيث لا تتناغم روحي وجسدي. ولأكون أكثر دقة: أتحدّث عن الجزء الأسفل من جسدي، فذراعاي تستطيعان أن تستمرا قدر ما أشاء، بيْد أنّ قدماي ترفضان الاستمرار. قائد أوركسترا مصاب بالشلل النّصفي، هو ذا ما أنا عليه. أمّا رأسي، فما إن تبدأ الأمور تتعقّد حتى يصيبها الدوار. في حين أنّ الرقص دوّار بطبعه، فنٌّ دوران. لا يمكن للمرء أن يرقص دون أن يلفّ حول نفسه! دوّار وحالة غثيان وشحوب، ما الذي أصابك؟ هل تشعر أنك لست على ما يرام؟ أنا على أفضل ما يرام عزيزتي فيولين، فقط تعالي، لنتحدّث قليلاً، وها أنا ذا أحاول أن أشرح الأمر لفيولين التي تصرّح: لا تقل هذا، **الجميع** يعرفون الرقص! الجميع إلا أنا، على ما يبدو. هذا لأنّك لا ترغب في ذلك! هكذا إذن! ولمَ أحرم نفسي يا جميلتي من هذا المكسب وأنا أرى الفوائد التي يجنيها منه رفاقي؟ لا تترك نفسك تنقاد، حركاتك تخضع لدماغك أكثر ممّا ينبغي، لستَ **متوحشاً** بما يكفي. لستُ متوحشاً بما يكفي؟ أحضروا لي سريراً، أريد فراشاً حالاً يا إلهي! بيّنت لفيولين أنّ هذه الظاهرة مستعصية على الفهم بالنسبة لي قياساً إلى أنّي في ظروف أخرى، تستلزم عمل الذراعين والساقين، مثل الملاكمة والتنس، أستطيع تحريك قدمي وذراعيّ بشكل منسجم؛ كمّا أنّ رفاق اللعب إبّان مراهقتي كانوا يتنافسون فيما بينهم حول من يحظى بي في فريقه حين نلعب لعبة كرة السجين. وألفيت نفسي

twitter @baghdad_library

أحكي لهذه الفتاة الفاتنة كيف أنّي منذ سن الخامسة عشر كنت قد صرت أحد أباطرة لعبة تفادي الكرة، وَصَهْ! قلت مخاطباً نفسي وأنا لا أزال مسترسلاً في تعداد مزايا لعبة كرة السجين، لعبة تبلغ حدّ الكمال، تفرض التوفر على مزايا جسدية خاصة وعلى تساوق مثالي بين الرأس والذراعين والساقين، والتي ستصير، لا يأخذك في ذلك شك عزيزتي فيولين، ذات يوم لعبة جماعية تبدو أمامها كرة القدم مجرد لهو بطاريق. لكن ما الذي تفعله، ما الذي تفعله أيها المتخاذل الغبي؟ لم يكفِكَ أنك تحوّلت إلى كيس إسمنت بين ذراعي هذه الرّوعة التي تريد مدّها تحت جسدك، وها أنت تُغرقها في حديثك عن لعبة كرة السجين «لعبة، لا يمكن وصف كم هي استراتيجية وتكتيكية عزيزتي فيولين»، صه أيها الأبله، تلك اللّعبة كانت مجرّد لعبة مجزرة، حيث زمرةُ سفاحين بوجوه تملؤها البثور يقضون وقتهم في إثارة بعضهم البعض وفي قذف وجوه بعضهم البعض بالكرة، وهناك كان بإمكان الجميلة فيولين أن ترى المتوحّش الذي تتحدّث عنه، وحتّى إن كنت ممتازاً في لعبة كرة السّجين، فليست فيولين من النّوع الذي قد يثيره ذلك، وها هي ذي تأخذ مسافة، وتدّعي أنّها تحسّ بالعطش، وأنّها ستذهب كي تجلب شراباً.

19 سنة، شهران، 19 يوماً الثلاثاء 29 ديسمبر 1942

ورغم ذلك أتت. أتت في المساء نفسه. وكان الأمر أسوء من الرّقص. كنت في غرفتي ببيت هِرفي، وكان الوقت ليلاً، والجميع قد ناموا. كنتُ جالساً إلى تلك الطاولة التي عليها رقعة شطرنج، أدوّن وقائع الرقص المثيرة للشّفقة، حين فُتح الباب خلف ظهري

برفق لدرجة أنّي بالكاد سمعت صوته وهو ينغلق برفق. أدرت رأسي فرأيتها. كانت في ثوب النوم: موسلين ناعم أبيض أو شيء يشبهه من الأثواب التي تترك أحد الكتفين عارياً مثل ملابس الإغريق، وحمّالة كتف معقودة عقدة خفيفة على كتفها الأخرى، عقدة تبدو حلقاتها كالفراشة، لم تقل كلمة واحدة، لم تكن تبتسم، كانت تلقي عليّ نظرة ثقيلة، وكنت عاجزاً تماماً عن الكلام، كتفاها دائريان، ذراعاها طويلان وشاحبان، اليدان تنزلان على امتداد الفخذين، قدماها حافيتان، أنفاسها متقطّعة، نهداها واقفان وممتلئان ويرفعان ثوبها عالياً، ما يصنع فراغاً ما بين العري والثوب. كانت عيناي تبحثان عن تفاصيل ردفيها وبطنها وفخذيها، عن هيئة جسدها، لكنّ المصباح الصغير في الجانب لم يكن موضوعاً بشكل يجعل منه مصدر شفافية، كان ينبغي أن يوضع بالأحرى خلفها حتى يرسم طيف جسدها. لم أفكر في البداية سوى في هذا الأمر؛ سوء موضع المصباح الذي يحوّل وعد الشفافية إلى حقيقة غامقة. كان الأمر ليصير شيئاً آخر لو أنّ المصباح وُضع خلفها. ظللنا كلانا جامدين في مكانينا، لم أتكلّف حتى عناء النهوض، لم تندّ عني أية حركة تجاهها، هي التي ظلت واقفة والباب خلفها مقفل وأنا جالس، جسمي مستدير ثلاثة أرباع دائرة ويدي لا تزال على الطاولة تتحسّس باحثة عن الكتاب لتقفله. سيجفّ الحبر على ريشة يراعي، هذا ما قلته لنفسي. أجل لقد فكّرت في هذا، في أنّني لن أتمكن من إغلاق يراعي، وأنا لا أزال أحاول أن أستشفّ قوام فيولين من تحت ثوبها الغامق الذي صار بياضه في تلك اللّحظة يغشى بصري، وإذا بي أرى يدها اليسرى تتحرّك مرتقية صدرها، وأصابعها تنثني حين بلغت

twitter @baghdad_library

الكتف، وإبهامها وسبابتها تمسكان طرف حمّالة كتفها الصغيرة وتسحبانه ببطء وتفكّان عقدتها. وسقط الثوب عند قدميها بكامل ثقله شافاً عن جسدها العاري، ولا أحسب أنّي سأرى يوماً جسد امرأة أجمل من ذاك الجسد الذي كشف عن نفسه فجأة في غمرة النّور الذهبيّ المنبعث من ذاك المصباح. يا إلهي أي جمال هذا! أيّ جمال هذا! ردّدت في سرّي. ولو أنّ النّور يومئذٍ انطفأ في عينيّ إلى الأبد كنت لأموت محتفظاً بذكرى ذاك الجمال، وأحسب أنّي كدت أن أصرخ بالفعل، دون أن أتزحزح من مكاني. شلّتني المفاجأة والافتتان تماماً. أيّ كمال هذا! وأحسب أنّي شعرت بالامتنان، إذ لم يسبق لأحد أن أعطاني هدية بتلك الرّوعة، فكّرت في هذا أيضاً دون أن أتزحزح من مكاني قيد أنملة، هي من تحرّك. قصدت السّرير وتمددت عليه، لم تُشِر إليّ بموافاتها، لم تمد لي يدها ولم تنطق ولم تبتسم، كانت تنتظر أن أذهب من تلقاء نفسي، وذاك ما فعلته في آخر المطاف، ذهبت إليها ووقفت عند رأسها، لم أستطع إبعاد نظري عنها، عليك أن تتعرّى، قلت مخاطباً نفسي، وذاك ما قمتُ به بحركة مضطربة كتومة دون أدنى تكلّف، تعرّيت بعد أن أوليتها ظهري جالساً على طرف السرير، كنت كمَن يتستّر بدل أن ينكشف، وحين تعرّيت انزلقتُ إلى جوارها في السرير، ولم يحدث شيء، لم أداعبها ولا قبّلتها، لأنّ شيئاً مّا بداخلي كان قد مات أو أنّه رفض أن يولد: سيان. لقد ضخّ قلبي الدم في جميع جسدي باستثناء الموضع المنتظر، كان دمي يلهب خديّ ويخبّ فوق أسوار جمجمتي ويضرب صدغيّ بعنف، لكن لا قطرة منه ما بين فخذي، لا شيء ما بين فخذي، لم أقل حتّى: إنّك لا تنتصب؛ لم أكن أحسّ أي شيء ما

بين فخذيّ، لم أكن أفكّر سوى في هذا العدم بين فخذي. وعليّ القول أيضاً إنّها لم تساعدني، إذ لم تنبس هي أيضاً بكلمة ولا ندّت عنها حركة، إلى أن نهضت فجأة، وسمعتُ اصطفاق الباب خلفها.

19 سنة، شهران، 21 يوماً الخميس 31 ديسمبر 1942

إخفاقي أمام فيولين دقّ ساعة الحساب. وإذ مررت بمنزلنا وقفت عارياً أمام مرآة الدولاب، وأحصيت ما استطعت إتقانه منذ الطفولة بخصوص البناء الممنهج لجسدي. ليس ثمّة أدنى شك في أنّ تمارين الضخ، تمارين عضلات البطن، التمارين الرياضية على اختلاف أشكالها قد جعلت مني فتى يشبه شيئاً ما. يشبه تحديداً مسلوخ معجم لاروس الذي أراه الآن مسجوناً طيَّ المرآة. حين أعقد المقارنة أرى أنّ كلّ عضلة من عضلاتي في مكانها المناسب، بارزة بوضوح مُرضٍ: عضلتا صدر كبيرتان، عضلتا الذراعين، عضلتا الكتفين، عضلات البطن، عضلتا الساعدين، عضلتا الفخذين؛ ثمّ إذ ألتفت: العضلات القابضة، عضلتا ربلتي الساقين، عضلتا المؤخرة، عضلتا الظهر، عضلتا العضد، عضلتا العنق. لا ينقصني شيء. إنّ المسلوخ هو صورتي الدقيقة، نجاح مبهر، يستحق أن يقضي المرء عمره لأجله أمام المرآة. أنا الذي لم أكن أشبه «شيئاً»، ها أنا ذا أشبه المعجم! وأضيف أنّي ما عدت أخشى شيئاً. لا أخشى شيئاً. لا أخاف حتى من أن يصيبني الخوف. لم يعد ثمّة خوف لا تستطيع أن تقهره تلك الإرادة نفسها التي نحتت هذا الجسد. حاول أن تسلبني حياتي وسترى، حاول أن تربطني إلى جذع شجرة! أجل أجل يا صاح، لكنّ هذه التحفة من الاتّزان البدني والنفسي ذهبت أدراج

twitter @baghdad_library

الرياح حين اضطجعت لصق الحسناء فيولين. يا صاح المسكين، إنّك **حقاً** لا تشبه شيئاً. عد إلى تمارينك الرياضية وإلى دراستك المحبوبة، اشتغل جسدك ومباراتك، لست تصلح إلا للعناية بنفسك وللسعي إلى «أن تكون شيئاً مّا». يا إلهي، أيّ إحساس بالعدم ذاك الذي تخلّفه لدى الرجل رخاوة قضيبه! مع أنّي لطالما أخذته بيديّ! وكم مرّة نحتت قوامَه رغبتي؟ كم مرّة، بالمناسبة؟ مائة مرة؟ ألف؟ غصن من الأوردة تكفي مجرّد خاطرة تعنّ على البال ليغرقها الدم! كم من المنيّ جرى سحبه من الأعماق بفضل التدفّقات الرائعة للصبيّ البكر؟ تلك الأشياء أيضاً ينبغي عدُّها. [العلّها] بضعة لترات؟ لترات تمّ سكبها بينما ألعب دور الرجل أمام صور البطاقات البريدية المسروقة من حقيبة الأخ دولارُوِّي. والنتيجة، هذا الجسد الميت فوق سرير فيولين. لم أهتمّ حتى بالرّقص. كنت فظيعاً في التمهيد، ومعدوماً في الفعل. ما الذي شلّ حركتك أيّها الفتى، غير ذاك الخوف الذي تفتخر بأنّك هزمتَه؟ هذا ما كنت أردّده هذا الصّباح عارياً أمام المرآة وقبالتي مسلوخُ لاروس. وفي المرة القادمة؟ ما الذي سيحصل في المرّة القادمة؟ بأيّ مزاج سيجرؤ جسدك من الآن فصاعداً على الاقتراب من جسد امرأة؟ هذا ما كنت أقوله لنفسي هذا الصّباح، وهذا ما أكتبه الآن، وصورة مسلوخ لاروس لا تزال أمام عينيّ. حين خطر لي فجأة هذا التفصيل: **المسلوخ أيضاً لا يملك شيئاً بين فخذيه!** لا رسمَ للقضيب ولا للخصيتين! أقرب العضلات، التي تمّ توضيحها، إلى المنطقة هما العضلة القَطَنية والعضلة المُشطيّة، اللتين لا علاقة لهما بالمسألة. لا شيء بين فخذيّ المسلوخ! القضيب ليس عضلة إذن. هل هو عضو؟ هل هو من

الأطراف؟ الطرف الخامس؟ ما طبيعة هذا الطرف؟ إسفنجيّ؟ إسفنجة دم؟ حسن، لا يوجد شيء في تلك المنطقة من جسد المسلوخ يشير إلى الدّورة الدّموية! الجسد كلّه يرتوي بالدّم، لكن لا شيء يشير إلى عملية الضّخ التي تزرع الحياة في العضو الذي يطلق الحياةَ نفسها. لا شيء بين الفخذين. على ما يبدو تمارس عائلة لاروس حظراً على القضيب. الجزء المخجل. مهزلة الرّوح السّوية. تدبّر أمرك. إنّ السيّد لاروس مخصيّ.

19 سنة، شهران، 22 يوماً الجمعة فاتح يناير 1943

ثمّة تفصيل نسيت تدوينه. لقد فتحت أمّي البابَ ووجدتني عارياً، فقالت: ما بك، هل ترى نفسك جميلاً؟

19 سنة، شهران، 24 يوماً الأحد 3 يناير 1943

العضو الذّكري: الفرج، القضيب، العضو، الديك، الذّيل، الصنوبر، العقدة، الزُّب، الأهبل، الشّغال، الزيزي... إلخ. الخصيتان: كيس الصّفن، المَرِحَان، الأجزاء، راقصا الفالس، قلاوي، اللّفائف، الجوز... إلخ[1]. غواية معجمية لوصف هذا

---

(1) فضّلنا هنا الترجمة الحرفية بدل استبدال القائمة الفرنسية بالقائمة العربية (العضو الذكري في العربية مثلاً هو: الفرج، والطّنانة والحمامة، والذّكر والفدلاك والحمّاش...) لأنّ هذه الأسماء تعكس العلاقة التي أنشأتها الثقافة التي ينتمي إليها الكاتب بالأعضاء، من الواضح مثلاً أنّ اسم زُب أو قلاوي يحملان أثر الوجود المغاربي بفرنسا، لأنّهما الاسمين الدّالين (في المغرب على الأقل) توالياً على القضيب والخصيتين. (م)

twitter @baghdad_library

الجهاز الحيويّ الذي يتقزّز الفزيزلوجي من تمثيله.

19 سنة، 3 أشهر، 4 أيّام الخميس 14 يناير 1943

خاتمة غير متوقّعة لحادثة فيولين. بدأ الأمر بشجار مع إتيين في الشّارع، فعيّرني بالعجز أمام أخت صديقه هرفي. جررتَ تلك الفتاة إلى عرينك ثمّ لم تمسَسْها. هل تدرك حجم العار فيمَ قمت به؟ ثمّ كيف ينظر لي الآن هرفي؟ ألستُ أنا من استدعاك! فقد إتيين صوابه، وكنت أنا على وشك أن ألكمه على وجهه. لحسن الحظّ صدرت عنه عبارة أوقفتني. صحيح أنّها ليست جميلة تلك الفتاة، لكنّ هذا سببٌ إضافيّ. كان بإمكانك أن تقوّم جمالها قبل أن تدعوها. ليست هذه أوّل مرة تراها فيها! منذ شهور وهي تحدّث أخاها عنك! والآن لأيّام وهي تبكي! كنتَ ستُقتَل يا أخي، لقد بذلت كلّ الجهد لتهدئة هرفي! ليست جميلة؟ فيولين؟ كلا، إنّ فيولين ترى نفسها قبيحة، وجهها مسطّح أكثر ممّا يجب، مثل سمكة شبوط، وبشرتها خشنة قليلاً، أخوها نفسه هو من يقول ذلك. ألا تجدها قبيحةً قليلاً أنت؟ فيولين قبيحة؟ كلا! يا إلهي، تلك الفاتنة تحسب أنّني امتنعت عنها لأنّها قبيحة؟ بسببي! تبكي الفتاة مجروحة! فيولين وحيدةً أمام مرآة ألم! مثلي تماماً! هو الإحساس بالعار والارتباك والجهل والوحدة في المعسكرين معاً إذن؟

19 سنة، 3 أشهر، 6 أيام السبت 16 يناير 1943

هذا المساء في محاولة مشكورة لكسر الجليد بيننا بيّن لي إتيين المفارقة السّاخرة التي ينطوي عليها الوضع: أخ غاضب يلومني

لأنّني لم أنكح أخته! للحداثة أثرٌ لا يمكن إنكاره! وإذّاك حكيت له كلّ ما وقع. فخلص إلى أنّ ما وقع لي هو ارتباك الممارسة! إِرتباك البكر؟ افعَلْ كما يفعل الجميع، اقصد ماخوراً، الماخور مدرسة جيّدة لتعلم هذه الأمور! هل ذهبت أنت؟ كلا. ورُوار؟ ولا هوَ. ومالمان؟ كلا، قال إنّه لم يُرد لأنّ المومس كانت ذات توجّهات ماريشاليّة.

توقّف الأمر عند هذا الحدّ.

*

إلى ليزون

عزيزتي ليزون،

ملاحظة في سياق ما سبق. «أثناء ذلك»، كما كانت تقول القصص المصّورة التي كنت تقرئينها في طفولتك، كانت مرسيليا تشهد هجمات الميناء القديم: في الثالث من يناير تحديداً، انفجرت قنبلة في ماخور مخصّص للجنود الألمان، وأخرى في قاعة الأكل بفندق سبلونديد. خلّف الحادث العديد من القتلى. حدثت بعد ذلك سلسلة من الغارات، مات فيها صديقي زافران، ثمّ فجّر الألمان حيّ بانيي: تحطّم ألف وخمسمائة منزلٍ، وتضررت طبلة أذني اليسرى لفترة. وعند نهاية شهر يناير أُسس تنظيم ميليس[1]، وبدؤوا في اصطياد العمّال وتجنيدهم إجبارياً. وكان إتيين يقول لأولئك الذين

---

(1) منظمة أسّستها حكومة فيشي، أثناء الاحتلال الألماني لفرنسا، لقمع المقاومة التي كانت تصنّف آنذاك باعتبارها تنظيماً إرهابياً. (م)

twitter @baghdad_library

يصابون بالاكتئاب جرّاء تصاعد الأحداث، أنّه يرى في ما يحدث منعطفاً مهماً في الحرب. جنّ جنون الألماني، وهذه بداية نهاية النّازية. وكان محقاً.

*

19 سنة، 6 أشهر، 9 أيام الاثنين 19 أبريل 1943

شنآن عامّ في المطعم بسبب رحيل زافران. لقد سقط مالمان، الذي كان يحاول الدّفاع عنه، في كمين. لقد ضربت بقوّة وعنف كي أستطيع إخراجه من هناك. تضاعفت القوّة بسبب الإهانة الجنسية على ما أحسب. سيّداتي سادتي اِحذروا البكر المخفقَ، إنّ فيه بذرة الإجرام. ثمّة مجال على الأقل يستجيب فيه جسدي إلى الدّعوة. مسنوداً بمعرفتي الجيّدة بالمسلوخ، استمتعت بالضرب في المواضع التي توجع. أخذتني ثمالة المعركة التي لا خوف منها! روار أيضاً وكيلوغراماته التّسعون أحسنوا الضّرب. على الأرجح سأفصل. إن فصلت سأتقدّم للامتحان كمترشّح حرّ. إن كان مسموحاً لي...

19 سنة، 6 أشهر، 13 يوماً الجمعة 23 أبريل 1943

اِجتمعتُ بإتيين في القطار الذي كان عائداً بنا إلى المنزل، حاملَين في جيوبنا سبب فصلنا. إتيين بنبرة جادة تماماً، وكأنّما قرأ هذه المعلومة لتوّه في كتاب الطّب الذي كان يحمله مفتوحاً فوق ركبتيه، سألَ ركاب المقصورة الثلاثة الآخرين -كانوا رجلين وامرأة- عمّا إذا كانوا يعلمون أنّ الأعصاب والشّرايين التي تؤلّف جهازنا التّناسليّ تسمّى الأعصاب **المخجلة** والشرايين **المخجلة**. رُفع الرّأس

عن الجريدة وتَركت العيونُ المنظرَ، وتساءلت النّظرات، ثمّ: كلا، لم نكن نعرف. قال إتيين وقد اتّخذ صوته نبرة مَن يتحادث: في زمننا هذا، زمن المقاومة، إنّها فضيحة. نظر إلى غلاف الكتاب، وقرأ اسم المؤلّف بصوت عالٍ، وأشار إلى أنّ اعتبار أعضاء التّناسل موضوعاً مخجلاً في الوقت الذي يدعونا المارشال كلّ يوم أحد إلى إعمار فرنسا، فإنّ هذا الأمر لا يمكن أن يكون إلا مضاداً لمصلحة الوطن! ثمّ توجّه بالكلام إليّ كأنّما لا نعرف بعضنا: وأنت يا سيّدي، يا من يبدو عليه عدم الاهتمام بالأمر. ما رأيك؟ مثّلت الدّهشة قبل أن أقترح بخجل، وأنا أسائل بنظرتي باقي الرّكاب، أن تُعاد تسمية تلك الأعصاب والشّرايين باسم أعصاب الانتصاب الوطني، وشرايين العائلة الكبيرة. لم يشتمّ أحد رائحة الخداع في الأمر. وأخذوا جميعهم هيئة من يفكّر، ثمّ أذعنوا بجديّة تامّة. ذهبت المرأة أبعد من ذلك، وأخذت تقترح تسميات أخرى.

عصر الرّداءة.

19 سنة، 6 أشهر، 16 يوماً اِثنين الفصح، 26 أبريل 1943

مرّ فرمنتان ومعه شخصان على المنزل لتجنيدي. كان فرمنتان يجهل بشأن فصلي، كان يحسبني في عطلة. اِستقبلته أمّي بفرح، وأرسلته إلى غرفتي. بذلته العسكرية وقلنسوة الجنديّ الرّيفي التي يضعها تمنحانه هيئة ممثّل، لكنّه ليس مضحكاً. كنت أراجع دروس المباراة، وبإحدى تلك «الوضعيات» التي تدفعني إلى الابتسام عندما تصدر عن الآخرين، قلت لصديقي القديم إنّي لن ألتحق البتّة بالجنود، وأنّي أعتبر اقتراحه بمثابة مسبّة. استدار شطر الكومبارسَين

twitter @baghdad_library

اللّذين رافقاه (لم أكن أعرفهما، أحدهما كان أيضاً يرتدي بذلة عسكرية) وقال: مسبّة؟ كلا، ليست مسبّة، لكن هذه مسبّة! وبصق على وجهي. كان فرمنتان يبصق على كلّ شيء منذ كان طفلاً. وكنت أحد أولئك القلائل ممّن لم يكن قد بصق عليهم حتّى تلك السّاعة. نتيجة ذلك، إنْ كان بصقه قد فاجأني فإنّه لم يدهشني. وإذ عوّض هذا ذاك، استطعتُ أن أحفظ هدوئي. لم أتذمّر، ولم أحاول حتّى أن أتجنّب البصقة. سمعت الـ «تفففففف»، ورأيت البصقة قادمة، وأحسستُها تصطدم بجبيني، ثمّ تسيل بين أرنبة أنفي ووجنتي اليسرى، أشبه ما تكون برشّة ماء دافئ. لم أمسحها. ركّزت على الإحساس -إحساس تافه- بدلاً من التّركيز على البُعد الرّمزي سيئ الذّكر. لو أنّني تذمّرت لكان ذبحني. لا يسيل البصاق على الجلد بالسّرعة التي يسيل بها الماء الدافئ، إنّه مزبد، ينزل بتدرّج. يجفّ دون أن يتبخّر حقاً. أحد الشخصين الآخرين، ذاك الذي كان يرتدي البذلة العسكريّة (كان هو وفرمانتان مسلّحين)، قال إنّهم في كلّ الأحوال لا يجنّدون سوى الرّجال. لم أردّ عليه. أحسستُ بقيّة البصاق ترتجف عند حافة شفتي اليسرى. وللحظة فكّرت في أنّي أستطيع أن أجمعها بلساني وأعيدها إلى المرسِل، لكنّني عدلت عن الأمر. قال فرمنتان دون أن يزيح نظرته عنّي: سنلتقي مرّة أخرى. ثمّ أعادها مرّة أخرى بنبرة مسرحيّة وهو يغادر غرفتي راجعاً بظهره إلى الخلف، ومشيراً إليّ بإصبعه: سنلتقي مرّة أخرى يا فتاة. أكتب هذه الصّفحة قبل أن أعود إلى العمل. غداً سأهرب إلى مِراك.

4

21-36 سنة

(1960–1945)

نظامُ الترقيم العاشق حسب مونا :
هَبْني تلكَ الفاصلة، أصنعْ منها أداة تعجب!

twitter @baghdad_library

إلى ليزون

عزيزتي ليزون

ستلاحظين وجود فجوة تمتد لسنتين بعد واقعة الاعتداء تلك. فلتعلمي إذن، أنّ فرمانتان ورفاقه أتوا باحثين عنّي في مِراك، وكانوا يريدون بي سوءاً. لحسن الحظ كشف تيجو أمرهم (لم يكن عمره آنذاك يتجاوز تسع سنوات، لكنه كان يمتاز بتيقظّ الذهن الذي عهِدتِه فيه دائماً) وأخطرني فاستطعت الإفلات منهم. لم يكن لي بدّ بعد ذلك من أن أسلك درب الثوّار[1]. مانيس هو مَن وضعني على تلك الدرب. لم أكن أعلم أنّه وروبير ينتميان إلى صفوف المقاومة. كان مانيس يتجنّب الحديث بسوء عن الناس وكان صدوقاً. وما كان يقول كلاماً طيباً عن المحتل، إضافة إلى أنّه كان يحتفظ بالصورة المعروفة عنه، صورة المتوحّش المتوحّد الذي لا ينبغي إزعاجه. كان التحاق

(1) يستعمل الكاتب في الواقع تعبيراً فرنسياً ذو أصل كورسيكي هو «Prendre le maquis»، ويفيد معنى مزدوجاً: الإدغال، أي الالتجاء إلى الغابات والتوغل فيها هرباً من العدالة، وفي الآن نفسه معنى الالتحاق بصفوف المقاومة وهو ما سيتوضح في أسطر الكتاب القادمة. (م)

twitter @baghdad_library

مانيس بصفوف الحزب إحدى أكبر المفاجآت التي شهدتُها قيد حياتي. على أنّه كان وظلّ حتّى آخر لحظة شيوعياً، رغم جدار برلين، ورغم المجر، ورغم معسكرات العمل الإلزامي (الكولاغ)، ورغم القطع مع الحقبة الستالينيّة، رغم كلّ شيء. لم يكن مانيس من النّوع الذي قد يعتنق ألف وجهة نظر.

وإذا لم أكن قد حدَّثتك من قبل عن هذه المرحلة من شبابي، فمردّ ذلك إلى أنّي كنت ثورياً بالعرَض، ثوريَّ صدفة. فدونما عصابة فرمانتان كنت لأظلّ أضرب في كيس الرّمال وأنقب في كتبي، كان ذاك مبلَغ خصوماتي. التفوّق في الدراسة ومراكمة الدبلومات والحصول على مكانة اجتماعية، ذاك هو الدَّين الذي كان عليّ أن أردّه وفاءً لذكرى أبي، وقطعاً، ليس الذهابَ إلى الحرب! كان ليلعنني لو فعلت ذلك! وهو الذي كان يردّد: «ما يؤسفني حقاً في بني البشر ليس كونهم يقضون وقتهم في قتل بعضهم البعض، وإنّما كونهم ينجون بعد كل ذلك». كان ينقصني إذن تأثير بصقة حتّى أرمي بنفسي في المعمعة. التحاقي بالثورة يستند إلى قوانين المقذوفات الفيزيائيّ ليس إلا.

لنوجز الأمرَ، ما بين ربيع سنة عام 1943 وربيع سنة 1945 (وهي الفترة التي شهدت التحاقي بجيش لاتر[1])، كان عليّ أن أتخلّى عن دراستي وأتوقف عن كتابة هذه المذكرات. ذاك أنّ الأثر الطويل الذي تخلّفه وراءنا كتابتنا لا يتماشى وحياة التكتّم. الكثير من

(1) جيش لاتر (Armée de Lattre): هو الاسم الذي كان يطلق على الفيالق التي كانت تعمل تحت قيادة الجنرال دو لاتر (1944-1945). (م)

الرّفاق سقطوا بسبب الكتابة! لا مذكرات، ولا رسائل، ولا ملاحظات مدوّنة، ولا مفكّرة، [باختصار] لا أثر. خصوصاً أثناء عمليات التّنسيق التي عُهد إليّ بها في الشهور العشرة الأخيرة! وفي تلك الفترة كلّها كنت قد ضربت صفحاً عن الاهتمام بجسدي؛ باعتباره موضوع ملاحظة، أقصد. لقد حلّت محله أولويات أخرى. على سبيل المثال: أن أظل على قيد الحياة، وأن أحرص على تنفيذ المهام والمأموريات، وأن أظلّ متيقظاً تمام اليقظة طيلة تلك الأسابيع اللانهائية التي لا يحصل فيها أي شيء. إنّ حياة الجنديّ السريّ أشبه ما تكون بحياة التمساح. عليه أن يظلّ مختبئاً في جحره حتّى الثانية التي نومئ له فيها بالانقضاض، ثمّ بعد أن ينقضّ عليه أن يعود سريعاً إلى مكمنه وينتظر الإشارة مجدداً. وبين ضربة وأخرى عليه أن لا يتخلّى عن حذره، أن يحافظ على صلابة أعصابه، وأن يواظب على التمارين ويرفع إيقاعها، وأن يصيخ السمع إلى جميع الأصوات الممكنة. إنّ التهديدات الخارجية تدفع مفاجآت الجسد إلى الكمون.

لا أدري هل سبق لأحد مّا أن اهتم بمسألة الصحّة أثناء الحروب السريّة، لكنّه موضوع يستحق البحث. رأيت القليل جداً من المرضى بين رفاقي. لقد فرضنا جميعنا على أجسادنا الانصياع إلى: الجوع والعطش وشظف العيش وقلة النوم والإنهاك والخوف والوحدة والعزلة والملل والإصابات. لم تكن أجسادنا تعرف التمرّد. ما كنّا نمرض. ما عدا إسهال بسيط، أو تبرّد تعالجه سريعاً مستلزمات الخدمة، ما كان يصيبنا شيء. كنّا ننام ببطون خاوية، ونمشي بكواحل ملتوية، لم يكن منظرنا يسرّ العين، بيْد أنّنا ما كنّا

twitter @baghdad_library

نمرض. لست أدري إذا ما كانت ملاحظاتي تصدق على جميع الثوار، بيد أنّ هذا ما لاحظته في صفوف رفاقي. لم يكن هذا الأمر يصدق على أولئك الذين وقعوا بين أيدي الـ STO[1]، أولئك كانوا يتساقطون كالذباب. كانوا عرضة لحوادث الشغل، والاكتئاب العُصابي والأوبئة والالتهابات بجميع أشكالها، وكان بعضهم يشوّه ذاته إذ يحاول الفرار؛ كانت تلك اليد العاملة المجانية تدفع من صحتها ثمناً لوجبات الطعام. أمّا نحن، فالرّوح هي ما كان يحرّكنا. ومن بين الأسماء التي نعتنا بها تلك الروح: روح الثورة، الوطنيّة، كره المستعمر، الرغبة في الانتقام، طعم القتال، السياسة المثالية، الأخوّة، الرؤية التحرّرية، ومهما تكن تسميته، كان ذاك الشيء يُبقينا في صحة جيدة. كانت روحنا تدفع بأجسادنا إلى أن تندمج في خدمة جسدٍ أكبر: جسدِ المعركة. على أنّ هذا الأمر لم يُقصِ الخلافات والتنافس، فكلّ اتجاه سياسي كان يحضّر لمرحلة السلام وفق منظوره الخاص، ويكوّن فكرته عن فرنسا الحرّة، بيد أنّه أثناء المعركة ضد المجتاح، كانت المقاومة على اختلاف أشكالها تبدو دوماً وكأنّما هي لا تؤلف سوى جسدٍ واحد. وإذ حلّ السلام، أعاد الجسدُ الكبيرُ كلَّ واحد منا إلى حالة الخليّة الصغيرة الشخصيّة، وبالتالي إلى وضع التناقض والخلاف.

وأثناء أسابيع الحرب الأخيرة التقيت بفرانش التي أحببتِها

---

(1) STO: الحروف المختصرة لمصلحة الأعمال القسرية، وهي مصلحة أنشأها النازيون لترحيل الفرنسيين إلى ألمانيا من أجل المساهمة في جهود الحرب. (م)

كثيراً. دون أن تكون طبيبة، كانت تمارس مهنة قريبة من الجراحة في مصنع طوب كان يتراكم فيه الجرحى من صفوفنا. وكما تعلمين، يعود إليها الفضل في أنّي لم أفقد ذراعي، لكن ما لا تعرفينه هو أنّني علّمتها تقنية التخدير السّمعي التي تعلّمتها من فيوليت، وكانت تمارسه بإتقانٍ. كانت تصرخ في وجهنا بصوت مرتفع وهي تغيّر ضماداتنا إلى أن يتوارى الألم في رؤوسنا. ما لا تعرفينه أيضاً هو أنّها على الرغم من وجهها المربّع وعينيها النجلاوين ولكنتها البريطانية وطبعها الحادّ، لم تكن فرانش بروتونية[1] أكثر منك أو منّي. كانت ابنة أحد اللاجئين الإسبان إلى إقليم بروتونيا وأعيد تعميدها باسم فرانسواز عرفاناً بجميل جمهوريتنا، وأطلق عليها رفاق طفولتها الاسم المذكّر فرانش احتفاءً بطباعها الذكورية.

*

21 سنة، 9 أشهر، 4 أيام — السبت 14 يوليو 1945

باسم الحكومة المؤقتة لجمهورية فرنسا وبحكم الصلاحيات المخولة لي...

لمَ بكيتُ أثناء المراسيم؟ لم أبكِ منذ وفاة فيوليت، باستثناء بكائي، في الآونة الأخيرة، بسبب مرفقي المهشّم. المهم، بكيت طيلة المراسيم، دون أن أستطيع كبح دموعي. بكيت دون انقطاع ولم تسعفني التنهدات، مثل من يفرغ نفسه، ودون أدنى حركة أمسح بها وجهي، وكنت لا أزال أفرغ نفسي حين وشّحونا، أنا وفرانش. لم

---

(1) بروتونية، من إقليم بروتونيا وهو أحد الأقاليم الفرنسية. (م)

twitter @baghdad_library

تصدم دموعي فرانش، وقالت لي: الآن يحقّ لك! ورغم أنّي كنت أتلاصق مثل ورق لصاق، فقد عانقتني عناقاً صريحاً. هي أيضاً لم تمسح دموعها، ما أعجب البطولة! بعد عامين من الانقطاع، الدموعُ هي ما أريد تدوينه هنا بداية. لقد أفرغت في ذاك الصباح، بالفعل، كلّ دموع جسدي. سيكون الأصوب أن أقول إنّ جسدي قد سكب كلّ الدموع التي جمّعتها روحي طيلة هذه الفترة التي تكاد تشبه القتال. كم تُقصي الدموع من الذات! إذ نبكي نفرغ ذواتنا أكثر بكثير ممّا نفعل حين نتبول، نتطهّر أكثر بكثير ممّا نفعل حين نغطس في أشدّ البحيرات صفاءً. نضع حمل الروح على رصيف محطّة الوصول. وإذ تنصهر الروح منفصلة عنّا، يكون بوسعنا الاحتفال بالعودة إلى الجسد. جسدي سينام هانئاً هذه الليلة. بكيت ارتياحاً، على ما أحسب. لقد انتهى الأمر. لقد كان الأمر على ما يبدو منتهياً منذ شهور، لكن كانت تلزم هذه المراسيم لننهي هذه الحلقة. اِنتهى الأمر. هذا ما وشّحه: نهاية مقاومتي. المجد للدموع!

21 سنة، 11 شهراً، 7 أيام الاثنين 17 سبتمبر 1945

عدتُ إلى التحضير لاجتياز المباراة. واستعدت فوراً كلّ الأحاسيس الجسديّة المرتبطة بالعمل الذهنيّ: نبض الكتب الصامت، دبيب صفحاتها تحت أنملة الأصابع، صرير اليراع فوق ليف الأوراق، رائحة الغراء الحرّيفة، انعكاسات الحبر، ثقل الجسد الذي لا يتحرّك، النمال الزاحفة على طرف رجليّ وقد ظلّتا مطويتين لمدّة طويلة، والتي تجعلني أثب فجأة على قدميّ وأتوجّه نحو الكيس ألكمه، راقصاً ضارباً، وموزعاً يمنة ويسرة اللّكمات والصفعات

والضربات المتتالية وعمليات التلقّف (بالطبع لا أستطيع بعدُ ثنيَ ذراعي اليسرى تماماً، لكنها لا تزال قادرة على اللّكم والصفع)، رأسي يدندن أبياتاً أردّدها على إيقاع اللّكم. الذهن يسترجع جملاً جادت بها القرون بينما الساقان ترقصان والقبضتان تلكمان، والعرق يسيل؛ ثمّ برودة الماء المغروف من الغسالة، رشّ نفسك، انتظر حتّى تجفّ، ارتدي قميصك مجدّداً، وإلى العمل، إلى العمل والجلوس بلا حراك من جديد وذاك الإحساس بالتحليق فوق السّطور! هو ذا الشّاهين يمسح بنظره حقل الصفحة المطبوعة، اختبئي أيتها الأفكار العزيزة، أنت يا فرائسي ويا طعامي، لن ألتهمك فحسب وإنّما سأهضمك، أيا لحماً قادماً من رأسي! عجباً، إلى أين أنا ذاهب؟ لنتوقّف الليلة هنا، بدأت أجفاني تثقل ويراعي يهذي. لننَم. لنأوي إلى أرض النُوّام.

21 سنة، 11 أشهر، 10 أيام الخميس 20 سبتمبر 1945

منحت نفسي استراحةً أقرأ فيها ما دوّنته في هذه المذكرات. (تيجو هو مَن أعاد لي دفاتري ذاك اليوم. كان قد خبّأها- «دون أن يقرأ منها حرفاً، أقسم لك!»). التقيت مجدّداً بدودو، وكان لقاءً ملؤه المفاجأة والأحاسيس الجيّاشة. دودو الذي اخترعته حين كنت أسكن في بيت أمّي حتّى أحسّ بالرّفقة الجسدية، دودو أخي الأصغر المتخيّل، دودو الذي علّمته كيف يتبّول، دودو الذي علّتمه كيف يأكل الأطعمة التي لا يحبّها، دودو الذي ربيته على الجَلَد، دودو الذي لقنته حقائق الجنس -هُزّني يا دودو، يجتاحني فيض عصير نباتيّ! دودو الذي نصّبته، في صمت، ضدّ غباء الأمومة المتغطرس

twitter @baghdad_library

والكاذب والدائمِ الوعظ. لا أستطيع القول إنّ دودو كان هو أنا، كلا! لا أستطيع، بيْد أنّه كان تمرينَ تجسّد مُقنِعاً. كنت أحسّني قليلَ الوجود -كائناً أقلّ- ما بين أب يُحتضر والأكاذيب التي كانت تلك الأمّ تسمّيها «الحياة»، **ليست الحياة هذا، ليست الحياة ذاك**... وبغضّ النظر عن كونه خيالياً، كان جسد دودو المحموم (كنت أسمعه يتنفّس أثناء نومه بجانبي، حين يدفعه الخوف إلى ترك سريره والمجيء إلى فراشي) أكثر واقعيةً وتجسّداً من ذاك الشيء الذي تسميه القديسة أمّي «حياةً». وإذ أكتب هذا يبدو لي أنّ خلال السّنوات الأخيرة كان صوت المارشال يرنّ في أذني وكأنّه النسخة المطابقة لصوت أمّي. فما كان ذاك الصوت المرجّف يمرّره من أفكارٍ حول الحياة بينما يتحدّث عن الوطن، كان يحمل الأكاذيب الجامدة والدنيوية والجبانة والمنافقة والمثيرة للضحك نفسها. في داخلي، كان دودو هو مَن التحق بالمقاومة. ودودو هو من وُشّح بالوسام. وعلى الأقل أنا متأكد من أنّه لن يتباهى بهذا الأمر.

22 سنة، 3 أشهر، يوم واحد الجمعة 11 يناير 1946

إِستعادةُ مذاق القهوة بعد كلّ السنوات التي قضيتها في شرب الهندباء! القهوة السوداء، النفّاذة، المرّة! تلك اللّدغة في الفم التي، ما إن تبلَعَ الرّشفة، حتّى تستدعي إحساساً باكتفاء اللسان ورضاه. وتلك الحرقة خلف عظم القص التي تجلدك وتوقظك، والتي تسرّع ضربات القلب وتشدّ انتباه الأعصاب. أحسب أنّ القهوة، وقد صار مذاقها رديئاً في الغالب الأعم، كانت أطيب مذاقاً قبل فترة الحرب، لكن، لمَ ستكون القهوة اليوم أسوء مذاقاً؟ أهو الحنين إلى الماضي؟

22 سنة، 5 أشهر، 17 يوماً الثلاثاء 27 مارس 1946

في مسألة الكوابيس. عرضت لي كوابيس قليلة، شيئاً مّا، خلال السنتين الماضيتين، لكن ما إن حلّ السلام حتّى استعادت حدّتها. لا أعزو الكوابيس إلى اشتغال العقل، وإنّما إلى إفرازات جسدي العصبيّة. أخذت على عاتقي مهمة تدجينها من طريق تدوينها. وضعت مذكّرة عند رأسي، وما إن أستيقظ حتى أدوّن الكابوس. لهذه الطريقة مفعول مزدوج على الكوابيس، فهي أولاً تُهَيكِلُها في شكل مرويّات، ثمّ تحرمها ثانياً من إمكانية إخافتي. هكذا تتحوّل الكوابيس من مواضيع للخوف إلى مواضيع للفضول، وكأنّما هي تعلم أنّي في انتظارها لأمدّدها على الورق، فتأخذ الأمر باعتباره تشريفاً أدبياً. يا لغبائها! ومع احتفاظها بكامل رُعبها فقدت تلك الأحلامُ خصائص الكوابيس. في الليلة الماضية بالذات، على سبيل الذكر، وأنا أحلم بأحد أشدّها رعباً فكّرتُ: لا ينبغي أن تنسى تدوين هذا حين تستيقظ، تدوين هذا بالمناسبة: ذراع دركيّ بلديّة روزان المقطوعة وهي تكتب على صفحة السّماء.

22 سنة، 6 أشهر، 28 يوماً الأربعاء 8 مايو 1946

الذكرى السنوية الأولى للنّصر. يبدو أنّ كل الأمراض التي تجنّبتني طيلة أشهر القتال تلك، انطلقت دفعة واحدة احتفاء بالذكرى: الزكام، المغص، اضطراب النوم، الكوابيس، القلق، ارتفاع حرارة الجسم، اضطرابات الذاكرة (صِرت أُضيع ساعتي ومحفظة نقودي، نسيت عنوان فرانش، نسيت أيضاً كلّ دروسي حول

twitter @baghdad_library

المؤرّخ الرّوماني سويتن، وكلّ دروسي التّطبيقيّة) المهم، جسدي يشبّ عن الطوق، أخالُه يقطع دفعة واحدة مع الصبي الأهوج الذي كنته. (كانت فيوليت تردّد: ليس في الأمر ما يُقلق، إنّك منزعج فقط). الحقيقة، إنّي استيقظت هذا الصباح بأعصاب مشدودة، كان أنفي مخنوقاً، أمعائي جارية، حلقي مسدود، وحرارة جسمي 38,2 درجة. أصابني رشح وأنا متلفّع بثلاثة أغطية، وعسر هضم رغم تناولي وجبة مسلوقة. لعلّ جسدي ينتفض ضدّ الحياة المريحة التي استعادها؟ فيما يخص القلق، فإنّ ساعتين من العمل الجيد أعانتني على تفتيت الكرة التي كانت تسدّ حلقي: العمل على ترجمة الرائع بلين الأكبر[1] هدّأ من روعي. بيد أنّ الزّحار أجبرني على الانحناء، وبالكاد كنت أستطيع لكْمَ الكيس. لتحيا الحرب، هي التي تمنحنا شروط الحياة الصحيّة؟ على كلّ حال، طيلة السنتين اللّتين احترفتُ فيهما الرّقص الجنائزي، كانت أعصاب العالم مشدودة بدلاً من أعصابي.

23 سنة **الخميس 10 أكتوبر 1946**

عرّجت على فرانش حين وصلت باريس. غداً موعد إجراء مقابلتي في الوزارة. سألتني فرانش إذا ما كان لديّ مكان آوي إليه. كان ثمّة فندق في المقاطعة الرابعة. تنام في فندق وأنا لا أزال على

---

(1) يقصد المؤلف الروماني الطبيعي بلين القديم (Pline l'Ancien) (أو بلين الأكبر، في مقابل بلين الأصغر (Pline le Jeune) الذي ولد بعده بسنوات قليلة)، وهو صاحب موسوعة مهمة عنوانها: **التاريخ الطبيعي**. (م)

قيد الحياة؟ لا يمكن أبداً، وخاصة أنّ اليوم عيد ميلادك (إنّها تذكر هذا الأمر!). اِصطحبتني عند نصف دستة موسيقيين يقطنون شقة واسعة، من تلك الشقق التي تمت مصادرتها، في شارع رُوشِشوار. يشربون ويضحكون كثيراً. لا يأبهون للقواعد، ولا يتعقّلون. يطلقون العنان لأنفسهم. وفي لحظة محدّدة انصرفوا جميعاً كالبُله. كانت فرانش تعرف مكاناً معزولاً في شارع أوبركامب أقيمَ فيه ملهىً رائع: هيّا تعال! تردّدتُ. أنا متعب، وما زال أثر القطار يعتري جسدي. لا يمكن أن أغيّر موعد مقابلتي غداً، إذا ما أضعته، لن يكون أمامي سوى العودة إلى ركني. لا، شكراً، سأنام. قادتني فرانش إلى غرفتي، وأشارت إلى سرير. أترغبُ في الاستحمام؟ أن أستحم؟ في بانيو حيقيقي؟ هل هذا ممكن؟ أعدتُ وصل قطع جسدٍ مزّقته سبعة عشر ساعة من السير على السكة الحديد. بعد الحمام نمت فوراً، عارياً ودافئاً، لأستيقظ في قلب الليل. انزلق أحدهم تحت أغطيتي. كان جسداً عارياً ودافئاً قدْرَ جسدي. جسد ممتلئ، لا يمكن أن يكون أكثر أنوثة ممّا هو عليه. ندّت عنه ثلاث جمل لا غير: لا تتكلّم، لا تتحرّك، دعني أتولى الأمر. وقبل أن تلتهمني كان قضيبي قد تصلّب في فمها مرتدياً جلداً قاسياً متماسكاً ومتيناً، بينما يداها تداعبان بطني وتنزلقان حتّى صدري، ترسمان هيئة كتفيّ، وتنزلان على امتداد ذراعيّ وردفيّ، وتطوقانني مثل يدَي صانع فخّار، وتمسكان إليتيّ اللتين تسكنان باطمئنان، وتطاوعانها بهدوء، بينما تفعل فعلها شفتان ريّانتان رطبتان ولسانٌ ناعم. أوه! أكملي، أكملي أرجوك، إنّي أحسّه، أحسّ الدفق يصعد ويحفر بطني. أمسك نفسك يا فتى، أمسك نفسك، لا تقتل هذه الأبديّة، لكن كيف السبيل إلى

twitter @baghdad_library

إيقاف بركان على أهبّة الانفجار، من أين نمسكه، لا يكفي أن يشدّ المرء قبضتيه وكفيه، وأن يعضّ على شفتيه، أن أثب أسفل فارسة لا أرغب في أن أسقطها عن صهوتي، لا فائدة من ذلك كلّه. إنّه يصعد. تأتأتُ: كفى، بهدوء، انتظري، كفى، كفى.. دفعت يدايّ كتفيها، انتظري، انتظري.. كانت كتفاها ممتلئتين لدرجة أنّ أصابعي توقفت عندهما وأخذت تتحسّسهما، أصابعي التي صارت الآن أشبه بمخالب قط يتعلّم الخدش، أعلم أنّي لن أستطيع الصبر أكثر، أعلم ذلك، والصبي المهذّب يهمس إلى نفسه فجأة: كلا، ليس في فمها، لا شك في أنّ ذاك أمر غير لائق، بل إنّه لأمرٌ مؤكد، ليسَ في فمها، لكنها أبعدت يديّ واحتفظت به في فمها، بينما أقذف من أعماق أعماقي. احتفظت به في فمها، وشربت ببطء وأناة وإصرار، شربت حتى آخر قطرة المنيّ الشاهد على فقدي عذريتي.

وإذ قضي الأمر، تسلقت جسدي حتّى أذني وهمست: أخبرتنا فرانش أنّه عيد ميلادك، وظننتها ستكون هدية لا تُرّد.

23 سنة، 3 أيام **الأحد 13 أكتوبر 1946**

هدية عيد ميلادي كان اسمها سوزان. أتت من كيبيك، وهي مختصّة في المتفجّرات، بشكلٍ أدقّ في نزع الألغام، **وهو أيضاً مجال يتطلّب الصبر والدقة**. بفضلها مرّت المقابلة على ما يرام، كنت أفيض حيوية. ثمّة فرق بين ليلة بيضاء وليلة بيضاء أخرى. إذ، كما وضّحت سوزان على طاولة الإفطار الجماعية، كنّا قد قضينا الليل كلّه «في الحب». لا مجال للحديث عن إشباع يتحقّق بـ«وضع في الفم» فحسب، فبعد أن قذفت، حان «دورها لتبلغ نشوتها»، ثمّ

دوري مجدّداً، فدورنا معاً، حيث قذفنا قذفاً متزامناً، ثمّ واحدٌ بعدُ، واثنان، «أدوار أرجوحة»، لأنّ «هذا الرّجل، لا يمكن تخيّل طاقة الحبّ التي يختزنها!»، أكتب بين معقوفتين الجمل التي نطقتها بلكنتها الكيبيكيّة وأسرح خلف الكلمات التي قطعت القرون والمحيطات. وبينما كان الجميع يضحك فكّرت في أنّ لويز لابي ينظم شعره بلكنة سوزان، أو كورنييْ الذي استشهدت به فرانش بالمناسبة: **ذاكَ أنّ الرّغبة تتعاظم حين يتراجع الفعل.**

23 سنة، 4 أيام الاثنين 14 أكتوبر 1946

أحبّ جسد اللّكنات!

23 سنة، 5 أيام الثلاثاء 15 أكتوبر 1946

ثمّة شيء جسديٌّ، يكاد يكون حيوانياً، أو لنقُل على الأقل ثمّة شيء جنسيّ جنسية بدائية، في المواجهة بين رئيس القسم المسنّ والشاب المستجِدّ، على الأقلّ هذا هو الإحساس الذي خلّفته لديّ المقابلة التي أجريتها. ذكران اثنان يحدّقان في بعضهما. العجوز المهيمن والشاب الذي يصعد. ليس ثمّة أيّ تعاطف في ذاك التشمّم المنقّب في المعارف والنيّات. ما حدود معرفتك؟ وإلى أين تودّ أن تصل؟ هذا ما يشي به خطم الرئيس. أيّ شرك تنصبه لي؟ يتساءل خرطوم المترشّح. جيلان يتواجهان، الجيل المحتضَر والجيل الذي سيخلفه؛ لا يمكن أن يتمّ هذا الأمر بلطف. باستثناء المظاهر، ليس ثمّة من أهمية لشيء آخر، لا للثقافة ولا للشهادات. إنّها مواجهة خِصِيٍّ، هو ذا ما يشغل بال الرّئيس: هل بوسعك أن تجعل العشيرة

twitter @baghdad_library

تمتدّ وتبقى؟ وهو ذا ما يهمّ المترشّح: هل تستحق أن تعيش أكثر؟ نخير، نخير وسط سحابة من المنيّ النتن والنطف الطّازجة.

23 سنة، 16 يوماً السبت 26 أكتوبر 1946

قبل قليل، وبعد ممارسة الحبّ، بينما أنا مضطجع على بطني في وضع من يسبح، مفرغاً وراضياً، أحسستُ قطرات باردة تسقط بوتيرة غير منتظمة على ظهري وفخذيّ وعنقي وكتفيّ. عمليّة تقطير لذيذة ولطيفة ما كنت أعلم متى ولا أين ستسقط كلّ قطرة من قطراتها التي تجعلني أكتشف نقطة محدّدة من جسدي، نقطة ظلّت، على ما أحسب، حتى تلك اللّحظة نائية. اِنتهى بي المطاف إلى الاستدارة: كانت سوزان مقرفصة لصقي، تحمل كأس ماء في يدها، تقطّر منه على جسدي بأطراف أصابعها، بتركيز شديد، كأنّما تشتغل على لغم. على جسدها المنمّش المليء بالخالات كأنّه سماء مرصّعة، رسمتُ بقلم حبر الخطوطَ الواصلة بين النجوم، مشكّلاً خريطة الأجرام: الدبّ الأكبر، الدب الأصغر... إلخ. دورك الآن -قالت سوزان- لنرَ ما **تخبرنا به سماؤك وسماواتك**، بيْد أنّه ما كان ثمّة شيء على جسدي، لا جهة الصدر ولا جهة الظهر، ولا حتّى خالة واحدة، لا شيء، كان جسدي صفحة بيضاء. أسفت لذلك، لكنّها ترجمت الأمر بطريقتها الخاصة: إنّك جديد كلّ الجدة.

23 سنة، 3 أشهر، 11 يوماً الثلاثاء 21 يناير 1947

ذهبت سوزان، عادت إلى بلدها كيبيك. الحروب تنتهي بالنسبة إلى الجميع. وقد احتفلنا بفراقنا ذاكَ احتفالاً يليق به:

خدش على الخدّ الأيمن.

أثر عضة على أرنبة الأذن اليسرى.

أثر مصّ في الجانب الأيمن من العنق، هناك حيث ينبض الوريد.

أثر مصّ آخر في الجانب الأيسر أسفل الذقن.

أثر عضّة على الشفة العليا التي تورّمت وجُرحت.

أربع علامات خدش، يفصل بين كلّ اثنتين منها ما يقارب السنتمتر، تمتد من أعلى عظم القص حتّى الحلمة اليسرى.

أثر مصّ على الحلمة اليمنى.

عضّة عميقة على ظاهر الإبهام.

الخصيتان معصورتان بطريقة موجعة.

و، كتوقيع نهائي، بصمة قبلة في ثنية فخذي الأيسر: «حينما يختفي أثر أحمر الشفاه، عليك أن تستأنف حياتك.»

مرّة أخرى عالجت فرانش جراحي، عالجتني بأن أخبرتني بعض الأشياء من قبيل أنّ سوزان لم تندسّ في فراشي احتفالاً بعيد ميلادي، حقاً؟ كلا يا مفرقعتي، لقد تلقت أوامر بأن تخلّصك من عذريتك. تمزحين؟ أمزح! كيف لي أن أمزح؟ لقد كانت حالتك تقلقنا، من النادر جداً أن يلتقيَ المرء مسؤولاً عن الربط عفيفاً. فبعد كل الأخطار وكل الضغط الذي تتعرضون له، ما إن ينتهي أحدكم من مهمته حتى يجد نفسه في الفراش غالباً. يتجنّب مسؤولو الرّبط أخطار الحرب بإلقاء أنفسهم في أتون الحبّ. إنكم تحتاجون إلى الطاقة الحيويّة وإلى أذرع تحضنكم، سواء كنتم رجالاً أو نساء! أمّا أنت فلا. كانوا يعرفون ذلك، وكان هذا الأمر يغذي شكوكهم: هل

twitter @baghdad_library

أنت مترهبن؟ لا تزالُ بتولاً؟ عنين؟ بارد؟ مصاب بلوعة حب؟ كانت تلك الأسئلة التي تحوم حولك. وقد ذهبت سوزان باحثة عن الإجابة في الميدان. كان ذاك آخر إنجازات المقاومة يا مفرقعتي!

*

إلى ليزون

بدأت فرانش تناديني «مفرقعتي» منذ تلك الظهيرة من شهر مارس عام 1945، بعد معركة كالمار، حيث كادت شظية لغم تفقدني ذراعي اليسرى كنت أقود على إحدى طرق الألزاس، واضعاً ساعدي على باب المركبة، غير مبالٍ، وكأنّما الحرب انتهت. هكذا هي فرانش، تنادي جرحاها باسم السلاح الذي أصابهم: تناديني «مفرقعتي» بسبب ذاك اللّغم، مثلما كانت تنادي رولان «انفجاري» بعدما خرج من كمين حاملاً أمعاءه بين يديه، وتنادي إدمون «حوض استحمامي»، هو الذي عادت إليه الروح بعد خضوعه لتحقيق شامل. مفرقعتي: لم تنادِني قط باسمٍ غيره.

*

23 سنة، 3 أشهر، 28 يوماً **الجمعة 7 فبراير 1947**

كلّما أُصبت بالرّشح أصحو بأنفٍ مخنوق. جاف، لكنّه مخنوق. تحديداً المنخر الأيسر الذي ينغلق بسبب تضخم الغشاء المخاطي الذي أستطيع لمسه إذا ما دفعت بسبابتي عميقاً. أنام بفم مفتوح وأستيقظ بحلقٍ جاف مثل جيفة تصعّدت. أأَكُون مصاباً بحساسية تجاه جو باريس؟

23 سنة، 4 أشهر، 9 أيام — الأربعاء 19 فبراير 1947

أهو رحيل سوزان، أم وابل الاعتراضات التي يواجه بها شابلان كلّ اقتراحاتي، أم هو الأحمق بارمونتيي الذي يقضّ راحتي بوسواسه عن الحصص، ما يجعلني أعاني حموضة المعدة؟ منذ أن كنت طفلاً وأنا أعاني أمراض الشيوخ، تلك الأمراض التي ترافق حياتكَ بأكملها وتنتهي إلى أن تصير كالطبع. هل أنا شخص مشاكس؟ هل سأصير ساخطاً[1] في غضون سنوات؟

23 سنة، 5 أشهر، 21 يوماً — الاثنين 31 مارس 1947

آكل دون شهية. أنام نوماً مضطرباً. لا شيء يُبلع ولا شيء يخرج. آلامٌ تكاد تكون دائمة على مستوى المريء. تركت الأمر يتفاقم وها أنا ذا قلق. نصحني إتيين بعيادة طبيب. إنّه لأمرٌ مفيد، خاصة ضد القلق. اختصاصي الأمراض الهضمية الذي نصحني بعيادته يمكن أن يستقبلني بعد أسبوعين في مستشفى كوشان. أقراص رونيه تريحني قليلاً. ولا خبر عن سوزان.

23 سنة، 5 أشهر، 30 يوماً — الأربعاء 9 أبريل 1947

عليّ أن أنتظر خمسة أيام أخرى. وقت ضائع لا غير! ولا خبر بعد عن سوزان. تسألني فرانش: ماذا تأمل من هذه الفتاة؟ لقد

---

(1) يلعب المؤلف على الجناس اللفظي بين كلمات Aigreurs (حموضة المعدة)، وAigre (مشاكس الطبع) وAigri (الساخط). (م)

twitter @baghdad_library

فتحت لك أبواب الحياة يا مفرقعتي، ليس أمامك سوى الدخول! آمل أن أستعيد شهيتي، تحديداً شهية الجنس وشهية الحياة. غير أنّي لا أستعيد سوى مخاوف طفولتي، أستعيدها في شكل مخاوف مرضية، ذاك أنّ لا فائدة من إخفاء ما أخشاه: إنّي أخاف، مرض السرطان. المخاوف المرضية: انحراف يصيب الوعي، ويؤدي إلى إحساس مبالغ فيه بتأثيرات الجسد. هي نوع من الهذيان الاضطهادي الذي يكون المريض فيه مضطهَداً ومضطهِداً في آن. عقلي وجسمي يتبادلان المقالب. إنّه إحساسٌ جديد في نهاية المطاف، وهذا ما يجعله إحساساً مثيراً للاهتمام. هل أنا بطبعي مريض بالمخاوف المرضية، أم أنّها لا تعدو كونها حالة عابرة؟ سرطان المعدة: أن تُلتهم من الداخل من طرف عضو الهضم نفسه! يا لهُ من رعبٍ أسطوري.

23 سنة، 6 أشهر، يومان **السبت 12 أبريل 1947**

ما عدتُ أهضم نفسي.

23 سنة، 6 أشهر، 4 أيام **الاثنين 14 أبريل 1947**

اِستغرق الكشف سبع دقائق. غادرت غرفة الكشف مرعوباً. لم أستوعب ربع ما قاله لي اختصاصي الجهاز الهضمي. يتعذّر عليّ وصف مكتبه. حالة شرود غريبة ألمّت بذهني. أنت محظوظ، فأحد المرضى اعتذر عن موعده، وبالتالي أستطيع رؤيتك مرة أخرى بعد ثلاثة أيام. هل يقول الصدق، أم أنّه احتجّ بذلك فقط كي لا يخبرني أنّ حالتي مستعجلة؟ بدل أن أتابع ما يقوله رحت أتفحص وجهه.

وجه قاس. ملامح دقيقة. أخبرني أنّه بعد ثلاثة أيام سيُدخل أنبوباً إلى معدتي حتى يرى ما يحصل فيها. ما كان ثمّة من شيء يمكن قراءته في وجه هذا المختصّ سوى ذاك الإخبار، لكنّ مخاوفي المرضية أخذت تُلحق بكلّ قسمة من قسمات وجهه دوافعَ خفيّة مخزية. بدأتَ تفقد رشدك يا فتى، تتصرّف وكأنّما هذا الطبيب أحد المندسّين من الـ SS[1].

23 سنة، 6 أشهر، 6 أيام **الأربعاء 16 أبريل 1947**

عاجز عن القراءة. عاجز عن التركيز في أي شيء. وحده العمل ما زال قادراً على التنفيس عنّي قليلاً. رغم أنّ جوزيت ألفتني هذا الصباح شارد الذهن، فيما ألفتني ماريون مشتت الذهن بعض الشّيء. لم تعُد عقاقير روني تريحني البتّة. تهيّج عام يجتاح أعصابي. بات مؤكداً أنّ الأمر قد قضي، وأنّها آخر مرة أتذوق فيها هذا النبيذ وهذا الزيتون وهذه العصيدة -التي لا أستطيع بلعها بالمناسبة- آخر مرّة أذوق فيها هذه الأشياء وأنا معافى الجسم، وآخر مرّة سأشهد فيها ازهرار كستناء حدائق اللّوكو. منذ متى صرت تحفل بأشجار الكستناء؟ ألم تكن تراها دوماً أشجاراً مدرسيّةً؟ أجل، لكنّ يقين الموت الوشيك قد يجعل المرء يُغرم بحشرةٍ! إنّ الخوف من المرض أشدّ رعباً من المرض نفسه. لهذا أتعمّد الحدّة في تشخيص حالتي! سأستطيع بفضل ذلك أن أواجه مرض السرطان المؤكد! حتّى

---

(1) أحد التنظيمات النازية الموازية للجيش، ترأسه هيملر وكان مدبّر عملية «ليلة السكاكين الطويلة». (م)

twitter @baghdad_library

أنّني أتخيل بعض الوضعيات البطولية. أراني أترقّب بيدين رطبتين، ثمّة ارتعاش خفيف يجتاح رؤوس أصابعي، والقلق يلهمني حتّى أنّ حالة الإمساك التي أعانيها تتحوّل إلى إسهال. تماماً مثلما كان الأمر حين كنت في سن الثانية عشر. «لن أخاف بعد اليوم، لن أخاف بعد اليوم، لن أخاف البتة بعد اليوم»... هراء! يبدو أنّي لم أتعلّم شيئاً. يبدو أنّ لا أهمية لهذه المذكرات التي كتبتها بغية هزم مثل هذه المخاوف. هل عليّ أن أتعايش حتّى آخر العمر مع هذا الولد اللافقاري الذي يتغوّط في سرواله عند أدنى مفزع؟ كُفّ عن البكاء، كُفّ هيا، هلا انتهيت! انظُر إلى نفسك من الخارج، أيها الأبله، لقد خرجت حياً من حرب كونية، وفتحت لك امرأةٌ رائعة طريقَ النّساء!

23 سنة، 6 أشهر، 7 أيام **الخميس 17 أبريل 1947**

خضعت لفحص الجهاز الهضمي وأنا في حالة خنوع تامّ. سلّمت أسلحتي إلى الهيئة الطبية. جئت بثقة عمياء، دون أن أستسلم للوهم فيما يخص نتائج الفحص. إنّه ضرب من القدرية المسالمة. طيلة المدة التي قضاها اختصاصيّو الجهاز الهضمي، وقد أحاطوا بي، في إيلاج الأنبوب عبر حنجرتي ليعبروا به المريء وصولاً إلى معدتي ليستكشفوها حتّى الباب الفاصل بينها وبين المعيّ، طيلة تلك المدة قاومت شعور الغثيان المروّع الذي اجتاحني، قاومته بأن فكّرت في ذاك الرجل مبتلع السيوف الذي كنت قد شاهدته ذات يوم حين كنت طفلاً وأخذني أبي إلى السيرك. كان الأطباء يتبادلون الأحاديث وهم يستكشفون دواخلي. كانوا يتفحّصون أنابيبي وهم يتحدّثون عن العطلة القادمة. وهذا أمر جيد. أن تظلّ الحياة مستمرّة حين تتوقّف!

خبر سار: لم يكشف الفحص سوى عن تهيّج بسيط في المريء. خبر سيئ: يريدني أن أعود لرؤيته بعد إجراء فحص دم. العلاج المقترح: ضمادات خاصة بالمعدة ونظام حمية يمنع فيه أكل اللّحوم مع المرق. (يبدو لي أنّ هذا الطبيب غير معني البتة بنظام التحصيص!).

23 سنة، 6 أشهر، 18 يوماً الاثنين 28 أبريل 1947

فحوصي تؤكدّ أنّ كل شيء **طبيعي**. لست مصاباً بأي شيء! يصيبني هذا الأمر بمشاعر متضاربة: اِبتهاج يكدرّ صفوه خجل تذكّر أنّي خفت لتلك الدرجة. بيد أنّ الارتياح ينتصر على كل شعور سواه. ذهبت إلى المطعم مع إستيل وطلبت سجقاً وبطاطس مشوية وقنينة نبيذ أحمر من نوع بَرْوِيي. حتى الآن لم تعاودني حموضة المعدة. كانت جولة ممتعة مع إستيل في حديقة النباتات. ها أنا ذا أستعيد جسدي. آه، أجل، مونتينيْ: نور الصحّة المبهر[1]!

23 سنة، 6 أشهر، 28 يوماً الخميس 8 مايو 1947

سألني أحد المارّة عن الاتجاه المفضي إلى تروكاديرو. وبدل أن أريه الاتجاه، أجبته عفوياً، بلكنة سوزان، أنّي لست من هنا، أنا من كيبيك. لا أعرف ما هو هذا التروكاديرو. عندما كانت سوزان تقلّد اللّكنة الفرنسية، أي لكنتي، كانت تمنحني إمكان ملاحظة فيزيولوجيا لغتنا. كان وَجهُها يضيق، وحاجباها يرتفعان، ورأسها يستقيم، وجفناها يغمضان نصف إغماضة، ويبرز فمها متغطرساً

(1) عبارة لمونتينيْ. (الكتاب الثالث. الفصل الثامن. ص 1702). (م)

twitter @baghdad_library

وعابساً: أنتم أيها الفرنسيون الملاعين، دائماً ما تتكلمون بفمٍ أشبه ما يكون بمؤخرة الدجاجة، وكأنّما تخرجون بيضاً ذهبياً وتلقّون به على رؤوسنا!

23 سنة، 6 أشهر، 29 يوماً الجمعة 9 مايو 1947

اللّكنة، كما كانت تقول سوزان، هي اللّغة مثلما نأكلها! أنت أيها الفرنسي تأكلها بلياقة مبالغة، أما أنا فألتهمها بشرهٍ.

*

إلى ليزون

شهورٌ من الانقطاع بعد حلقة وسواس المرض. اِنتصرت الملذّات المستعادة والمستقبل الذي يفتح ذراعيه والمناظرات السيّاسيّة على كتابة المذكّرات. بعد المقلب الذي دبّره لي جسدي، انمحى من الوجود. ثمّ إنّ الحياة كانت في عنفوانها، كما يفترض أن تكون بعد فترة حربٍ.

*

24 سنة، 5 أشهر، 19 يوماً الاثنين 29 مارس 1948

بعدما مارسنا الحب سألتني بريجيت عمّا إذا كان لديّ دفتر مذكرات. أجبتها نافياً. وإذ سألتها السؤال نفسه أجابت بأنّ لديها واحداً، فسألتها عمّا إذا كانت ستدوّن فيه ليلتنا. أجابت «ربّما»، بتلك العفّة الزائفة التي تستعملها بعض الفتيات اللّواتي يعتقدن أنّهن بعد أن يُفشين الأهمّ بإمكانهن حفظ السر من طريق إخفاء التفاصيل.

بالطبع ستدوّنينها، هكذا فكّرتُ، ولهذا السبب بالذات لا أملك أنا كتاب مذكرات، فما أذكره من ليلتنا هو هذا الإحساس الدائم بالتوتر المؤلم لقلفتي حين اضطرت لأن تكبح نفسها حتّى كادت تتمزّق. هذا كلّ ما ينبغي أن أدوّنه هنا. أمّا ما تبقى، وهو الأروع، فلا يعني أيّ مذكرات.

24 سنة، 5 أشهر، 22 يوماً الخميس 1 أبريل 1948

«لَفُّ الجورب» هي في كلّ الأحوال عبارة أجمل من «كشْف القلفة». على أنّه ينبغي في مجال الفيزيولوجيا الحذر من العبارات الجميلة. ثمّ إنّ كلمة «كشف» تُوْمِي، ولو بشكل طفيف، إلى السيارة المكشوفة، وهو معنى يعجبني. دون أن أنسى قبّعة الكهنة، وهي كلها كلمات متجانسة. «أكشف قلفتي»، و هُوبْ! كاهنٌ آخر يختفي.

24 سنة، 6 أشهر، 6 أيام الجمعة 16 أبريل 1948

استشرتُ طبيباً يسمّى الدكتور بِك، نصحني العم جورج بزيارته ليفحص تلك الكريات التي تخنق أنفي عميقاً بعد كلّ نزلة برد، (خاصة فتحة أنفي اليسرى). إنّها أورام حميدة، ولا يمكن فعل شيء حيالها. أَعليّ تحملها طيلة حياتي؟ بالنظر إلى الوضع الحالي للطبّ، لا شك في ذلك، يا فتى. حقاً ليس ثمّة ما يمكن فعله؟ حاول أن تتجنّب نزلات البرد في فصلَي الخريف والربيع. وكيف؟ تجنّب الاختلاط في الفضاءات العامة: المترو وقاعات السينما والمسارح والكنائس والمتاحف والمحطات والمصاعد... تلا اللائحة وكأنّما يتلو وصفة طبيّة، واختتمها بهذه النصيحة: وتجنّب الاتصالات

twitter @baghdad_library

الفموية. (نصحني باختصار بتجنّب الجنس البشري). ماذا عن إجراء عملية؟ لا أنصحك بهذا الأمر، فالأورام الحميدة ليست كاللوزتين، إنّها تنمو مجدّداً بشكل تلقائي. على أنّ العجوز ودّعني بخبر سار: إنّ أورام الأنف نادراً ما تتحوّل إلى أورام خبيثة، بعكس تلك التي قد نعثر عليها ذات يوم في أمعاءك أو مثانتك.

24 سنة، 6 أشهر، 14 يوماً السبت 24 أبريل 1948

أضاع كاهني قبّعته: اِنتهى المطاف بمكابح قلفتي إلى التلف، فملأنا قضيبي الممزّقُ أنا وبريجيت بالدّم. وصفت بريجيت ما وقع قائلة: «إنّه العالم بالمقلوب».

24 سنة، 6 أشهر، 21 يوماً السبت فاتح مايو 1948

ينبغي التوقّف إذن عن ممارسة الجنس. وعلى كلّ حال إنّ بشرة بريجيت محبّبة بعض الشيء. لا أعتقد أنّي أستطيع قضاء لياليّ لصق مؤخرة محبّبة. قد أقضي حياتي رفقة بريجيت، لكنّي لن أقضي لياليّ لصق مؤخرتها. كلا.

25 سنة الأحد 10 أكتوبر 1948

ثمّة هزّة جماع تأتي من أعماق الجسد، وهزّة جماع أخرى لا تتعدّى طرف القضيب. صرت الآن أبلغ نشوتي مع بريجيت، إذ ينبغي ذلك. أبلغ معها نشوة موضعية صغيرة، نشوة تُختزل في المنطقة التي تنشأ فيها، امتيازٌ تحظى به الحشفة تبعاً لهذا القانون: بما أنّه ينبغي أن نضاجع فلنضاجع، وبما أنّه ينبغي أن نبلغ النشوة

فلنبلغها. نشوة مبدئية لا تتطلّب من الذهن أن يُشركَ كامل الجسد في العملية. إنّها نشوة تناسبك تماماً، هكذا كان يهمس في داخلي صوت رفيع: كي يفرغ المرء نفسه عليه أن يمتلئ أولاً يا ولدي. أحبَّ، أتْرِع نفسك حباً، أحبَّ وُسع قلبك[1]، وساعتها ستنتشي حدّ الثمالة! كانت تلك دعوة متناقضة وجَّهتها لي آنسة خاضعة للتسعيرة من فتيات شارع موغادور أهديتها لنفسي في عيد ميلادي. لم تكن جشعة فيما يخصّ مسألة الوقت، وكانت مقنعة جداً فيما يخصّ الفنّ الذي تمارسه، وغير حافلة بجسدها قدر انشغالها بجسدي. ظلّ رأس قضيبي محتضَناً إلى أن انفجر، تماماً مثلما كان يحدث مع سوزان.

25 سنة، يومان **الثلاثاء 12 أكتوبر 1948**

تذكّرني أعياد ميلادي بأول حفلة عيد ميلاد، تلك التي سألتني فيها أمّي عمّا إذا كنت «أستحقّ» هدية عيد ميلاد. ما زلت أسمع صوتها: في نظركَ، ماذا تستحقّ في عيد ميلادك؟ أسمعها بالنبرة الواعظة نفسها التي تشدّد على كلّ حرف، وعينيها الكبيرتين اللتين تكادان تخرجان من رأسها وتنذران بأنّ لا شيء يُفلت من نظرها. مع أنّها كانت امرأة قليلاً ما تنصت للآخرين، ولا حتّى تهتم لأمرهم. كنت أتعمّد السعال وأنا أطفئ الشمع. كنت أقلّد أبي. ما كان سيسعدني حقاً في عيد ميلادي هو: إصابة بالسَلّ!

---

(1) يكتب المؤلف كلمات (حبّ «Amour» وأحب «Aimer» وقلب «Cœur») بأحرف بارزة وبتهجئة خاصة بحيث يضيف إليها حرف H، كأنّما ينطقها بلوعة: Hamour، Haimer، Chœur. (م)

twitter @baghdad_library

25 سنة، 3 أشهر، 6 أيام **الأحد 16 يناير 1949**

قضيت وقتاً لا بأس به في إزالة ما كنت أحسبه ليفاً من ألياف الكرّاث، كان محصوراً بين سنّي القاطع الأعلى جهة اليمين وما بين النّاب الذي يجاوره، حاولت بداية بإصبعي ثمّ استعنت ببطاقة عمل قبل أن أنتهي إلى التوسل بعود ثقاب مقلّم. ولا أثر لليف الكرّاث. أعتقد أنّها رسالة خاطئة بعثت إليّ بها لثّتي التي تعاني هي نفسها من ذكرى اضطراب سابق. وليست هذه أولّ مرة يحدث فيها هذا الأمر. إنّ لثّتي تتوهّم!

25 سنة، 3 أشهر، 12 يوماً **السبت 22 يناير 1949**

لا فائدة في أن أستمرّ في إخفاء الأمر عن نفسي: لا أشتهي سيمون. جسدانا لا يتناغمان، ومهما طال الزمن سينتهي المطاف بهذا اللاتوافق الجسدي إلى القضاء على تواطئنا. إنّنا بالفعل في مرحلة البحث عن البديل. وما هذا التفاهم المثالي الذي نظهره ويجعل منّا زوجاً «ذا شعبية» كبيرة، ليس في الواقع سوى طريقة لإخفاء عجزنا الجنسي. لا ينبغي أن يعاني طفلٌ في المستقبل بسبب خلافنا.

25 سنة، 3 أشهر، 14 يوماً **الاثنين 24 يناير 1949**

عندما أكون مع سيمون في السرير أحاول تطبيق المنهج الذي علّمته لدودو حتّى يستطيع أكل ما لا يحبّه من أطعمة، لكنّ نقل هذه الطريقة إلى السرير غير ممكن للأسف. كان على أخي الصغير

المتخيّل أن يركّز ذهنه على ما يوجد بداخل فمه وأن لا يفكّر في شيء غيره، أن يحاول تحديد كلّ مكوّن من مكونات اللّقمة التي يمضغها، وأن لا ينساق وراء تلك التمثلات الخيالية التي ينسجها الأطفال عادة حول الأطعمة بدلَ التركيز على مذاقها: حلوى الأرزّ ليست قيئاً، والسبانخ ليست برازاً... إلخ، لكنّ عندما يتعلّق الأمر بالسرير حيث كلّ شيء يعود إلى مسألة التماسك، يفشل ذاك المنهج. فكلّما دقّقت فيما أحضنه كلّما صرت غير قادر على استيعابه: هذه البشرة الجافة وهذه الترقوة الحادة، وعظم العضد الذي تحسه ما إن تلمس عضلة الذراع، هذا النهد القويّ العضلات بشكلٍ مفرط، هذه البطن الصلبة، وهذا الوبر الخشن، وهذه المؤخرة القاسية الصغيرة قياساً إلى يديّ، باختصار يدفعني هذا الجسد الرياضي إلى التفكير حتماً في نقيضه، بل الأدهى من ذلك أنّني مضطر إلى الانسياق خلف الخيالات حتى أتمكن من استهلاكه، وإلا يرتخي العضو وألجأ إلى اعتذارات مريبة ونقضي ليلة مكدّرة ونستفيق الصباح بمزاج عكر.

25 سنة، 3 أشهر، 22 يوم الثلاثاء فاتح فبراير 1949

ثمّ إني لا أحبّ رائحتها. أحبّها، لكني لا أستطيع شمّها. وليس في الحب ما هو أشدّ تراجيدية من هذا الأمر.

25 سنة، 3 أشهر، 25 يوماً الأحد 4 فبراير 1949

مونتيني: أمثَلُ رائحة قد توهب لامرأة هي أن تكون بلا رائحة. بلى. أينكِ يا فيوليت؟ رائحتك كانت معطفي، لكن ليست أنت من

twitter @baghdad_library

يتحدّث عنها مونتيني. أينك يا سوزان؟ رائحتك كانت رايتي. أنت أيضاً لست من يقصدها مونتيني.

25 سنة، 4 أشهر الخميس 10 فبراير 1949

كنّا نملك أنا وسيمون «كلّ أسباب التوافق». غير أنّ جسدينا لم يعودا قادرين على المضي أبعد. نتوافق، لكنّنا لا نشكّل جسداً واحداً. وحتّى أكون صادقاً: جسدها هو ما شدّني في البداية إليها وليس طباعها، لقد شدتني: نظرتها ومشيتها ورنّة صوتها، ورهافة حركاتها التي يشوبها عنف خفيف، وأناقتها الفائقة، الضحكة المكتنزة في وجهها المرتاب، كلّ تلك الأمور (التي عرفتها عن جسدها) تتوافق تماماً مع ما تقوله وما تفكر به وما تقرؤه وما تكتمه وما تَعِد به. وها أنا ذا ألفي نفسي في سرير واحد مع بطلة تنس كلّها عضلات وأوتار وردود أفعال وتحكّم وقدرة على الكبح. ما الذي كان ليحصل لي لو لم تكن الملاكمة وتمارين الجسد قد أعطتني بدوري هذا الجسد القوي العضلات؟ كانت عضلات بطنينا تلتقي فتتنافر. ماذا لو بحثت الآن عن فتاة ليّنة الجسد وبدينة؟ وأترك جسدي يتضخّم حتّى يبتلع جسدها بكامله في الآن نفسه الذي يلجها فيه. ستنقاد لي وهي تنتشر بين طيّات جسدي. عندما سألْت فرانش بولين ر. لما تفضّل الرجال الضخام؟ أجابتها بصوت ونظر شاردين: آه! ذاك أشبه بأن تضاجعي سحابة!

25 سنة، 4 أشهر، 7 أيام الخميس 17 فبراير 1949

هذا الصباح بالكاد يبدو على سريرنا أثر الاستعمال.

25 سنة، 5 أشهر، 20 يوماً   الأربعاء 30 مارس 1949

تسوّس الأسنان، أو الألم عند حدوده القصوى. استيقظت موخوزاً بسبب تسوس سن. بعدما جعلتني أقفز من فراشي في الهواء، بدت لي هذه القذارة جديرة بالاهتمام. تسوس الأسنان يكهرب الجسد. إنّها الوجع الأقرب إلى التفريغ الكهربائي. مثل كلّ صدمة كهربائية يفاجئنا وجع الأسنان. يكون اللسان مستغرقاً في أحلامه سارحاً داخل الفم، ثمّ فجأة تنطلق صعقة درجتها ألفان أو ثلاثة آلاف فولت! إنّه ألم فظيع، لكنّه ألم لحظي. أشبه ما يكون ببرق معزول في سماء عاصفة. إنّه ألم لا ينتشر، يبقى محدوداً بصرامة في نطاق ضرره الخاص ويتوقف فور أن يبدأ. لدرجة أنّه ما إن يخلق المفاجأة حتّى يكون قد دخل حيّز الشكّ. تبدأ حينئذٍ اللعبة الخطيرة، لعبة التنقيب. ينطلق اللّسان جاساً المنطقة محاذراً وحريصاً حرص من يفتّش عن الألغام، فيجرّب اللّثة والمناطق المحيطة بالسنّ المشبوه حتّى يعثر على الطبقة المتكسّرة وينزلق داخل الفجوة بتبصّر حيوان رخوي مدّ مجساته متلمساً المكان. وسواء أخذ المرء حذره أم لم يأخذه سيتلقى صعقة تجعله يقفز إلى السقف. غير أنّه يصعب على الذهن الاحتفاظ بأثر وجع عابر بتلك الدرجة. لهذا نعود مجدّداً لتفحص الأمر. وصعقة أخرى! وينكمش الحيوان الرّخويّ فوراً. بغيض هو تسوّس الأسنان.

25 سنة، 5 أشهر، 24 يوماً   الأحد 3 أبريل 1949

كارولين سوسة أسنان. أثر إساءاتها يُنسى فوراً. لدرجة أنّها ما

twitter @baghdad_library

إن توجه طعنة حتّى يبدأ المرء يشك فيما إذا كانت فعلاً قد طعنته. إنّها فتاة من الرّقة بما كان! صوتها شديد العذوبة! بشرتها شديدة الشحوب! عيناها شديدتا الزرقة! شعرها شديد الشبه برسومات بوتشلي! لهذا نعود إليها بعد الصعقة. نتفحصّ الأمر. ثمّ نعود إلى التباكي: لقد فعلت بي هذا، لقد فعلت بي ذاك. ليس الضحايا ما يصعب العثور عليه. إنّ كارولين من ذاك النوع من التسوس الذي تخلقه حاجتنا الدائمة إلى أن نحَّب. وأن ننكشف. كارولين تجيد دور السنّ المريضة: لقد عشت طفولة بئيسة. تعرض نفسها كسوسة بريئة: ليس ذنبي، فقساوة الرجال هي ما جعلني هكذا. وضحاياها الذين لا يحصون يلعبون دور أطباء الأسنان: بإمكاني أن أعالجك، أجل أستطيع ذلك! إنّها سوسة جذّابة. يتدافع الرجال أمام بابها: ثقي في مراهمي، ثقي في حبّي، ثقي في لعبة الروليت خاصتي، أعلم أنّك في العمق لست هكذا! وينزلق اللّسان في سحر الفجوة. أتنبأ لهذه الفتاة بمستقبل سياسيّ باهر.

25 سنة، 5 أشهر، 25 يوماً الاثنين 4 أبريل 1949

ها أنا ذا بهذه الملاحظات حول الرفيقة كارولين أفرغ غضبي في دفتر المذكّرات. سؤال: عندما يصدر جسدي استعارة توضّح طبيعة أبناء جلدتي، هل يحقّ لي أن أجعل استعارتي تمتدّ لتشمل أيضاً ما ينبغي أن يُكتب في دفاتر المذكرات؟ جواب: كلا. ما السبب الرئيس لهذا المنع؟ لا شكّ في أنّ لدى كارولين أيضاً دفتر مذكرات يتضايف فيه الواقع مع رغباتها. ثمّ إنّ العديد من الاستعارات المغايرة ستصلح للتعبير عن مزاج تلك الفتاة: يمكن على سبيل

المثال اللّجوء إلى استعارة القُرادة التي تتعيّش بمكر على امتصاص دمائنا، وينتهي المطاف بها مسحوقة. أو حتّى استعارة المكورات العنقودية التي تعيش حالة سبات ما بين استفاقتين مدمّرتين. كلا، كلا، لا امتداد إلى دفاتر المذكرات!

25 سنة، 6 أشهر، 3 أيام الأربعاء 13 أبريل 1949

للمرة الأولى في حياتي ذهبت عند طبيب الأسنان (نصحني به العم جورج). النتيجة: انتفاخ في الخد يجبرني على التواري عن الأنظار وعدم الذهاب إلى العمل. لقد قايضت الصعقة الكهربائية اللّحظية بألم دائم، بمجمرة وقودها الجهة اليسرى من فكّي العلوي، عليّ أن أحملها وهي في أوج توهجّها. إذا ما أحسستَ بالألم تناول هذا. تناولت ذاك، وما زلت أحسّ بالألم، بل إنّ الألم بدأ منذ لحظة أخذ حقنة البنج. أدخلت الحقنة بشكل عمودي في فوهة ضرسي، وطيلة الوقت الذي كان فيه جلّادي يُعمل حقنته في الضرس كي يحقن البنج، كان جسدي يتصلّب مثل لوح كيّ الملابس. لن يكون الأمر مريحاً، لكنّه سريع. لم يكن لا مريحاً ولا سريعاً. وما إن حقنني بالسائل حتّى بدأ ينخر فكّي بمخرطة مثل محكوم ينقبّ في منجم. كلّ هذا الهرج والمرج كي يزيل شعيرة رمادية دقيقة من أعمق أعماق العالم. انظُر، إنّه عصبك. حسناً، سأضع لك ضمادة وسنهتم بتاج السنّ حين يطيب الجرح.

نصحني أيضاً بأن أغسل أسناني بشكل أكثر جدية. ليسَ أقل من دقيقتين كلّ صباح ومساء. من الأعلى إلى الأسفل ومن اليمين إلى اليسار. مثلما يفعل الجنود الأمريكيون ضمن قوات التحالف.

twitter @baghdad_library

نقاش محتدّ بين م. و ل. وفجأة تعمّ المكان رائحة براز قوية. رائحة قوية ومفاجئة لدرجة جعلتني أقفز من مكاني. يبدو أنّ محاوريّ لم يشمّا شيئاً. مع أنّ الرائحة ظلت مقيمة هناك! رائحة حمض الستريك، رائحة خانقة. إنّها «تشدّ الخناق بالفعل على الحنجرة». وهي بالفعل رائحة خرائية لدرجة أنّي حسبت نفسي قد سقطت في حفرة غائط. رافقني إحساس القرف ذاك طيلة يومي، في نفحات هواء، على الرغم من أنّي كنت في مجال معزول عن تلك الرائحة. في المكتب، وفي المترو، وفي المنزل، أينما حللت كان ثمّة باب يفتح ويغلق لتنفذ منه الرائحة النتنة التي يصفع لفحُها. هذيانٌ شمّي، هو ذا تشخيصي للحالة. لم أسقط في حفرة غائط، أنا نفسي تلك الحفرة المغلقة الشديدة النتانة، ولحسن حظي لا أصدر الرائحة. وهم رائحة في حفرة محكمة الإغلاق، هذا ما أحسه دوماً. ولكي يطمئن قلبي أخبرت إتيين بالأمر. سألني عمّا إذا كنت قد ذهبت عند طبيب أسنان مؤخراً. أجل، ذهبت الأسبوع الماضي عند طبيب الأسنان الذي يعرفه والدك. هل عالج ضرساً من أضراسك العليا؟ أجل في الجهة اليسرى. لا تبحث بعيداً، لقد حفر إحدى جيوبك وها أنت ذا قد صرت مرتبطاً ربطاً مباشراً مع تجاويفك الأنفية. عليك أن تتحمّل هذا الأمر بضعة أيام إلى أن يشفى الجرح. تجويف أنفي؟ على ماذا تُفتح هذه التجاويف؟ هل رائحة روحنا تشبه البراز؟ هل كان لديك شكّ؟ أخبرني إتيين المزيدَ عن هذه النتانة

الفريدة من نوعها[1]. ليس الأمر أنّ روحنا كريهة، وإنّما جيوبنا التي تلتهب عادة تفرز هذه الرائحة المنتنة، أو لنقل بصيغة أوضح إنّها رائحة التحلّل العضوي، التي تكفي حركة منحرفة خفيفة من مشرط الطبيب ليعاني منها جهازنا الشمّي. إنّها مسألة كثيرة الحدوث وبدون خطورة تذكر. هذا الاتصال المباشر بدواخل رأسنا يعمل مثل العدسة المكبّرة بالنسبة إلى روائحنا النتنة التي تكون عادة سرّيّة ومكتومة. (في الخارج تنطفئ الروائح إذ تنتشر). تلك الرائحة إذن، شيء واقعي، وليس مجرّد وهم: إنّها مركّز خلايا في حالة تعفّن.

25 سنة، 6 أشهر، 15 يوماً الاثنين 25 أبريل 1949

قضيت ستة أيام وأنا أشمّ البراز دون أن ينتبه للأمر أحد. حتّى يوم ناقشت أطروحتي. لم تنتبه اللّجنة لشيء. هنّأتني اللّجنة بالإجماع. هنأتني وأنا أعوم في حفرة قذارتي. كنت مثل اللّيدي ماكبث[2].

25 سنة، 7 أشهر، 4 أيام السبت 14 مايو 1949

حركات الخيّاط السريعة وهو يأخذ قياساتي بشريطه. طول الذراعين والساقين والقامة والعنق وعرض الكتفين. لمس دقيق ومحايد للجوانب المحيطة بما بين الفخذين. (أسأل نفسي سؤالاً عابراً: هل أحسّ؟). بيد أنّ الخياط لا يهتم لأمر هذا الجسد.

---

(1) باللاتينية في الأصل. (م)

(2) زوجة ماكبث في مسرحية شكسبير الشهيرة. (م)

twitter @baghdad_library

وبالتالي، يأخذ مقاساتي دون أن يلمسني. لا يشبه الطبيب المتفحص في شيء. أصابعه المتمرّسة على زرع الإبر تقدّر حجم الجسم وترسم له مظهراً، مظهر الرّجل الاجتماعي الذي يغادر بيته، الرجل الذي يرتدي وظيفته. بشكل غريب يشعر جسدي بنفسه عارياً وهو يرتدي هذه البذلة الجديدة.

25 سنة، 7 أشهر، 5 أيام الأحد 15 مايو 1949

لم أفهم سؤال الخياط: هل يميل جسدك إلى اليمين أم إلى اليسار؟ كان عليه أن يوضّح سؤاله. وكان عليّ أن أفكّر في الأمر. أعتقد أنّي أميل إلى اليسار. أجل إلى اليسار. عضوي يميل إلى الاتجاه يساراً. لم أفكّر في هذا الأمر من قبل.

26 سنة، 5 أشهر، يومان الأحد 12 مارس 1950

منذ شهور لم أدوّن شيئاً هنا. ككلّ مرّة يعرض لي فيها أمر مهم. تحديداً حين أقع في الحبّ. الأشياء المستعجلة لا ينبغي أن تدوّن وإنّما أن تعاش. الاختناق حباً! ليس من السهل وصف الأمر ما لم نرغب في أن نغرق في أتون المشاعر. نغرق سعادة. الحب ينظر إلى الجسد بسخرية! وقع لي الأمر منذ ثلاثة أشهر، عندما كنت مدعواً إلى سهرة عند فرانش. كانت الشقة مليئة. قُرِعَ الباب وكنت الأقربَ إليه، ففتحت. لم تقل أكثر من: «أنا مونا»، فظللت واقفاً في مكاني بعدما أفسحت لها الطريق لتمرّ، ضائعاً في الحبّ الذي أصابني بغتة دون قيد أو شرط. عجيبة هي الطمأنينة التي تشعر بها الرغبات في حضرة الجمال! ليس ثمّة أدنى شك في أنّ هذه المونا تملك أكثر المظاهر

جاذبية، وها هي ذي ستصير الأشدّ لطفاً، والأشدّ تهذيباً، والأشدّ ظرفاً، وأفضل رفيقة ما بينهن جميعاً! كمالٌ يبلغ حدوده القصوى. ذاب قلبي كالرّصاص. أكانت الأغبى والأشدّ شراً وتكلّفاً، والأكثر طمعاً ومكراً وخبثاً وعهراً، بورجوازية مفلسفة أو متسولة مؤقتة، سُلّم إليّ ملفّها لأدرسه دراسة قبلية. لقد صدّق قلبي عينيّ! لم تكن حياتي تنتظر سواها! هذه الواقفة أمام الباب، والتي يبدو أنّها هي أيضاً ليست مستعجلة في الدخول، هي ضالتي! هي المرأة بصيغة التشديد! اِمرأتي أنا! هي صيغ وضمائر الحيازة! يقين أبديّ! ثقافتنا كلّها تصعد مع دفق الغدد التي تقصد القلب، في اللّحظة التي تصيبنا فيها صعقة الحب، كلّ أغاني العشق السخيفة والأوبرات الرفيعة، النظرة الأولى التي ألقاها مونتيغي على كابولي[1] أو دوق نيمور على أميرة كليف، عذارى وفينوسات وحوّاءات غراناش وبوتشيلي، جميعاً يصعدن من أقبية المتاحف، والمجلّات والروايات، من الإعلانات والنصوص المقدّسة، نشيد أناشيد الأناشيد، كلّ الرغبات التي راكمناها في شبابنا وزادها استمناؤنا المحتدّ تضخماً، كلّ الطلقات الفارغة التي سدّدتها مراهقتنا باتجاه الصور والكلمات، كلّ رؤى روحنا المعذّبة، كلّ تلك الأشياء تترع القلب وتُشعل الروح! آه! يا لوَهج الحب! يا للبصيرة التي تنير فجأة! ما يدفعك إلى البقاء متسمراً أمام الباب. لسعادتي كان معطفي معلّقاً قرب الباب. أخذته ومنذ تلك اللّحظة، ولمدة ثلاثة أشهر، لم أغادر أنا ومونا السرير، حيث نخطّط أنا وهي الخطوط العريضة والتفاصيل الدقيقة لحياتنا الآنية ولما هو قادم. كان

(1) اسما عائلتين إيطاليتين اشتهرتا بسبب ارتباطهما بقصة «روميو وجولييت». (م)

twitter @baghdad_library

ثمّة اللّؤلؤ والحرير والحليّ والجواهر، كلّ ما يلزم لأكون مغفّل مونا! أتحدّث عن الأساسي، إذ ثمّة أيضاً نظرتها الشهية ومخمل بشرتها الدقيق، وثقل نهديها الناعم، وتماسك مؤخرتها المرن، واستدارة ردفيها المتناسبة، وتناسق كتفيها المضبوط، كلّ شيء يوافق يديّ، كلّ شيء يتناسب تناسباً دقيقاً مع جسمي وحرارتي، مع شمّي وذائقتي - آه! يا لنكهة مونا!- ينبغي أن يكون ثمّة إله حتّى ينفتح باب على نصفك المثالي! ينبغي على الأقل وجود إله حتّى يتحقّق هذا التوافق التام بين حجمي عضوينا! كان لزاماً علينا أن نتبع طريق التقدّم خطوة خطوة: يدانا التقتا أولاً ثمّ شفتانا، فعضوانا اللذين تلمسناهما ولاطفناهما ودغدغناهما وداعبناهما ودوزنّاهما قبل أن نسمح لهما أن يتبادلا الزيارة ويغرقا في بعض، أن يعزفا بإتقان نوتة اللّذة حتى يبلغا نهاية مقام Contre-ut، والآن صارا يلتهمان بعضهما ويخترقان بعضهما، تكفيهما فقط كلمة «نعم» أو كلمة «لا»، يفعلان ما يفعلانه بسرعة وإتقان، دون حاجة لأن يأخذا منّا تصريحاً بما يفعلانه بأعين مغمضة، يفعلانه أنّى كان، على السلالم، بين بابين، في قاعة السينما، في قبو هذا البناء الأثري، في كواليس ذلك المسرح، في حديقة ذاك الميدان، عند قمّة برج إيفل، بعد إذنكم! وإذا ما كنت قد قلت سابقاً أننا لم نغادر سريرنا، فلأن باريس كلّها سريرنا، باريس وضواحيها حتّى مقاطعة السين-و-المارن! نستعمل عضوينا حتّى درجة العطش، نعدّهما وننظّفهما بلساننا، كأنّما هما زبدة مذابة أو ظهر ملعقة، نتأملهما وهما في حالة النصر كما في حالة الإنهاك، بحنان أبله، كأنّه صادر عن سكّير يترجم كلّ ذلك إلى عبارات حبّ ومستقبل ونسل. أريد حقاً أن أنجب، حتّى لا تغادر مونا فراشي،

حتّى تنمو وتتكاثر، لمَ لا، ما دامت منابع اللّذة لا تنضب، وما دام اجتماعنا ينادي السعادة؟ لنبدأ في تشكيل سرب القوارض الصغار إذن، قدر ما نشاء، بمعدل قارض في كلّ مرّة لو شاءت الظروف، ولنكتري ثكنة عسكرية لإيواء جيش الحبّ ذاك! باختصار، ها أنا ذا هنا، وبوسعي أن أمضي في التدبيج وأطلق العنان لريشتي لولا أنّ ثمّة أمراً عاجلاً وعارياً على سريري يهمس لي بأنّ الوقت ليس وقت تخليد الانتصار وإنّما وقت العمل أكثر فأكثر! ليس المهم أن نحتفي بالزمن الذي مضى وإنّما بتكريم الزمن الذي لا يمضي!

26 سنة، 7 أشهر، 9 أيام الجمعة 19 مايو 1950

أمس بعد الظهر، أي خميس صعود المسيح. [احتفلنا] أنا ومونا بستّ طلقات، بل ستة ونصف، وكلّ مرّة كانت أطول من سابقتها. هذا الإنهاك المشرق، بالمعنى الحرفي للكلمة. مثل بطاريات تُفرغ بعد أن تمنحنا كلّ نورها. تنهض مونا ثمّ تسقط متراخية عند طرف السرير. تقول ضاحكة: لم يعد عندي هيكل عظمي. عادة تقول: لم تعد ساقيّ تحملاني. لقد حطّمنا رقماً قياسياً.

26 سنة، 9 أشهر، 18 يوماً الجمعة 28 يوليو 1950

كم يُفيد الجسدُ من طاقة الحب! أموري كلها تسير على ما يرام في هذه الفترة. رؤسائي يرون فيّ طاقة لا تنضب.

26 سنة، 10 أشهر، 7 أيام الخميس 17 أغسطس 1950

لم يجد المعجم كلمة يعبّر بها عن حالة الانتشاء أبلغ من كلمة

twitter @baghdad_library

Chavirer (غرق)، صحيح أنّنا نغرق! ومع ذلك، إذا ما صدّقنا معجم *Littré* فإنّ كلمة Chavirer كانت إلى حدود القرن التاسع عشر تشير إلى الفشل، إلى التعثر في الحياة الاجتماعية «هذا الشاب غرق»، لم يكن ثمّة أي استعمال اصطلاحي يشير إلى المتعة. لم تكن الكلمة تعكس سوى غرق الآمال البرجوازية.

26 سنة، 11 شهراً، 13 يوماً السبت 23 سبتمبر 1950

نظام الترقيم العاشق حسب مونا: هبني تلك الفاصلة، أصنع منها أداة تعجب!

27 سنة، عيد الميلاد الثلاثاء 10 أكتوبر 1950

وجدت أنا ومونا راحتنا الحيوانية. كلّ ما تبقى لا يعدو عن كونه أدباً. لنضرب صفحاً عن بريق ابتسامتها، توافقنا في كلّ شيء، ولنضرب صفحاً عن كلّ ما يمكن أن يكتب في دفتر مذكرات، لنصل إلى هذه الملاحظة التي لا تدع شكاً في أنّنا بلغنا درجة الرضا الحيواني: لقد وجدتُ أنثاي، ومنذ صرنا نتشارك الفراش نفسه، صارت العودة إلى المنزل بمثابة الرجوع إلى عريني.

27 سنة، 29 يوماً الأربعاء 8 نوفمبر 1950

لا يمكن للمرء أن يحيا بأنف مخنوق. مؤكّد أنّني أشخر أثناء النّوم. لم تقل مونا شيئاً، لكنّه أمر مؤكد. وأعلم من تجربتي الطويلة مع المراقد الجماعية أنّه بالإمكان خنق من يشخر تحت وسادته، دون أن يشعر بشيء. أن تهجرني مونا لأنني أشخر؟ مستحيل! أخذت

موعداً عند الدكتور بك مع الفجر كي يزيل الورم الحميد من منخري الأيسر. لا أكترث إن كان ذاك الأخطبوط اللّعين سينمو مجدّداً بعد فترة وجيزة، ما أريده من الجراحة هو أن تسمح لي بأن أتنفس بحرية لستة أشهر. هل أنت متأكد؟ ليس استئصال ورم حميد بالأمر الهيّن! على كلّ حال، ابن أختي سيساعدنا. ابن الأخت الذي يتحدّث عنه هو سنغالي ضخم الجثة، في العشرينيات من عمره، لا يقلّ عرضه عن طوله، يتابع دراساته في الفلسفة بجامعة السوربون، ويربح قوت يومه بالعمل مساعداً وسكرتيراً لهذا «الخال». الدفع عند ابن أختي هي آخر جملة يسمعها الزبائن من فم الدكتور بك عندما يهمّون بالانصراف. يمد ابن الأخت الفاتورة ويقبض الثمن ثمّ يعيد الباقي ويختم التوصيل دون أن تندّ عنه أيّة كلمة أو ابتسامة. يسعى جذرياً إلى إزالة الوهم الذي يلفّ زنجي بانانيا[1]. تتجلّى المساعدة التي يقدّمها، أثناء العملية، أساساً في الإبقاء على رأسي ثابتاً واضعاً إحدى يديه على جبيني والأخرى تحت ذقني بعدما أسندها إلى حافة مقعد الجراحة، فيما أمرني العم بأن أشدّ «قدر استطاعتي» على مسندي الذراعين وأن لا أتحرك. بعد ذلك أدخل ملقطاً طويلاً (يدعى ملقط بولتزر) في فتحة أنفي اليسرى، رفع عينيه المنقبتين عالياً، تحسّس المكان، قبل أن يتجمّد بصره: ها أنا ذا أمسك الورم الحقير. تنفسْ بقوّة! وسحب دون رقة الورم الذي قاوم متشبثاً بواسطة أليافه كلّها، حتى انتزع مني صرخة دهشة كتمتها يد المساعد

(1) زنجي بانانيا، رجل أسود ضاحك كانت صورته تطبع على علبة الكاكاو ماركة بانانيا. (م)

twitter @baghdad_library

في الحال، ليسَ رغبة في أن يمنعني من الصراخ بقدر ما كان حرصاً منه على هدوء قاعة الانتظار، التي كانت قد امتلأت منذ الفجر بفضل صيت الطبيب الذائع. تصدّعت الأربطة داخل جمجمتي. آه، إنّ القذر يتمنّع! لقد صارت مسألة شخصية بين الورم والطبيب؛ يتشبّث الأول مستعملاً كلّ مجسّاته بجنبات كهفه، فيما الثاني يكافح بكل قوّته لدرجة أن كلّ عضلة من عضلات ساعده تتمطّى حتى تكاد تنفجر، بينما أنّا أختنق تحت يد ابن الأخت، وكأنّما الطبيب قد أخذ على عاتقه استئصال دماغي كلّه عبر فتحة أنفي اليسرى ولا أحد يدري كم ستطول هذه الأبدية التي حبست فيها أنفاس حياتي كلّها، رئتاي على حافة الانفجار، أصابعي انغرست في مسندي المقعد حتّى كادت تخترق حديدهما، ساقاي يرسمان في الهواء شارة V علامة نصر مشلول، أذني الداخلية يتردّد فيها صدى تصدّع اللّحم وتمزّقه وصراخه، صدى الصراع بين الجبّار الذي تشكّله المادة الحيّة داخل جمجمتي وهذا الحانق ذي النظرة الجاحظة والشفاه المتهدّلة، الذي صار الآن يصرّف عرقاً كلّ ماءَ رأسه، لدرجة أنّ نظارتيه المشبعتين بالبخار بدأتا تحوّلانه شيئاً فشيئاً إلى أعمى. لم يكن ليصرف هذا القدر من الجهد لو أنّه كان سينتزع لساني. آه! أخيراً! هو ذا! إنّي أحسّه! هو ذا يتقدّم! نعععععم! نبع دم حار يرافق خروج البطل. وحش كبير، أليس كذلك؟ تساءل الطبيب وهو يتأمل قطعة اللّحم التي تقطر دماً عند طرف ملقطه. ثمّ أضاف هامساً إلى ابن الأخت: نظّفه وضع لجرحه فتيلاً. كان يقصدني بكلامه، أعني كان يقصد ما تبقّى منّي.

من الذي فعل بك هذا؟ سألني توماسون عندما جلست إلى

مكتبي. كان منخري المتورّم الذي يبرز منه قطن عليه أثر دم، وعيني نصف المغمضة تلقائياً، يمنحاني مظهر من تعرّض لتحقيق عنيف. وبما أنّ المنخر الثاني كان مغلقاً بسبب الضغط الذي يمارسه المنخر الأيسر على الأنف، فإنّني كنت مضطراً إلى التنفس من فمي الذي يظلّ مفتوحاً، شفتاي متيبّستان، ولا أستطيع الكلام إلا مصدراً أصواتاً أشبه بأصوات سكّير أفرط في شرب الخمر. كان بودّ توماسون لو يسمح لي بأن أذهب إلى منزلي (ليس رأفة بي بقدر ما هو حرص على سلامته الصحيّة) بيد أنّنا كنّا نستعدّ لاستقبال النمساويين، و«لا سبيل لدينا كي نؤخّر هذا الموعد». للأسف، حين مدّت لي زوجة الوزير البارونة فون تراونر (واسمها الشخصي جردا) يدها المرتدية قفازاً، وانحنيت لأقبّلها طارت سدّادة أنفي وانطلق نبع الدم الحار ملطّخاً الدانتيلا الفينيسية، حينئذٍ صار العقد بالفعل مهدّداً. Verzeihen Sie bitte, Baronin![1].

27 سنة، 5 أشهر، 13 يوماً الجمعة 23 مارس 1951

أسبوع عيد الفصح. رحلة شهر العسل. بحسب مونا فإنّ مدينة البندقية التي تمنح الرائي كلّ مباهج النظر هي جنّة العميان. إذ لا يحتاج المرء إلى عينيه حتّى يحسّ نفسه يرى كلّ شيء فيها. هذه المدينة المعروفة بكونها عاصمة الصّمت هي مدينة ضاجّة بامتياز. كلّ شيء هنا يخاطب الأذن، بدءاً من السعي الكئيب للسياح إلى فرقعة الكعوب الفينيسية الصارمة، وخفق أجنحة الحمام، وصياح

---

(1) أرجوك اغفري لي، أيتها البارونة. (بالألمانية في الأصل). (م)

twitter @baghdad_library

النوارس، ونداءات الباعة (الزهور، السمك، الفواكه، الخردة) وأجراس الجنادل وضجيج آلات الحفر، واللّكنة الفينيسية الأقل إيقاعاً والأشدّ غنّة من باقي اللّهجات الإيطالية جميعها. ليس حي كاناريجيو مثل زاتيري، فليس ثمّة حيّان أو ساحتان يصدران الضجيج نفسه. البندقية جوقة موسيقية، هكذا تقول مونا التي تصرّ على أن أتعرّف الطريق بعنين مغمضتين وذراع تطوّق كتفها. تواعدنا على أنّه في حال أصيب أحدنا بالعمى سيعيش الآخر معه هنا. وكي [تكتمل السعادة] ونحصل على حبّة الكرز فوق الحلوى، سمحت لنا الأكوا ألتا[1] بأن نسير فوق البرك.

27 سنة، 5 أشهر، 14 يوماً السبت 24 مارس 1951

أمس استكشفنا البندقية بالأذن، واليوم دور الأنف ليستكشفها. بأعين مغمضة دوماً، تقترح عليّ مونا أن أحاول تخيّل نفسي أعمى وأصم. عليك أن تتعرّف هذه الأحياء بأنفك حتّى لا تتيه! هيّا إذن تشمّم: حي ريالطو يضجّ برائحة السّمك، مداخل سان ماركو تعبق برائحة الجلد الفاخر، حي الأرسنال مضمّخ برائحة الحبال والإسفلت، هذا ما تؤكّده مونا التي تملك حاسة شمّ من القرن الثاني عشر. وإذ اقترحتُ عليها زيارة متحف أو متحفين اعترضت محتجّة بكون المتاحف موجودة في الكتب، أي أنّنا يمكن أن نزورها في مكتبتنا.

---

(1) Acqua Alta: فترة فيضان تعرفها البندقية بسبب المد البحري، وتكون بين فصل الخريف وبداية فصل الربيع. (م)

27 سنة، 5 أشهر، 16 يوماً　　　　الاثنين 26 مارس 1951

البندقية هي المدينة الوحيدة في العالم حيث يستطيع اثنان أن يمارسا الحبّ وكلّ واحد منّهما متكئ على باب منزل.

27 سنة، 7 أشهر، 9 أيام　　　　السبت 19 مايو 1951

حينما رأيت إتيين يتأمل نفسه في مرآة، خطر ببالي أنّه لم يسبق لي أن تأملت نفسي حقاً في مرآة. لم يسبق أن صدرت عنّي نظرة من تلك النظرات النرجسية البريئة، ولا حتّى حركة من تلك الحركات اللئيمة التي تجعلك تبتهج بصورتك. دائماً ما كنت أختزل المرايا في وظائفها: وظيفة الجرد حينما كنت أراقب نموّ عضلاتي أثناء مراهقتي، وظيفة اللّباس عندما أحاول خلق تناغم بين ربطة العنق والقميص والسترة، وظيفة الحذر حين أحلق ذقني صباحاً. بيد أنّ النظرة الشاملة في المرآة لا تثيرني. لا أدخل إلى المرآة. (هل هو الخوف من أن أظل محبوساً فيها ولا أقدر على الخروج؟)، إتيين ينظر إلى نفسه حقاً. مثل الجميع يغطس في صورته. أمّا أنا فلا. إنّ عناصر جسمي تكوّنه دون أن تحدّده. باختصار، لم يسبق لي أن نظرت حقاً في مرآة. ليس في الأمر أيّ مزيّة، وإنّما هي مسافة فقط، تلك المسافة غير القابلة للاختزال والتي تسعى هذه المذكرات إلى ملئها. ثمّة شيء في صورتي يظلّ غريباً عنّي. لدرجة أنّه قد يحدث لي أن أقفز حين ألتقي بصورتي دون قصد في واجهة من واجهات المحلات. من هذا؟ لا أحد، اهدأ، هذا أنت فقط. منذ كنت طفلاً وأنا أقضي وقتاً لأتمكن من التعرّف على نفسي، أمرٌ لم أستطع

twitter @baghdad_library

مجاوزته. وفيما يخصّ الصور المنعكسة أفضّل نظرة مونا. هل شكلي على ما يرام؟ أجل، إنّك ممتاز. أو نظرة إتيين قبل أن أذهب إلى لقاء عمل. هل شكلي على ما يرام؟ أجل، لن تسقط التنانير في غرامك، لكنّك ستكون مقنعاً.

27 سنة، 7 أشهر، 10 أيام الأحد 20 مايو 1951

في العمق، محظور عليّ أن أقول كيف هو شكلي.

28 سنة، 3 أيام السبت 13 أكتوبر 1951

حسبت حقاً أني استطعت التغلّب على الدّوار في طفولتي، بيد أنّي أحسّه هنا، يضرب خصيتيّ كلّما اقتربت من الفراغ. ثمّة معركة صغيرة تفرض نفسها إذن. لقد جرّبت الأمر مرة أخرى أمس عند منحدرات إتروتا. لمَ يفصح الدوار عندي عن نفسه بداية بتصلّب الخصيتين؟ هل يحدث الأمر نفسه مع الآخرين؟ بالنسبة لي، حين أجد نفسي في موقف مماثل، تتحوّل الخصيتان إلى مركز العالم: اختناق يشيع الرّعب في حزم قويّة، نحو الأعلى والأسفل. كأنّما الخصيتان تتحوّلان إلى قلب نابض يضخ في شراييني نبع رمال يتدفّق في محطات دورتي الدمويّة كلّها، الذراعين والجذع والساقين. أنفجر مثل كيسين من الرمل. ودفعة واحدة أصاب بالشّلل.

28 سنة، 4 أيام الأحد 14 أكتوبر 1951

سألتُ مونا عمّا إذا كان المبيضان هما مكمن الدُوّار بالنسبة لها. جوابها: كلا. بيد أنّ خصيتاي اضطربتا مجدّداً حين رأيتها تدنو

من المنحدر. أصابني الدوار بدلاً عنها. خصيتان متعاطفتان؟

أثناء خوضي هذه التجارب تذكّرت طرفة ذاك المتجوّل الذي سقط في منحدر. زلّت قدمه، انزلق بضعة أمتار فوق الحصى ثمّ هوى في الفراغ. وبسبب الرّعب الذي تملك أصدقاءه ظلّوا يصرخون حتّى حين توقف هو عن الصراخ وعادت إليه الطمأنينة. قدّر أنّ الرعب تركه في اللّحظة نفسها التي علم فيها أنّه هوى. وطيلة حياته ظلّ يحمل ذكرى فقدان الأمل باعتبارها تجربة غبطة. في نهاية المطاف أنقذه من السقوط كثافة أوراق شجرة، وإذ عاد إليه الأمل بأنّه قد ينجو عاوده الخوف.

28 سنة، شهر واحد، 3 أيام الثلاثاء 13 نوفمبر 1951

قمت عن مائدة المقصف. كان ماتينو يتجشّأ بتكتُّم وقد وضع قبضته أمام فمه. تأكدّ لي مرة أخرى أنّ التجشؤ الذي يوصلني مباشرة بإفرازات معدة المتجشِّئ، يزعجني أكثر من الضراط، الذي تبدو لي رائحته أقلّ خصوصية وأكثر شمولية. بعبارات أخرى، ألفي نفسي أقل تكتماً حين أتجشأ، أكثر ممّا يحدث لي حين أضرط.

28 سنة، شهران، 17 يوماً الخميس 27 ديسمبر 1951

ميلاد برونو. لقد رُزقنا بطفل. استقرّ في البيت وكأنّما كان دائماً موجوداً فيه! لا أجد كلمة أعبّر بها عن شعوري، أحسّ طفلي شيئاً مألوفاً ومذهلاً في آن.

twitter @baghdad_library

28 سنة، 3 أشهر، 17 يوماً الأحد 27 يناير 1952

أن يصير المرء أباً معناه أن يصير أكتع. منذ شهر لم أعد أملك سوى ذراع واحدة، الذراع الأخرى تحمل برونو. أكتع بين عشية وضحاها. نتكيّف مع الوضع.

28 سنة، 7 أشهر، 23 يوماً الاثنين 2 يونيو 1952

اِستيقظت مخنوقاً، إيقاع تنفّسي سريع، صدري حرج، أسناني مضغوطة، ومزاجي عكر دون سبب واضح. هذا ما كانت أمّي تسمّيه: «أن يصيبك الغمّ». دعني وشأني، أنا مغمومة! كم مرّة سمعت منها هذه الجملة على الرغم من أنّي ما كنت أفعل شيئاً سوى أن أحيا بجوارها حياة الطفل الوديع الذي كُنتُه؟ كان لها حاجبان مقطّبان وعيون سوداء كالحة (عيونها في الواقع شديدة الزرقة!)، ووجه، إن جاز لي القول، ينظر نظرة شريرة من الداخل، دون أن يكترث للوقع الذي قد يخلّفه على الخارج. كنت أسأل دودو: ماذا فعلت لماما مجدّداً؟

28 سنة، 7 أشهر، 25 يوماً الأربعاء 4 يونيو 1952

إحدى تجليات حالات غمّي الأشد غرابة، تلك الرغبة التي تتملّكني في عضّ الجزء الداخلي من شفتي السفلى. تجد هذه العادة أصولها في طفولتي المبكرة. وعلى الرغم من اتخاذي قرارَ عدم تكرار هذا الأمر، إلا أنّني أجد نفسي عند كلّ أزمة أعود إليه بقسوة ودقة أشدّ. منذ ظهور الأعراض الأولى لهذه الحالة صارت شفتي

كالمخدّرة بالبنج وأخذت قواطعي تستمتع بانتزاع فتات قشرة تبدو ميتة. يحدث الأمر دون ألم يذكر، وكأنّما أقشّر فاكهة. تلعب قواطعي قليلاً بتلك القشور التي انتزعتها منّي، ثمّ أبتلعها. تستمر عملية التهام الذات تلك حتّى تبلغ أسناني طبقة حساسة من الشفة، وتبدأ أولى الآلام وأولى قطرات الدم. لقد بلغت الحدّ. ينبغي التوقف، لكن ثمّة رغبة جامحة في دغدغة الجرح، سواء بإدخال الأسنان أعمق فأعمق داخل الجرح، بحيث يزداد العذاب شيئاً فشيئاً حتّى تدمع عيني؛ أو بمحاولة رتق الجرح من طريق عض حافتيه ما يدميه أكثر. تنتقل اللّعبة آنذاك إلى تفحُّص مدى احمرار الدّم في تلك المنطقة من جسمي سواء بواسطة إصبعي أو بواسطة منديل. عادة غريبة أمارسها منذ الطفولة، لكنّها لا ترقى إلى مستوى الممارسات المازوشية. أقضي بعد ذلك فترة التئام الجرح كاملة وأنا ألعن نفسي على ما فعلت، وخوف مقيت يجتاحني من أن أكون قد بلغتُ أقصى ما يمكن بلوغه فيرفض هذا اللّحم الذي أشبعته تنقيباً أن يلتئم. إنّه طقس هستيري ذو طابع انتحاري. منذ متى وأنا أمارسه؟ منذ فقدت أسناني الحليبية؟

29 سنة **الجمعة 10 أكتوبر 1952**

عيد ميلادي. سيبقى خالداً في ذهني! كنت أهدهد برونو بين يديّ وأنا أعرضه على ضيوفي بوصفه أعجوبة الدنيا الثامنة، وإذا بي أسقط وإياه من على السلم. سقطت إلى الأمام وتدحرجت حتى بلغتُ الممشى. بشكلٍ غريزي حضنت برونو. طيلة المدّة التي تدحرجت فيها ظللتُ حاضناً رأسه لصق صدري. حميتُه بمرفقيّ وساعديّ وظهري، انغلقت كالصدفة على ابني، وتدحرجنا حتى بلغنا

twitter @baghdad_library

أسفل السلالم وسط مهرجان من الصّياح. تجمّع حولنا الضيوف جميعهم، أحسستُ حرف درجات السّلم ينغرز في ظاهر يديّ وفي عظام حوضي وفي عظمتيْ ركبتيَّ وفي كاحليّ وعمودي الفقريّ وكتفيّ، لكنّي كنت موقناً وأنا أتدحرج بصدرٍ مسحوب إلى الداخل وبطن مجوّف أنّ برونو بأمان. تحولت لا إرادياً إلى كابح صدمات بشريّ. لم يكن برونو ليتعرّض لخطر أكبر، هو الملفوف في بطانية. فعلتُ ذلك على الرغم من أنّه لم يسبق لي أن مارست رياضة الجودو أو تمرّنت على السقوط. هل كان الأمر تجلياً مذهلاً لغريزة الأبوّة؟!

29 سنة، شهران، 22 يوماً الخميس فاتح يناير 1953

احتفلنا أمس مساءً برأس السنة عند ر. وزّعوا علينا السيجار، وبدأت المقارنات بين كوبا ومانيلا ولا أدري أيّ دول أخرى من الدول المنتجة للتبغ. طلبوا رأيي في الموضوع، بيْد أنّي إذ رأيت أولئك الخبراء يقطعون بأسنانهم في ندم عيدان الكراسي تلكَ، لم أستطع أن أنزع من مخيّلتي صورة الإست وهو يقطع الغائط. ثمّ إنّ الوجه يتّخذ في كلتا العمليّتين تعبير انهماك.

29 سنة، 5 أشهر، 13 يوماً الاثنين 23 مارس 1953

لم أحسب يوماً أن بالإمكان أن يولد طفل مبتسماً. ومع ذلك، هذا ما وقع لليزون، التي وُلدَت اليوم مع الخامسة وعشر دقائق مساءً. بضّة وناعمة ومعافاة، ومبتسمة مثل بوذا صغير مصمت وأقرع ينظر إلى العالم بعيون تضمر نيّة كبيرة في إحلال السلام. لم تكن عادتي أمام المواليد الجدد أن أنخرط في لعبة بازل التشابهات، وإنّما

درجت على (وهو ما فعلته مع برونو نفسه) أن أبحث في وجوهم الجديدة على ما يشي بمزاجٍ خاص. عزيزتي ليزون، احذري والداً رأى فيك منذ الوهلة الأولى ملكة إحلال السلام بالعالم.

29 سنة، 7 أشهر، 28 يوماً الأحد 7 يونيو 1953

ذاك الفرق بين الأحضان التي تصدر عن حنان خالص، وتلك التي نلجأ إليها لإيقاف البكاء. في الحالة الأولى يحسّ الطفل الرضيع أنّه مركز الحبّ، أما في الثانية فيحسّ بالرغبة في رمي تلك الأحضان من النافذة.

30 سنة، شهر واحد، 4 أيام السبت 14 نوفمبر 1953

من أين اكتسبت مونا تلك القدرة على التحكّم بسهولة في الرضّع؟ أنا دائماً ما أخشى كسرهم. كلّما حملت ليزون في يدي بدأ برونو يرفس الأرض بقدميه احتجاجاً على كونها سرقَت مكانه. تكمن إحدى نواقص اللغة الفرنسية فيما يلي: عندما كنت أحمل برونو صرت أكتعَ، والآن وأنا أحمل ليزون وبرونو معاً لا أزال أكتعَ، أي أنّ المرء سواء فقد ذراعاً واحدة أم فقد الاثنتين هو في جميع الأحوال أكتع. الأعرج والمقعد حالهما مع اللغة أفضل، وكذلك الأعور والأعمى.

30 سنة، 3 أشهر، 18 يوماً الخميس 28 يناير 1954

حلمٌ متعذّر الوصف. أيقظني القلق مع الخامسة صباحاً. أو حتّى أكون أكثر دقة كنت أعلم أنّ القلق ينتظرني عند باب الخروج من

twitter @baghdad_library

النوم. كنت لا أزال نائماً، لكني كنت أحسّ أنّي سأُنتزع من حلمي بكُلّاب القلق. قلبي مقبوض كأنّه رأس طفل سيتم سحبه من الرحم. آه! كلا، ليس هذه المرة! لا أريد ذلك! كلا! وبحركة التفاف ماهرة أفلت قلبي من ذاك الكلّاب ونجى جسدي من القلق. قفزت مجدّداً في النوم بالسهولة التي يغطس بها دلفين، وكان النوم قد غيّر طبيعته، أو بالأحرى غيّر نسيجه، صار الآن مادة شفافة مصنوعة من السعادة العائلية، مأواي حيث لن يستطيع القلق البليد النيلَ منّي، **نومٌ يشمل كلّ شيء**: عاد جسدي ليغطس في رسائل مونتينيْ! عندئذٍ استيقظت ودوّنت فوراً أنّني لجأت إلى السُمك اللّطيف لرسائل مونتينيْ، أي المادة ذاتها المشكِّلة لذاك الكتاب، وذاك الرجل!

*

إلى ليزون

انقطاعٌ دام لسنتين. وهذه المرة أيضاً أخلى تدوين المذكرات مكانه لبناء صرح الرجل الناجح اجتماعياً. ارتقاء السلم الوظيفي، الصراعات السياسية، نقاشات في شتّى المواضيع، مقالات، خطب، لقاءات، أسفار إلى جهات العالم الأربع، ندوات، وإعداد المادة الأولى لهذه المذكرات، التي أرادني إتيين بعد ثلاثين سنة أن أكتبها. لم تكن مونا تنظر إلى الأمور بالطريقة نفسها: علينا أن نسعى لإنقاذ العالم، علينا أن نسعى لإنقاذ العالم، لكن بعيداً عن الرضّع! لكل ذلك، لطالما لامني برونو على كونه يحسّ أنّه يتيم! ولربما كان ذلك سبب الخلاف الذي طبع علاقتنا.

*

وأنا أستقبل تيجو لدى مغادرته السّجن هذا الصباح، تذكرت فجأة لحظة ميلاده. أو تحديداً، تذكرت أنّي شهدت قدومه إلى هذا العالم! أقصد بالمعنى الحرفي للكلمة «شهدت ولادته مباشرة». رأيته يخرج رأسه من بين فخذي مارتا. خرج إلى العالم بجفنين وقبضتين مشدودتين، وكأنّما كان يقفز إلى الحياة عازماً على قتالها. كان عمري حينئذٍ عشر سنوات، ورميت بتلك الصورة إلى مهاوي النسيان، لكن إذ رأيته اليومَ يُلقى به من بوابة المحبس (كانت البوابة عبارة عن فجوة اقتطعت من باب السّجن الحديد العملاق، وباب السجن نفسه مغروس داخل الحجر الأحمر الذي بني منه سياج البناية)، ذكرني خروجه بلحظة خروجه من رحم مارتا، التي كانت تصرخ بصوت مرتفع ما دفعني إلى فتح باب الغرفة لأستطلع ما يحدث. بيد أنّ فيوليت التي لم تكن تبدو مكترثة لخوار كنّتها، طردتني: «ما الذي تفعله أنت هنا، هيّا، اخرُج». أقفلت الباب خلفي لألصق أنفي مباشرة بزجاج النافذة، وأتابع فيوليت وهي تلوّح تيجو بأكمله، كانت فيوليت تقفز مبتهجة على الرغم من يديها الملطختين بالدم، ومارتا غارقة في عرقها، وتيجو ببشرته الداكنة القرمزية، كان يصرخ وسع صدره؛ وأثناء ذلك كله كنت أنا لا أزال ملتصقاً بالنافذة إلى أن انتزعتني منها قوة هائلة فألفيتني وجهاً لوجها أمام مانيس الذي كان يدخن غاضباً سيجارة شوفان، وسألني بنبرة كأنّما حياتي تتوقف على الإجابة: «وماذا إذن؟ هل هو صبي أم بنت؟»، كان صبياً، لكنّه كان ضئيل الجسم لدرجة أنّه ما إن عُمّد

twitter @baghdad_library

باسم جوزيف (تكريماً لستالين)، حتّى بدأ الجميع يناديه تيجو. انغلق باب السّجن خلفه. نظر تيجو يُمنة ويسرة مستطلعاً آفاق حريّته، قبل أن يلمحني على الرصيف المقابل، ويفتح لي ذراعيه من بعيد وهو يقهقه.

32 سنة، 5 أشهر، يوم واحد — الأحد 11 مارس 1956

يقضي برونو منذ الصباح فترة ماداً لسانه إلى الخارج ويجعله متدلياً مثل لسان الكلب. وعندما سألته عن الحكمة من وراء هذا الانكشاف، أجابني بجديّة تامّة: لساني يملّ من المكوث بالداخل، لهذا أخرجه من حين إلى آخر. ما زال الصغير يعيش العالم كلعبة بازل مشتّتة القطع. يتعرّف على أعضاء جسمه كمن يتعرّف على رفاق يلتقيهم. هو يعلم تمام العلم أنّ ذاك العضوَ لسانُه، كأنّه لا يزال يستطيع أن يلعب معه ويعتبره غريباً، ويخرجه للنزهة مثلما ننزه الكلب. هو ولسانه، وليس فقط لسانه وإنّما أيضاً ذراعه وقدمه ودماغه -صار مؤخراً يقضي وقتاً طويلاً مع دماغه: اصمتوا إنّي أتحدث مع دماغي!- كلّ أجزاء جسمه تلك لا تزال قادرة على أن تثير إعجابه. بعد أشهر قليلة سيتوقّف عن نطق مثل هذه العبارات، وبعد سنوات قليلة لن يصدّق أنّه كان ينطقها.

32 سنة، 6 أشهر، 9 أيام — الخميس 19 أبريل 1956

نبّهني تيجو إلى أنّي حين أعطس أقول «أتشووم» حرفياً. يرى في الأمر انشغالاً مفرطاً بالاستقامة. أنت وقواعد اللّياقة! إنّك مهذّب لدرجة أنّ مؤخرتك لو قيّض لها أن تنطق لقالت: «پْرُوت».

بينما أتابع الصغيرين يغسلان أسنانهما أجد نفسي مضطراً إلى الاعتراف بأنّي ومونا لا نلتزم بأي قاعدة من القواعد التي نفرضها عليهما: غسل الأسنان ثلاث مرات في اليوم **دون التفكير في أي شيء آخر**، بداية الأسنان العليا -من الأعلى إلى الأسفل لو سمحتم!-، ثمّ الأسنان السفلى -من الأسفل إلى الأعلى لو سمحتم!- من الأمام والخلف، وفي الختام غسل مطوّل بطريقة دائرية، ممنهج ومتأنٍّ، لثلاث دقائق على الأقل. لم أكن ألتزم إلا بفرش المساء، وكنت أقوم به بطريقة مستعجلة وغير منظمة، غرضي منه فقط أن لا أفرض على مونا مذاقاً بَعدياً لما أكلته على العشاء. بعبارة أخرى، لا أحبّ أن أغسل أسناني. أعلم أنّ الكلس ماضٍ في عمله، وأنّه سيفرض عليّ مع المدة ابتسامة صفراء عارية، وأنّه عاجلاً أم آجلاً سأجد نفسي مضطراً للّجوء إلى آلة حفر الأرض لتهدم السور المتهالك، وأنّ طقم الأسنان وطبيب الأسنان يتربصان بي، ومع ذلك لا أمل يرجى فيّ، التفكير في غسل الأسنان يجرّ معه التفكير في أمور أخرى مستعجلة أكثر: إخراج كيس الأزبال، اتصالٌ هاتفي ينبغي إجراؤه، ملف أخير ينبغي إتمامه... يبدو وكأنّ المماطلة التي حاربتها واستطعت هزمها على جميع الجبهات، أتت لتضرب خيامها في هذه الجهة، جهة الصحّة الأسنانية. إلى ما مردّ هذا؟ الملل. الملل الذي يرتفع هنا ليبلغ درجة الميتافيزيقا. أن أفرّش أسناني معناه أن أدخل قاعة انتظار الأبديّة. وحده حضور القدّاس يستطيع أن يصيبني بالقدر نفسه من الملل.

twitter @baghdad_library

33 سنة، 18 يوماً **الأحد 28 أكتوبر 1956**

مونا وليزون خرجتا في نزهة. قضيت اليوم كلّه مع برونو. باستثناء ساعة القيلولة التي كانت أشبه بالغيبوبة، لم يكفّ عن التململ، وإصدار حركات، وإذ ذاك أتاني الحدس الآتي: لا يستطيع أيّ شخص بالغ، مهما كان شاباً وقويّ الجسم ومتمرناً وذا جَلد، لا يستطيع أيّ بالغ، حتّى في قمّة قدرته العصبية والعضلية، أن ينتج في يوم واحد نصف الطاقة التي ينفقها صبيّ صغير.

33 سنة، 4 أشهر، 17 يوماً **الأربعاء 27 فبراير 1957**

خرجت اليوم دون أن أضع على جسمي ما يكفي من الملابس. اِنقضّ عليّ البرد واقتحمني. عندما يشتدّ الصّهد أحسّ بنقيض الإحساس السابق. الشتاء يجتاحنا، بينما الصيف يمتصّنا.

33 سنة، 4 أشهر، 18 يوماً **الخميس 28 فبراير 1957**

أن تكون حرارتي معتدلة، هو ذا مبلغ طموحي.

33 سنة، 5 أشهر، 13 يوماً **السبت 23 مارس 1957**

استيقظت بفم مرٍّ ومزاج عكر. يبدو أنّني لا أستطيع مقاومة الطعام، سواء كنت برفقةٍ لطيفة أم كنت برفقة لا تُطاق. في الحالة الأولى آكل بسبب الابتهاج، أما في الحالة الثانية فآكل مدفوعاً بالملل. وفي الحالتين معاً أفرط في الأكل والشرب، دون أن تكون لديّ رغبة حقيقيّة في الأكل أو الشرب. في اليوم الموالي تكون

العقوبة كالآتي: استيقاظ مرّ، مرارة تطالُ الفم والمزاج. وبالنسبة إلى وليمة أمس، تتجه شكوكي نحو مقدار كبير من النقانق مع خبز مدهون بالزبدة وثلاثة كؤوس ويسكي كمقبّلات. كما لا أستبعد يخنة الفاصوليا التي تبعَت ذلك. (كم مرّة قُدّم ليَ الطعام أمس؟ مرّتان؟ ثلاث؟). تفصح المرارة الصباحية بكلّ شيء لإرادتي العليا التي تلومني على عدَم التحكّم في نفسي. أثناء شرب المقبلات ألتهم الطعام مثل عصفور آليّ. الأطباق الصغيرة تغري بالنقر. أنقرُ الحَبّ وأثرثر، أثرثر وأنقر. عصفور دوريّ. تلك العلاقة ما بين الأكل والملل -أو الابتهاج- تجد أصولها في طفولتي المبكّرة. إلى الزمن الذي كانت تدفعني فيه أمي إلى التصرّف مثل «البنت الكبرى». أي، حينما كانت تقدّم الزاكوسكي إلى الضيوف وتمنعني من أن آخذ منه. العقوبة أيضاً ترجع إلى زمن غابر: إنّ مذاق زيت كبد سمك القدّ هو ما كان يملأ فمي هذا الصباح.

33 سنة، 5 أشهر، 14 يوماً الأحد 24 مارس 1957

أخرجت هذا المساء قطع براز كبيرة ودبقة. لم يكفِ سحب طرادة المياه مرّتين لتنظيف بقايا البراز العالق في جنبات السيراميك، ولا لمسح البقع الداكنة داخل جفنة المرحاض. استعنتُ إذن بمكنسة المرحاض. وإذاك عنّ لي كشفٌ: عندما كنت طفلاً ما كنت أعرف لمَ تصلح مكنسة المراحيض. كنت أعتبرها أداة زينة، برأسها الذي يشبه حيوان الشيهم، وبقائها دائماً موضوعة داخل وعاء نظيف. كانت تبدو لي ألوفاً وبلا معنى. أحياناً كنت أحوّلها إلى لعبة، إلى صولجان ألوّح به على العرش. مردّ هذا الجهل بماهية مكنسة

twitter @baghdad_library

المرحاض إلى كون قطع براز الأطفال لا تلتصق بجفنة المرحاض إلا قليلاً. إنّها تنزلق من تلقاء ذاتها وتختفي في المجاري دون أن تخلّف أثراً يُذكر. مخلّفات ملائكة. فرشاة قشّ. ثمّ في يوم مّا تنتصر المادة على الخيال. تقاوم وسعك، لكن في نهاية المطاف تتجسّد المادة. لا ننظر البتّة في قعر الجفنة، إلى أن ينبّهك البالغ الذي صِرتَه إلى الآثار العالقة بها ويطالبك بالحفاظ على نظافة المكان.

متى قمت إذن لأولّ مرة بحركة التنظيف تلك، التي صارت اليوم تفرض نفسها عليّ أحياناً كثيرة؟ لا إشارة لذلك في هذه المذكرات، مع أنّه كان يوماً مهماً في حياتي. يوم فقدان البراءة.

مثل تلك الزلّات تبرّر تحفّظي تجاه المذكّرات: إنّها لا توثق قطّ للأشياء الحاسمة.

33 سنة، 6 أشهر، 11 يوماً الأحد 21 أبريل 1957

في حديقة الحيوان بفانسين. شردنا أنا وليزون وبرونو ومونا أمام زوج غوريلا كانا مستغرقين في تفلية نفسيهما من القمل (keskifonpapa?)[1]، فكّرت في ذاك التصرّف الحميم ذي الأصل الحيوانيّ الذي تكاد تقوم به كلّ النّساء اللّواتي عرفتهن: استئصال البقع السوداء. فكّرت في جلد صدري حين يصير مضغوطاً بين أظافر إبهامين وفي البشرة وهي تخرج ببطء من الجلد ثمّ يلقي بها الظفران المتقاطعان. لا يمكن وصف السيماء التي يكتسيها وجه مونا أثناء ذلك! أمّا أنا، فإذ ألقي بنظرة إلى الرأس الأسود-الأبيض فوق

(1) «ما الذي يفعلانه يا أبي؟» في جملة واحدة مدغومة. (م)

ظفرها، أستسلم لعمليّة الولادة تلك بالرّزانة الحالمة نفسها التي يستسلم بها رفيقي الشمبانزي.

33 سنة، 6 أشهر، 13 يوماً الثلاثاء 23 أبريل 1957

ما يمنح الحبّات السوداء ذاك السواد على رأسها، هو تأكسُد مادة الزهم حين تلتقي بالهواء. فتلك الكتلة الدهنية المشكّلة من بقايا الخلايا تبقى بيضاء لا يطال بياضها شكّ طالما هي محجوبة تحت الجلد. وما إن تثقب الجلد حتّى تسوَدّ. ليست الشيخوخة نفسها سوى ظاهرة التأكسُد تلك في مستوى أعمّ. إنّنا نصدأ. مونا تزيل عنّي الصدأ.

33 سنة، 6 أشهر، 21 يوماً الثلاثاء فاتح مايو 1957

بينما أغسل شعري هذا الصّباح، تذكرت الفروة الدهنية التي كانت لي أيّام المراهقة. مضى زمن طويل، وها أنا أحسّها بعد يومٍ من التأخر فيه عن غسلها، غريبة عن جمجمتي، كأنّما هي مجتثّة، كأنّما سقطَت على رأسي بالصّدفة. بعبارة أخرى، إنّي أغسل شعري كي أنساه.

33 سنة، 9 أشهر، 5 أيام الاثنين 15 يوليو 1957

بينما أتبوّل في مرحاض المقصف، تاركاً قلفتي تمتلئ ثم أفسح المجال لطرد دفعات أولى من البول قبل أن يصير الطريق سالكاً لتدفّق البول فعلاً. تذكرت أني حينما كنت في سن الثانية عشر أو الثالثة عشر لم أكن أتقن لعبة النفاثة أثناء تبوّلي، كنت أخطئ

twitter @baghdad_library

الهدف. ولا أعلم ما السبب، هل مردّ ذلك إلى عدم اكتمال نضجي، أم هو شكل من أشكال التمرّد على أمّي، أم تراني كنت أتصرّف كالحيوان الذي يعلّم حدود منطقته؟ لماذا يبول الرجال في المراحيض العمومية تلقائياً جانب الهدف؟ ثمّ إنّ أمّي ما إن توقّفت عن توجيه اللّوم لي حتّى بدأت أصيب الهدف بدقّة.

33 سنة، 9 أشهر، 8 أيام الخميس 18 يوليو 1957

بخصوص الرّجل الذي يبول. يحبّ تيجو أن يحكي الحكاية الآتية:

قصّة ورطة رجل في المَبْوَلِ.

كان ثمّة رجل أمام مبول، ذراعاه مفتوحتان ومشلولتا الحركة، والظاهر أنّه لم يكن بوسعه القيام بأدنى فعل. وكان جاره في المبول المجاور يُعيد تزرير سرواله، ومن الطبيعي أن يقلق ويتساءل حول ما يحصل لصاحبنا. منزعجاً من وضعيته أرَى الرجل يديه المتجمدتين لجاره وسأله إنْ كان بوسعه أن يتفضّل ويفتح له سرواله. ولأنّه كان مسيحياً طيّباً، وافق على الأمر. إذ ذاك، وقد زاد انزعاج الرّجل، هل يستطيع أن يتمادى ويطلب منه إخراج عضوه من السروال. فامتثل الرجل للأمر، انزعج لكنّه امتثل. وإذ ساقته دواليب الرأفة، ألفى نفسه مضطراً إلى إمساك قضيب المسكين العاجز حتّى لا يبلّل ساقيه. فبال صاحبنا زخّات بارتياح كبير حتّى رطبت أجفانه. وإذ فرغ صاحب اليدين المشلولتين من التبوّل سأل الرّجل الذي أحسن إليه: هل تستطيع من فضلك أن. . . هل تستطيع أن تمسح قضيبي من

البول؟ وهكذا: أن تمسحه، أن تعيده إلى مكانه، أن تعيد إغلاق سحاب السروال... وإذ قُضيَ الأمر صافح صاحبنا بحرارة يدَ الرّجل الذي أحسن إليه، فأصاب الآخر الذهول لمرأى يديه تتحرّكان وقد كان يحسبهما مشلولتين، وسأله عمّا منعه من أن يقضي حاجته بنفسه، فأجابه:

- أنا؟ أوه! لا شيء، لا شيء البتّة، بيْد أنّي أجده أمراً مقرفاً!

33 سنة، 11 شهراً، 4 أيام السبت 14 سبتمبر 1957

التقيت شخصاً يدعى رولان في شارع سان ميشال. لم أستطع تذكّر اسمه. لم أستطع إيجاد اسم لهذا الوجه المألوف بشكل غامض. ولا مجال لتذكّر الأسباب وراء هذا الإحساس بكون وجهه مألوفاً. مَن هو هذا الرّجل الذي أحسب أنّي كنت قريباً جداً إليه، في ظروف لا يمكن أن تنسى. عندما حكيت لفرانش عن هذا اللّقاء واصفاً ملامح الرجل، أجابتني: إنّه رولان! لقد كان أحد الجرحى الذين اعتنيت بهم في الوقت نفسه الذي اعتنيت بك فيه، قبل نهاية الحرب بقليل. أما عدتَ تذكره؟ عبثاً أعادت على مسامعي كماً من التفاصيل. -لقد كان خبير ديناميت! وأفلت من كمين بأمعاء متدلّية- لم أستطع إعادة تشكيل الرّجل، لقد أفرغه نسياني المرضي من جوهره. لم يعد أكثر من هيئة رجل تعوم في مكان مّا ضائع من ذاكرتي. وبالطبع لم يسعفنا لا اسمه الحقيقي ولا اسمه الحركي في تذكّره. مثل هذه الأمور تحدث معي كثيراً، ودائماً ما كانت تحدث. ثمّة شيء في دماغي لا يؤدي وظيفته. إنّ الذاكرة هي الجزء الأقل مطاوعة داخل جمجمتي. (إلا عندما يتعلّق الأمر بالحِكم والأقوال المأثورة التي كان أبي يدفعني إلى

twitter @baghdad_library

حفظها، إنّها لا يمكن أن تمّحي مطلقاً). ختمت فرانش كلامها: على الأقل، ما كنتَ لتشي بأحد لو أنّ الألمان عذّبوك.

34 سنة، شهر واحد، 25 يوماً الخميس 5 ديسمبر 1957

أشباهي، إخواني، جميعهم، مثلي أنا أيضاً، مشغولون في تنظيف أنوفهم أثناء وقوفهم بالسيارة أمام الضوء الأحمر. وجميعهم ما أن يشعروا أنّهم مراقبون حتّى يتوقفوا، وكأنّما ضبطوا متلبسين باقتراف أمر قذر. يا له من تجلٍّ عجيب للعفّة. مع أنّها ممارسة سليمة، -بل ومريحة- أن ينظّف المرء أنفه بينما ينتظر الضوء الأخضر. طرف الأصبع يستكشف المنخر ويعثر على القطعة، يحصر حدودها ثمّ ينتهي باستئصالها. ينبغي فقط أن لا تكون لزجة، وإلا دخلنا في مهمة أعقد، مهمة التخلّص منها، لكن حين تكون لدنة مثل عجين البيتزا، يا لها من متعة حينئذٍ في تقليبها وتدويرها إلى ما لا نهاية بين السبابة والإبهام!

34 سنة، شهر واحد، 27 يوماً السبت 7 ديسمبر 1957

ماذا لو أنّ تنظيف الأنف كان فقط ذريعة؟ ذريعة للّعب بتلك الدمية الغضروفية التي يشكّلها أنفنا؟ فيمَ كان هذا السائق يفكّر؟ وفيمَ كنت أفكّر أنا قبل أن ألاحظه؟ لم أكن أفكّر في شيء على ما أذكر. حلم يقظة كامن في انتظار إشارة المرور. هي ذي وظيفة تلك القطعة الغضروفية: أن تساعد المرء على الانتظار ريثما تُستأنف الحياة. فرضيةٌ تأكدّت اليوم بعد مرأى برونو جالساً بوداعة في حوض الاغتسال منشغلاً بفتل قلفته على سبابته، وقد علت وجهه **المسحة**

نفسها التي تعلو وجوه سائقي السيارات أمام الضوء الأحمر. إنّ القلفة وأرنبة الأنف وشحمة الأذن ليست في حدّ ذاتها أعضاء انتقالية. ولأنّها لا تحيل على تمثلات محدّدة، فإنّها لا تعوّض الوظيفة الرمزية للدمية أو الدبدوب. إنّها تكتفي بشغل الأصابع عندما يشرد الذهن بعيداً. إنّها نداء كتوم توجّهه المادة للفكر الشارد. إنّ خصلة الشعر التي أعبث بها بينما أقرأ رواية **الجريمة والعقاب** تذكّرني بأنّي لست راسكولينكوف.

34 سنة، 4 أشهر، 22 يوماً الثلاثاء 4 مارس 1958

تلك الحمامة التي ماتت على شبكة سدّادة الصرف الصحيّ، أشحتُ عنها بوجهي كأنّما قد «يصيبني مكروه» إن نظرتُ إليها. مجرّد خيال ناتج من التلوث البصري! ثمّة شيء مُعدٍ في رؤية طائر نافق. نذر من نذر الوباء. القنافذ والقطط والكلاب المدهوسة وجيَف الخيول، لا بل حتّى جثث النّاس، لا تخلّف في نفسي الأثر نفسه. عندما كنت طفلاً، كانت الحمائم تنبض حياةً في يدي، أمّا تلك الحمامة في الصرف الصحيّ، فتنبض موتاً.

34 سنة، 6 أشهر، 9 أيام السبت 19 أبريل 1958

أراقب البيض وهو ينضج فوق النار بينما ترسم ليزون صامتةً، ويدها تقبض بإحكام على طرف قلمها. وإذ انتهت أرتني رسمها فصرختُ: ما أجمله من رسم! دون أن أغفل نظري عن عقرب ساعتي. إنّه رجلٌ يصرخ داخل رأسه، تؤكّد الفنانة. أجل إنّ الأمر بالفعل كذلك: من رأس رجل قلق تنبثق رأس صارخة، وكلّ ذلك تمّ

twitter @baghdad_library

التعبير عنه بشكلين بيضاويّين وبضعة خطوط تقول كلّ شيء. يصدق الأمر على رسوم الأطفال مثلما يصدق على البيض المسلوق، حيث يكون في كلّ مرّة عملاً فنياً متفرداً، بيد أنّ القلائل فقط من يتوقفون عنده ويلاحظونه. لنترك جانباً أحد الأمرين، هذه البيضة الربّانية أو هذا الرّجل الذي يصرخ داخل رأسه، لنركّز على أمر واحد، لنركّز تركيزاً تاماً على نكهة البيضة أو على معنى الرسم، كلّ واحد منهما يفرض نفسه آنذاك كعمل فنيّ مؤسِّس. فلو أنّ جميع الدجاج انقرض ولم تبقَ سوى دجاجة واحدة، ستتقاتل كلّ أمم العالم للحصول على آخر بيضة، ذاك أنّ لا شيء في العالم يعادل [آنذاك] بيضة مسلوقة؛ وعلى المنوال نفسه، لو تختفي جميع رسوم الأطفال، أيّ معنى من المعاني لن يقرأ آنئذٍ في ذاك الرسم المتبقي!

ليزون الآن في السنّ التي ينخرط الطفل فيها بكامل جسده في الرّسم. الذراع بأكمله يرسم: الكتف والمرفق والمعصم. ومساحة الصفحة تُستعمل كلّها. **فالرجل الذي يصرخ** داخل رأسه ينبسط على ورقة مزدوجة انتُزعت من دفتر. الرأس المنبثقة عن الرأس القلقة (قلقة أم متأمّلة شكّاكة؟) تحتل كلّ الحيز المتوفّر. إنّه رسم ممتدّ. بعد سنة سيقضي تعلّم الكتابة على هذه الشساعة. سيفرض السطر قانونه. سيتمّ لحم الكتف والمرفق، وستسكن حركة المرفق، وستختزل الحركة في السبابة والإبهام اللذين ينوسان وفقّ ما تفرضه القواعد الخطية الصارمة للكتابة. ستتغذّى رسوم ليزون على تلك الصرامة، التي أدين لها بخطّي المقروء بوضوح كأثر نقّاش. وما إن يصير بوسعها الكتابة ستتحوّل إلى رسم أشياء صغيرة تطفو على الصفحة، رسوم ضامرة مثلما كانت تُرسَم قديماً سيقان الأميرات الصينيات.

بينما أراقب ليزون ترسم عشتُ مجدّداً لحظات تعلمي الكتابة. لدى عودته من الحرب كان أبي قد حمل معه عدداً لا بأس به من الرسوم المائية التي تصوّر كلّ ما لم يطاله القصف. الرسوم الأولى كانت تمثل قرى بأكملها، ثمّ صارت الرسوم تمثل منازل معزولة، ثمّ أجزاءً من حدائق منازل، فوُروداً مجتمعة، ليرسم في الأخير وردة واحدة، وصولاً إلى بتلة زهرة، ورقة شجرة، عشبة. كان نظام رسم يصوّر التقهقر الذي يَسِم محيط الجندي ويشي بالالتهام الشَّرِه الذي تمارسه الحرب. كانت الرسوم كلّها صور سلام، لم يكن ثمّة شيء واحد من أشياء الحرب، لا جبهة معركة، ولا علَم، ولا جثّة، ولا حذاء عسكرياً، ولا بندقية! لا شيء سوى بقايا حياة، فتات ملوّن، شظايا فرح. كان يملك دفاتر رسومات لا عدّ لها. وما إن صرت قادراً على الإمساك بقلم حتّى بدأت أتسلى بزخرفة رسومه. بدل أن يغضب منّي، بدأ يوجّهني: كان يضع يده فوق يدي ونبدأ معاً في رسم الحواشي المضبوطة، أكثر ما يمكن، لتلك الحقائق التي خطّتها ريشته. ثمّ محتفظاً بيده فوق يدي استبدل بالقلم يراعَ حبر وبدأ يصرف نظري عن رسم زهور الأقحوان إلى خطّ حروفٍ. هكذا تعلّمت الكتابة: بالانتقال من رسم بتلات الأزهار إلى خطّ الأعمدة والقوائم. خُطّ بعناية، إنها بتلات الكلمات! لم أعثر مرّة أخرى على دفاتر أبي التي ضاعت محترقةً مع إرث الأم، بيْد أنّي لا أزال من حين إلى آخر أحسّ يد أبي فوق يدي أثناء المتعة الطفولية التي أحسّها وأنا أتقن خطّ حروفي.

twitter @baghdad_library

35 سنة، شهر واحد، 18 يوماً الجمعة 28 نوفمبر 1958

مات مانيس بعدما دهسه ثور لصق الحائط. عندما أعلمني تيجو بالأمر، قبل حتّى أن أحسّ بالحزن على فراق مانيس أحسّ جسدي (إحساساً مادياً) بهول الصدمة: انضغاطُ الجانبين، تكسّر القفص الصدري، انفجار الرّئتين، الغيبوبة، وبما أنّ مانيس سيظل مانيس إلى آخر لحظة في حياته، سورةُ غضبٍ أخيرة. رثاء تيجو: كان واضحاً أنّ الأمر سينتهي بهذه الطريقة، لقد كان يضرب البهائم.

35 سنة، شهر واحد، 22 يوماً الثلاثاء 2 ديسمبر 1958

فرضت حلوى مادلين بروست[1] الشهيرة نفسَها بقوّة بعد دفن مانيس (حيث قمنا أنا وفرانش وروبير بإعادة تمثيل قسمة رسمية ما بين الصفوف الأمامية والصفّ الرّديف للحزب ولصفوف المقاومة). حين عودتي إلى المزرعة، وبينما كان روبير يفتح قنينات خمر، وضعت ماريان أمامي كعكة دبس وكوب حليب بارد، متعلّلة بأنّي ينبغي أن «أستعيد قواي». كوب الحليب والكعكة ورفقة روبرت وتيجو الأخوية وعبارات ماريان التي ذكّرتني بعبارة فيوليت («هيه، يا صغيري الجسور!»)، كانت كافية لتذكيري بطفولتي، بيد أنّ السفر الفعليّ لم يبدأ إلا حين بدأت أتناول كعكة الدبس، كعكة المربى، مربى العنب والتوت البريّ الذي صنعته فيوليت ليعينني على قضاء

---

(1) إشارة إلى حلوى المادلين التي ذكرها مارسيل بروست في **بحثاً عن الزمن الضائع**، وصارت تقليداً أدبياً يحيل على الحنين والذكرى. (م)

«ساعات دراستي الأربع». غمّست الكعكة في الحليب البارد، ليس حباً في تذوّقها بتلك الطريقة (إذ ما عدت في الواقع أستطيع اليوم هضم الحليب بشكل جيد)، بقدر ما كان رغبة في لعب لعبة الذكريات مع ماريان. تلك الرائحة التي تكاد تكون متعفّنة، وذاك الاحمرار الذي يكاد يكون أزرق-بنفسجياً على بياض الحليب. أول قضمة باردة وليّنة، الحواشي المقرمشة، الملمس المخملي ما بين اللسان والحنك- شيء ما بين المربى والمعقود-. اِنهمرت الذكريات فوراً حتّى تملّكني اليقين بأنّي كنت تلك اللّقمة وأنّي ما أزالُها! أكلت كعكتي كاملة وشربت كوب حليبي كلّه معتذراً عن كؤوس الخمر التي كان يعرضها عليّ روبير (يكفيك هذا، اِشرب قليلاً). قال تيجو: «صحيح إذن، إنّه يحبُّ دبسه هذا!» لم تكن تأكله إذن إرضاءً لفيوليت؟ تحبّ حقاً هذا؟ أجبته: بالطبع، ألا تحبّه أنت؟ أفضّلُ الموتَ على أكله! وهو ذا يتضّح عطب من أعطاب التغذية التي لازمت طفولتي. كنتُ أحسبني ذا حظوة لدى مانيس وفيوليت (في الواقع لم يكن أحد يقرب الدبس. إنّه للصغير، ينبغي أن يتقوّى) لكنّي لم أكن في الواقع سوى وسيلتهم للتخلُّص من مخزون مربّى مكروه. وحين كنت أقدمّ لأحدهم قليلاً من الدبس كانوا يرفضونه مذعورين (كلا، شكراً، أخشى أن يعلم مانيس بالأمر!)، لكنّ رفضهم لم يكن في الواقع سوى تعبير عن تملّصٍ جبان! واليوم اعترفوا جميعهم أمامي بكرههم لدبس فيوليت، ذي الرائحة «الباعثة على الغثيان»، والذي يترك في الفم مذاقاً «كالتراب». ختم روبير قائلاً: لم يكن الاعتراف بالأمر صعباً، لو أنّ الألمان استنطقونا، لكنّا أخبرناهم بذلك!

twitter @baghdad_library

تساءلتُ: لكنّ فيوليت كانت تحبّه، كانت تحبّ دبسها؟

لست متأكداً من الأمر. لقد صادف أن دخلت المطبخ في اليوم الذي كانت تجرّب فيه تذوّق ذاك المربّى (افتح فمك، وذق هذا!) فأبديت نشوة لا حدّ لها -ثمّ وفاءً لا حدّ له وأنا لا أزال غارقاً في النشوة- لدرجة أنّها لم تجرؤ بعدئذٍ على التوقف عن صنعه.

35 سنة، شهر واحد، 23 يوماً الأربعاء 3 ديسمبر 1958

من يكتب تاريخاً لحاسة الذوق لن يكون بوسعه فصله عن «رسالة في الاقتراح».

35 سنة، شهر واحد، 24 يوماً الخميس 4 ديسمبر 1958

كنا لا نزال في جنازة مانيس حين قالت لي فرانش: أنتَ يا مفرقعتي، حتّى لو تنكّرت في هيئة هندي من الأباش أو فرد من قبيلة البيكَمي أو صيني أو حتّى مريخي، سأستدلّ عليك بابتسامتك. وإذ ذاك تساءلت عن المظاهر الملازمة للجسد، كالهيئة والمشية والصوت والابتسامة، والكتابة وطريقة الحركة، وطريقة المحاكاة، تلك الآثار الوحيدة التي يخلّفها في ذاكرتنا أولئك الذين نظرنا إليهم حقاً. حين تتحدّث فرانش عن أخيها الذي مات في تحطّم طائرة مقاتلة تقول: أستطيع تجسيم فمه وشفتيه، لكن من المستحيل تجسيم ابتسامته. تتذكّر كذلك أمّها من طريق خطّها الدقيق وتتحدّث بانفعال عاطفي عن الدوائر المتقنة التي كانت تكتب بها حرفَي r وv.

من أمّي أنا تبقّت لي صورة نظرة تريد تصفية الحساب. «أتُراكَ استحققت الحياة التي تعيشها؟» عينان كأنّما تطلّان من جمجمة

ميت، وصوت حاد.. كانت تحسب أنّ نظرتها ثاقبة في حين أنّها منتفخة ليس إلا، وكانت تحسب أنّ صوتها مندفع في حين كان حاداً. إنّ صورة تينك العينين وذاك الصوت يذكرانني بطريقة تصرّفٍ أكثر ممّا يذكرانني بشخص: السيطرة المفرطة، القاسية، التي كانت تلجأ إليها للقيام بما تحسبه جيداً، فارضةً مبادئها الأخلاقية المقرفة كَضُراط الحمير. ومع ذلك كانت امرأة جميلة، ذات جديلة شقراء، ونظرة برّاقة، وضحكة مشرقة، ذاك ما تؤكّده الصور جميعها. أقول لفرانش: لا تثقي بابتسامتي، إنّها ابتسامة أمي.

35 سنة، شهر واحد، 25 يوماً الجمعة 5 ديسمبر 1958

لم نعثر على جثة أمّي. اختفت تحت أنقاض النفق الوطنيّ، يوم 27 مايو 1944. كانت قد ذهبت إلى المدينة تستحصل نقود الإيجار. يومها قصف الحلفاء، وما إن دوّت صفارات الإنذار حتّى تدفّقت الجموع شطرَ سان شارل القريبة من عمارتها. نعتقد أنّها احتمت بالنفق هي أيضاً. وللأسف قُصفت المحطّة، فانهار النفق تحت ثقل الأنقاض. مات الكثيرون واختفى الكثيرون. ولسخرية القدر، عمارتها هي الوحيدة التي لم يطَلها القصف. كانت رسالة توصلت بها من العم جورج شهرين بعد ذلك، هي ما أعلمني باختفاء أمّي، وبأنّي ورثت تلك العمارة.

35 سنة، 6 أشهر، 22 يوماً السبت 2 مايو 1959

وقع بصري على ليزون، كانت جامدة تماماً، لكن داخلها يضجّ بالحركة. ابتسمت لي، ودون أن تتحرّك قالت: جسمي لا يرقص،

twitter @baghdad_library

لكنّ قلبي يرقص! آه يا ليزوني! السعادة دون سبب معيّن سوى أن نكون سعداء! أنا أيضاً أعرف ذاك الابتهاج الداخلي الذي يجعل قلبي يرقص أحياناً حين أفرض على جسدي أن يظلّ هادئاً. أثناء اجتماعات تدارس الحصيلة مثلاً، حين يبدأ برتوليو، بنظارته التي تغطّي نصفَها حواجبُه الكثيفة، في الحديث عن أشياء مثل: «الانحراف» و«خطوط التقارب». آنذاك أبدأ في التهليل لقلبي: ارقُص يا قلبي، ارقُص!

36 سنة، 4 أشهر، 11 يوماً الأحد 21 فبراير 1960

أمس كان يوماً ممطراً. ظلّ برونو يلعب لعبة رعاة البقر والهنود بواسطة مجسّمات أهداها له العمّ جورج في عيد ميلاده. قضى ساعة بأكملها في الهجوم والهجوم المضاد، وفي الزحف والتراجع التكتيكي، وفي الدعوات إلى السلام وخرق الهدنة، وفي عمليات الإحاطة والاختراقات المفاجئة، وفي عمليات الأخذ على حين غرّة التي تنتهي بهزيمة رعاة البقر وإبادتهم عن بكرة أبيهم. ساعة من الهياج الأقصى في جسد يكاد يكون جامداً. البالغ الذي في داخلي يراقبه يلعب بدهشة أثنولوجي - هل كنت مثله في سن الثامنة؟ أي إحساس سيتملكني لو لعبت اليوم لعبة رعاة البقر والهنود لساعة أو ساعتين؟

جرّبت الأمر هذه الظهيرة. بينما أخذت مونا الأطفال إلى نزهة في حديقة التجارب المناخية (كلا بابا لن يأتي معنا، إنّه يعمل)، جلستُ القرفصاء على بساط برونو. ما إن وزّعت جيوشي في وضعية المعركة حتّى أظهر جسدي تشنجاً كاحتجاج على وقتٍ يراه ضائعاً. كنت أكبر من أن ألعب بجنود صغار، وأضخم من أن أغلق على

نفسي في صندوق الصور ذاك. في تلك الأثناء كان الصغيران في الحديقة يلعبان مسحورين بالمرايا العجيبة. ستقول مونا: أنا أيضاً لعبت كثيراً. كأنّني عدتُ طفلة صغيرة!

36 سنة، 7 أشهر، 3 أيام الجمعة 13 مايو 1960

كي يقول إنّه ذاهب للتبول، يستعمل تيجو الصيغة نفسها دائماً: طيب، سأذهب لأغسل يديّ عند قدم شجرة. تملّكني اليوم بعد الغذاء دافع غريب جعلني أجسّد عبارته حرفياً. وضعت يدي تحت دفق بولي. على ما أذكر لم يسبق لي قطّ أن فعلت ذلك، حتّى عندما كنت بعدُ طفلاً. فاجأتني حرارة بولي. أحسست تقريباً أنّ يدي تحترق. نحن آلات تقطير في حالة غليان. لسنا أكثر اتّساقاً من قناديل البحر، كنّا نندفع مثلها ونحن نتبوّل بولاً ساخناً. معرفة ما الذي دفعني إلى القيام اليوم بهذه التجربة، في سن السادسة والثلاثين، بعد أن ناقشت عقداً عاليَ القيمة مع مُوَرّدينا الألمان، معرفة سبب ذلك يصلح بمفرده موضوع تأمل فلسفي.

36 سنة، 10 أشهر، يوم واحد الخميس 11 أغسطس 1960

في مِراك، حيث باعني تيجو وروبير وماريان نصيبهم من الإرث (به استطاع روبير أن يشتري أخيراً ورشته الخاصة)، ما عاد ثمّة وجود للحمّام وسخّان المياه. منحت الصغيرين بهجة الاستحمام بالطريقة القديمة في طشت الزنك الكبير حيث كانت تنظفني فيوليت منذ ثلاثين سنة (كان الطشت في الظلّ بغرفة الغسيل ينتظر الجيل الذي سيحمل المشعل). حمّمتهما بالطريقة نفسها التي كانت

twitter @baghdad_library

تحمّمني بها فيوليت، مستعيناً بالمِرشّ وصابون مرسيليا وليف الاستحمام، ماسحاً الانتفاخات الدهنية وطيّات الجلد، وكلّ المواضع التي يتراكم فيها السخام أو التي يهيّج العرَق فيها القروح. كان ليزون وبرونو ينتفضان ويزعقان ويحتجان، تماماً مثلما كنت أفعل عندما كنت في سنّهما، لكنّي كنت ماضياً في عملي غير مبالٍ بأنفاسهما المستقطعة ولا باصطكاك أسنانهما، ذاك أنّي لم أعُد إلى هذا المكان متقمّصاً معاناة طفولتي، وإنّما عدت متقمّصاً أفعال فيوليت وحركاتها، دقّتها الوحشية في التعقّب، خلف الأذنين، داخل السرّة، خَلَل أصابع القدمين، بالماء البارد ودون أن تبالي بما إذا كان القدر الكبير من رغوة الصابون قد وخز عينيّ أو منخري. كنت أحتجّ في البداية، ثمّ سرعان ما أصير مبتهجاً بالتقلب بين تلك اليدين الخبيرتين، واللهو بالهرب والإفلات منها بعد أن تمسح عن جسمي الماء، وفرقعة قدميّ المبلولتين على أرضية المغسل، والصراخ هارباً من شبح تمثّل في شكل ملاءة كبيرة بيضاء، ثمّ تُمسكني الملاءة وتُقفل فمي، وتفركني بالكافور، وأحياناً ترشّني ببودرة التالك إذا ما كان احمرار إليتي يتطلّب ذاك الأمر. كلّ تلك الأشياء أُخضع لها اليوم نسلي، الذي ينبغي الاعتراف بأنّه لا يحمل أبداً هيئة الملائكة. تقول ليزون هيّا، هيّا، هيّا عابّة الهواء عبر شفتيها المضمومتين، (fit', fit', fit'...). أمّا برونو فطالب فوراً بإصلاح سخّان المياه، وأنا ماضٍ في تنظيفهما باللّيف والصابون، مدهوشاً بتماسك الجسدين الصغيرين، وكأنّما أقلّب بين يديّ طاقة خاماً، طاقةٌ وجودين مستقبليَّين أتت كلّها لتستقر في جسد هذين الطفلين المتماسك تحت بشرتيهما الشديدتي النعومة. لن يكونا مستقبلاً أكثر تماسكاً، ولن

تكون ملامح وجهيهما أشدّ صفاءً، ولا بياض عينيهما أنصع، ولا أذناهما أدقّ رسماً، ولا جلدهما مشدوداً ومصقولاً أكثر، ممّا هما عليه الآن. يولد الإنسان داخل الاتجاه الفوق-طبيعي، ويتمطّى شيئاً فشيئاً إلى أن ينتهي إلى الاتجاه التنقيطي، قبل أن يتناثر غباراً تجريدياً.

36 سنة، 10 أشهر، يومان — الجمعة 12 أغسطس 1960

أنا، عندما كنت طفلاً، ما كان لي قِوامٌ.

36 سنة، 11 شهراً، 7 أيام — السبت 17 سبتمبر 1960

أمس أثناء العشاء، كان الجنرال العجوز م. ل.، الذي أصيب في معركة فِردون يتحدّث عن الخصية التي فقدها: ذاك كلّ ما تركته ورائي في معظمة[1] دوومان، لكنّه خلّف وراءه نسلاً كبيراً يَعرف الجنود سرّه. لو لم تكن الحرب، يقول مجمّعاً، كنتُ لأنجب ضعف ذاك العدد. زوجته لم تعترض.

36 سنة، 11 شهراً، 21 يوماً — السبت فاتح أكتوبر 1960

في ساحة المدرسة، ينخرط برونو وأحد أقرانه في طقس موغلٍ في القِدم، طقس مقارنة العضلات: ذراعان صغيرتان مرفوعتان في شكل زاوية قائمة، وقبضتان مشدودتان، وعضلتا ساعدين موتّرتان، ووجهان يجعلهما الجهد المبذول متوتران بشكل مسرحيّ. نقضي

(1) مكان تجمّع العظام. (م)

twitter @baghdad_library

حياتنا في المقارنة بين أجسادنا، بيد أننّا ما إن نغادر الطفولة، حتّى تبدأ المقارنة تتمّ في الخفاء، وبشكلٍ يكاد يكون مخجلاً. في سنّ الخامسة عشرة كنت أقدِّر عضلات سواعد أقراني وعضلات بطونهم. وفي سن الثامنة عشر أو العشرين كنت أقدّر ذاك الانتفاخ البارز من مايوه السباحة. في سن الثلاثين إلى الأربعين يصير الشَّعر هو موضوع المقارنة بين الرجال (ويا لبؤس الصُلع!). وفي سنّ الخمسين: الكرش (الحرص على أن لا يصير المرء أكرَش)، وفي الستين: الأسنان (من لا يزال يحتفظ بأسنانه). والآن، في الاجتماعات التي تضمّ أولئك التماسيح الشيوخ الذين يفرضون علينا وصايتهم، يقارن كلّ شيء: الظهر، المشية، طريقة مسح الفم والقيام وارتداء المعطف، إنّهم يقارنون العمر باختصار، العمر بكلّ بساطة. فلان يبدو أكبر منّي سناً، ألا ترى ذلك؟

5

37-49 سنة

(1972-1960)

غير وارد على الإطلاق أن أنصّب نفسي
طبيباً مختصاً في أمراضي.

twitter @baghdad_library

37 سنة، عيد ميلادي **الاثنين 10 أكتوبر 1960**

في اجتماع، من تلك الاجتماعات التي تثير النعاس، وكان موضوعه مشاكل التوزيع، قرّرت أن أختبر فرضية كون التثاؤب ظاهرة مُعدية. مثّلت أنّي أتثاءب فارداً وجهي بشكل مذهل، وأتبعت ذلك بعبارة مقتضبة «عذراً»، فانتشرت عدوى التثاؤب في ما يقارب ثلاثة أرباع المجتمعين -حتّى عادت وأصابتني أنا نفسي، فتثاءبت بالفعل!

37 سنة، 3 أيام **الخميس 13 أكتوبر 1960**

من جهته، يلاحظ برونو أنّ التثاؤب يصيب بالصّمم. عندما يصيبه المدرّس بالملل، يتثاءب، ليس رغبة في إظهار ملله، وإنّما رغبة في عدم سماع الأستاذ. يقول إنّ الفكّين عندما يُفتحان وُسعَهما، تطنّ الأذنان، كأنّما تخترقهما ريح عاتية. حينئذٍ أنصت للرّيح. أضاف أنّ العطس يصيب بالعمى. لقد لاحظ أنّ عينيه تنغلقان في الثانية التي ينفجر فيها منخاراه. لاحظ أيضاً أنّه لا يستطيع التثاؤب والعطس في آنٍ واحد. يصير أعمى وأصم، لكن بشكل متعاقب. تلك هي الملاحظات نفسها التي كنت لأدوّنها في

twitter @baghdad_library

هذه المذكرات في سنّه، لو أنّني قررت اللّعب بجسدي بدل محاولة استكشافه.

37 سنة، 4 أيام **الجمعة 14 أكتوبر 1960**

عمّقت تجربة التثاؤب في مكتب G.L.R. تثاءبت هذه المرة متظاهراً بأني أخفي تثاؤبي. تثاءبت دون أن أفتح فمي، تثاءبت بفكين مطبقين وشفتين مزمومتين، ومثل أمس انتشرت عدوى التثاؤب، وانتشرت معها في الآن نفسه محاولة إخفاء التثاؤب. في بعض المواقف إذن، تنتشرُ الخبرات المكتسبة مثلما تنتشر ردود الأفعال الانعكاسية. (ولأذكر هنا عرَضاً أنّ الطّنين الخاطف الذي أسمعه في أذنيّ حين أتثاءب يشبه خشخشة ورق الألمنيوم حول ألواح الشوكولاتة).

37 سنة، 7 أيام **الاثنين 17 أكتوبر 1960**

حين أخبرت تيجو بتجربتي عن انتشار التثاؤب، قال لي إنّه في إطار مسألة عدوى التعبيرات الوجهية، يهتم منذ مدّة بما يسمّيه: «تنوّع الآراء المتواطئة». بعد ساعتين أكد لي الأمر بالتجربة. كنّا نتغذّى في مطعم مع ثلاثة شركاء من مؤسسة .Z، فقال مخاطباً الجميع: بالأمس اصطحبتني زوجتي (بالطبع هو ليس متزوجاً) لمشاهدة آخر أعمال المخرج برغمان، إنّه حقاً. . . وهنا، بدل أن يتمّ كلامه صمت وصبغ وجهه بتعبير استنكار يُفيد الاشمئزاز (ضيّق منخريه، وضمّ فمه على هيئة مؤخرة-الدجاجة، وعقد حاجبيه وسحب وجهه إلى الخلف. . . إلخ)، فلمحت تعبير وجهه ينطبع على

وجوه مدعوِّينا الثلاثة. وما إن تمكنّ التعبير من وجوههم، حتّى أتمّ تيجو كلامَه بابتسامة مشرقة: إنّه حقاً. . . رائع، أليس كذلك؟ حماسٌ قلب فوراً جغرافية الوجوه، التي انشرحت وابتسمت واكتست تعبيرَ موافقةٍ تامة.

37 سنة، 13 يوماً الأحد 23 أكتوبر 1960

أوّل ما يُقرأ على صفحة وجوهنا عندما نكون في مجتمعٍ، هو الرغبة في الانتماء إلى الجماعة. الحاجة الملّحة إلى الانتماء. بالإمكان طبعاً أن نعزُو الأمر إلى طريقة التربية وإلى التبعية وضعف الشخصية -وهذا ما جرّبه تيجو-، بيد أنّي رأيت في تجربته بالأحرى ردّ فعل لجأ إليه الإنسان منذ القدم ضد العزلة الأنطولوجية، إنّه ردّ فعل يحاول الجسد عبره الاحتماء بالجسد المشترك، رافضاً غريزياً العزلة والمنفى، ومهما كان النقاش سطحياً، يحتمي به. عندما أتأملُنا، نحنُ بني البشر، في الأماكن العامة حيث نتبادل الأحاديث، -في الصالونات والحدائق والحانات والرّدهات، والمترو، والمصاعد-، فإنّ أول ما يدهشني في أجسادنا هو ذاك النّزوع الأوليّ إلى قول نعم. إنّها تجعل منّا أسرابَ طيورٍ تومئ بشكل آليّ: نعم، نعم، هذا ما تومئ إليه رؤوس الحمام السائر جنباً إلى جنب. وبخلاف ما يعتقد تيجو فإنّ هذا الانخراط الذي يتمّ في السّطح لا يعكس بتاتاً وجهة نظرنا الشخصية، ذاك أنّ النقد سيَلي الموافقةَ، إن لم يكن قد بدأ أصلاً في الاشتغال، لكنّنا ننساق في البداية إلى التحالف مع الجماعة قبل أن نبدأ في التقاتل. على كلّ حال، ذاك ما نقوله لأجسادنا.

twitter @baghdad_library

37 سنة، 6 أشهر، يومان الأربعاء 12 أبريل 1961

تحتي قطعة غائطٍ لا غبارَ عليها. قطعةٌ واحدة، صَقيلة وناعمة نعومة مثالية، كثيفة دون أن تكون قابلة للالتصاق، ذات رائحة دون أن تكون منتنة، تقطيعها ممتاز وسمرتها متجانسة، وليدة عملية دفع واحدة ومسار سالك، حتّى أنّها لم تترك أثراً على ورق التنظيف. ألقيت عليها نظرةَ حرفيٍّ راضٍ عن عمله: جسدي قام بعملٍ جيد.

38 سنة، 7 أشهر، 22 يوماً الجمعة فاتح يونيو 1962

ليزون تبكي. أخوها عنّفها. ليزون حساسة جداً تجاهَ الإهانات، والكلماتُ تصير دائماً ذات معنى بالنسبة لها. استفسرتُ عن سبب بكائها. برونو قال لها: اسلَحي نفسك[1]. وبّخت برونو، ثمّ تساءلت عن أصل هذه المسبّة ذات الطابع الجسدي الخالص. جوزيه هو من علّمنيها! أيّ جوزيه؟ أحد رفاقي بالمدرسة. هو، في الواقع، أحد فرنسيي-الجزائر، وصل حديثاً مع مأساته وعائلته ولكنَته ومعجمه. لا أرى أنّه يلزم أكثر من عشر سنوات ليتغيّر كلياً معجم الشتم الذي نستعمله. «اِسلح نفسك»، تحمل بالرغم من كلّ شيء، أبعاداً أخرى غير تلك التي تحملها شتائم من قبيل: «الغبي» أو «عليك اللّعنة». ذاك أنّ تصريف فعل «سلَح» (تغوّط) في صيغة الأمر، هو بمثابة سلاحٍ فتّاك. إنّه يختزل كاملَ ماهية الفرد في فضلاته، ويأمره بأن يفرغ نفسه من نفسه. هل ثمّة شتيمة أقذع؟

(1) ترجمة حرفية لعبارة سبّ فرنسية. (م)

38 سنة، 8 أشهر، 7 أيام الأحد 17 يونيو 1962

ثمّة مسبّة أخرى بالغة المادية أتحفنا بها الصغير جوزيه، الذي صار يأتي من حين إلى آخر ليلعب في المنزل: الموتُ لعظامك.

39 سنة، 3 أشهر، 4 أيام الاثنين 14 يناير 1963

ليلةٌ بيضاء بسبب القلق. حلقي مختنق، صدري ثقيل، وثمّة طنين صامت يجتاح أعصابي! أفقت باكراً، وذهبت إلى العمل راجلاً وسالكاً درباً طويلة: ساحة الجمهورية، شوارع كبيرة، الأوبرا، ساحة الكونكورد، حديقة تويلري، متحف اللوفر، قنطرة الفنون. . . كنت أخطو في البداية خطوات ميكانيكية صرف، وثقل جسدي ينزل بكامله على كلّ قدم أخطو بها، جهداً بعد جهد، يتسكّع وحش فرانكنشتاين بعينين ثابتتين وأنفاس متقطّعة. . . إلى أن ينجليَ القلق رويداً رويداً، ويعود فكّي وقبضتاي إلى صلابتهما، وتستعيد أطرافي مرونتهما، وتستقيم المشية وتنشرح الرئتان، وتتخفّف الروح من ثقل الجسد، وتتّخذ البذلة هيئتها على جسد رجل المجتمع، ويدخل المواطن المدير إلى المكتب، دخلَته الأسطورية التي تشحذ الهمم: صباح الخير جميعاً. كيف هو مزاج الفيالق؟

40 سنة، 7 أشهر، 13 يوماً السبت 23 مايو 1964

رافقت الصّغيرين اليوم إلى حديقة لوكسمبورغ. لمحتُ بطرف عيني لاعبة تنس تشمّ ما تحت إبطيها. ثمّ دخلَت إلى مستودع الملابس متأبّطة مضربها. الحركة الخاطفة نفسها التي تلجأ إليها

twitter @baghdad_library

الحمامة، لتفقّد رائحة باطن جناحها. أمّا أنا، ففي مثل حالات التعاطف الخارقة تلك التي تجمعني بأبناء جلدتي، أعرف إحساسهم جيداً. أعرف ما تشعر به: تصادف عطراً ألوفاً جداً ما يلبث أن يتحوّل إلى رائحة ينبغي القضاء عليها. إنّها تبتهج برائحة عرقها، لكن لا ينبغي أن يشمّها الآخرون! أراهن أنها بنسبة تسعة من عشرة، ما إن تجتاز عتبة المستودع حتّى تمتد يدها إلى أول مزيل عرق أو معطّر تطاله، حتّى تكتسب مجدّداً هيئة شخصٍ مّا.

نتعطّر في السرّ بالأبخرة النّتنة التي نكتمها أمام الآخرين. هذه الازدواجية تصدق بالقدر نفسه على أفكارنا، إنّها أهمّ ما يميّز حياتنا. فما إن ندخل بيتينا، أنا ولاعبة التنس، حتّى نستمتع بضرطة كبيرة، من تلك التي تصعد حتّى أعماق مناخيرنا بواسطة موجات نعرف بخبرات قديمة كيف نجعلها ألوفاً بالنّسبة لنا.

40 سنة، 7 أشهر، 14 يوماً الأحد 24 مايو 1964

اِلتهمتُ مونا الليلةَ الماضية، بالمعنى الحرفي للكلمة، التهمتها بمنخريّ ولساني. حشرت أنفي تحت إبطها، وبين نهديها وفخذيها وإليتيها، تنشّقتها بعمق، لعقتها، امتصصت عبيرها ورائحتها، مثلما كنّا نفعل أيّامَ شبابنا.

41 سنة، شهران، 10 أيام الأحد 20 ديسمبر 1964

كنّا في مطعم نحتفل جميعنا بعيد ميلاد مونا، حين طلب مني برونو أن أشرح له عبارة غامضة قرأها في المرحاض: «المرجو عدم رمي الفوَط الصحيّة هنا». سؤالان كانا يلحّان عليه: 1) أليست

جميع الفوط صحية؟ 2) من ذا الذي يبلغ به الجنون حدّ أن يرمي فوطة في المرحاض؟ تسلّل طيف ابتسامة إلى فم ليزون. فصرخ برونو قائلاً: ماذا؟ وبكامل الجبن تركت لمونا مهمةَ شرح العبارة وتبرير الابتسامة.

41 سنة، 7 أشهر، 25 يوماً الجمعة 4 يونيو 1965

يمكن لخصيتينا أن ترتجفا خوفاً على الآخرين. سبق أن جرّبت الأمر عندما كانت مونا على شفير الهاوية. عاودني الإحساس، إذ وضعت نفسي موضع راكبِ دراجة دهسته سيارة أجرة. لم يحترم الضوء الأحمر، ولم ينتبه إليه السّائق فكانت النتيجة: الاصطدام، ثمّ قفزة مستوية في الهواء، تكسّر ساق، وانفجار ثلاثة ضلوع أو أربعة بسبب الارتطام بالرصيف، تضرّرت فروة الرأس تضرراً بالغاً، جُرح الخدّ، وارتعدت خصيتايَ بينما كان يقفز مستوياً في الهواء. هو خوف مبنيٌّ على التّعاطف ليسَ إلّا، على تقمصّ ما حدث للرجل، إذ في نهاية المطاف لم أكن أنا من سقط عليه الفتى المسكين. خلصت إلى أنّ الخصيتين تمتازان بنزعة غيرية تجعلهما تخشيان على حياة الآخرين. هل الخصيتان هما مأوى الروح؟

41 سنة، 7 أشهر، 26 يوماً السبت 5 يونيو 1965

فكّرت الليلة الماضية في الدَرّاج الطائر. بينما كنت أقلِّبه على جنبه وأمسح دمه في انتظار وصول الإسعاف، سألني عديد المرّات عمّا إذا كانت ساعته قد تحطّمت؟

twitter @baghdad_library

42 سنة، 3 أشهر، 19 يوماً   السبت 29 يناير 1966

تعشّيت عند شوفريي، الذي عاد إلى المؤسسة بعد عامين قضاهما في البيرو ad majorem buxidae gloriam[1]. حمل معه من ذاك البلد مجموعة مميّزة من النُذر المنقوشة على ألواح معدن صغيرة مستطيلة، لا يتجاوز طولُها طولَ عقلة الأصبع: أيادٍ، أذرع، عيون، رئات، نهود، أظهر، أذرع، سيقان، خصيّ، معدات، أكباد، كُلى، أسنان، أقدام، أنوف، آذان، بطون منتفخة لنساء حوامل... نذُر لا صلاة منقوشة عليها، ليس عليها سوى صورة العضو الذي تقصد شفاءه، منقوشاً على لوح ثقيل بدرجة مّا، ومصنوع من معادن شيئاً مّا ثمينة. لم يكن ثمّة أيّ عضو جنسي، لا ذكري ولا أنثوي. قال لي شوفريي أنّ أكثر النذر عليها صور القلوب والعيون والأيادي. وإذ سألني عمّا إذا كنت أؤمن بهذه الأمور، أجبته نافياً. لكن ذلك لم يمنعني من اختيار نذر عليها صورة عينين كتذكار منه.

42 سنة، 3 أشهر، 20 يوماً   الأحد 30 يناير 1966

بعد تفكير عميق في الظلام ذات ليلة جَفاني فيها النوم، قلت لنفسي: أفضّل أن أكون أعمى على أن أكون أصمّ. أن تفقد حاسة السمع.. أن تقضي حياتك داخل أكواريوم تتفرج على الآخرين يعيشون حياتهم؟ كلّا، أفضّل أن لا أراهم وأن أظلّ، في عتمتي،

---

(1) باللاتينية في الأصل، وهو ما يمكن أن يترجم إلى «حتّى تعلوَ كلمة الرّب»، وهو الشّعار الذي يتّخذه المبشّرون. (م)

أسمعهم يتكلمون ويتحركون ويتمخّطون، أسمعهم يكونون. أن أسمع تنفس مونا وهي نائمة، وضجيج المنزل، وبندول المكتبة، أن أسمع الصمت نفسه. وإذ ذاك عاودت النّوم، فحلمت الحلم الآتي: أنا ممدّد على طاولة عمليّات. بارمونتيي منحنياً عليّ، كان يرتدي وزرة جرّاح بيضاء وقبّعة بيضاء وقناعاً لم يمنعني من رؤيته يبتسم. وضع مساعده في عينيّ جهازاً معقداً يبقي جفنيّ مفتوحين. وفي تلك الأثناء كان بارمونتيي قد أشعل موقد بنسن وبدأ يسخن فوقه كرة نحاس صغيرة. فهمت أنّ الأمر يتعلّق بطقس بدائي، أو جلسة تعذيب: تريد الإدارة أن تعرف ما إذا كنت قميناً بأن أصير رجل سلطة[1]. ينبغي إذن أن يسكب بارمونتيي الزيتَ السّاخن في عينيّ دون أن أفقد بصري. لحسن الحظ أملك في البيت النذر الذي أهداه لي شوفريي. بحثت عنه ببصر أعمى، متحسّساً المكان ومصطدماً بالأثاث، بحثت عنه دون جدوى. أفقت عندئذٍ مذعوراً وأعدت النظر في رأيي السابق: الأحرى أصمّ، لا أعمى!

42 سنة، 4 أشهر **الخميس 10 فبراير 1966**

لا عورات ولا فروج على جدران كنائس أميركا الجنوبية، إذن. تدفعني علمانيتي المُحتقِرة إلى السخرية بصوت عالٍ. على الرّغم من أنّ لا قضيب أيضاً لمسلوخ لاروس الذي أحفظه بورع منذ طفولتي، ولا وجود لقضيب حتّى في كتاب العلوم الطبيعية ذي الطّابع العلمانيّ

---

(1) يلعب المؤلف على المعنين، المعنى المباشر لكلمة Huile والتي تعني زيت، والمعنى المجازي الذي يشير إلى رجال السلطة، وهو ما سيتضح في بقية المقطع. (م)

twitter @baghdad_library

الصّرف، الذي درسنا فيه في السّنة الثالثة التي كان من المفترض أن ندرس فيها فيزيولوجيا الإنسان. نسيت اسم المؤلف (دوهوشو؟ دوهوسيير؟)، بيد أنّي أذكر غضبي حين اكتشفت أنّهم تطرّقوا في الكتاب لجميع الوظائف -الدورة الدموية، الجهاز العصبي، التنفس، الهضم. . . إلخ.- كلّ شيء ما عدا التكاثر!

43 سنة، عيد ميلادي **الاثنين 10 أكتوبر 1966**

حلمت الليلة الماضية بمسلّة تنتصب ببطء لدرجة أنّي كنت الوحيد الذي بإمكانه ملاحظة حركتها. في الواقع، لم أكن ألحظ حركتها، لكن كان لديّ يقين بعملية الانتصاب تلك. كانت المسلة ممدودة على الأرض، ورأسها إلى الغرب، وكانت تنتصب بمليمترات، كأنّما تقضي ألف سنة كي تنتصب. وأنا كنت أتابعها، منجذباً بقناعة أنّ في يوم من الأيام، مهما انقضى من حياتي، سأشهد تلك المسلة تنوس فوق قاعدتها، وتشير إلى السماء مثل عقارب الساعة عند منتصف النهار. لا تستيقظ، لا تستيقظ حتى تنتصب بأكملها! قررتُ أن لا أستيقظ حتى تصير عمودية تماماً. كان نهوضها بطيئاً لدرجة أنّي خلتني سأقضي الليلة كلها في انتظار أن تقوم. وأبهجني ذاك البطء، فلم أحِد ببصري عن المسلة، وكانت تلك اللّيلة هي حياتي وحياتي هي ذاك الصبر الذي أوقفته كلّه لمتابعة انتصاب المسلة. واستيقظت بالضبط في الثانية التي استطاعت فيها المسلة، بعد تردّد وتعثُّر، أن تنتصب فوق قاعدتها. تذكرت على الفور الجملة التي تفوّه بها تيجو أمس أثناء عشاء عيد ميلادي: ثلاثة وأربعون عاماً هي رقم مقاس حذائك! ستنعم بسنة مستقرّة! وستكون صحّتك على أفضل ما يرام.

43 سنة، شهران، 20 يوماً الجمعة 30 ديسمبر 1966

منذ حوالي خمسة عشر يوماً ظهرت على أكبر أصابع قدمي اليسرى دُمّالة لم يسبق لي أن رأيت لها مثيلاً. هل أصابني ثفن في القدم أو بثرة أو جسأة أو ورم إبهام القدم[1]؟ مهما يكن ما أصابني فهو مؤلم حين أحكّه، وللمرة الأولى في حياتي أجدني مضطراً، بسببه، إلى اختيار أحذيتي. إننا لا نعلم الأسماء المضبوطة للأمراض التي تصيبنا؟ لسنا نمتلك سوى لغة تعميمية: «بثرة»، «روماتيزم»، «حموضة»، «دمّالة».

43 سنة، شهران، 25 يوماً الأربعاء 4 يناير 1967

بعد الاستفسار، يتعلّق الأمر فعلاً بثفل. وأحسب أنّي أصبتُ بهذا عندما كنت في صفوف المقاومة، حيث كانت الأحذية شديدة الضّيق.

43 سنة، 3 أشهر، 5 أيام الأحد 15 يناير 1967

جسد الأب. قال برونو لرفيق من رفاقه أتى يقضي معه نهاية الأسبوع: لم يسبق لي أن رأيت أبي يفطر مرتدياً منامته. منذ الفجر يكون أبي على أفضل ما يمكن أن يكون الرّجل، حليق الذقن، شعره مسرّح وربطة عنقه معقودة. لم تعجبني نبرة تهكّم أحسستها في وصفه، فقلت له بجديّة بالغة إنّي ومونا قد قررنا أنّنا سنقضي العطلة

---

(1) كلّها أمراض جلدية تصيب القدم. (م)

twitter @baghdad_library

القادمة في مخيّم للعراة (الداعين للحياة الطبيعية)، ألم أخبرك بالأمر؟ نتيجة غير محسوبة لتلك المزحة الغبيّة، امتقع برونو، ووضع شطيرته ثمّ غادر المطبخ متبوعاً برفيقه، وعلى جبينه عار توراتيٌّ: عارُ سام ويافت عندما كانا يسيران متراجعين إلى الخلف كي يسترا عريَ أبيهما. إمّا أنّ ثمّة إفراطاً في الجسد، أو عدم كفاية منه. منذ عهد نوح والمسألة قائمة هنا.

43 سنة، 5 أشهر، 19 يوماً الأربعاء 29 مارس 1967

أورامي العزيزة. أخرجت اليوم واحداً منها بينما أعطس. كان يسدّ منخري الأيسر منذ زكامي الأخير - ثلاثة أشهر وبضعة أيام. منحنياً على منديلي كنت أعطس من أعماق أنفي. لم أعطس عطسات من تلك العطسات المألوفة التي نقوم بها بأفواه مفتوحة، والتي تملأ البيت بضجيج مبهج، وإنّما عطست عطساً أنفياً خالصاً. عطست بفمٍ مغلق، مركّزاً كلّ الضغط الهوائي على فتحة الأنف حتى أتمكن من تسليكها. عادة لا توجد قوّة تستطيع تسليك فتحة أنف يعشعش بها ورم بالغٌ حازم. يصطدم الهواء بالعقبة فيغلق بالتالي الأذنين، وكأنّما الدماغ يتسّع حتّى يلمس جدار الجمجمة فيرتدّ قبل أن يستعيد حجمه الطبيعي. وها أنت ذا قد جننت تماماً. عطستُ رغم ذلك. (فيما يخصّ تجربة العطس، لا ينتصر الواقع قطّ على الأمل)، عطست متعمّداً. أغلقت فمي وعينيّ وضغطت على المنخار الثاني، تركت الرغبة في العطس تدغدغ غشائي المخاطي، تصعد حتى حافة أنفي، نفخت رئتيّ، وفردت المنديل وسعه، حتّى أتمكنّ من الشظايا التي [قد] تخرج. عطست بكامل قوتي عبر فتحة أنفي

اليسرى وحدها (طاقة اليأس المعروفة). يا للمعجزة، لقد صارت الفتحة سالكة! أحسست اصطداماً رخواً بباطن كفّي، وتيار هواء لافح، ثمّ يا للروعة، إنّ طريق العودة أيضاً سالكة، هو أيضاً صار مفتوحاً! للمرة الأولى منذ أسابيع بات الهواء يتجوّل حراً في منخري! فتحت عينيّ على منديل مسّه الاحمرار، وفي الوسط كان به شيء لزج حسبته في البداية قطعة دم متخثّرة، لكن ما إن فحصتها حتّى بدت قطعة لحمية. لم يُغمَ عليّ. ولم أقل لنفسي إنّي قد فقدت جزءاً من دماغي. غسلت ذاك الشيء بماء صافٍ، فكشف عن نفسه. كان يشبه تماماً لبّ صدفة سان-جاك: رخو ومتماسك ولونه أبيض يميل إلى الورديّ، شفاف بشكل غامض وليفيّ بشكل غير ملحوظ. 21 مليمتراً في الطول و17 مليمتراً في العرض و9 مليمترات في السمك. ها أنت ذا إذن أيها الورم العتيق! بدا العجوز الطيب الدكتور بك (ما سنّه يا ترى؟) غير مصدّق حين رأى حجم الوحش الذي كان مقيماً بمنخري! قفز فرحاً، بالمعنى الحرفي للكلمة، حين أريته له. استئصال عفويّ لورم؟ إنّها حالة نادرة لو تعلم! لم يسبق لي قط أن رأيت مثل هذا! اِحتفظ به للفحص، ولم يقبل أن يأخذ مني ثمن الفحص، بدا فرِحاً وكأنّما تلقى منّي لؤلؤة ضخمة.

43 سنة، 8 أشهر، 24 يوماً — الثلاثاء 4 يوليو 1967

أفرطت في شدّ الحبل مؤخّراً: ولائم عشاء يصاحبها الشّرب، سهرات لوقت متأخرٍ، ليالٍ قصيرة، استيقاظ حالَ النّوم، عمل متواصل، تحرير مقالتين إضافة إلى ورقة ندوتي، حضور مع أسرتي، حضور مع أصدقائي، حضور مع زملائي، حضور مع الزّبائن،

twitter @baghdad_library

حضور في الوزارة، انتباه في كلّ لحظة، تفاعل فوريّ، سلطة، صداقة، ضيافة، فعالية، تحكّم. منذ ثمانية عشر يوماً وجسدي يتّبع غوايةً عالية الطّاقة، سائراً خلف عنفوان الروح الذي يمتدّ كجسر أركول لا ينتهي.

وهذا الصباح نفدت الطّاقة بالكامل. أحسستُ ذلك ما إن فتحت أجفاني. نضب الصّبيب. وبعد «جذب الحبل»، أتى الدّور على «إرخاء كلّ شيء». كلّ شيء هذا الصّباح خاضع لسؤال الإرادة، كلّ شيء يأتمر بأوامر القرار. ولا أقصد هنا ذاك النّوع من القرارات التي يتتالى شريطها أمامنا ما إن نستيقظ، وإنّما أقصد القرارات المتقّطعة، تلك القرارات اللّحظية، بحيث أنّ كلّ فعل يستلزم قراراً، وكلّ قرار يستوجب طاقة خاصّة لتنفيذه، دون أن تربط بين القرارات أيّة رابطة دينامية؛ كأنّما لم أعد أتحرّك بطاقة داخليّة متّصلة، وإنّما بمجموعة مولدات كهربائية موضوعة خارج المنزل، مولدات ينبغي إعادة تشغيلها -بطريقة جيّدة!- كلّما كان عليّ اتّخاذ قرار مّا.

الأكثر إرهاقاً في الأمر هو تلك الطّاقة الذهنية التي عليّ بذلها كي أخفيَ تعبي عن من هم حولي، كي أبدوَ، على عادتي، عطوفاً مع ذويَّ (الذين يصيرون غرباء بسبب التّعب)؛ ومهنياً، على عادتي، مع الآخرين (الذين يصيرون ألوفين بسبب التّعب). باختصار أن أحرص على صورتي، صورة الرّجل رابط الجأش. وأن أحرص على توازن وضعيّتي. إن لم أرتح، إن لم أمنح جسدي حصّته من النوم، سينتهي المطاف بالمولّدات الكهربائية نفسها إلى أن تتعطّل، وسأستغني عنها. يوماً عن يوم سيزداد ضغط العالم. وسيحتل القلق

موضع التعب، وبعدها لن يعود العالم هو ما يبدو لي ثقيلاً، وإنّما أنا نفسي داخل هذا العالم، أنا عاجزٌ، غامض ومخاتل، ذاك ما سيهمسه القلق في أذن وعيي المرهق. وسأستسلم حينئذٍ لسَورة غضب من تلك التي بإمكانها أن تترك لأطفال ذكرى والدٍ ذي مزاج خطير التّقلّب.

43 سنة، 8 أشهر، 26 يوماً الخميس 6 يوليو 1967

مثلما هو متوّقع أصابتني نوبة قلق. يمتاز القلق عن الحزن وانشغال البال والكآبة والخوف والغضب، بأنّ سببه غير قابل للتحديد. حالة عصبية صرف، تؤثر على الجسد فوراً: ضيق الصدر، تقطّع الأنفاس، توتر الأعصاب، رعونة الحركات (كسرت صحناً بينما أُعدّ إفطاري)، سورات غضب متقطّعة، قد تكون مقدّمتها وخيمة العواقب، سُباب مكتوم يسمّم البدن، لا رغبة في شيء، تفكير متقطّع شأنَ الأنفاس. يستحيل أن أركّز في أي شيء، اكتئاب يبلغ حدوده القصوى، مسودات حركات ومسودات جمل ومسودات أفكار، لا شيء يكتمل أو يأخذ صورته الحقيقيّة، كلّ شيء يرتدّ ويعود إلى الدّاخل. القلق لا يكفّ عن إعادتك إلى قلب القلق. لا أحد يتحمّل مسؤولية ذلك- أو لعلّ الجميع يتحمّلونها، والأمران سيّان. أرفس بقدميّ في داخلي، محتجاً على العالمين، متهماً إياهم بكونهم ليسوا سوايَ. إنّ القلق مرض أنطولوجي. ماذا بك؟ لا شيء! كلّ شيء! أنا وحيد كالإنسان!

twitter @baghdad_library

إستفاقة دمويّة. الفجوة التي خلّفها رأسي على المخدّة مليئةٌ بدم أسود يكاد يتجلّط. لم تستطع كميّة القابوق[1] تلك أن تمتصّ الدّم كلّه. لعلّي نزفت من أنفي أثناء النّوم. نهضت بهدوء كي لا أوقظ مونا. أخفيت الوسادة، ورميتها مع الأزبال. الملاءات لم تمسّ. تأكّد الأمر في الحمام: خدّي مسودّ بسبب بقعة دم متجلّطة ومنخري الأيسر ممتلئ بقشور الدّم المتلكّد. تمضمضت وتمخّطت واستحممت، ولم ألحظ شيئاً آخر. ساعتان بعد ذلك عاودني النزيف في مجلس الإدارة. المنخر الأيسر نفسه. الدم يسيل دون توقف، وقميصي صار ملطخا تماماً. أكملت عرضي بعدما أغلقت منخري بقطعة قطن، سرعان ما عوّضتها بفتيل طبيّ أحضرته سابين من الصيدلية المجاورة. واشترت لي قميصاً نظيفاً بالمناسبة. وعند السّاعة الثانية زوالاً عاودني النّزيف في غمرة النقاش بينما أحتسي القهوة مع ر. في منزل ف. طوفان فعليّ! بالكاد لم أرشّ جلسائي. فتيل طبيّ آخر، وقميص جديد، منحني إياه بلطفٍ كبير الخدم. (هذا ما يمكن أن يسميه المرء حسن خدمة!) عدت إلى العمل، وفي السّاعة السادسة مساءً عاودني النّزيف. وضعُ فتيل في مستشفى المستعجلات الخاصّة بالأطفال ORL. هو أفضل موضع علاج في باريس بحسب ما يؤكّد إتيين. وَضعَ لي الفتيل طبيب متمرّن ذو عيون شفّافة. يتلخّص العلاج في حشو المنخر بأكبر كمية ممكنة من

(1) ألياف تستخدم في حشو الوسائد. (م)

النّسيج، إلى أن تسدّ جميع الجيوب الأنفية، التي تقاوم بما تبقى لها من قوّة. لا يستطيع المرء أن يتخيّل كم هي جوفاء الجمجمة! طبقة عظمية رقيقة تحيط بمغارات وأروقة وأخاديد وشقوق عميقة، وكلّ واحدة منها أكثر امتلاء بالأعصاب من الأخرى. العملية مؤلمة لدرجة أنّي بالكاد أمسك قبضتي عن ضرب الطبيب المتمرّن. كان بإمكانك أن تنبّهني على الأقل! دمعت عينيّ. قال: ها نحن قد انتهينا! لكن ساعة النّوم، عاودني النّزيف: وامتلأ النّسيج المضغوط بدم سالَ حتّى عبر حلقي. عودة إلى المستشفى. طبيب آخر. سألني: من وضع لك هذا الفتيل. تجنّبت الإجابة وبيّنت له أنّ النزيف يعاودني كلّ أربع ساعات، وقد احترم موعده بالتّالي. هل كان زميلي على علم بالفواصل الزّمنية بين كلّ نزيف وآخر؟ لا أذكر أنّي أخبرته. الأمر مزعج، سنضطر إلى إعادة وضع الفتيل، وإبقائك تحت الملاحظة هذه الليلة. لا يسعدني وضع فتيل آخر، لكن فيما يخصّ الألم، أفضّل التّوجّس على المفاجأة. فالاهتمام الذي أوليه للأمر يجعلني أكثر قابلية لتحمّله. تحمّل أن يُدخلوا في منخرك مجموعة إبر منظّفة، مثلما كان المدفعجيّة ينظّفون فيما مضى ماسورات مدافعهم. أتتني خاطفةً صورة بيير بزوخوف تائهاً بين الرّماة الرّوس في بورودينو؛ وأيضاً صورة جرذ أورويل الشّجاع الذي كان يحفر عبر أنف أحد الخونة بهواً يوصله إلى دماغه. إنّ تحمّل الألم في عمقه، يعني قبول الواقع كما هو: واقعاً غنيّاً بالاستعارات الخلّابة. كم من الوقت تستغرقه الاستعارات كي تتحوّل؟ كلّ شيء يكمن هنا: ينبغي إصدار أوامر للأطباء تقضي بأنّ عليهم أن يعلِموا المرضى: إنّ وضع الفتيل، سيّداتي سادتي، يستغرق ثلاث دقائق وثمان وأربعين ثانية، وتصاحبه

twitter @baghdad_library

آلام قد تدفع بك إلى تسلّق السّتائر. ولا ثانية إضافية: أنا أستطيع أن أضعه لك في ثلاث دقائق، أَمسك العدّاد بيدك واربط حزامك. ثمّ على الطبيب أن يعدّ تنازلياً، كأنّه يعلن انطلاق صاروخ: لم يتبقّ سوى اثنتا عشر ثانية... خمسة، أربعة، ثلاثة، اثنان، واحد... ها نحن انتهينا. سنُبقيك معنا هذه الليلة إذن.

حملت إليّ مونا منامة وكرز حمّام وما أقرؤه. جميع غرف البالغين كانت مشغولة، لذلك تمّ إيوائي في غرفة مع طفلين مريضين (واحد مصاب بالتهاب أذن، والآخر عضّه كلب)، ممّا قضى على مشروع القراءة. إنّ هذا العجوز ذا المنخر المورّم مصدر تسلية واضح. هكذا إذن، البالغون أيضاً قد يمرضون؟ يمرضون لدرجة مشاركة الأطفال غرفهم في المستشفى! وكإجابة عن أسئلتهم، اقترحت عليهم حلّ لغز الصنابير التي تسيل داخل جمجمتي. علماً أنّ كلّ صنبور يسيل أربع ساعات بما مقداره عشرين سنتيلتراً من الدّم. احسُب كميّة الدّم التي سالت طيلة الأربع والعشرين ساعة. وبما أنّ جسد البالغ يحتوي على ما مقداره خمس لترات من الدّم، أُحسب الوقت الذي لا يزال أمامي قبل أن أفرغ من الدّم حتّى آخر نقطة. هيّا إلى العمل، لا أريد أن أسمع حتّى صوت ذبابة! وكما دبّرت، ناما أثناء إنجازهما الحسابات، ما أعطاني الفرصة للقراءة، قراءة هوبز الذي ناسبني مثل قفّاز في يدي: «لقد كان الخوف شغف حياتي الوحيد».

وبعد وضع الفتيل الأخير، أرسلني متمرّن الصّباح إلى منزلي متفائلاً، كأنّما وضعني في حياة جديدة كلّ الجدّة، لكن ما إن وصلت البيت حتّى فاجأني سَيَلانٌ ترك في حلقي مذاقاً لا يمكن أن

أخطئه. أربع ساعات بعد ذلك، عدت إلى المستعجلات، ووُضع لي فتيل رابع (من قال إنّنا لا نتعوّد على الألم؟) هذه المرّة كان الطبيب المتمرّن متشككاً: سأضع لك الفتيل بدافع من الضمير يا سيّدي، لكنّي أخبرك أنّك لا تنزف. يا دكتور إنّني أنزف من **الدّاخل**، أنزف كلّ أربع ساعات. إنّه مجرّد **انطباع** يا سيّدي. إنّه مجرّد رعاف، مثل ذاك الذي يصيب الأطفال، ليس ثمّة أيّ خطر، لقد أوقف الفتيل النّزيف. ما عدتَ تنزف.

عدت مرّة أخرى إلى منزلي. وعاد «انطباع» النّزيف كما كان، وبالانتظام نفسه. أرسل لي إتيين أحد رفاقه في خدمة الإسعافات الطبيّة المستعجلة. أكّد الرفيق كلام المختص: إنّك لا تنزف، إنّه حقاً انطباع. لا ريب في أنّ سببَه الهلع. لا تجزع، نمْ وسيمُرّ الأمر. لست أجزع، أنا أذوي، أذوي ومونا تشتعل. قرّرَت أن تسحب الفتيل لتطمئنّ. أرادت أن تحسب كميّة الدم التي ضاعت. نزفت مجدّداً. ملأت وعاءً. وبعد أربع ساعات عاودني النّزيف، فملأت وعاءً آخر. عدنا أنا ومونا إلى المستشفى كي نضع الوعائين أمام عيني الطبيب ونسأله عمّا إذا كان الأمر مجرّد **انطباع**. لا فائدة. كان الطبيب قد تغيّر مرّة أخرى. وضعوا لي فتيلاً آخر بدعوى أنّ الفتيل السابق لم يكن موضوعاً جيّداً. وضع الفتيل أمر صعب، لكن لا تقلق يا سيّدي، إنّ الرّعاف من الأعراض المرضيّة الحميدة.

صباح الاثنين عاد جسدي إلى العمل مرتدياً بذلة الرّئيس المثالية. أنأى بجانبي كلّ أربع ساعات كي أسعف نفسي، مثل من يذهب للتبوّل. مع الدّم النّازف أفقد قوّتي، ومع قوّتي أفقد المزاج. بعد كلّ نزيف يجتاحني حزن لا حدّ له. كأنّ الشجن يحتلّ المساحة

twitter @baghdad_library

التي يتركها الدّم النّازف. يجتاحني الموت. يحتلّ ببطء، لكن بثقة، أراضي حياتي. كان بودّي أن أقضي عشر سنوات أخرى بصحبة مونا، أن أشهد برونو يكبر، وأعين ليزون على نسيان جراح الحبّ الأولى. ذاك هو الموضوع الذي يشكّل سأمَ احتضاري: غراميات ليزون. لا أريد لليزون أن تتألّم. لا أريد أن يستغلّ نذلٌ لُطفَها الأخرقَ شيئاً مّا، أو اهتمامها المحموم بالعالم، أو بحثها العنيد عن الحقيقة في السّعادة. وبشكل متزامن مع هذا القلق، يجتاحني ضرب من الطمأنينة، فأرخي نفسي على المنحدر، أستسلم للتيار، لدمي يجرفني؛ الموت، أقول مخاطباً نفسي، الموت منوّم مضنٍ. . .

في اليوم الموالي لم تسعفني القوّة في الذهاب إلى العمل. مرّ على المنزل تيجو بعدما أخطرته مونا، واصطحبني فوراً إلى سان-لويس، حيث يشتغل أحد الممرضين من معارفه، هو نفسه يشتغل مع أحد كبار الأطباء المختصين بجراحة الوجه في مستشفى ORL. فوجئ جرّاح الوجه بكميّة الدم الذي نزفته في اليومين الماضيين، وانتهى به المطاف إلى تأكيد أنّي كنت ضحيّة تشخيص خاطئ- بالفعل هو رعاف، لكنّه رعاف خلفي، يستلزم جراحة عاجلة بعد تخدير كليّ. لم تترك يد مونا يدي حتّى بلغت غرفة العمليات.

وعند استيقاظي كان رأسي مثل قرع ثقبته السّهام. أنا ثمل بشكل لا يصدّق. جسدي المقيّد، على ما يبدو، لا يستقرّ على حال. لا أكفّ عن التململ داخل ذاتي، كأنّما أنا مسكون بشخص آخر، شخص تقول مونا أنّه هذى كثيراً. أخبرني الممرّض أنّ الإحساس بكوني مسكوناً بشخص آخر، هو أحد الأعراض الشّائعة عن المورفين. طلبت منه أن يمنع عنّي المورفين، فقال مستحيل يا سيّدي

ستتألّم كثيراً! إن تألّمتُ، نعيد استعماله. ما إن منع عنّي المورفين حتّى ارتفع الألم. ارتفاع تتابعه كلّ أعصابي باهتمام بالغ. كأنّي القديس سبستيان وقد ركّز الرّماة سهامهم على وجهه، بحيث يصيبونه جميعهم في منطقة ما بين العينين. نفدت سهامهم، والعذاب يبدو محتملاً، ما دمت لا أزال ساكناً. اِنتبه الجرّاح إلى نسبة الهيموغلوبين المنخفضة في دمي، فقرّر إبقائي عشرة أيّام حتّى ترتفع النسبة وأتجنّب الحاجة إلى نقل الدم. ترجّاني أن أقبل اعتذار المؤسّسة عن أخطاء التّشخيص: ما العمل؟ إنّ الرّعاف الخلفيّ أمر نادر الحدوث والطّب ليس من العلوم الحقّة. وفي التّشخيص ينبغي أن يترك الطبيب دوماً مساحة للشكّ، مساحة تشبه مساحة الارتجال المتروكة في المسرح، لكنّ الأطباء المتمرّنين للأسف لا يتعلّمون ذلك إلا بالتّجربة.

43 سنة، 9 أشهر، 8 أيام **الثلاثاء 18 يوليو 1967**

عشرة أيّام في المستشفى. قضيت نصفها غافياً ونصفها الآخر في كتابة ما سبق. في البداية كان شاربا الغاز اللّذان يمرّان من أنفي ويخرجان من منخريّ يمنحانني شكل تركيّ عتيق. كانوا يفعمونني بالحديد، وكنت أقرأ وأتجوّل متراخيّاً بين أروقة المستشفى، أحفظ أسماء الأطباء والممرّضين، أستعيد إيقاع المدرسة الداخليّة وعاداتها، وأعيد ربط الصّلة بطعام المقصف، أستسلم وأرتاح، تخلّصت من كلّ أسباب نفاد الصّبر. المتغيّر الوحيد الذي يضيف القنوط إلى مرضي هو بشاعة مناماتي المخطّطة (تقول مونا إنّ المحلّ لا يعرض موديلات أخرى).

رفيقي في الغرفة إطفائي سقط تحت هراوات البوليس أثناء

twitter @baghdad_library

الاحتجاجات التي حدثت بداية الشّهر. يدّعي أنّه حاول الوقوف بين قوّات النّظام ومجموعة متظاهرين. وبما أنّه لم يكن يرتدي الزيّ الرّسميّ، فقد كسرت الشّرطة أسنانه، وحطّمت فكّه وقناته الأنفية وأحد محجريه وبعضاً من أضلاعه، كما كسرت معصمه وكاحله. يبكي. مرعوب جداً. يبكي من الرّعب. أجد نفسي عاجزاً عن مواساته. صوت البطّة الذي يصدر عن ضماداتي يفسد نبرة الحكمة في مواساتي. والداه وخطيبته، صبيّة غارقة في الدّمع، لم ينجح أحد منهم فيما فشلت فيه. رفاقه في العمل، هم مَن استطاعوا إعادته إلى الحياة. كلّ يوم كان يحضر فيلق من الإطفائيين مرتدين أزياءَ بروتونيّة وألزاسية وسافاويّة وبروفانسالية وجزائريّة، يقدّمون عرضاً فلكلوريّاً تنخرط فيه ممرّضات الطّابق: مزامير، نايات، دفوف، زغاريد، رقصات محليّة، كعك بالزّبدة، كسكسي، ملفوف مخلّل، جعّة كروننبورغ، شاي بالنّعناع، نبيذ أبيم، مرح شامل نخشى أن يقضي على الإطفائيّ (فكّه وضلوعه تجعل ضحكته أشبه بالعذاب)، لكنّه بدلاً من ذلك يعيد إليه الحياة.

43 سنة، 9 أشهر، 17 يوماً الخميس 27 يوليو 1967

العودة من المستشفى. الاحتفال مع مونا على السّرير، لكنّ نسبة الهيموغلوبين 9,8 بدلاً من 13. شكّكت في أنّهم لم يمنحوني ما يكفي من الكريات الدّموية لسقي قناتي القضيبيّة. تمّ الأمر، دون الحاجة إلى الضيافة الاستوائية الذي خصّتني بها مونا. لقد انتصب قضيبي بشكل ممتاز! حتّى أنّنا حطّمنا رقمنا القياسيّ في طول المعاشرة.

إِنتصب قضيبي، لكنّ شيئاً آخر وقع: كرعشة جماعٍ انفجرت دموعي! شهقات لا تقاوم، تفصلها اعتذارات تضاعفها. إِنتابتني الحالة نفسها في المكتب، حيث تركت اجتماعَ حصيلةٍ وانسحبت إلى مكتبي، وهناك بكيت ما وسعني البكاء. يجتاحني حزن لا مبرّر له، ألم وجودٍ خالص، يغمرني بأمواج غير متوقّعة، أمواج مدمِّرة مثل سدّ ينفجر. إنّه اكتئاب عصبيّ لاحق للعمليّة، الأمر واضح، غرقت روحي بعدما تمّ تفريغ جسدي. الحل؟ الرّاحة، الكثير من الرّاحة يا سيّدي، لقد مررت من تحت مِحدَلة استنزفتك تماماً، ويلزمك الوقت كي تستعيد قوّتك. كبد العجل، عليك بكبد العجل، فهي غنيّة بالحديد، كبد العجل، شرائح لحم الفرس، نقانق الفصيد السّوداء، ولا تكثر من السّبانخ، إنّ أسطورتها مجرّد خدعة، فهي لا تحتوي على الحديد، تجنّب الانفعالات، ومارس الرياضة، دع جسدك يدخل مجدّداً سباق الحياة!

ها أنا ذا في ميراك، حيث تجفّ الدّموع. جولات مشي طويلة تجفّف آخر قطرات الشّجن. مضطجعَين على العشب، نستمتع أنا ومونا بلحظات غروب من تلك التي كنّا نشهدها قبل أن ننجب. البستنة، النّقانق (أطفال ماريان ومراهقينا نحن)، الفطر المفروم، الموسيقى، لا سبيل إلى تعداد كلّ المباهج الصّغيرة التي تغذّي غريزةَ الحياة فينا.

43 سنة، 10 أشهر، يوم واحد الجمعة 11 أغسطس 1967

هل تثير ملابسي رغبتي في حكّ منطقة الخصر؟ هل استغلّ لعبَنا على العشب البرغوث الخفيّ، أو العنكبوت المخاتل، أو ذبابة

twitter @baghdad_library

الخيل الصّامتة، أو القرادة الكامنة. فحصتُ الأمر: لا وجود لأيّ قرادة، لكن ثمّة حزام من البثور الصغيرة ذات رؤوس شفافة، التي تسير في خطّ مستقيم من ظهري حتّى كليتي اليمنى. التشخيص: الحزام الناريّ. بعبارات أخرى فيروس جدري الماء الذي كان يلعب في جسدي دور الجميلة النّائمة، وأيقظه اكتئابي في شكل التهاب عصبيّ. إنّه داء لا يعالج. التهاب من تلك الالتهابات التي سيصير بالإمكان معالجتها ذات يوم. وحتّى يصل ذاك اليوم ينبغي الانتظار حتّى يمرّ. لنجمل الأمر: رعاف يسبب أنيميا، والأنيميا تسبب اكتئاباً، والاكتئاب يوقظ فيروساً، والفيروس يظهر في صورة حزام ناريّ. ما الذي ينبغي عليّ تحسّبه بعد هذا: السلّ؟ السرطان المكرّس؟ الجذام واندثار أصابعي؟

43 سنة، 10 أشهر، 7 أيام الخميس 17 أغسطس 1967

وجّه برونو إهانة إلى ليزون عقب حركة دعابة ندّت عنها: «هل هيَ دورتك «ragnagnas» أم ماذا؟». عُقِد لسان ليزون من الدّهشة، وربما كانت بالفعل في فترة دورتها الشّهرية -هي التي تأتيها الدّورة أحياناً بآلام-. اِحمرّ برونو. أحد الثوابت التاريخية، تندّر الفتيان بالعادة الشّهرية. لعلّهم يتقفّون في الأمر أثرَ سرٍّ أقصتهم الطبيعة من مشاركته. يسعون إلى التّسلل داخل إحدى التّعقيدات التي تجعل من المرأة لغزاً غامضاً... إهانة الفتاة التي صارت امرأة، في حين لا يزال الفتى نفسه بعيداً جداً عن مرتبة الرّجال: ذاك هو الانتقام الموحّد عند الأولاد. بيْد أنّ ما يغضبهم هو الصبغة الطبيعية التي يضفيها على الأمر المعنى المزدوج المتضمّن في كلمة

Règle[1]. هذه الأخت التي أسعى إلى إهانتها، تمتلك «النظام». إنّها تمتلك أداة القياس. تحدّد القواعد. تنظّم سير الأجرام السماوية. يريد الرّجال الصّغار أن تكون كلمة «دورة» كلمة مقرفةً، لكنّ الجناس اللّغويّ يفسد عليهم الأمر. وهذا ما يفسّر النّعوت التّحقيرية، بدرجة أو بأخرى، التي ابتكرتها الأجيال عبر التّاريخ للتعبير عن الأمر: ours, affaires, doches, anglaises, ragnagnas... وفي السياق نفسه تستدعي كلمةُ «menstrues» (حيض) من النّاحية الصّواتية كلمةَ «monstruosité» (بشاعة) المقرفة بشكل غامض، بشاعة تلك التي نشير إليها «ساخرين».

الحيض... هل لأنّي قمت بأبحاث حوله مبكّراً؟ هل بسبب الصّمت الذي كان ينكر وجوده في محيطي العائليّ؟ هل لأنّي سمعت النّكت الدّاعرة التي كان يقولها عنه رفاقي الأكبر سنّاً؟ هل لأنّه لم يكن يزعجنا، أنا ومونا، أثناء ممارستنا الجنس؟ لم أنظر له يوماً من منظور اللّعنة-الشيطانية التي ظلّت، حتّى فترة شبابي، المعيار التّاريخي لحضارتنا. قلت، لم أنظر له يوماً من تلك الزّاوية وإنّما نظرت له دوماً نظرة تعاطف. عندما أدركت أنّ للنّساء «دورة»، وعلمت الدّور الذي تلعبه الدّورة، وعرفت أيضاً أنّ معدّل عمر النّساء يفوق معدل أعمار الرّجال، على الرّغم من الإنهاك الذي تسببه لهنّ الولادات المتكرّرة والهيمنة الذّكورية؛ عندما علمت كلّ ذلك أرجعت سبب طول أعمار النّساء إلى «الدّورة». وهو الرّأي الذي ما

---

(1) من المعاني التي تشير إليها كلمة Règle في الفرنسية، إضافة إلى الدّورة الشّهرية، معاني القاعدة والنّظام والمسطرة. (م)

twitter @baghdad_library

زلت أعتنقه إلى اليوم، مع أنّي أعلم أنّ ملاحظتي لا تتأسّس على أيّة ملاحظة علمية. ذاك أنّي قرنت مبكّراً الدّم بالوقود، وعلمي بأنّ الفتيات يبدّلن كلّ شهر جزءاً من وقودهنّ، قادني إلى الاعتقاد بأنّهن يصفّين بالتّالي خزّانهن كلّه. في حين أنّ دمنا نحن، يظلّ محبوساً في جسد مغلق مما يجعله أكثر عرضة للرّكود (ما يفسّر رعافيَ العنيف)، وإذا ما سلّمنا بما سبق، فإنّ الدّورة الشهرية تصير هي الضامن الأول لطول عمر النّساء. وذاك اعتقاد لم أتزحزح عنه قطّ. لا أحسب أنّ الأمر مجرّد حماقة، لكنّي لم أجد إلى الآن من يؤكدّه. عالَم طفولتي كان عالم أرامل، وهو ما يؤكّد قناعتي. وفي عالمنا المعاصر أيضاً يتأكدّ ذلك، من وجود كلّ هؤلاء العجائز وعدم وجود شيوخ معهنّ. بحسب علمي، لم تقتل كلّ تلك الأرامل رجالهنّ، كما أنّ الحروب، على ضراوتها، لا تكفي لتفسير هذه القاعدة البشرية الثابتة: إنّ النّساء يعشن في المتوسط أكثر من الرّجال، بفضل دورتهنّ الشّهرية.

أفكّر في ذلك كلّما عثرت على الحفاضات العازلة في درج الحمّام، أو في كرز مونا عندما نعتزم السّفر. ليس لأنّي أنظر إليها برضا أو عطف، ولكن لأنّ تلك الخراطيش التي ستستخدم في المستقبل، تلك الخراطيش المرصوصة بعناية في علبتها، مع فتيل بيكفورد[1] الذي يطلّ منها؛ قلتُ تلك الخراطيش كلّما نظرت إليها تذكّرت فوراً قناعتي: بفضل دورتهنّ الشّهرية تعيش النّساء أطول من الرّجال.

---

(1) بيكفورد مخترع فتيل الأمان الذي يوضع في الألغام. (م)

43 سنة، 10 أشهر، 8 أيام الجمعة 18 أغسطس 1967

ترى مونا أنّ سبب تعلّقي بتلك القناعة راجع إلى كوني لا أرغب في خوض تجربة الترّمل. تفضّلُ أن أكون أنا من أرثيك. هكذا أنتم الرّجال! تخفون دائماً مخاوفكم خلف الفضائل. ودائماً بحسب مونا، النّساء أطول عمراً، لأنّ النّساء ما عدن يمُتن في المهد. فهنّ لا يفعلن أكثر من تعويض ما فاتهن من عمر منذ آلاف السّنين.

44 سنة، 5 أشهر، يوم واحدٌ الاثنين 11 مارس 1968

عندما نلتقي أنا ودوكورني في أروقة المكتب لا يمدّ أحدنا يده للآخر: نكتفي فقط بهزّة رأس، مرحباً، وداعاً. يحرص دائماً على أن تكون يداه مشغولتين: في يد مظلة وفي الأخرى معطف، أو في يد كرز معدّات وفي الأخرى كأس قهوة، كرسي مكتب وسماعة هاتف، آلة كاتبة ونبتة خضراء.

القول الفصل سمعته اليوم من فم سيلفيان. دوكورني يتقزّز من ملامسة يد أحد، يتقزّز في الواقع من كلّ اتّصال جسديّ. ذاك العملاق الطّيب، الذي قد يصلح بديلاً للممثّل جاك تاتي، يعيش في خوف دائم من أن يصاب بشيء: فيروس، مكروب، مرض معدٍ. . . يغسل يديه عشرين إلى ثلاثين مرّة في اليوم، ويحمل معه دائماً مطهّراً، تحسّباً لأن يدفع سوء الحظّ بجسده إلى ملامسة جسد آخر. وفي حال ما وقع ذلك يكون مضطراً إلى اللّجوء إلى حيَل تشبه حيل هنود سايوكس حتّى يتمكن من مسح نقطة التّماس دون أن يلحظ الأمر أحد. كم سيصمد في هذا المكتب دون أن يضحّي في طقوس

twitter @baghdad_library

المصافحة «Shake hands»؟ أمّا أنا فلم يسبق لي أن شعرت بمثل ذاك الرّهاب، ربما لأنّي متيقّن من أنّ العدو الذي يترصّدني قد استقرّ وأخذ موقعه داخل جسدي. وبشيء من الفضول أتساءل من أين سيبدأ جسدي يتخلّع.

44 سنة، 5 أشهر، 12 يوماً الجمعة 12 مارس 1968

أخبرتني سيلفيان -دائماً هي من يخبرني- أنّ إحدى المحاسِبات قد تركت زوجها لأنّه كان يأكل مخاطه أنّى كان. حتّى حين يكونون جالسين إلى مائدة الطعام. من المؤكد أنّ محلّلاً نفسياً كان ليستمتع بهذه العادة التي تجد أصولها في الطفولة، وهذه الزوجة التي تطلب الطلاق لسبب ملتفّ بشكلٍ فاضح.

44 سنة، 6 أشهر

اكتشفت على ساعدي، في أكثر مواضع الجلد نعومة، ثلاث بقع ميليمترية ذات حمرة وهّاجة، تشكّل بالضبط نجوم مثلث الصيف، فتذكرت لعب الحب التي كنت أمارسها مع تلك الفتاة الجميلة، مع هدية عيد ميلادي الثالث والعشرين، سوزان، كِبيكيَّتي. ماذا فعلت بك الأيام يا سوزان؟ لم أستطع مقاومة رسم الخطوط الواصلة بين تلك النقط الثلاث.

44 سنة، 6 أشهر، 17 يوماً السبت 27 أبريل 1968

قال لي طبيب أمراض الجلد إنّها أورام وعائية دقيقة تسمّى البقع القانية، ستتكاثر في قادم السنوات. استطرد مفسِّراً، إنّها إحدى آثار

التقدّم في السن، فالجلد إذ يشيخ يلتهب. وأضاف بنبرة يعلوها الحزن، لقد كان الصينيون في غابر الأزمان يقرؤون المستقبل في البقع القرمزية التي تصيب الجسد، لكن لا ريب في أنّ الثورة الثقافية قد قوّضت تلك الممارسة.

44 سنة، 6 أشهر، 23 يوماً الجمعة 3 مايو 1968

«إنّ الجلد يشيخ» كان وقْعُ هذه الجملة التافهة بالغ السوء. «إنّه جلد شائخ»، هكذا كانت أمّي تصف الناس الذين لم يكونوا يروقونها (وهل كان يروقها أحد؟). جلد شائخ، متحجر عجوز، غبي عجوز، أبله عجوز، حطام عجوز، عجوز خنزير، عجوز مقرف: توحي الكلمات واللّغة والتعابير الجاهزة، بأنّه من الصعب دخول الشيخوخة بقلب سليم. بالمناسبة، متى ندخل عمر الشيخوخة؟ متى نشيخ؟

مايو 1968

أيكون الشارع الآن منهمكاً في كتابة مذكرات الجسد؟

44 سنة، 9 أشهر، 24 يوماً السبت 3 أغسطس 1968

صباح اليوم، في مرسيليا، كوّنت أولى انطباعاتي عن الصيف: السرعة التي ارتديت بها ملابسي. ارتديت ملابسي في لحظتين زمنيّتين، ثلاث حركات، التُبّان، السروال، القميص، النعل: إنّه الصيف. لم تكن ملابسي الخفيفة سبب بهجتي الاحتفالية، وإنّما السرعة التي بها حشرت نفسي فيها.

twitter @baghdad_library

في الشتاء، يأخذ منّي ارتداء ملابسي الوقت نفسه التي يلزم فارساً مدرّعاً. فكلّ عضو من أعضاء جسمي يتطلّب الثوب الواقيَ الملائم: يصعب إرضاء رجليّ فيما يخص صوف الجوارب؛ جذعي يريد حمايةً مضاعفة ثلاث مرات، قميص داخلي، قميص، وبلوفر. أن أرتدي الملابس في الشتاء معناه أن أتدبّر أمري في تحقيق توازن ما بين حرارتي الداخلية وحرارة مختلف الأماكن في الخارج- خارج السرير، خارج الغرفة، خارج المنزل... على المرء أن يسبح في الحرارة الملائمة: لا شيء أكثر مدعاة للسّخط من أن يحسّ المرء بالحرارة في الشتاء. يتطلّب هذا الاستعداد العجيب انتباهاً كبيراً إلى مسألة الزمن. «أن تقفز في ملابسك»، إنّها عبارة احتفالية. في الشتاء نضع ملابسنا، وهي عبارة بدائية: نضعها، نحملها (نرتديها). نحملها، لأنّ ثمّة أيضاً مسألة الوزن. فقبل التفكير في فضائل المعطف الحرارية، كونه عازلاً حرارياً، فإنّ ثقله هو ما يقي من البرد.

(بالنظر إلى الوقت الذي يستغرقونه في وضع ملابسهم، يمكن القول إنّ مصارعي الثيران هم وحدهم من يلبسون صيفاً بالطريقة عينها التي يلبسون بها شتاءً. مصارع الثيران لا يقفز البتّة داخل ملابسه. مهنة لعينة).

44 سنة، 9 أشهر، 26 يوماً الاثنين 5 أغسطس 1968

كتب مونتسكيو في تأمّلاته: «في سنّ الخامسة والثلاثين، كنت ما أزال أحبّ». خطر ببالي ذلك وأنا أمارس الجنس مع مونا. ما الذي كان يقصده بكلامه ذاك؟ هل قصد أنّه وقع في الحبّ، مثلما

وقع فيه أيّامَ شبابه الأولى؟ هل رصد في نفسه حيويّةً لم تخبُ؟ وفي الحالة الثّانية، كيف ينبغي أن نفهم تلك الـ«ما زالت»؟ هل كان شائعاً في ذلك العصر أن يتوقّف الرّجال عن الانتصاب بعد سنّ الثلاثين؟؟ ذاك ما كنت أفكّر فيه وأنا بين ذراعي مونا، وكانت الرّغبة في ذروتها، ثمّ فجأةً تفكّكت البراغي، وسقط المتسلّق. . . مثلما كان يحدث لي أيّامَ محاولاتي الأولى. «إنّ السيّد القضيبَ شارد الذّهن» ذاك ما قالته مونا التي لطالما أثار اهتمامها هذا اللّغز الذكوري. أمّا أنا فقد بلغت مرّة أخرى حدود هذه المذكرات: الحدود الفاصلة بين النّفسيّ والجسديّ. من الارتباك الذي يسبّبه إحساسنا بأنّنا لا نزال صغاراً جداً، إلى الرّعب الذي يسبّبه التّفكير في أنّنا مسنّون كثيراً، مروراً بمرض العجز الذي قتل بافيس وأرسل أوكتاف (بطل ستاندال) إلى القتال في سبيل تحرير اليونان، يتبادل الجسدُ والرّوح تهمة العجز في محاكمة صمتٍ مرعبة.

44 سنة، 9 أشهر، 29 يوماً الخميس 8 أغسطس 1968

أخذت الأطفال إلى البحر. على شاطئ كانْي الصّغير. لم أسبح منذ زمن طويل! غطست تحت الماء طويلاً، مثلما كنت أفعل لمّا كنت في العشرين من عمري. تحت الماء أتخلى طواعية عن التّنفس، وعن كلّ ضروريات الحياة على السّطح. مداعبةُ الماء الشاملة لجسدي تلك، كان بوسعي أن أجعل منها شغفي الوحيد، أن أتعلّم كيف أحيا دون أن أتنفّس. أن أعيش حياة خنزير بحر. أن أقضيَ في هذا الحرير وجوداً لا يخضع لقوانين الجاذبية، وأفتح خطمي من حين إلى آخر، كي أتغذّى. بيد أنّنا نختار اختيارات

twitter @baghdad_library

تختزل شغفنا الأعمق إلى مجرّد أفكار عن السّعادة. يكفي أن أعلم أنّي تحت الماء، حتّى أصير في غنىً عن السباحة. ذاك ما فكّرت فيه هذا الصّباح، تحت مياه البحر الأبيض المتوسّط، قبل أن تطأ قدمي البرّ مجدّداً. تطأ قدمي... أنت تمزح! ما إن أخرج من الماء، حتّى يخلخلني الحصى مثل لعبة من تلك اللّعب الخشبية الصّغيرة -تكون غالباً في هيئة زرافة- التي يجعلها الأطفال تتدحرج بالضّغط على قاعدتها. وبينما ألفي نفسي جاثماً على أربع، يكون برونو وليزون منهمكَين في لعب الكرة الطائرة مع مراهقين آخرين، وهم يخبّون كأنّهم يجرون على الرّمال.

44 سنة، 10 أشهر، يومان　　　　الاثنين 12 أغسطس 1968

صباح اليوم. أتقدّم صوب الشاطئ بعدما رفضت ارتداء نعل البلاستيك الشّفاف الذي قدّمته لي مونا. أحافظ (أتماسك) ما أمكنني على سداد خطوتي وأنا أسير على الحصى، الحاد قليلاً، منحنياً بلا مبالاة، محاكياً المشية الحالمة لمن يستمتع بالنّظر إلى الأفق قبل أن يغطس في الماء. باطن قدمي، في انسجام تام مع كاحلي، يختبر كلّ حصاة -مكوناتها، حرارتها، سطحها، استدارتها- قبل أن يرسل المعلومات إلى الرّكبتين اللّتين ترسلانها فوراً إلى الفخذين، وينجح الأمر. الأمر ينجح وأنا أسير. أسير إلى أن تصير كمّية المعلومات التي تصل دماغي أكثر من أن يستطيع معالجتها، وتظهر الحصاة غير المتوقّعة، حصاة مسنّنة أكثر من غيرها، فيُصدر الدّماغ أوامره للذّراعين كي تتحركا بحثاً عن التّوازن. وفي تلك اللّحظة التي تسبح فيها ذراعيّ في الهواء، ألفي نفسي قد

حللت في فيوليت! لا أفكّر في فيوليت، ولا أستحضر فيوليت، ولا أتذكّر فيوليت؛ بل إنّني أنا فيوليت، وهي تترنّح فوق الحصى عندما نكون ذاهبين إلى الصّيد. أنا جسد فيوليت المسنّ الجليّ، فيوليت تمشي فيَّ - ليست تمشي معي وإنّما تمشي فيَّ! تملّك كليّ، أستسلم له بلذّة. أنا فيوليت وهي تمشي مترنّحة صوب الكرسيّ المطويّ الذي كنت أبعده عنها دوماً بمتر أو مترين كي أضايقها. فتقول: عندما تصير في سنّي لن يعود بمقدورك الوقوف على الحصى، لكنّي أنا لا أزال أستطيع أن أمسك الأسماك حيّة بيدي! بيد أنّه حين ستصير في سنّي، سأكون أنا قد متّ. أوه. فيوليت! إنّك هنا! إنّك هنا!

44 سنة، 10 أشهر، 3 أيام الثلاثاء 13 أغسطس 1968

في الواقع، يروقني التفكير في أنّ عاداتنا تترك من الذكرى في نفوس من أحبّونا، أكثر ممّا تتركه صوَرنا.

44 سنة، 10 أشهر، 5 أيام الخميس 15 أغسطس 1968

ما زلت على الشاطئ. أقرأ، مستلقياً فوق منشفتي. سأذهب، قالت مونا. تابعتها وهي تتجه صوب البحر. يا لروعة ديمومة الجسد الأنثوي، التي لا يقطعها شيء! ينبغي توضيح أنّ مونا لا ترتدي قطّ ذاك النوع من المايوهات المؤلّفة من قطعتين، والتي تشطر النساء إلى خمسة أجزاء.

45 سنة، شهر واحد، يومان الثلاثاء 12 نوفمبر 1968

بعد عشاء صامت، انصرف برونو إلى فراشه دون أن يقول كلمة

twitter @baghdad_library

واحدة، وعلى وجهه غياب تام لأي تعبير، غياب تعبير يريد أن يكون مُعبّراً. تكرّر الأمر كثيراً في الآونة الأخيرة، إنّها المراهقة. وفي المراهقة نرغب في الاستعاضة عن الكلام المرهق بسحنة تشي بكلّ شيء. نشتغل على الصّمت الدّال. نحمل وجوهنا كأنّما نحمل صورة أشعّة لأرواحنا. لكن للأسف، لا تقول الوجوه شيئاً. بالكاد ثمّة خلفية لوحة تنضج فوقها حساسية تجاه الأب. ما الذي فعلته لابني حتّى ألقى منه تلك السحنة الجنائزية؟ هكذا يتساءل الأبّ الذي يصّيره ذاك اللّغز كالطفل. قطرة أخرى فقط ويصرخ: هذا ليسَ عدلاً!

تذكرني سحنة برونو بفيلم قصير لكوليتشيف (أو كوليتشوف، المهم، ذاك السينمائي الروسي)، ذاك الفيلم حيث يظهر وجه رجل تمّ تصويره من الأمام بمستوى كبير، بتعاقب مع صورة صحن مليء بالطعام، وصورة فتاة ميتة مسجّاة داخل تابوت، وصورة امرأة مضطجعة فوق أريكة. وجه الرجل لا يعكس أيّ شيء، بيد أنّه ما إن يوضع فوق صورة الصحن حتّى يصير دالاً على الجوع، ومع صورة الفتاة الميتة يلبس سيمياء اليأس، ثمّ تملؤه رغبة مستعرة حين يترافق وصورة المرأة المضطجعة. ورغم ذلك كان الوجه لا يتغيّر، هو هو، الوجه نفس الذي لا يعبّر عن أي شيء.

تكلّم، تكلّم يا بُنيّ. صدّقني، ليس ثمّة شيء أفضل من الكلام كي نجعل أنفسنا مفهومين.

45 سنة، شهر واحد، 7 أيّام — الأحد 17 نوفمبر 1968

فككت شفرة الإيماءات القليلة التي يصدرها برونو، كي أوفّر له هو نفسه معجماً يستطيع بواسطته قراءة وجه ابنه حين يصير له ابن.

عندما يهزّ كتفيه ويلوي فمه بطريقة من طرق عديدة:

1) وإذن؟

2) لستُ آبه.

3) لست أدري.

4) سنرى ذلك.

5) الأمر لا يعنيني.

عندما يهزّ رأسه جانباً، ويرفع حاجبيه، وينظر إلى الأمام في اتّجاه مستقيم بارتفاع 30 درجة عن المستوى، ويطلق زفرة خفيفة:

- ما الذي تريد قوله؟ (وإذا ما كانت الزّفرة أثقل): - إنّك تقول حقاً كلاماً لا معنى له!

عندما يهزّ رأسه أفقياً، ويتجنّب النّظر:

- تكلّم كما يحلو لك. لست آبه.

عندما يثبّت نظرته على نقطة مّا، وينقر بأصابعه على الطّاولة:

- لقد سبق أن قلت لي هذا، مائة مرّة.

عندما يبتسم ابتسامة داخلية دقيقة، ويثبت نظرته على غطاء الطّاولة:

- لن أقول شيئاً، لكنّي بيني وبين نفسي أفكّر في الكثير.

عندما يبتسم من جانب فمه:

- لو أردتُ لمزّقتك بسهام تهكّمي.

وظائف العينين:

- العين الدوّارة: عين الابن الذي أسيء فهمه.

- العين الجاحظة: عين الابن الشّكاك.

twitter @baghdad_library

– العين المتهدّلة: عين الابن المنهك.

وظائف الشّفاه:

– الشفاه المزمومة: شفاه الغضب الذي تمّ احتواؤه.

– الابتسامة المعكوسة: ابتسامة الازدراء.

– الشفاه المنتفخة: شفاه التنهيدة الحتمية.

الغضون العمودية، غضون النّقاش المبهم (أحاول فهم ما تقول، لكنّي حقاً لا أستطيع...). الغضون الأفقيّة، غضون الذهول السّاخر (آه! نعم؟ حقاً؟ أنت لا تمزح؟) الجبهة ملساء: تتجاوز كلّ تعبير ممكن...

إلخ.

45 سنة، 3 أشهر، يوم واحد السبت 11 يناير 1969

جرحَت ليزون أظافرها بينما تأكل بعض القشريات. أمسك تيجو يدها بالقوّة وغمّس أصابعها في الفلفل المطحون الشديد النعومة. توقّف الدم فوراً ودون أن تحسّ بأدنى ألم. وغداً لن يبقَ ثمة أثرٌ. سألت تيجو عمّن علّمه ذلك. فأجابني، ومن تراه سيكون غير فيوليت، يا باردي!

45 سنة، 5 أشهر، 9 أيام الأربعاء 19 مارس 1969

سبع عشرة ساعة من المفاوضات. سأصوم عن الكلام ثلاثة أيّامٍ. الأكثر إنهاكاً في هذا النّوع من التمارين الرّياضية ليس هو المجهود المبذول للتركيز في الملفات، ولا الانتباه التّام لحجج هذا وذاك، ولا التراجع المفاجئ لعرض نقاط حسبنا أنّنا أنهيناها

وأقفلناها، ولا حتّى المنبّه الذي يدور دون كلل؛ وإنّما الأكثر إنهاكاً هو الثقل الذي يجثو على كلّ هؤلاء وهم يحاولون الإمساك عن الانعاظ. لأنّهم لا يكفّون جميعهم عن الانتصاب، لا بل إنّ ذاك الانتصاب الدّائم هو ما أوصلهم إلى مراكز السّلطة التي بلغوها. لم يعد بوسعهم شدّ سراويلهم دون أن يتركوا الحريّة لقضبانهم كي تخرج وتضرب كالمطرقة قناعات بعضهم البعض. يرهقون أنفسهم في الالتفافات الدبلوماسية، وهم يتمنون لو كان بإمكانهم أن ينكحوا بعضهم على الجّاف. في مكاتبهم يكون الأمر مختلفاً، إذ يكون بوسعهم أن يستمنوا على موظّفيهم دون أن يخشوا شيئاً، لكن هنا. . . الشخصيات السياسية هي شخصيات إنعاظية بطبعها. بفضل تلك الطّاقة بالضّبط يكون بوسع السياسي الحصول على السّلطة، أو بانتهاج طريق معاكسة تماماً: عجز الدكتاتور البرتغالي سالازار الجليديُّ، عجز العذراء التي تمّ افتضاضها. عندما يضرب خروتشوف بحذائه الرّياضي على طاولة الأمم المتّحدة، فليس معنى ذلك أنّه يحاول إثارة أزمة، وإنّما معنى ذلك أنّ الكيل قد طفح به، وتلك طريقته في اقتناص لحظة راحة. تفّهمته جيّداً بعد هذه السّاعات السبع عشرة، فقد تضاعف حجم قدميّ.

46 سنة، شهران، 29 يوماً الخميس 8 يناير 1970

من الطّريقة المميّزة التي كان ينظر بها إليّ شوفيي، زوال اليوم، بينما نعلّق على كلام جونيف وأمامنا شرائح كبد العجل، قلتُ من طريقة النّظر تلك أدركت أنّ قطعة كزبر قد علقت بموضع مّا من شفتي السفلى. ذكّرني الأمر بشخص يسمّى فالونتان، كان يدهشني

twitter @baghdad_library

أيّام تحضيري للمباراة. أثناء الأكل كانت الرُؤى تتشعّب من أنابيب العلم، إلى الاستطرادات الساحرة للحبّ العذري، وشعراء عصر النّهضة وخريطة بلاد تاندر؛ بيد أنّ صاحبنا ما كان يفهم شيئاً من ذلك كان، ويستمرّ في الأكل مثل خنزير. وعند نهاية الوجبة يكون بوسعنا أن نقرأ قائمة الطّعام على لحيته. كان الأمر حقاً مقرفاً. وكان ذلك إشارة مبكّرة لنزعة التّشرد التي تسكنه، والتي قادته سنوات بعد ذلك إلى المصحّ النفسيّ، بعدما كان هو الأوّل على دفعته.

46 سنة، 8 أشهر، 7 أيام   الأربعاء 17 يونيو 1970

مهما بلغت درجة قساوتها، فإنّ اللّحظات التي أعاني فيها صعوبة النوم تذكرني بفرحي القديم بمعاودة النوم. كلّ استفاقة هي وعد بالنعاس. ما بين فترتي نوم أطفو.

48 سنة، 6 أشهر   الاثنين 10 أبريل 1972

اِستيقظت هذا الصّباح على صفير أشبه ما يكون بصوت طنجرة ضغط نُسيت على الموقد. حسبت أنّ الصوت آت من الخارج، فعدت إلى النّوم. واستيقظت ساعة بعد ذلك. كان الصّفير لا يزال مستمرّاً، صفيرٌ حادّ لا ينقطع، أشبه بصوت بازٍ، أو صافرة بخارية، أو شيء من ذاك القبيل. شكوت الأمر لمونا، أيّ صفير؟ ألا تسمعين؟ كلا، لا أسمع. هل أنت صمّاء؟ أرخت سمعها. ألا تسمعين صفيراً حاداً مثل صافرة بخارية؟ كلا، أؤكدّ لك، كلا. الصفير في الواقع موجود بالخارج، بالشّارع. أقفلت النّافذة. واستمرّ الصفير! بالشدّة نفسها. مونا، أحقاً لست تسمعين شيئاً؟ حقاً

ليست تسمع شيئاً. أغمضت عينيّ، وركّزت في مصدر الصّوت. قصدت المطبخ كي أعدّ قهوة، ورافقني الصّفير إلى هناك، دون أن أستطيع تحديد مصدره. فحصت دارة الغاز، ومصباح سخّان الماء، وأقفال النّوافذ... وفي الطّريق إلى غرفتنا، حاملاً بيدي غلّاية القهوة، فتحت باب الرّدهة: كان الصّفير هناك، بالكثافة نفسها التي يوجد بها في كلّ مكان، كأنّه خطّ مرسوم بالمسطرة ما بين أذنيَّ. وإذّاك عرفته. كان من ذاك الصّفير الذي أسمعه في رأسي من حين إلى آخر بعد وجبات الأكل، لكنّ صفير ما بعد الوجبات، كان صفيراً عابراً، كان يومض ويمضي مثل شهاب. بعض المسارات تكون أطول من غيرها، لكّنها تنتهي جميعها بالضّياع في فضاء جمجمتي اللامتناهي. أمّا هذه المرّة، فلا. سددت أذنيّ: إنّ الصفير حقاً هنا، في رأسي، مقيم ما بين أذنيّ! اِضطربت. تهت ثانيتين أو ثلاث خلف تخيّلات مجنونة: ماذا لو ظلّ الصفير هنا إلى الأبد؟ فكرة أن أسمع هذا الصوت طيلة حياتي، دون أن أستطيع قطعه أو تعديله، فكرة مرعبة تماماً. قالت مونا: سيمرّ الأمر.

وحقاً مرّ الأمر: جلبة الشّارع، وشوشات المترو، وضجيج الأبهاء، نقاشات العمل، رنين الهاتف، المفاوضات التي لا تنقطع، احتجاجات بارمونتيي، ابتهالات أنابيل، المناوشة المؤسفة بين راغان وغاري حول تكاليف العمل، خطبة فليكس اللاذعة أثناء الغذاء؛ لقد قضى كلّ ذاك الضّجيج الحضريّ والوظيفي على شهابي: ذاب الشّهاب في الضّجيج.

لكن ما أغلقت خلفي باب الشّقة مساءً (كانت مونا عند ن. وليزون في مرسمها)، حتّى عاد الصّفير، مشدوداً بين أذنيّ، بالقوّة

twitter @baghdad_library

نفسها التي كان بها صباحاً. الحقيقة هي أنّه لم يفارقني طيلة النّهار. سَتَرَه فقط ضجيج الحياة العامة.

48 سنة، 6 أشهر، 4 أيام الجمعة 14 أبريل 1972

اختصاصي الأنف والأذن والحنجرة الذي نصحتني به كوليت، هو بالطّبع الأفضل في ميدانه. وبعد ثلاثة أرباع السّاعة في الانتظار، أخبرني أفضل اختصاصيي الأنف والأذن والحنجرة في أربع نقاط:

1) أني مصاب بطنين الأذن.

2) أنّ خمسين في المائة من حالات طنين الأذن لا تشفى أبداً.

3) أنّ خمسين في المائة من مرضى طنين الأذن المزمن يلجؤون للانتحار.

4) أنّ تلك الأخبار السّارة الثلاثة تساوي مائة فرنكٍ. تفضّل بدفع الثمن عند الكاتبة.

بالطّبع قضيت ليلةً بيضاء. ثمّة احتمال من اثنين في أن يكون طنين أذني مزمناً، بعبارة أخرى أن يصير لديّ جهاز راديو مفتوح دائماً في رأسي، جهاز راديو يقدّم برنامجاً واحداً، برنامجاً عبارة عن صفير متّصل، برنامجاً قد يقدّم داخل رؤوس مصابين آخرين بأشكال أخرى: صيحة أو نقر طبل، أو صلصة جرس، أو ضرب صنوج، أو نقر أوتار. ما عدت أملك سوى الانتظار، فإمّا أن يمرّ الأمر وإمّا أن يتأكّد؛ وإمّا أن يظّل عزف الصفير منفرداً وإمّا أن ينطلق الجوق بأكمله داخل جمجمتي.

48 سنة، 6 أشهر، 5 أيام السبت 15 أبريل 1972

أرفض التنقيب في الكتب الطبية. أرفض التزوّد بالمعلومات حول طنين الأذن. غير وارد على الإطلاق أن أنصّب نفسي طبيباً مختصاً في أمراضي.

48 سنة، 7 أشهر، 12 يوماً الاثنين 22 مايو 1972

مؤخراً صرت أبدو لمونا قلقاً لدرجة أنّها نصحتني بأن أستشيرَ. في أوساطنا، عندما نستعمل فعل استشار دون إضافة، فمعناه أنّ المقصود فئة محدّدة من الأطباء: أطباء الصحّة النّفسيّة والعقلية.

48 سنة، 8 أشهر، 7 أيام السبت 17 يونيو 1972

بدت طبيبة الأمراض العصبية-النّفسية التي زرتها أمس قلقةً على صحّة اختصاصي الأنف والأذن والحنجرة أكثر من قلقها على صحّتي. الحقّ أقول لك يا سيّدي، كان الأجدر أن يزورني ذاك الزّميل، فحالته تبدو لي أكثر مدعاة للقلق من حالتك. بحسب الطّبيبة إنّ حالات طنين الأذن منتشرة بكثرة لدرجة أنّه لو كان نصف المصابين بها ينتحرون لصنّفت السبب الأوّل للوفاة.

ثمّ غيّرت الموضوع وسألتني منذ متى وأنا أتنفّس دون أن أهتمّ بالأورام الحميدة التي تسدّ جيوبي الأنفية. أجبتها، أنّي دائماً ما كنت أتنفّس كذلك. كلا يا سيّدي، لم تكن تتنفّس كذلك دائماً. هيَ ترى بأنّي نسيت فقط كلّ شيء عن بداية التهاب مزمن ما كنت أستطيع أن أفعل حياله شيئاً، والذي جعلني أنخنخ قليلاً أثناء

twitter @baghdad_library

الكلام، وأعطاني انطباعاً بأنّي أتنفّس عبر شفّاطة، لكنّي تكيّفت مع الأمر. لقد ألِف دماغي الوضع، مثلما سيألف هذا الطّنين الذي سرعان ما سيُلحقه بصنف الصّمت. إنّ ما يصدمك اليوم أكثر هو المفاجأة، ترعبك جِدّة الطّنين وخشية أن يستمرَّ العمر كلّه، لكن تأكّد من أنّ لا أحد يعيش طيلة حياته في وضع مفاجأة دائم.

ثمّ أخبرتني أكثر عن تخصّصها الذي يقوم على إقناع المرضى بالتّعايش مع ما يحسبونه لا يطاق. وشرعت تعدّد على مسمعي تلك الأمراض. وكانت لائحة الأمراض والاضطرابات مؤثّرة ومرعبة لدرجة أنّ مرضي بدا أمامها كحيوان صحبة. تركتُها محمّلاً بقائمة من المنوّمات ومن تلك الأدوية التي كانت عمّتي هوغيت تسمّيها «مهدّئات».

- عُد لزيارتي إذا ما استمرّ خوفك.

48 سنة، 11 شهراً، 22 يوماً الاثنين 2 أكتوبر 1972

الوزير ج. وقد أثارت سخطه مزحةٌ أطلقها المسكين برتلو، رفعَ ياقة قميصه وخفض نبرة صوته بشكل ينبئ بالخطر:

- هل تدرك مع من تتحدّث؟

اِحمرّ برتلو من الحيرة، وانكمش في صدفته. أمّا أنا فتذكّرت تعبير الصغير جوزي: اِسلح نفسك، يا وزيرَ مؤخّرتي.

ثمّ أضاف الوزير وهو يرمقني بنظرات ثاقبة:

- حسن، إذا ما كان الأمر يروق رؤساءك!

كلا يا سيّدي الوزير، ما يروقني حقاً هو الولع بالبراز الذي يتملّكني دائماً أمام من يُظهرون تكبّر التماثيل. تريد منّا أن نعاملك

كتمثال رومانيّ، بيد أنّ التماثيل تثير فيّ الرّغبة في التبرّز، وتخيُّل كلبٍ يتغوّط عند قاعدة تمثال تدفعني إلى الابتسام. أمنحك ابتسامةَ رضاً بلهاء، وهل نفعل شيئاً آخر غير تلك الابتسامة البلهاء عندما نتبرّز جيّداً؟

49 سنة، عيد ميلادي **الثلاثاء 10 أكتوبر 1972**

مثلما تنبّأت طبيبة الأمراض النّفسية، مرّت ثلاثة أشهر وتعوّدت على طنين الأذن. أغلب أمراضنا البدنية تشترك مع أبخرتنا النّتنة في كونها تصير طيّ النسيان ما إن تكنسها الرّيح. حين تتكلّم أجسادنا ننتقل إلى الاهتمام بذواتنا ونكمُن مثل ظبيان الغابات، لكن ما إن يمرّ الإنذار حتى نخرج إلى المراعي متخذين هيئة المفترس.

49 سنة، 20 يوماً **الاثنين 30 أكتوبر 1972**

إنّ أمراضنا هي بمثابة قصص عجيبة نعتقد أنّنا الوحيدون الذين يعرفونها، في حين أنّها ذائعة والجميع يعرفها. كلّما تحدّثت عن طنين الأذن (متظاهراً بأنّي أبحث عن معنى الكلمة، كي أخفي إصابتي به) كلّما زاد عدد الأشخاص المصابين به في محيطي. على سبيل الذكر، قال لي أمس إتيين: شكراً لأنّك طرحت عليّ السؤال، لقد أيقظت دائي من سباته مجدّداً! أكد لي [بعد ذلك] أنّ المرء يتعوّد على ذاك الداء دون مشاكل، بل بالأحرى يتعايش معه، لكن لا ينبغي مجانبة كونه يحرمنا من الصمت. مثلي تماماً، أحسَّ في بداية إصابته بالمرض برعب كبير. ولتوضيح ما وقع له يستعمل الصورة نفسها التي استعملها: كان يتلبّسني إحساس بأنّي موصول بجهاز راديو

twitter @baghdad_library

مُشغّل، وتخيُّل أنّي سأحيا حياة مكبّر صوت لم تكن أبداً باعثةً على الاطمئنان.

49 سنة، 28 يوماً **الثلاثاء 7 نوفمبر 1972**

طنين أذني، حموضة معدتي، قلقي، رُعافي، أرَقي... أملاكي، في المحصّلة. تلك الأملاك التي يشاركني فيها بضعة ملايين من البشر.

6

50-64 سنة

(1974-1988)

أعيدوا إليّ بُرهتي

أبطئوا خلاياي.

twitter @baghdad_library

50 سنة، 3 أشهر **الخميس 10 يناير 1974**

إذا ما قُيّض لي نشرُ هذه المذكرات، فسأهديها إلى النّساء في المقام الأوّل. وبالمقابل سأكون سعيداً بقراءة مذكرات امرأة عن جسدها، رغبةً في أن أَفُكّ جانباً من اللّغز. أيُّ لغزٍ؟ لغز يتمثلُ في أشياء من هذا القبيل: يجهل الرجلُ تماماً ما تحسّه المرأة تجاه شكل نهديها وثقلهما؛ مثلما تجهل النّساء ما يحسّه الرّجل حين يحتقن قضيبه.

50 سنة، 3 أشهر، 22 يوماً **الجمعة فاتح فبراير 1974**

مونا تُراكم على الدوام كميّات من الصّابون السّائل وغسول الوجه (تسمّيها «مبادئ عناية»)، والكريمات، وأقنعة التجميل، وحليب الجسم، والمراهم، والشامبو، وبودرات العناية بالبشرة، ومساحيق التجميل، والماسكرا، والكحل، ومواد تفتيح البشرة، وأحمر الوجنتين، وأحمر الشفاه، وقلم العيون، والعطور، باختصار، كانت تراكم كلّ ما يُقترح على المرأة من مستلزمات تجميل تقرّبها من الشكل الذي تريد أن تكون عليه؛ في حين أنّ كلّ أدوات زينتي تتلخّص في

twitter @baghdad_library

قطعة مكعّبة من صابون مارسيليا، أستعملها في حلق ذقني، وأغسل بها أعضاء جسمي كلّها، من الشعر حتى أخمص القدمين، مروراً بالسرّة والحشفة والمخرج، بل وحتّى تبّاني الذي أغسله وأتركه ليجفّ في حينه. مغسلنا تحتلّه بأكمله فيالق مونا: فُرش، أمشاط، مبارد، ملاقط لنزع الشعر، ريشات، أقلام، مناشف، قطن، رشّاشات بودرة، لُويحات ملوّنة، أنابيب، أوعية رذاذ صغيرة؛ فيالق تخوض معركة لا تنتهي، معركة أسمّيها البحث اليومي عن الدّقة. مونا والتّجميل، هي رامبرانت يضع اللّمسات التي لا تنتهي على أوتوبورتريهات حياته. هي لا تقاوم الزّمن بقدر ما تنجز أثراً فنيّاً عظيماً. تعترض عليّ قائلة: عن أيّ أثر فنيّ تتحدّث، الأثر الفنيّ المجهول!

50 سنة، 3 أشهر، 26 يوماً **الثلاثاء 5 فبراير 1974**

أمّا أنا، فبعد أن آخذ حمّامي الذي لا أستطيع أن أستفيق من دونه، يكون أوّل موعد لي مع أداة نظافةٍ هو ساعة لقائي بفرشاة حلاقتي، وهي متعة يومية تعود أصولها إلى سنتي الخامسة عشر: أقصد متعة حلاقة ذقني. أحمل بيُسراي صابونَ مرسيليا، وبيمنايَ فرشاة الحلاقة، وقد غمستها في ماء دافئ بلّلت به مسبقاً وجهي. ثمّ أبدأ في طلاء وجهي متأنياً، بالرغوة التي ينبغي أن تكون ما بين السائلة والعجينيّة. أطلي لحيتي طلاء شاملاً حتّى يصير نصف وجهي وكأنّما هو مطلي تماماً بالكريم شانتي؛ ثمّ أنتقل إلى الحلاقة بالمعني الحرفيّ للكلمة، أي تلك التي تتمثّل في إعادة هذا الوجه إلى نفسه، أن تعيد إليه صورته التي كانت له قبل أن تغطيه اللّحية، وقبل أن يُطلى بمعجون الحلاقة؛ أمرّر عليه شفرة الحلاقة بالطول والعرض،

من جلد العنق حتّى حواف الشفتين، مروراً بالوجنتين وجلد الفكّين، ولا ينبغي كذلك إغفال جوانب الفكّ السفليّ حيث تفلت الشعيرات متواطئة مع الجلد الذي يلتفّ مع العظام. إنّ المتعة تكمن في الإحساس بالشعريات تئن تحت الشفرة، ورؤية المساحات العريضة التي يخلّفها موس الحلاقة؛ لكنّ أمتع ما في الأمر يظلّ هو الرّهان الذي يتمثّل في: أن تكشط المعجون بأكمله، أن لا تترك أيّ جزء مهما صغُر حجمه للفوطة التي ستتنشّف بها.

51 سنة، شهر واحد، 12 يوماً الجمعة 22 نوفمبر 1974

قطعتُ باريسَ ثلاث مرّات سيراً على الأقدام، بعد أيامٍ من العمل! سعيداً بمشيتي الشّديدة السلاسة؛ كاحليَّ مرنَان وركبتيّ ثابتتان وعضلتا السّاقان مشدودتان ووركايَ صلبان، لمَ العودة إلى المنزل إذن؟ لنكمل السيّر، لنتمتع بهذا الجسد وهو يمشي. إنّ سعادة الجسد هي ما يمنح المنظرَ جمالَه. الرئة حسنةُ التّهوية، والطريق إلى الدّماغ سالكة، وإيقاع المشية يستتبع إيقاع الكلمات، وهي ذي الكلمات تتشكّلُ في جمل صغيرة مرحة.

51 سنة، 9 أشهر، 22 يوماً الجمعة فاتح أغسطس 1975

تلك الرّجفة الخفيفة التي تأخذني حين أتمخّط ويبرز عبر المنديل الشّفاف المبتل إصبعي كبقعة وردية، فأحسبه دماً خفيفاً. لا تملك المفاجأة الوقت الكافي لإرعابي، إذ يمحوها الارتياح فوراً: ذاك طرف إصبعي ليسَ إلا! لم يكن ذاك الأمر يحدث معي قبل اليوم الذي أصابني فيه الرّعاف.

twitter @baghdad_library

52 سنة، شهران، 4 أيام الأحد 14 ديسمبر 1975

كنت أمس حول طاولة الـ ر. في خضمّ المناقشة -بغض النّظر عن موضوع النّقاش، وكنت أسجّل أهدافاً لا غبارَ عليها (خاصةً ضدّ الملل الذي يفرضه عليّ وجودي هنا)، وكنت على بعد أصبع من الحصول على الموافقة بالإجماع، ثمّ فجأة. . . تاهت منّي كلمة! ذاكرتي توقّفت. انفتحت الهوّة تحت قدميّ. وبدل أن ألجأ إلى الشّرح -إلى الإبداع-، انطلقت باحثاً عن الكلمة بغباء، مسائلاً ذاكرتي بغضبِ مَن سُلب منه شيء يملكه، إنّي أطالب ذاكرتي بأن تعيد ليَ كلمتي المضبوطة! بحثت عن الكلمة بعناد كبير، حتّى أنّي حين أقررت بهزيمتي وقررت اللجوء إلى الشّرح، انتبهت إلى أنّي نسيت موضوع النقاش بأكمله! ولحسن حظّي، كانوا قد انتقلوا إلى الحديث عن شيء آخر.

52 سنة، 9 أشهر، 25 يوماً الأربعاء 4 أغسطس 1976

قبل أن أغرق في النّوم، رأيت بوضوح بالغ دماغاً مُدمّى، موضوعاً على وَضَم الجزّار؛ وشيء مّا دفعني إلى الاعتقاد بأنّه دماغي، وزرع في نفسي ذاك الاعتقاد طمأنينةً متعذّرة الوصف، طمأنينة ما زلت أحسّها إلى الآن. كانت تلك أوّل مرّة أرى فيها دماغي بتلك الصّورة، بل إنّني قلت مخاطباً نفسي، أنّي لو تعرضت لقصف مدفعيّ فطارت ذراعي أو قدمي أو أيّ عضو آخر من أعضاء جسمي بعيداً، كنت لأتعرّف عليه بالسهولة نفسها التي أتعرّف بها على دماغي فوق منضدة هذا الجزّار.

53 سنة — الأحد 10 أكتوبر 1976

أنفقتُ سنةً أخرى. ممّن أخذتها؟ أين ذهبت السّنون التي سبقتها؟ العشر سنين الأخيرة على سبيل المثال؛ تلك التي تجدّدَت أثناءها، على ما يبدو، جميع خلايا جسمي ما عدا خلايا القلب والدماغ، أينَ ذهبت؟ باستثناء قبول هدايا الأولاد، تجنبت كلّ مظهر من مظاهر الاحتفال الرّسمية: لا عشاء، ولا أصدقاء؛ فقط أنا ومونا وسهرة فوق عوّامتنا التي ازداد وزنها، لكنّها لا تزال تعوم. وإذ قدّرت مونا جنوحي هذا نحو الشّجن، حضّرت للسّهرة بمدّة طويلة: حجزت مقعدين لمشاهدة أوبرا Einstein on the Beach لبوب ولسون. عرض من ستّ ساعات! سيمفونيةُ بطءٍ. ما أحتاجه بالضّبط: أعيدوا إليّ برهتي، أبطئوا خلاياي. فُتنت فوراً بدَخلة القاطرة إلى خشبة المسرح والتي كانت محسوبة بالمليمتر، كما فتنتني نصاعة بياض أسنان الممثلين جميعهم، وأيضاً تلك المنصّة الفوسفورية التي ظلت لنصف ساعة تمُرّ عمودياً وأفقياً في أفق لا يُرى فيه غيرها. وعرفت تلك المنصّة، إنّها هي نفسها المسلّة التي ظلّت ليلة عيد ميلادي الأربعين تنصب في منامي ببطء تاريخي!

53 سنة، يوم واحد — الاثنين 11 أكتوبر 1976

على النقيض من Einstein on the beach، أظهر زوج كان يجلس أمامنا أنا ومونا، تصوّراً آخرَ عن البُرهة الزّمنية. مع أنّه لم يكن زوجاً شاباً، ولا عشاقاً التقيا تواً، لم يكن الرّجل محترفَ إغراء اصطحبَ إحدى فتوحاته الجديدة ليستعرض إمكاناته أمامها. كانا

twitter @baghdad_library

جوّالين من أولئك الذين لم يعرفوا إلا حباً واحداً، عاشقين تجاوزا مثلنا أنا ومونا مرحلة الذهول الاجتماعي، ولا ريبَ في أنّ الحاضنة ترعى نسلَهما في هذه اللّحظة ذاتها. كانا قد أحضرا معهما كظيمة قهوة، وسلّة صغيرة من تلك التي تُحمل فيها الوجبات الخفيفة، ممّا يشي بأنّهما كانا على دراية مسبقة بطبيعة العرض الذي ينتظرهما، وبأنّهما قد استقرّا وثبّتا جذورهما في الحبّ وفي الزّمن وفي الذّوق عامّة، وفي تذوّق اليوم على وجه التّخصيص. كانت السلّة الجميلة مصنوعة من القشّ. لم يكونا أيضاً زوجاً في نهاية المسير، أتى إلى المسرح إرضاءً لعزلته المشتركة: لا شكّ في أنّهما كان ليُنحتا متضافرَين على قاعدة واحدة في ساحة قصر البابوات بأفينيون. حتّى إنّ المرأة قد وضعت رأسها على كتف رفيقها ما إن أخلى ضوء القاعة المبهر مكانَه لنور المشهد الشّمالي المُقلق. اِنغمر الجميع في برهة بوب ولسون بينما غرق الزّوج في هالة إعجابي بهما. وبالكاد لمحت الرّجلَ حين، بهزة خفيفة من كتفه الأيمن، أعاد رفيقته لوضعيتها العمودية. وإذ سحرتني دخلة القاطرة ونصاعة بياض الأسنان والمنصّة الفوسفورية وكمانُ فيليب غلاس، ذو النوتتَين؛ فقَدت الإحساس بالزّمن، ووعيي بجسدي وبمحيطي كيفما كان. ما عاد بإمكاني أن أحدّد ما إذا كنت مرتاحاً في جلستي أم غير مرتاح. كأنّما خلايايَ توقّفت عن التجدّد. في أيّ لحظة من لحظات تلك الأبديّة قدّمت المرأة الشّابة لجارها فنجانَ قهوة فرفضه بنفيٍ قاسٍ من رأسه؟ وفي أيّ لحظة أقدمت على البوح بتأمّل قُوبلَ بـ «ششش» لا تقبلُ الجدال! في أيّ لحظة بدأت تتململ في مكانها بإليتيها إلى أن سمعت تلك الـ «توقّفي» الغاضبة، والتي استدار لها رأسٌ أو

رأسان؟ لا أملك عن تلك الحوادث، المبعثرة وسط ساعات عديدة سوى وعي هامشيّ. إلى أن صاح الرّجل بجملة شدّت لثوانٍ انتباه الجميع في القاعة، وهو يطوّح بسلّة القش في الفضاء ويدفع بالمرأة إلى الفرار فراراً لا أحد يستطيع توقيفه: اِرحلي أيّتها الغِرّة البليدة! ذاك ما تفوّه به رفيقُ الانسجامِ التّام. وفرّت المرأة داهسة كلّ شيء في طريقها، بل وتعثّرت في البهو، وعادت لتقف وتستأنف المسير فارضة على نفسها المرور، كأنّما هي تسبح ضدّ التيار؛ واحدةٌ من تلك الهزائم التي تجعلك تدوس كلّ شيء في طريق الفرّ، مشاهدينَ وحقائب يدوية ونظارات (أحدهم صاح: «نظاراتي!»)، بل وحتّى الأطفال الصغار إن وُجدوا.

53 سنة، يومان الثلاثاء 12 أكتوبر 1976

ما دوّنته أمس، لا مكان له في هذه المذكّرات. وهذا أمر باعث على الارتياح.

53 سنة، شهر واحد، 5 أيام الاثنين 15 نوفمبر 1976

أخبرني تيجو، الذي أمتعته الواقعة التي حكيتها، أنّه شاهد صديقه ر. د. يتبوّل خلسة على سيارة الشرطيّ الذي كان منخرطاً في تحرير مخالفةٍ ضدّه. كانت السمّاء تمطر، وبينما كان الشرطي يحرّر المخالفة منشغلاً بحماية كنّاشه من البلل، كان ر. د. يفرغ مثانته بأكملها على باب سيّارة الدوريّة المفتوح، وكان قضيبه متوارياً خلف رشّاش بوله. حين يطلق المرء العنان لعضلته الصّارّة بهذه الجرأة، فلا يمكن إلا أن يثير الإعجاب. لن تواتيني الجرأة على القيام

twitter @baghdad_library

بذلك. ليسَ خوفاً فقط، وإنّما لأنّي لم أُلْفِ يوماً تلك الحوادث طريفة. إنّ أولئك الذي يضرطون أو يتبوّلون أو يتجشّؤون علانيةً يثيرون قرفي أكثر من الخبثاء. ولعلّ ذاك ما جعلني أبتعد طيلة حياتي عن الرياضات الجماعية. فالمهجع ومستودع الملابس والمقصف وحافلة الفريق وكلّ الأماكن حيث يزدهر عرض الفحولة ذاك، قليلاً ما تعني لي شيئاً. لا شكّ في أنّ مردّ ذلك إلى أنّي كنت وحيدَ أبوَيّ، أو لأنّي عشت حياة النزيل مدّة طويلة، أو لعلّي ماكرٌ هادئ...

53 سنة، شهر واحد، 10 أيام السبت 20 نوفمبر 1976

يسألني برونو فجأة عمّا إذا كنت قد حضرت ولادتَه. ومن نبرة صوته أستشّف أنّ الفضول ليس هو ما يدفعه للتساؤل وإنّما أثر الزّمن (عجيبة هي الأسئلة التي يفرضها علينا أثر الزّمن) أجبته: كلا، لم أحضر ولادتك ولا ولادة ليزون. لمَ؟ بسبب الخوف؟ بسبب انعدام الفضول؟ لأنّ مونا لم تطلب منّي ذلك؟ لانعدام رغبتي في رؤية الأجساد تتمزّق؟ بسبب عشقي لفرج مونا؟ إنّي لأجهل السّبب تماماً. الحق يقال، لم تُطرح المسألة أصلاً، ففي زمننا ذاك، ما كان حضور عمليات الولادة أمراً مألوفاً. بيد أنّ أثر الزّمن يطالب بإجابات عن الأسئلة التي لا تُطرح عادة. هل أنا أحد أولئك الرجّال الذين يتركون زوجاتهم يعانين وحيدات على فراش الأوجاع؟ هل أنا أحد أولئك الآباء الذين يبدؤون بإنكار أبوّتهم؟ تلك كانت الأسئلة التي تطلّ من عينَيْ ابني الثابتتين. كلا يا بنيّ، لستُ كذلك. إنّي أحسّ بالدوّار بدل أمّك، أشاركها بهلع صداع

الرأس وأوجاع البطن، فطالما أثار جسدها اهتمامي إلى أبعد حدّ؛ وحين أشرفتما، أنت وأختك، على الوصول إلى هذا العالم، كنت أنا أتصرّف بطريقة كلاسيكية مشبكاً ذراعيّ في غرفة الانتظار. عواطفي وعواطف أمّك متواشجة أقصى ما يمكنها. وكان الفضول قد أخذ منّي مبلغه بينما أنتظر قدومك. شأنك شأن ليزون. وإذن؟ ميلادُ تيجو، وصرخات مارتا فوق السّرير اللّزج، وانفتاح فرجها اللّزج كالمغارة، ووجه مانيس الشّاحب وقد تعطّر بالخمر؛ لعلّ كلّ تلك الأشياء لقّحتني إلى الأبد ضدّ أمراض الولادة؟ ربما. بيد أنّي لا أذكر ميلادك، لست أملك عنه سوى نزر من الذّكريات المبهمة.

جالت كلّ تلك الأشياء في ذهني سريعاً، لكنّي لم أبُح بشيء منها لبرونو، ووجدتني أقول له: هل حضرتُ ولادتك؟ كلا. لمَ؟

- لأنّ سيلفي حامل، وقد عقدت العزم على أن أكون معها في استقبال ابني.

هكذا إذن. . .

*

إلى ليزون

عزيزتي ليزون،

إنّ إعادة قراءة المقطع السّابق، حيث تبادلنا إطلاق الرّصاص أنا وأخيك، يملؤني إحساساً بالخجل. تلك العبارة «هل حضرتُ ولادتك؟ كلا. لمَ؟»، التي أردت أن تكون روحيّة، لم تعمل سوى على تعميق الهوّة بيني وبينه. لم أتجنّب ردم الهوّة بيننا فحسب، وإنّما يبدو أيضاً أنّني أحسست لذّة في تعميقها. لدرجة أنّها صارت قبر

twitter @baghdad_library

علاقتنا. كان برونو يعاندني، وكنت أعزو الأمر إلى عدم التّوافق بيننا. كنت أقول لنفسي، إنّه اختلاف في الأمزجة فحسب. توقفت عند ذاك الحدّ. إنّ العار الأبويّ الذي أحسسته هو ما يشكّل مورد مال التّحليل النّفسي. كانَ عليّ أن أبذل الوقت (الطّاقة) لإجابة برونو.

وإذ أعيد قراءة هذه المذكّرات لا أجد أيّ وصف لمونا وهي حامل. مع أنّ الأمر يتعلّق بموضوع الجسد، على ما أحسب. ولا إشارة واحدة لحملها. كأنّما ولدتما أنت وبرونو ولادةً عذريّة. ثمّة إشارة لما قبل الحمل وما بعده، لكن لا إشارة له. والأنكى من ذلك أنّني حين أفكّر في الأمر أجدني لا أملك أيّ ذكرى عن حملَي مونا. هذا ما كان عليّ أن أقوله لبرونو: آسف يا ولدي، لست أذكر أيّ شيء عن حمل أمّك. إنّ الأمر يذهلني أنا نفسي، لكن هذا ما وقع بالفعل. وكان عليّ أن أفكّر في الأمر معه قليلاً. لا أعتقد أنّها مسألة نادرة بالنّسبة إلى أبناء جيلي (وهذا مجال آخر من المجالات التي لست متفرّداً فيها). لقد كانت المرأة في ذلك العصر تشتغل بمفردها، محاطة بنساء أخريات. وكان الرّجال يبدون حبيسي العصر الحجريّ الحديث، كان يُقال عن امرأة مّا «إنّها تنتظر مولوداً» كأنّما المولود هبةُ الرّوح القدس، لكنّ المرأة لم تكن «تنتظر»، كانت تشتغل على تلك الولادة، الرّجل هو مَن كان ينتظر، وحتّى يخاتل انتظاره كان يخون زوجته قبل أن يعود إلى استخدامها. ثمّ إنّ ظِلّ مجمع ترانت[1] ظَلَّ يحجب الحملَ منذ أكثر من خمسمائة سنة: يمنع على

(1) هو المجمع رقم 19 المعترف به من طرف الكنيسة الكاثوليكية الرّومانية. أتى كردّ فعل على الإصلاح البروتستنتي. (م)

الفنانين أن يرسموا العذراء حاملاً أو حتّى وهي تلقُم ثديها! لم نكن نرسم ذلك، لم نكن ننحته، لم نكن نحفظه، لم نكن نتذكّره، كنّا نمحوه من الذّاكرة ونقدّسه! عار الطّبيعة الحيوانيّة! أخفوا تلك البطن، فليس بمقدوري النّظر إليها! إنّ العذراء ليست من الثدييّات! لقد كان ذلك مطبوعاً عميقاً في لاوعي جيلي الكاثوليكي، لدرجة أنّه أصابني أنا أيضاً رغم إلحادي المصرّح به. كان دماغي مصنوعاً من عجينة الدّماغ الجمعي نفسها.

من جهة أخرى تقول مونا إنّنا مارسنا الحب إلى فترة متأخرة من حملها بكما. لم يكن التّعفُّف أكبر ميزاتنا، وإذا ما كنت لا أذكر شيئاً عن حمل مونا، فإنّ مردّ ذلك بالنّسبة لها، إلى رغبتي في أن أكفّر عن تلك الألعاب الغرامية التي لا تزال تذكرها هي جيداً! كانت هي من يدق جرس نهاية حفلات سمرنا، كانت تفعل ذلك في تاريخ محدّد من حملها، تاريخ يوافق مرحلة «صقل القالب النّهائي» (كذا).

أرأيت يا ليزون، في الفترة التي شهدت ولادتكما لم نكن بعد قد دشنّا عصر الرّجل الحامل الذي يمتدحه جيلكم: تبادل أدوار مذهل يضطلع به الأب الأموميّ، محاكاة متقنة لدور الأمّ إلى درجة أنّ صديقك ف. د.، كان يتقطّع بأوجاع المخاض بينما زوجته تضع مولودهما، وأنّ برونو أبدى موهبة أكبر من موهبة سيلفي في إعطاء الرّضاعة لغريغوار.

وأخيراً، ما كنت أودّ أن أقوله لبرونو لو أنّ نقاشنا تمّ فعلاً، هو أنّي في اللّحظة التي حملتكما فيها بين ذراعيّ أحسستُ أنّكما كنتما معي دوماً! وهنا مكمن الذّهول: إنّ أطفالنا كانوا موجودين منذ الأزل! فما إن يولدوا حتّى لا يعود بمقدورنا تصوّر أنفسنا دونهم. لا

twitter @baghdad_library

ريب في أنّنا نذكر أياماً لم يكونوا موجودين فيها، أو كنّا نحن موجودين فيها دونهم، لكن ظهورهم يضرب جذوره عميقاً فينا إلى درجة يخيّل لنا معها أنّهم كانوا موجودين دائماً. هذا الإحساس لا نخصّ به سوى أطفالنا، أمّا الباقون، مهما كانوا قريبين منّا أو عزيزين علينا، فإنّنا نستطيع تخيّل حياتنا في غيابهم، لكن لا نستطيع تصوّر غياب أطفالنا، مهما كانوا حديثي الولادة. أجل، وددتُ لو أستطيع إخبار برونو بكلّ هذه الأمور.

53 سنة، 5 أشهر، يومان السبت 12 مارس 1977

هذا الصّباح، تحت الدّش، تذكّرت الوقائع الآتية. حتّى سنّ الثامنة أو التّاسعة، كانت فيوليت «تنظّفني»، ومن سنّ العاشرة إلى الثالثة عشر كنت أتظاهر بأنّي أستحمّ، ومن سنّ الخامسة عشر إلى الثّامنة عشر، كنت أقضي ساعات في الحمام. واليوم، بتّ آخذ دشّاً، قبل أن أركض باتّجاه العمل. وعندما أتقاعد، هل سأتحلّل من حمامي؟ كلا، إنّنا أبناء عاداتنا، وطالما أستطيع الوقوف على قدميّ، سيوقظني حمّامي. وحين يطال جسدي العجز، سينظّفني ممرّض في السّاعات التي تمنع عنّي فيها الزّيارة. وفي النّهاية سيغسّلونني قبل الدّفن.

53 سنة، 7 أشهر الثلاثاء 10 مايو 1977

ولادة غريغوار، ولادة حفيدي، بحقّ السّماء! سِيلفي متعبة جداً، وبرونو غارق تماماً في دور الأب، ومونا سعيدة، وأنا... هل بوسعنا الحديث عن العشق من أوّل نظرة، عندما يكون المعنيّ بالأمر طفلاً

حديث الولادة؟ لا أحسب أنّ شيئاً أثّر فيّ طيلة حياتي، قدر التأثير الذي خلّفه فيّ لقائي مع الصغير المجهول والمألوف بالنسبة لي في آن. خرجت من المستشفى، وتمشّيت وحدي على غير هدى، مدّة ثلاث ساعات؛ تلك النّظرة الحاسمة التي تبادلناها أنا وغريغوار كانت تنطوي على اتّفاق محبّة أبديّة. هل سأصير جَدّاً يدلّل حفيده؟ وهذا المساء، بينما أتمشى رفقة تيجو، قال على عادته: ألا تقرفك مضاجعة جدّة؟

53 سنة، 9 أشهر، 24 يوماً الأربعاء 3 أغسطس 1977

منذ ولادة غريغوار، وبرونو وسيلفي يعيشان إنهاك الأبوين الحديثين: ليالٍ متقطّعة، نوم متوجّس، إيقاع مضطرب، مهام متعدّدة، تسرّع (الرضّاعة مفقودة، الحليب أسخن ممّا يجب، الحليب أبرد ممّا يجب، تباً، لم يعد ثمّة حليب! تباً، لقد تبلّلت الحفّاضة!) كلّ تلك الأشياء كانا يتوقّعانها، لقد علّمتهما الثّقافة ذلك، ويحسبان أنّهما يعرفانها بالغريزة، خاصّة برونو. بيد أنّ سبب إنهاكهما يكمن في أمر آخر. ما كتَمَته عنهما غريزتهما الأبوية هو الاختلاف المذهل بين القوى. فالأطفال الرّضع يبذلون طاقة تفوق بكثير الطّاقة التي ننفقها نحن. أمام تلك الحيوات المتفجّرة نبدو نحن مجرّد صورٍ لحياةٍ شائخة. حتّى في أقصى درجات حيويّتهم، يسعى البالغون إلى اقتصاد طاقتهم، أمّا الرّضع فلا. إنّهم طاقة صرف، يتغذّون على الفريسة، دون أن يحسّوا أي خزي؛ ينامون على هامش النّوم. لا مجال عندهم للرّاحة. فتكون النّتيجة أن يقلّ نوم الأبوين. أُنهكت سيلفي، بينما صار برونو، المأخوذ بدور الأب المثالي، على أعصابه: يحسّان أنّ موضوع اهتمامهما الأوحد، يلتهمهما. ودون أن

twitter @baghdad_library

يعترفا بالأمر -أيّ فظاعة يا إلهي، أن يعترف المرء بشيء كهذا- يتوقان إلى تلك الأيّام الخوالي، التي كان يعهد فيها بالأطفال إلى المرضعات. ما أسعد تلك القرون التي كان فيها أطفال عليّة القوم يمتصون حلمات بنات الشّعب. ألم يُعهد بي أنا نفسي إلى فيوليت؟ ثمّ إنّ غريغوار يذيب قلبيهما. فهما، بوصفهما أبوين عصريّين، يعتبرانه -سواءٌ أقرّا بالأمر أم كتماه- تجسّدَ حبّهما. كانا اثنين، وها هما قد صارا ثلاثةً إلى الأبد. أصابعه البضّة، وخدّاه المتورّدان، ذراعاه وقدماه الرّيانة، بطنه الهادئ، إليتاه، إليتا الملاك الصّلبتين، كلّ تلك الأشياء هي ثمرة حبّهما! وتلك النظرة! يا إلهي، أنّى للرّضع تلك النّظرة التي تقع علينا ولا تتحرّك؟ على ماذا تُفتح تلك العيون شديدة سواد البؤبؤ، وشديدة ثباتِ القزحيّة؟ على ما تُفتحان من الجانب الآخر؟ جواب: تنفتحان على الأسئلة القادمة. على شهيّة السؤال التي لا تنضب. بعد أن تنفد قوة أجسادهم، يحين الدّور على الأرواح. يحسبُ الأبوان أنّ لا نهاية للتعب، لكن، هششش. . . . أجفان غريغوار تنغلق. . . غريغوار ينام. . . سيلفي تضعه في مهده باحتراز مقدّس. فمكر تلك الطاقة الأعلى يتجلّى في كونها تقدّم نفسها كشيء شديد الهشاشة.

53 سنة، 10 أشهر، 16 يوماً الجمعة 26 أغسطس 1977

أثناء عودتنا أنا وليزون وأطفال روبير وإيتيين لم أقفز فوق الحاجز. هذه أوّل مرّة لا أقفز فيها فوق الحاجز. ما الذي منعني؟ هل هو الخوف من أن «أمثّل دور الشّاب» أمام الشّباب؟ الخوف من أن تعلق قدمي في الحاجز؟ ثمّة شيء منعني في آخر لحظة، على كلّ

حال. هل هو جسدي؟ التّشكيك في قدرة التّدفّق على الاستمرار. لقد تكلّم الجسد. ماذا قال؟ إنّ قوّة السّن تقلّصت.

54 سنة، 5 أشهر، يوم واحد السبت 11 مارس 1978

منذ يومين، صار غريغوار يداعب أذنيه بتركيز شديد. وعلى الرّغم من محاولتي تطمينها (فالأطفال جميعهم يلعبون بكلّ ما هو بارز: أصابع القدم، الأنف، القلفة، اللّسان، الأسنان الأولى، الآذان...) تصرّ سيلفي على تشخيص بداية التهاب أذن. ينبغي اصطحاب غريغوار عاجلاً إلى طبيب الأطفال. التقصير في علاج التهاب الأذن قد تكون له عواقب وخيمة، صديقك هـ. قد أصيب بالصممّ يا جدي! ركبنا المصعد، ثمّ السيارة، ثمّ المصعد، ثمّ ها نحن عند الطّبيب، الذي نفى أيّ إصابة بالتهاب الأذن: اِهدئي يا سيّدتي، إنّه أمر عاديّ جداً، الأطفال في هذا السنّ يلجؤون جميعهم إلى مثل هذه الحركات، لكنها تريد تفسيراً: لماذا؟ لماذا يداعب الأطفال آذانهم في هذه السّن بهذا الإمعان، ما لم تكن آذانهم تستدعي ذلك؟ وها نحن، أنا وزوجة ابني، غارقين في التّأمل في المسألة، بينما يقضي غريغوار قيلولته. وإذ لم نجد أيّ جواب مقنع، قرّرنا أن ندرس أذنينا بذهنية استكشاف تصاعديّة، إذ كان الغرض معرفة ما يحسّه غريغوار منذ ثلاثة أيام. كان علينا أن نلحق بغريغوار في طفولته المبكّرة، أن نسائل آذاننا ببراءة سنّ العشرة أشهر. قمنا إذن بجرّ شحمة آذاننا كما لو كانت علكة (درجة مرونتها بالمناسبة نسبيّة). ثمّ انطلقنا إلى استكشاف الحافّة -حافّة أذني أعرَض من حافّة أذن سيلفي، لكنّ حافّة أذنها أحسن تقويماً من حافة أذني-.

twitter @baghdad_library

ومررنا بعد ذلك إلى الضّغط على وتِد الأذن -وتد أذني مشعر، وأكثر سمكاً من وتد أذن سيلفي-. بالمناسبة، منذ متى؟ منذ متى والزّغب يكوّن طبقة فوق هذا الجزء المثلث من أذني، الذي كنت أجهل حتّى هذه اللّحظة أنّ اسمه الوتِد؟ -انطلقنا إلى استكشاف دواخل محارة الأذن، «لو أنّ برونو رآنا!»، قالت سيلفي وهيّ تمرّر أصابعها بعينين مغمضتين، من المحارة إلى ظهر الأذينة المحدب، وفجأةً قالت: أوريكا، لقد وجدتها! أعرف! لقد وجدتها! أقفل عينيك يا أبي! (فعلتُ). سألتني وهي تضرب برفق ظهر أذينتي: ماذا تسمع؟ أسمع نقرات. كنت أسمع زوجة ابني تنقر على أذيْنَتي، فيتردّد الصدى داخل جمجمتي! هو ذا ما اكتشفه غريغوار يا أبي. لقد اكتشف الموسيقى! لقد اكتشف الإيقاع! تحقّقنا من الفرضيّة ما إن استيقظ غريغوار. لا شكّ في الأمر، إنّ صبيّ التّجربة المولع بالموسيقى، يلطم أذينته بيديه في البداية، ثمّ يربّت عليها بأصابعه مثلما ننقر على الطاولة. ثمّ بتقلّب مزاج مبتدئ في الموسيقى، ترك الصغير العزف، وأخذ جراراً بلاستيكياً وضعه في فمه، فقلت آنذاك لسيلفي إنّ عليها أن تنزل هذه المرّة إلى المرآب، وتتذوّق السيّارة، لتعرف لمَ فعل ذلك.

55 سنة، 4 أشهر، 17 يوماً الثلاثاء 27 فبراير 1979

بقعة القهوة الصّغيرة على ظاهر يدي، بينما أكتب. ذات سمرة خفيفة. قشّرتها بواسطة سبابتي. قاومت. أضفت القليل من اللّعاب للعمليّة، فظلّت ثابتة. هل هي بقعة صباغة؟ كلا، إنّ الماء والصّابون لا يجديان معها نفعاً. فرشاة تنظيف الأظافر أيضاً لم تُجدِ نفعاً. عليّ

أن أتقبّل الأمر: إنّها ليست بقعة على جلدي، وإنّما هي إحدى إنتاجات جلدي نفسه. إنّها علامة شيخوخة صاعدة من الأعماق، واحدة من تلك البقع التي تملأ وجوه المسنّين، تلك البقع التي كانت فيوليت تسمّيها «أزهار المقبرة». منذ متى نبتت الزّهرة هنا؟ سواء كنت أعمل في المكتب موقّعاً الأوراق، أو كنت هنا في البيت أتناول الطّعام أو أكتب على الطّاولة، فإنّ ظاهر يدي يكون دائماً تحت ناظري، ومع ذلك لم ألاحظ البقعة قطّ! بيد أنّ هذه الزّهرة ليست من تلك الزّهور التي تنبت بين عشيّة وضحاها! كلا، لقد اندسّت داخل نطاقي الحميم دون أن تثير فضولي، لقد طفت على السّطح، وظلت هنا تحت عينيّ، أنظر إليها ولا أراها. واليوم هي ذي إحدى حالات وعيي تدفع بي إلى أن ألحظها. لن يطول الوقت قبل أن تنبت بقع أخرى بهدوء، وسيأتي عليّ حين لن أذكر فيه كيف كان شكل يدي قبل أن تملأها أزهار القبور.

55 سنة، 4 أشهر، 21 يوماً السبت 3 مارس 1979

بعض التّغيرات التي تطرأ على جسدي، تذكّرني بتلك الشوارع التي نذرعها منذ سنوات. وذات يوم يغلق محلّ تجاري، تختفي الإشارة، يفرغ المحلّ، ينتهي عقد الإيجار، فنتساءل ما الذي كان هنا من قبل، أي قبلَ أسبوعٍ.

55 سنة، 7 أشهر، 3 أيام الأحد 13 مايو 1979

تيجو، الذي كنت أهنّئه على الحضور الدّائم بجانبه لجميلة تدعى أرييت (ما شأني أنا؟) تركني أتكلّم، حتّى أتممتُ مديح

twitter @baghdad_library

العلاقات الدائمة، ثمّ قال: عضو الرّجل لا يترك في عضو المرأة أكثر من الأثر الذي يخلّفه مرور طائرٍ في السّماء. من المستحيل أن يقرأ المرء في عينيه المعنى الذي يقصده بهذا المثل ذي المسحة الصّينيّة.

56 سنة، عيد ميلادي الأربعاء 10 أكتوبر 1979

في سنّ العشرين كان التّمطي بالنّسبة لي صنو الطيران. أمّا هذا الصباح، فقد أحسستُ أنّني أصلب، بينما كنت أتمطى. عليّ أن أحارب الصدأ. أتذكّر تحذير مدرّس الرّياضة (ديسميل؟ ديميسل؟) الذي كان ينبّهنا إلى أنّنا سنصدأ مبكّراً إن لم نواظب على التمارين اليومية... ربّما [كان ذلك صحيحاً]. لكنّي الآن ألاحظ كلّ أولئك الأصدقاء الذين كانوا يذهلونني بإنجازاتهم الرّياضية (يعاني إتيين اليوم من الروماتيزم، كُسرت أصابعه وعظام ترقوّته غير ما مرّة، عظام كتفيه أكلهما الالتهاب) أحسب أنّي أحسنت صنعاً حين أفلتت من ديانة تحطيم الأرقام وعقيدة التمرّن المتواصل. لطالما مقتّ الرّياضة بوصفها ديانة الجسد. لم تكن الملاكمة بالنّسبة لي سوى رقص لعبيّ، طريقة للتمرّن على فنّ الإفلات؛ ثمّ إنّي كنت أمارسها بمفردي؛ أغلب الأوقات كان خصمي كيسَ رملٍ. وفي التّنس كنت أواجه حائطاً. أمّا تمرين الجذب وتقوية العضلات فلم تكن سوى وسيلتي للتناسخ في جسد آخر؛ كنت أسعى لأن أمنح جسداً للصبيّ النّحيف الذي كان شبحاً عن والده. أن أفوز في لعبة كرة السّجين، وأن أهزم خصماً عنيداً في الحلبة، وأن أسخر من مدّعٍ في التنس، وأن أصعد على الدّراجة ساحِلاً منحدراً، كلّ تلك الأشياء كانت

تبتغي الانتقام لوالدي، لكن مع حفظه بعيداً، مع تركه بين الجمهور على المنّصة الشّرفية. لم تعن ليَ الرّياضة يوماً حاجةً جسدية. حتّى أنّي تخليت عن كلّ التمارين يوم التقيت مونا.

56 سنة، 9 أشهر، 27 يوماً — الأربعاء 6 أغسطس 1980

سمعت نكتة في البار قبل قليل. حكاها أحد من يشاركونني الجلوس على الكنتوار، وكان قد تجاوز كأس الباستيس الأولى: قال الطبيب للمريض: لا نساء؛ لا نساء، ولا سجائر، ولا كحول. فسأله المريض: وهل سأعيش أطول إن امتنعت عن كلّ ذلك، فأجابه الطبيب: لست أدري، لكنّ الوقت سيبدو لك أطول.

56 سنة، 9 أشهر، 29 يوماً — الجمعة 8 أغسطس 1980

إِنتشر وباء الحُماق (جدريّ الماء) بميراك، انتشرت البثور كالجراد على جلد الأطفال. ظهرت التقرّحات بهالاتها. لم ينجُ أحد من الوباء. يصاب الطّفل، فينام، ثمّ يستيقظ، يشتكي من الحكّة، يُمنع من الحكّ. مونا وليزون متقمّصتين دور ممرضتيّ الحرب، تصارعان على جميع الجبهات. ثمّة أيضاً فيليب وبولين، حفيدا إتيين، وثلاثة من رفاقهما. أرسلتُ تلغرافاً إلى برونو أطلب منه أن يرسل غريغوار حتّى ينعم بهذا التّلقيح الطّبيعي، فأجابني بتلغراف، من قصره يقول الكثير، نصّ التلغراف: أنت تمزح، أليس كذلك؟ توقيع: برونو. قالت مونا: مؤسف، فعندما يصاب المرء بالحُماق وسط جماعة، يكون الأمر أشبه بلعبة. أمّا إن أصيب به وحده، فيكون كالعقوبة.

لا أستطيع أن أمنع نفسي من تخيّل برونو وهو يختار كلماته

twitter @baghdad_library

الأربع بعناية: في أيّ سنّ تنعدم حاجة المرء إلى أب حيّ؟

56 سنة، 10 أشهر، 5 أيام　　　الجمعة 15 أغسطس 1980

كمّ من الأحاسيس لا نَخبِرها؟ في الكنيسة، أثناء الحفل، كانت ثمّة امرأة عارية الذّراعين، جلست مسندة ساعدها على مسند الكرسي المجاور الذي ظلّ شاغراً؛ ساهمة كانت تنتف شهر إبطها. جرّبت الأمر. ليس مؤلماً كثيراً. بيد أنّ المنطقة التي تنزع منها الشّعرة إذا ما كانت رقيقة الجلد، فإنّها سرعان ما تتحوّل إلى بثرة.

57 سنة، عيد ميلادي　　　الجمعة 10 أكتوبر 1980

هديّة جميلة من ليزون. تعشّينا مجتمعين، أنا ومونا وتيجو وجوزيف وجينيت وإتيين ومارسلين. جالسةً قبالتي، كانت ليزون تشارك في الأحاديث بحيويّة ومرح يبدوان لي صادرين عن طاقة غريبة عنها. إنّها ملهمة. ثمّة جنيّ لطيف يسكنها. جنيّ يُتعبها قليلاً على ما يبدو من خلال التّجاعيد الخفيفة. بعد العشاء أثرت الحديث معها في المكتبة (منذ زمن طويل ونحن ننهج نهج الجديّة والاستدعاء الأبويّ: اِبنتي، اِلحقي بي إلى المكتبة! اِكتست ليزون ملمحاً خجولاً بينما اكتسيت أنا هيئة قائد ونحن نقفل خلفنا الباب) اِجلسي. جلست. لا تتحرّكي. بدأت تراقب قدميها. قلّبت المكتبة، وأخرجت كتاب «الدكتور جيفاغو»، بحثت عن المقطع الذي أنوي إسماعها إيّاه. آه! ها هو! الجزء التّاسع، الفصل الثالث. إنّها مذكّرات لوري جيفاغو. كتبها إلى فاريكينو، عند نهاية الشّتاء وبداية الرّبيع. أنصتي يا ليزون:

«يبدو لي أنّ تانيا حامل. لقد أخبرتها. إنّها لا تعتقد ذلك، لكنّي متأكدّ. أقرأ ذلك في إشارات خفيّة، إشارات لا ترقى إلى الأدلة القاطعة، لكنّها لا يمكن أن تخطئ. إنّ مظهر المرأة الخارجيّ يتبدّل، لا يمكن أن نجزم بأنّها تصير قبيحة، لكنّ المظهر الذي طالما سيطرت عليه، صار يفلت منها. إنّها بين يديّ المستقبل الذي سيخرج من أحشائها، والذي يجعلها من الآن غير نفسها».

رفعت رأسي. قالت ليزون: هو ذا ما يمكن أن نسمّيه أباً مميّزاً! ضممنا بعضنا.

*

إلى ليزون

أبوك يا عزيزتي، أبوك الذي لا يذكر شيئاً عن حمل أمّك، استطاع أن يخمّن أنّ ابنته حامل، مع أنّ فاني ومرغريت كانتا بالكاد قد وضعتا قدميهما على الطّريق! أيّ غريزة ندين لها بمثل هذه التّخمينات؟ بإمكانك أن تعطي هذه المذكّرات لمجلّة التحليل النّفسي الجديدة. سيحتفي بها صديقنا ج. ب أيّما احتفاء.

*

58 سنة، 28 يوماً **السبت 7 نوفمبر 1981**

صار من النّادر اليوم أن يسمع المرء شتيمة عنصريّة في محلّاتنا التّجارية الأنيقة، شتيمة ذات طبيعة جسديّة صرف. ومع ذلك، بينما كنت اليوم أنا وتيجو في المخبز نشتري هلاليات وحلوى البريوش. إذ

twitter @baghdad_library

كنا نعتزم الاعتناء بفاني ومرغريت طيلة الصّباح، في غياب ليزون. كنّا في المخبز إذن. كانت أمامنا سيّدتان وشيخ عربيّ. وخلفنا الصّف يمتدّ حتّى الباب (المخبزُ طيّب الصّيت). ومن الجانب الآخر للمنضدة، كانت ثمّة بائعة الخبز مرتدية وزرة ورديّة؛ هي واحدة من تلك البائعات التي تقضي وقتها في تصريف الأفعال في ضمير الجمع: قولوا لي ما الذي تحبونه؟ وما الذي تريده إضافة إلى هذا؟ وما إن أعطت السيّدتين طلبيّتهما، وحان الدّور على الشّيخ العربيّ، الذي كان يرتدي جلباباً وبلغة، ويتكلّم بنبرة متردّدة تناسب سنّه، حتّى تبدّل نظام تصريف الأفعال: ما الذي يريده؟ هل سيقرّر؟ أجاب الشّيخ إجابة لا تبين. ماذا؟ أشار الرّجل إلى حلوى النّخليّة. استدارت البائعة شطر الحلوى المشار إليها. واستغلّت الفرصة كي تغلق أنفها بإصبعيها وتحرّك يدها كمن يطرد رائحة نتنة. تناولت الحلوى بملقط معدني، ووضعته في كيس، ثمّ لفّت الكيس. أخبرت الزبون بالثمن، ورمت الكيس أمامه. رفع الشّيخ جلبابه وأخذ يبحث في جيب سرواله عن النقود. لم يجد المبلغ المطلوب، فأدخل يده في جيبه الثاني، وضاعت اليد باحثة عن النّقود، قبل أن تستخرج نظارة عتيقة. إيه! ليست لدينا الحياة بأكملها لانتظارك! ألا ترى النّاس خلفك؟ أثار كلامها الزّبائن. ذُعر الرّجل. سقطت منه القطع النقدية، انحنى ثمّ قام، ثمّ وضع قِطَعه جميعها يائساً على المنضدة المصنوعة من المرمر المزيّف. أخذت البائعة الثمن المظبوط، وغادر الرّجل المحلّ منكسراً. لا ينبغي أن تعتذر! ثمّ أطلقت الفتاة بوق النّفير في البادية: هؤلاء العرب، لا يكفيهم أن يأتوا إلى هنا لامتصاص دمائنا ولكّنهم يخلّفون أيضاً روائحهم وراءهم! صمت الجميع. على الأرجح ذُعر

الجميع، لكنّهم صمتوا في جميع الأحوال (بما فيهم أنا). إلى أن ارتفع صوت تيجو. أجل إنّهم قذرون هؤلاء العرب! (لحظة توقّف) على المرء أن يكون قذراً كي يقبل امتصاص دمَ السيّدة. ثمّ استدار صوب إطار شاب وسأله: هل ستمصّ دم السيّدة؟ غمغم الشّاب. كلا؟ إنّي أتفهمك، لأنّ وفق ما يخرج من فم السيّدة، لا يمكن أن يكون دمها دماً عادياً! ساد الذّعر الجميع. اِستدار تيجو صوب زبونة: وأنت سيّدتي، هل ستمصّينه؟ كلا؟ ولا أنت يا سيّدي؟ ذاك لأنّكم لستم عرباً! لم تعد ثمّة قطرة دم واحدة تدور في جسد الزّبائن المشترك. لقد خشيت وجوههم من الضّربات لأنّ كلمات تيجو كلمات حسيّة. وكنت عازماً على إيقاف المجزرة حين استدار تيجو إلى البائعة وخاطبها بنبرة يوم أحد: سيّدتي، سيكون فضلاً منك أن تبيعي لنا أربعاً من هلالياتك، وعدداً مماثلاً من حلوى البريوش.

58 سنة، 29 يوماً الأحد 8 نوفمبر 1981

لا يخشى المرء حقّاً إلا الأشياء التي تصيب جسده. ما إن يدرك مُعتدٍ أن بإمكانه أن يكون ضحيّة لما يُخضِع له الآخرين، حتّى يتلبّسه رعب لا حدّ له.

58 سنة، شهر واحد، 5 أيام الأحد 15 نوفمبر 1981

رعينا أنا ومونا أمس غريغوار وصديقه فيليب. كلاهما له أربع سنوات ونصف. فضلاً عن العشاء وغسل الأسنان والحكاية قبل النوم، وإطفاء الأنوار في تمام السّاعة التّاسعة، مع جعل باب غرفتهما مواربًا على ضوء البهو؛ كان علينا الاهتمام بحمّامهما.

twitter @baghdad_library

وبينما أنشّفهما لاحظت أنّ غريغوار أثقل وزناً بكثير من فيليب، مع أنّ لهما الحجم نفسه تقريباً. وحتّى أقطع الشكّ باليقين، وزنتهما. يا للمفاجأة، لا فرق بينهما سوى بخمسين غراماً (والفرق لصالح فيليب فوق ذلك)، إنّهما بالوزن نفسه تقريباً: سبعة عشر كيلوغراماً وبعض الفُتات. ليس غريغوار أثقل من فيليب، وإنّما هو أشدّ كثافة منه. فيليب المسكين! أكاد أجزم أنّ عيب الكثافة ذاك يهيّئ له حياةً مليئة بالقلق، والشكّ الدائم، واليقين العابر، والإحساس الدائم بالذّنب، باختصار احتقان كبير للذّات؛ بينما سيتبع غريغوار مصيره، مصير الدّبابة الهادئ. ألم الوجود بالنّسبة إلى فليب، ومذهب المتعة الثّابت بالنّسبة إلى غريغوار. إنّها مسألة مصير. حاولت مونا عبثاً أن تُفهمني أنّ ملاحظتي لا تستند إلى أيّ دليل. ذكرى التّباين التراجيدي بين تلك الكتلتان، زاد من يقين ملاحظتي هذا الصّباح.

58 سنة، 6 أشهر، 4 أيام — الأربعاء 14 أبريل 1982

بعد مناقشة طويلة مع الياباني توشيرو ك. ما سنّه؟ إنّه نحيل جداً، حتى أنّ رداء الكيمونو البنيّ الذي يلبسه يبدو مثل لحاء ملفوف على غصن. حركاته بثقل حيوان اللّيمور، والقلم بين أصابعه كالسّجل. إحساس متناقض: هذا الرّجل الذي يبدو أنّه لم يعد يملك قوّة للحياة، يبدو كأنّما يملك كلّ الوقت. طول فترات صمته، وبطء إشاراته وحركاته يذكّرني بأبي، أبي الذي كان رَفْع الملعقة إلى فمه يساوي جهد رفع جبل. لقد أفرغته أربع سنوات من الحرب واستنشاق الغازات الألمانية، مثلما فعل قرن بأكمله مع هذا العجوز

الياباني. باختصار، لقد حضر أبي طاولة النّقاش، أتى يقيم في صوت توشيرو ك. تنحّ من هنا يا أبي. إنّك تزعجني. أراه يدفع دولاب مطبخنا، لكنّ دولاب المطبخ لا يتزّحزح مليمتراً. السيّد توشيرو ك. يجعلني أرى أبي وهو يستنفد قواه في صراعه مع أثاث البيت. أبي، أرجوك، إنّ ابنك يناقش. أبي الآن جالس إلى طاولة العائلة. لا أستطيع أنا وأمّي أن نحيد ببصرنا عن الذّبابة التي حطّت على أنفه. يقول: إنّها تحسبني قد صرت جثّة؛ ولا يقوم بأيّ حركة لطردها. أمّي تترك الطّاولة وهي تقلب الكرسيّ. تصرخ: إنّكما بغيضان. يهمس هو: كلا. الطفل الذي كنته، يقبّل اليد التي يمدّها إليه. السيّد توشيرو ك. ينتظر. أبي يطيل المفاوضات. في طائرة العودة، امتدح شركائي صبري على الشيخ الياباني.

58 سنة، 6 أشهر، 5 أيام الخميس 15 أبريل 1982

أبي بجسد العود. بلا رئتين. عضلات بلا لحم. أعصاب مرتخية. وأنا الطّفل الكبير الصغير، بأطراف رخوة. أتنّقل مصطدماً بالأثاث، أقلّده. شبح أبي الصّغير، الشبح الذي يرهب أمّي، تفرّ المسكينة مذعورة من هذين الاثنين اللامعقولين.

59 سنة الأحد 10 أكتوبر 1982

منذ نهاية الصّيف وأنا أحسّ هذه الحكّة، التي تصير عنيفة أحياناً، تحت عظم كتفي الأيسر. يبدو أنّها آتية من إحدى فقرات الظهر، وتشتدّ خاصة عندما أثقل في الأكل. اِنتظرت أن تصير كثيرة التردّد قبل أن أدوّنها هنا.

twitter @baghdad_library

59 سنة، شهر واحد، 8 أيام الخميس 18 نوفمبر 1982

مورفولوجيا التوظيف. وظّفت للتوّ محرّراً ذا سيرة مهنية مثقوبة مثل معطف مغامر. بيد أنّ عينه الماكرة تحت حاجبيه الكثيفين كحواجب النيوندرتال، ألهمتني الثّقة. بريفال (وهو أحد هواة التّحليل النّفسي) كان ليفضّل شاباً وسيماً ذا رأس متناغم، وسيرة مهنيّة مليئة بالشّواهد، وتوصية من الوزير نفسه، لكن ما إن نطق الشّاب الوسيم بأوّل كلماته، حتّى تيقّنت من أنّ لا علم لديه ولا خبر. ما بين هيكل لامع وجديد كلّ الجدّة، وما بين كومة عظام استطاعت أن تعبر العصر الحجريّ، لم أتردّد في الاختيار لحظة واحدة.

59 سنة، شهر واحد، 14 يوماً الأربعاء 24 نوفمبر 1982

حول دواعي الحكّ. ليسَ الدّاعي إلى الحكّ فقط صعود تلك النّشوة التي تبلغ ذروتها في نقطة الارتياح، وإنّما أيضاً لذّة أن يجد المرء نقطة الحكّة المضبوطة، أن يحدّدها بالمليمتر. أن يجد المرء تلك النقطة، فتلك أيضاً علامة من علامات إحاطته بجسده. من الصّعب أن تعيّن لغيرك بالضّبط النّقطة التي تستدعي الحكّ. في هذه المسألة بالذّات، يخذلنا الآخر. يجانب غالباً صلب الموضوع مجانبة طفيفة.

59 سنة، شهر واحد، 15 يوماً الخميس 25 نوفمبر 1982

بوسع المرء أن يحكّ نفسه حدّ الانتشاء، لكن دغدغ نفسكَ قدر استطاعتك، لن تضحك البتّة.

أُعلّم غريغوار كيف يأكل الأطعمة التي لا يحبّها. تحديداً الهندباء المهروسة، التي يقدمها له برونو وحدها، رغبةً في أن «يقوّم» ذوقه. مرّنت غريغوار إذن على تذوّق الهندباء المهروسة بتأنٍّ. بعبارة أخرى، مرّنته على الاهتمام بتلك الفظاعة، تماماً مثلما فعلت من قبل مع دودو، أخي الصّغير الخياليّ، حتّى أتمكّن أنا نفسي من أكلها. كُلْها، وأنتَ **تتذوّقها فعلاً**، وأنت تسعى حقاً لإدراك طعمها. سترى كم هو مثير للاهتمام معرفة لمَ لا نحبّ بعض الأطعمة. (عندما ألجأ إلى مثل هذه التمارين، أفاجأ بنفسي أنطق الكلمات مائلة مثلما كان يفعل أبي) هيا؟ هيا! لقمة صغيرة في البداية، لقمة يصاحبها وصف دقيق لهذا الطّعم، خاصة جانبه المرّ الذي ينفر منه أغلب الأطفال (باستثناء الأطفال الإيطاليين ربما، الذين ينخرطون مبكراً في ثقافة المرارة). ثمّ لقمة أكبر، حتّى نتيقّن ممّا وصفناه، وهكذا دواليك (دون أن نبلغ أبداً اللّقمة الكبيرة تلك التي نحسب أنّها قد تقصّر طريق التمرّن، فإذا بها تروّع النّفس). أتى غريغوار على صحنه كاملاً، بلذّة عقلية خالصة. يدّعي أنّ للهندباء طعم المسامير الصدئة. لتكن إذن مساميرَ صدئة، المهم أنّه يأكل الهندباء دون أن يتقيّأ، ولو أنّه لا يزال يرى أنّ طعمها مقرف.

طعم المسامير الصدئة.. يذكّرني الأمر بالعمالقة الذين كانوا يأكلون دراجاتهم، أيام معرض الطّفولة. حكيت الأمر لغريغوار. قلت له إنّ أحدهم ذهب حدّ الشروع في أكل سيّارة، سيارة رونو 4. فسألني غريغوار: هل كانت أمّ العملاق، على علم بأنّه يأكل السيّارة؟

twitter @baghdad_library

60 سنة **الاثنين 10 أكتوبر 1983**

عيد ميلادي. لماذا نخصّ العشريات بهذا القدر من الاحتفاء؟ لقد جمعت مونا التابعينَ وتابعي التابعين. هل سيكونون بهذه الكثرة في جنازتي؟ يرى تيجو أنّ الاحتفاء يفرض نفسه بشكل مضاعف، لأنّ العشرية هي في الآن نفسه ولادة ودفن. قال رافعاً نخبي: كنت شيخاً خمسينياً وها أنت ذا صبيّ ستينيّ. صبيّ في عمرك الجديد. عِش! أطفئ شموعكَ السّتين. ها أنت ذا حيّ لعشر سنين جديدة!

60 سنة، 10 أشهر، 6 أيّام **الخميس 16 أغسطس 1984**

اِنسحاق الحصى تحت أقدامٍ تسير على غير هدى، ذاك الذي تناهى إلى سمعي من حديقة فندق ت. حوالي السّاعة الواحدة، بينما مونا نائمة لصق جسدي. ذاك الصّوت هو أحد الأصوات المهدّئة في حياتي.

61 سنة، 7 أشهر، يومان **الأحد 12 مايو 1985**

أمس بعد الظهيرة، اصطحبت غريغوار لمشاهدة فيلم غريستوك، وهو واحد من تلك الصيغ التي لا تحصى لقصّة طرزان. غريغوار سعيدٌ، وأنا متأثّر بالمشهد الآتي: اللورد غريستوك، الجدّ الذي يدلّل حفيده طارسانج، الرّجل زان (النكتة قديمة قدم الدهر، بيد أنّ غريغوار يحسب أنّي أوّل من يحكيها)، قلنا اللورد غريستوك يضع فرشاته في وعاء قهوة، ثمّ يرشّ المسحوق على وجهه. جرّبت الأمر بنفسي هذا الصّباح. النتيجة مدهشة. تنغلق مسام الجلد على

المسحوق، وتحتفظ بنكهته لمدة عشرين دقيقة تقريباً. بشرة أطفال معطّرة بالقهوة. مونا سعيدة، ترى أنّي أزداد رهافة أكثر فأكثر.

61 سنة، 7 أشهر، 17 يوماً الاثنين 27 مايو 1985

حادثة غبيّة. بمناسبة عيد العنصرة، كنا نشرب الشّاي عند السيّدة ب. وهي صديقة قديمة للمرحومة أمّ مونا، تشارف سنتها الثانية بعد المائة. تملك السيّدة فيلا على النّمط الفكتوري الجديد. قدّمت لنا الشّاي تحت شجرة دلب مزروعة وسط ملعب تنس! المدهش في الأمر، هو استمرارهم في العناية بالملعب، في العناية بالأرض المضروبة على الطريقة القديمة، والخطوط مرسومة جيداً، وكأنّ لا شيء هناك. شربُ الشّاي تحت تلك الشّجرة معناه أن يدخل المرء حيّاً إلى إحدى لوحات ماغريت. المهم أن لا تبدي عجبك. لأنّه حين يتساءل أحدهم متعجّباً، تجيبه السيّدة ب. وما العمل؟ لقد رحل كلّ رجال حياتي، فما عاد الملعب يصلح لشيء، ونبتت هذه الشجرة هنا. على المرء أن يتقبّل أنّ ثمّة من يرحلون مثلما يقبل من يختار الإقامة عنده. خلاصة القول، كنّا نرشف الشّاي، حين دخل كلب إلى الحديقة. لمحته السّيدة العجوز بطرف خفيّ، فاستاءت. من يخلّصني من هذا الحيوان؟ وهنا وقعت الحادثة. وثبت على قدميّ، وتقدّمت نحو الكلب محرّكاً ذراعيّ بقوّة، بيد أنّ حاجزاً لا مرئياً أوقف حماستي على مستوى الجبهة. تراجعت ساقيّ إلى الخلف، وسقطت على ظهري. ارتطمت يداي وجمجمتي بالأرض بعنف. لحظات دوار، ألم متصاعد على امتداد الجبهة، وما إن استعدت وعيي، حتى ألفيتني معمياً بغشاوة من دم. قدمت لي مونا

twitter @baghdad_library

بعض الإسعافات الأوّلية، ومسحت وجهي. التفسير: كانت العقبة التي اصطدمت بها سلكاً يمتدّ بارتفاع قامة رجل، من بقيّة الحاجز الذي كان يفصل ملعب التنس. وإذ ذاك لاحظت يدي. كانت أصبعي الوسطى تشير إلى السّماء، بشكلٍ متعامد مع راحة يدي. لا يمكن إعادتها إلى مكانها. جزء من جسدي خارج الصّف. قالت منى: لا بأس، لقد كُسرت أصبعك. إلى المستشفى: دهشة طبيب الحراسة من كثرة الأضرار. ما الذي وقع لك؟ من الصعب شرح الأمر بكلمات متفرّقة: الشّاي، التنس، ماغريت، الكلب، العجوز، السّلك، باختصار إنّها أكبر كارثة يتسبّب فيها الشّاي في تاريخنا المعاصر. حقنة ضدّ الكُزاز (السلك كان صدئاً)، وثمان غرز على مستوى الجبهة. هل أرادوا سلخ فروة رأسك؟ أجروا تصويراً بالصدى لجمجمتي، ثمّ وضعوا لي ضماداً على شكل هرمي حتّى يثبت فوق هضبة جبيني. وأجروا تصويراً آخر ليدي. الأصبع غير مكسورة، وإنّما فقط تزحزحت من مكانها، أعادوها إلى موضعها (بحركة قاسية قليلاً)، ثمّ وضعوا لها ضماداً.

فيما بعد سألتني مونا عمّا دفعني إلى الوثب بتلك الطريقة.

- كنت أشعر بالملل قليلاً.

- كان يمكن لذاك السلك أن يقطع رأسك.

61 سنة، 7 أشهر، 22 يوماً **السبت فاتح يونيو 1985**

في المشهد الأخير من فيلم غريستوك، يموت اللّورد العجوز، في ليلة ميلاد، بينما يتزحلق على سلالم القصر جالساً على صينيّة فضّة كبيرة، يجعلها كالمزلاج. عندما كان صغيراً، كان يتزحلق على

الصينية نفسها، يجوب كلّ الأزقّة منطلقاً من روض الأطفال؛ لكنّ سنّه ما عادت تسمح. لم يعد يستطيع التّحكم في المسار، فمات عند أحد المنعطفات. اِصطدمت رأسه بعمود خشب. حزن طرزان كثيراً (وحزن معه غريغوار). راح اللورد المسنّ ضحيّة هجوم طفولةٍ. وذاك ما وقع لي أمس، حين حاولت فجأة أن أخيف الكلب. كثيراً ما تثب الطّفولة فيّ. تبالغُ في تقدير قوايَ. جميعنا عرضةٌ لانبثاق الطّفولة. حتّى الأكبر سنّاً. يطالب الطّفل فينا حتّى آخر أنفاسه بجسده. لا يستسلم. يقوم بمحاولات استعادة، مثل الغارات، لا تكاد تُحسّ. والطّاقة التي أبذلها في مثل تلك اللحظات هي طاقة تنتمي إلى زمن آخر. تذعر مونا حين تراني أجري كي ألحق بالباص أو أتسّلق شجرة كي أطال ثمرة بعيدة المنال. لا أخافُ لأنّك تقوم بذلك، وإنّما ما يخيفني هو أنّك، قبل لحظات فقط، ما كنت تفكّر في القيام بذلك.

61 سنة، 7 أشهر، 27 يوماً **الخميس 6 يونيو 1985**

نزعوا الغرز عن جبيني. ترك أثر الجرح هالة ورديّة في جبيني. قال غريغوار: كأنّما قام أحدهم بفتح جمجمتك كي يرى ما يوجد بداخلها. وفي وقت لاحق، في الظّهيرة، فوجئت مونا بطريقة مشي غريغوار. أشارت لي كي أنظر إليه عبر النّافذة. كان يلعب مع كوبيك. كانت مشيته بطيئة ومختلّة، كأنّما فقد توازنه. دهش الكلب لمرأى سيّده يتعثّر في مشيته. ركضت مسرعاً نحوه؛ فقال لي وهو يشير إلى أثر الجرح على جبيني: أنا حفيد فرانكنشتاين.

twitter @baghdad_library

62 سنة، 29 يوماً **الجمعة 8 نوفمبر 1985**

هذا الصباح، نسيت الرمز السريّ لبطاقتي المصرفية الزرقاء. لم أنسَ الرمز فقط، وإنّما أيضاً الأمارات التي من المفترض أن تذكّرني به. ركّبت الأرقام سريعاً أمام موزّع النّقود الآلي. أخطأت الرّقم تماماً. محاولة جديدة؟ أيّة محاولة؟ لا أذكر شيئاً. لا أملك أيّ سبيل للتذكّر. وكأنّما الرّمز لم يوجد قط، بل إنّ الأمر أنكى من ذلك، وكأنّما هوْ يوجد في مكان بعيد ولا سبيل لي إلى الوصول إليه. اِعتراني اضطراب ممزوج بالغضب. بقيت على الرّصيف أمام الآلة، لا أعلم ما عليّ فعله. خلفي النّاس يفقدون صبرهم. أعادت لي الآلة بطاقتي. قلت: لقد جنّت الآلة. أحسستُ بالمهانة وأنا أضطرّ إلى النطق بتلك العبارة! اِنصرفت محاذياً السّور. لقد أضعت كلّ شيء: ذاكرتي، كرامتي، تحكّمي في نفسي، نضجي، لم أعد سيّد ذاتي. ذاك الرّمز كان أنا. أعدت السيّارة وقرّرت الذهاب إلى المكتب مشياً. الغضب والمهانة يجعلانني أسير بسرعة، أقطع الطريق والضوء أخضر. أبواق السيّارات تنطلق. مستحيل أن أتعقّل. مستحيل أن أعزو ما حدث إلى أسبابه الطبيعيّة: اِنقطاع في التيار، لن تكون له آثار طويلة الأمد. وأنا أكتب هذه الأسطر (وقد عاد الرّمز من تلقاء نفسه ليحتلّ مكانه داخل ذاكرتي) لا تسعفني الكلمات في وصف الذّعر الذي أحسسته بسبب ذاك النّسيان القصير الأمد.

62 سنة، شهر واحد **الأحد 10 نوفمبر 1985**

ذاك الاختفاء المفاجئ لإحدى المُعطيات المكتسبة، رمز بطاقتي

المصرفية الزرقاء، قنّ أبواب أصدقائي، أرقام الهواتف، الأسماء، تواريخ الميلاد. . . إلخ يقصفني كَنَيْزك. المفاجأة، أكثر من النسيان نفسه، هي ما يخسف كوكبي بأكمله. باختصار، لا أستطيع التكيّف مع الأمر. في المقابل، لا يدهشني أنّي أستطيع الإجابة عن كلّ أسئلة البرامج التلفزيونية أو الإذاعية التي أنصت إليها بأذن مشوّشة. غريغوار: أنت تعرف كلّ شيء يا جدّي؟ تتذّكر حقاً كلّ شيء؟

62 سنة، 4 أشهر، 5 أيام السبت 15 فبراير 1985

عن الحلاقين. في سنيّ شبابي ما كان الحلاقون يدلّكون الرّأس، كانوا يغسلون الشّعر بشدّة، قبل أن يسرّحوه بالفرشاة، ويضعون عليه البنتو «le pinto»، وهو غراء في شكل عِصيّ، يضمن بقاءه صلباً حتّى الحلاقة الموالية. (البنتو لم يظهر إلا لاحقاً، في السنوات القليلة التي تلت الحرب). وعلى أيّ، لقد تأنّثت المهنة، وصارت بالتالي أشدّ رهافة، وصاروا الآن يغسلون الشعر وتدلّك الرأس أصابع ماهرة. وتلك لحظة استرخاء، كلّما كانت فيها يد الفتاة التي تدلك الرّأس ماهرة، كلما صارت الأحلام ممكنة. حتّى أحسب أنّي همست لإحداهنّ وأنا على حافة الانتشاء: أرجوك كُفّي. سألتني الحلّاقة الشّابة بسذاجة: ألا تحبُّ أن تدلّك؟ وأحسب أنّي تمتمت قائلاً: بلى، بلى، كلا، كلا. وعندما أقول إنّها سألتني بسذاجة، فلست أصدّق شيئاً من ذلك، إذ لو أنّي كنت فتاة ومدلّكة شعر لاستمتعت كثيراً بمنظر أولئك الرّجال الذين ينساقون لمهارتي، والذين تمنعهم وضعيتهم على الكرسيّ من أن يضعوا أيديهم على سدّادات سراويلهم، عيونهم التي تهيم خلف حركات أصابعي.

twitter @baghdad_library

وأثناء لحظات مرحهن معاً، لا يستبعد أن تكون تلك الفتيات ينظمن مسابقات للتّخلص من تعب اليوم: كم ثانية احتجتِ لينتصب زبونك بين يديك هذا اليوم؟

62 سنة، 9 أشهر، 16 يوماً السبت 26 يوليو 1986

قلق راسخ طيلة الصباح. دفع ثمنه غريغوار. كدت أقفز حين سألني -بينما نتسوّق- باكياً، عما إذا كنت غاضباً منه. أيّ سحنة اتّخذتها إذن؟ أيّ سيماء تأنيب؟ أيّ قناع كره؟ وكم دام الأمر؟ وبالمناسبة أيّ سحنة نتّخذها حين نقطّب؟ وأيّ سحنة تكون لنا حين لا نكون مقطّبين[1]؟ إنّنا نعيش خلف وجوهنا. وما يراه الطّفل في وجه البالغ هو مرآة. وفي حالتي، ما يراه غريغوار هو انعكاس لذنبه المجهول.

- ماذا فعلتُ؟

- ماذا فعلتَ؟ اِستحققتَ مثلّجات، هذا ما فعلتَه. بأيّ نكهة تفضّلها؟ فانيلا؟ شوكولا؟ فراولة؟ فستق؟

- بندق!

ومثلّجات بالبندق لشخصين، لشخصين!

من الإحساس بالقلق إلى الإحساس بالذّنب... وعندما حكيت لمونا ما وقع، أخبرتني أنّ الفعل «أحسّ بالذّنب» «culpabiliser»

(1) هنا يلعب بيناك على كناية فرنسية تقول لمن يبوّز أو يقطّب أو لا يبدي أيّ تفاعل ﴿هو يتّخذ أو يقوم بالرّأس/السّحنة﴾، فتكون التّرجمة الحرفية المضبوطة تبعاً لما سبق هي: أيّ سحنة نتّخذها حين نتّخذ السّحنة، وأيّ سحنة نتّخذها عندما لا نتّخذ السّحنة. (م)

استقرّ في اللّغة الفرنسية سنة 1946، ونقضيه «déculpabiliser» سنة 1968. عندما يتحدّث التّاريخ عن نفسه...

62 سنة، 9 أشهر، 17 يوماً الأحد 27 يوليو 1986

بوسع الآخر أن يكون دواءً شافياً من القلق، شرطَ أن يكون غريباً عنّا، ولامبالياً بنا. ليس ثمّة يوم عمل واحد لا يقضي على قلقي، فما إن أخطو عتبة المكتب حتّى ينتصر الرّجل الاجتماعيّ على الرّجل القلق. أصيرُ فوراً عند مستوى تطلعات الآخرين: الانتباه، النّصائح، التّهاني، الأوامر، التشجيعات، الدعابات، الشجارات، المهادنة... أصير محاوِراً، شريكاً، منافساً، مرؤوساً، رئيساً طيّباً أو شريراً، أحلّ في صورة **النّضج**. لطالما قضى الدّور على قلقي. أمّا الأقارب، ذوونا، فيصطدمون بجميع الأجساد، لأنّهم تحديداً ذوونا، لأنّهم جزء منّا، ضحايا استرضاء ذاك الصبيّ الذي نظلّه طيلة حياتنا. غريغوار هو مَن دفع ثمن استرضاء الصبيّ ذلك اليوم.

62 سنة، 9 أشهر، 23 يوماً السبت 2 أغسطس 1986

عندما أتحدّث -في كثير من الأحيان- عن القلق، في هذه المذكّرات، فإنّي لا أقصد الحديث عن الرّوح، ولا أسعى حتّى إلى الحديث من وجهة نظر نفسيّة. وإنّما أظل داخل سجلّ الجسد، ذاك القائد الطائع الذي يقود الأعصاب!

63 سنة الجمعة 10 أكتوبر 1986

تبوّلت في إحدى مقاهي شارع لافاييت. اِنطفأ الضوء مرّتين

twitter @baghdad_library

بينما أبول. تساءلت على أي أساس يتمّ احتساب معدّل الزّمن الكافي للتبوّل، والذي انطلاقاً منه تتمّ برمجة الأضواء لتنطفئ. هل كنت بطيئاً أكثر من اللازم؟ هل كنت فيما مضى أتبوّل أسرع من هكذا؟ اللّعنة على الشّباب الذي تمسّ عدواه كلّ شيء، حتّى صناعة طواحين الوقت هذه! ملاحظتي تسري أيضاً على عدّادات السلالم وأبواب المصاعد التي صارت تقفل بوتيرة أسرع فأسرع.

63 سنة، شهر واحد، 12 يوماً السبت 22 نوفمبر 1986

ماذا سأفعل بقلقي حين أبلغ سنّ التّقاعد؟ لن يبقَ ثمّة لا رئيس ولا مرؤوس: من سيحارب العوسج الوجوديّ حين سأحرم من هذه الشركة التي لا أبالي بها، لا مبالاة لا غنى لي عنها.

63 سنة، 6 أشهر، 9 أيام الأحد 19 أبريل 1987

خدشت مارغريت ركبتها عندما سقطت على الحصى. نظّفت جرحها متوسّلاً بتقنية فيوليت: الصراخ بدل المصاب. لم تحسّ مارغريت بشيء، لكنّي حين انتهيت من وضع الضماد، قالت بلامبالاة قاتلة، كأنّما قد أفيد من ذاك المعطى الموضوعي: جدّي، أحسب أنّك مجنون. صادقَت فاني على كلامها.

63 سنة، 6 أشهر، 11 يوماً الثلاثاء 21 أبريل 1987

ربلة ساق مارغريت في يدي، وحدسي بأنّ هذه الطفلة القصيرة البدينة ستصير فتاة طويلة القامة.

63 سنة، 11 شهراً، 7 أيام الخميس 17 سبتمبر 1987

فحص عين في عيادة الدّكتورة ل. م. نبّهتني إلى بداية إصابتي بالماء الأبيض. سيتطور المرض على امتداد اثنتا عشر أو خمس عشرة سنة، إلى أن يصير لا مندوحة لي عن إجراء عمليّة. أمّا الآن فلا أثر للمرض على بصري، وما زلت أرى بالوضوح نفسه الذي كنت أرى به من قبل. ما زلت تملك الوقت. ثمّ إنّ هذه العملية لم تعد ذات شأن في عصرنا، إنّها مجرّد شكليات. (زارني طيف العمة ناومي، بشقّتها في شارع شانزي، تحسّباً للعمى الذي يترصّدها، كانت تتمرّن على المشي مغمضة العينين، لكنّها حين أصيبت فعلاً بالعمى ما عادت تستطيع المشي).

64 سنة، شهر واحد، 11 يوماً السبت 21 نوفمبر 1987

وأنا ذاهب لإحضار نتائج التحاليل التي طلبها الدكتور ب. اِنتبهتُ إلى أنّي لم أخصص أيّ حيّز في هذه المذكرات للحديث عن تلك اللّحظة المهينة المتمثّلة في فتح مظروف التحاليل. وهو سهو يبيّن قدر المهانة التي أحسّها في لحظة الرّعب الخالص تلك. لو أنّ أولئك الذين يحسبونني رئيسهم، في المكتب، رأوني وأنا أفتح مظروف التّحاليل! آه! رئيسنا الذي لا يعرف الخوف، بطل المقاومة، قائد الحشود الرّوحي! صبيٌّ يتعلّق بمظروف، وفي جوفه رعبُ مفكِّك ألغام. إنّه لغم مضاد للشّخصية، ذاك الذي يتعيّن عليّ فكّه في كلّ مرة أفتح فيها مظروف تحاليل. عاجلاً أم آجلاً سينفجر المظروف في وجهي: «تجدون هنا طيّاً شهادة وفاتكم». فليس ثمّة من عدوّ أشدّ

twitter @baghdad_library

ضراوة من العدوّ الذي يسكننا. وما إن يفتح المظروف حتّى تتعلّق عيني بالسّطرين الأوّلين: الكريات الحمراء والكريات البيضاء (أوف! إنّهما في المعدّل المتوسّط، لا أثر لالتهاب شامل)، ثمّ أقفز إلى أسفل الصّفحة الأخيرة، إلى علامة البروستات، التي يشار إليها بـPSA، الرّقم المفضّل عند الرّجال الستّينيين. 1,64! 1,64، بينما كانت السّنة الماضية في الفترة نفسها 0,83، لا تزال في المعايير العادية، لكنّها تضاعفت مع ذلك! تضاعفت في سنة! إن تأكّد ميل انتفاخها إذن، ستبلغ السنة القادمة 3,28، والسنة التي بعدها 6,56، ثمّ تنفجر انفجاراً سرطانياً يبلغ مداه حتّى دماغي! إنّ القنبلة هنا، مخبّأة جيّداً وموقوتة كي تنفجر في الوقت المناسب. وماذا لو لم يكن الأمر يتعلّق بالبروستات! ماذا لو أنّي مخطئ في تقدير خطر البروستات وحدها؟ ماذا عن نسبة السّكر في دمي؟ ثمّة خطر السّكريّ أيضاً. نسبة الغليكوز 1,22 g/l مقابل 1,10 السنةَ الماضية (وهو رقم يفوق المعدّل أصلاً!)، وفي ارتفاع مطّرد منذ سنوات، ما يجعل السكريّ يتربّص بي. حقنٌ يوميّة، فقدان البصر، بتر الأعضاء (المسكين، عاجز...)... زِد على ذلك معدّل الكرياتنين الذي لا يمكن الاعتماد عليه، ما يجعلني لا أستبعد هلاك كليتاي، واضطراري إلى القيام بتصفية الدّم ما تبقى من عمري. مُقعد أعمى يصفّي دمه، يا له من نهاية! ومع ذلك ينبغي أن أفتح المظروف مبتسماً؟

64 سنة، 6 أشهر، 4 أيام الخميس 14 أبريل 1988

هبوط صعب في مطار فانكوفر، ثُقبت درّاجة الهبوط، فانحرفت الطّائرة عن المسار، انقلب الرّكاب رأساً على عقب، وتناثرت

الأمتعة، وساد الاضطراب الجميعَ. . . إلخ. خرجت من الحادث دون كدمات، ودون خوف أيضاً. كيف لنا مع كلّ الجبن الذي يميّزنا أن نسلّم حياتنا لأشياء (طائرات، قطارات، قوارب، سيارات، مصاعد، بوابات كبرى) ليس لنا أن نتحكّم فيها؟ لا ريب في أنّ عدد المستعملين يسكِت قلقنا. نثق في ذكاء النّوع. ساهمت أدمغة كثيرة في صنع هذه المركبة، ويومياً تسلّم العديد من العقول النّقدية جسدها إليها، لمَ لا أفعل مثلهم إذن؟ وتنضاف الإحصاءات إلى ما سبق: نسبة خطورة عبور الشّارع أكثر من نسبة خطورة ركوب واحدة من هذه الآلات. ينبغي للمرء أن يحسب الحسابات حتّى مع القدر. لا يغضبنا تسليم مصائرنا لصُدف الميكانيكا. لأدع براءة الآلة تقرّر مصيري بدلاً من خلاياي المشبوهة. من الآن فصاعداً، سأفتح مظروف تحاليلي على ارتفاع أحد عشر ألف متر، وليكن إن أمكن داخل تيّار جويّ، وفي طائرة مشتعلة.

64 سنة، 6 أشهر، 5 أيام الجمعة 15 أبريل 1988

ذكرى تلك المحاورة مع ب. ب. مهندس تجارب الطيران، الذي قضى عمره في اختبار الطائرات. قال لي: ينبغي أن يكون المرء مجنوناً كي يقبل الصعود إلى طائرة. تعرف ما الذي نفعله عندما تهتزّ إحدى الطائرات في الجوّ حتّى لتكاد تنفجر؟ حسنٌ، إنّنا نحطّمها، نحطّمها ونصنع أخرى مطابقة تماماً للطائرة المحطّمة. وافهم أنت لمَ لا ينبغي أن تهتزّ الطائرة الجديدة كما اهتزّت سابقتها. ثمّ أضاف مجملاً القول: أمّا أنا، فكلمّا نزلت من طائرة، لا أقول مثل باقي الرّكاب: لقد وصلت، وإنّما أقول: لقد نجوت.

twitter @baghdad_library

64 سنة، 10 أشهر، 12 يوماً الاثنين 22 أغسطس 1988

صادفت في التّاريخ الطبيعي لِبلين هذه المعلومة: أثناء العراك، يحبس حيوان الغُرير أنفاسه كي لا يحسّ بالجراح التي يسبّبها له خصمه. ذكّرني الأمر بذاك التمرين الذي كنت أمارسه في طفولتي، والمتمثّل في حبس أنفاسي أثناء مروري بين نباتات القرّاص، حتّى لا تخزني أشواكها. روبير هو من لقّنني ذلك. حكيت ذلك لغريغوار. فلم يجد ما يجيبني به غير: إنّه الجانب الذي تشبه فيه الغرير يا جدّي.

64 سنة، 10 أشهر، 14 يوماً الأربعاء 24 أغسطس 1988

غريغوار منهمك تماماً في قراءة توم سويور وهو ينظّف أنفه... منخريه؟ مغارة جُو الهنديّ. قطع مخاطه؟ الكنز الذي خبّأه هناك. مثلي، سيربط غريغوار طيلة حياته لذّة تنظيف منخريه بلذة القراءة.

64 سنة، 10 أشهر، 20 يوماً الثلاثاء 30 أغسطس 1988

يقول بلين -دائماً هو- إنّ الرّومان كان ممنوعاً عليهم الجلوس في الأماكن العامّة مشبكين سيقانهم. أعادني قوله ستّين عاماً إلى الوراء. كنت أرتدي تبّاناً (أو لعلّه دودو من كان يرتديه؟) وما كان أبي قد **قُضم** تماماً بعدُ **من الدّاخل**. كان عندنا ضيوف يشربون الشّاي، ومثل جميع الكبار الجالسين حولي، جلست مُشبكاً ساقيّ. فصرخت أمي: اِجلس كما ينبغي! ليس من اللائق أن تجلس بساقين مشبوكتين! مساءً، على سريري، جربت الأمر مجدّداً، فاكتشفت أنّ عضوي يتلذّذ حين أجعله بين ساقيّ المشبوكتين وأحرّكه بأصابعي جيئةً وذهاباً.

لطالما أذهلني تيجو، ذو القامة القصيرة والذي لا يشبه في شيء **قويّ بنتيول**[1]، بقوّة عضلاته وسرعته وسداده ودقّتها الشبيهة بدقّة وحش. أمس أخذنا فاني ومارغريت في جولة على ضفاف نهر السين. أخذ طائر نورس يتلهى بالتّحليق قربنا، مرّة، مرّتان، وفي الثالثة رفع تيجو ذراعه وأمسكه في الهواء. انقطع مسار تحليق الطّائر، وارتسم الذّهول في عينه. (ذهولٌ من ذاك الذي نشاهده في الرّسوم المتحرّكة غلوب (Gloups)) تأمّل هذا الجمال! إنّه يغازلني، إنّه يغازلني، ويحسب أنّ ليس ثمّة مجازفة في الأمر. حكّ تيجو أنفه مع منقار الطائر، ثمّ أراه للتوأم اللتين داعبتا ظهره، وأطلقه. حلّق الطائر دائخاً قليلاً، لكنّه لم يكن مصاباً. أكملنا جولتنا ونحن نستحضر بعض الدّعابات، الجسديّة، التي كان يدبّرها لي تيجو عندما كنّا طفلين. من تلك الدعابات، هذه التي قام بها أيّام كان في سنّ البنتَين تقريباً. كنت أقبّل ماريان في برياك، حين هبط علينا فجأة من شجرة تين صائحاً: الموت للألمان، تحيا الثورة! (كنّا في صيف عام 1943) شنّ علينا غارة بسرعة البرق. والوقت الذي استغرقته كي أبلغ شجرة التّين وأضربه، كانَ قد أصاب عيني وجبهتي وفكّي، واختفى. ما عاد بإمكاني تقبيل ماريان، كنت دبقاً لدرجة أنّي صرت أجذب الدّبابير التي تصيبها بالهلع. كان عليّ أن أغتسل من رأسي إلى قدميّ، وأن أضع ملابسي في الغسّالة. ففي نهاية الصّيف يكون

---

(1) إشارة إلى فيلم المخرج الفرنسي غي لاكور **قويّ بتنيول**. (م)

twitter @baghdad_library

التين كثيفاً ورخواً في آن، لذلك انفجرت التينات التي ألقاها عليّ تيجو كالعبوات، وانتشر عصيرها في كلّ الأنحاء. زِدْ على ذلك البذور التي التصقت بشعري، وتلك المزق الملتصقة بجلدي كالجروح المدمّاة! الرّجم بالتّين يشبه الطّلي بالقار الذي كان يمارس في الغرب الأميركي. كان انتقامي رهيباً. كان نازيّاً حتّى أكون صادقاً. عاقبته ببرودة المحتلّ. جهّزت ذخيرتي وأمسكت به في الوقت الذي لم يكن يتوقّع أن أمسكه فيه (كان ذاهباً يوصل الحليب إلى منزل دوفيي)، ربطته إلى شجرة بلوشا وتلوت عليه -بالألمانية!- حكم إعدامه. صاح: عاشت فرنسا! وبينما أرميه برصاصي، أظهر ثباتاً وتحمّلاً يعادلان ما أظهره **جنديّ أندرسن الصّغير** الذي قرأت له حكايته في الليلة السّابقة. إذ كان المسكين يحسب أنّ العقوبة ستتوقّف عند ذاك الحدّ. كان مخطئاً. فبعدما حوّلته إلى جرّة مربّى أطلقت سراحه، أغطسته في الحوض وفركته من رأسه إلى قدميه. صار أقلّ ثباتاً وتحمّلاً، إذ لم تكن النّظافة ممّا يطيقه، كما أنّ العائلة ما كانت تهتمّ لأمره حقاً. كان الماء بارداً، وأخذت أسنان الضحيّة تصطك لدرجة أنّ الجلاد نفسه أحسّ بالأسى.

سألته مارغريت: أما كنت تحبّ أن تستحمّ عندما كنت صغيراً؟ فأجابها وهو يرتفع على أصابع قدميه: أنا كنت صغيراً؟ لم أكن صغيراً قطّ!

*

إلى ليزون

في العمق يا عزيزتي أجد من الطرافة تدوين هذه المذّكرات طيلة حياتي، لكنّ هذا لا يعني أنّي أحسبها أمراً طريفاً.

7

65-72 سنة

(1996-1989)

كان عليّ أن أدوّن مذكّرات نسياني.

twitter @baghdad_library

65 سنة، 9 أشهر، يومان الأربعاء 12 يوليو 1989

جرحت إبهامي بينما أحاول إصلاح عجلة دراجة غريغوار. أصلحت الإطار الداخلي كما ينبغي وإذ هممتُ بإدخال الإطار الخارجي إلى حوافّ العجلة انزلق مفتاح البراغي وأصاب إبهامي بجرح غائر مثل ملقاط الحدّاد. نزفت كثيراً وشعرت بألم مبرح. ألم من تلك الآلام التي تصيب القلب. وإذ كان اليومُ يومَ أحدٍ اقترح عليّ غريغوار الذهاب عند والد صديقه ألكساندر، وكان طبيباً. إستقبلني الطبيب كما يليق، وباشرَ عمله. لا شيء خطيرٌ، فالأعصاب لم تُمسّ. على أنّ بعض الغرز ضرورية لتقطيب الجرح. حسناً. دون أن يرافقه ألكساندر، وجد غريغوار أنّ حضور عملية خياطة الجرح «أمر مثير للاهتمام». أخرج الطبيب الطيّب حقنة بنج ليخدّر أصبعي. رفضت، متحجّجاً بأنّنا مستعجلان، وبأنّ غريغوار يلزمه اللّحاق بانطلاقة سباق دراجات يتوقّف عليه مستقبله. هل أنت متأكد؟ تريد الخياطة دون بنج؟ إنّ الأصبع منطقة حسّاسة، لو تدري! لا تقلق، سأكون على ما يرام. غرز الطبيب الإبرة مرّة أولى، ثمّ ثانيةً، وفي الثالثة فقدت الوعي. لقّنني ذلك درساً سأتذكّره كلما

twitter @baghdad_library

نازعتني نفسي إلى لعب دور الجدّ البطل أمام غريغوار الذي لم يكن ينتظره أيّ سباق. لا ريب في أنّي كنت لأقبل البنج لو أنّه لم يكن بصحبتي.

وفي طريق العودة أعلمني غريغوار بقراره أن «يكون طبيباً» حين يكبر. وإذ سألته دوافع هذا القرار المفاجئ ردّ عليّ: لأنّني لا أرغب في أن تموت. مؤكّد أنّ إجابته أصابت قلبي مباشرة، فخفّفت من نبض إبهامي. (الأصوَب كتابة: أصابت إبهامي مباشرة، فخفّفت من نبض قلبي.) آه! تلك السعادة التي تغمر الشّخص البالغ أمام صدق عاطفة الأطفال! وإذ فكّرت في الأمر مساءً، قدّرت أنّ السعادة ستصير حزناً، ذاك الحزن الذي سيشعر به غريغوار حين يقف على قبري لاعناً عجزَ مهنته. فأنا أيضاً عندما كنت في سنّه حسبتُ نفسي ضامناً الخلودَ. لم أرد أن تموت فيوليت. فإذ كانت تترصّدها أنفاس موت ملازم -«رغم كلّ ما تبذله من جهد، لن تعمّر طويلاً!»- خلتُ أنّي بحبّي لها سأمنحها الخلود. كانت دوالي قدميها، ووزنها، وشفتها المبتلّة، وداء الورديّة الذي ألمّ بها، وأنفاسها القصيرة، وسعالها الحادّ، وما تسميه أمّي «ريحها المؤذية»، كلّ تلك الأشياء كانت لا تبشّر بعمرٍ مديد. بيْد أنّي ما كنتُ أرى الأمر على ذاك النّحو. فقد كانت فيوليت هي الجسد القويّ في الخفاء، الجسد الذي انبثق عنه جسدي. لقد كبرتُ تحت جناحها العَطِر. لقد نهلتُ إرادتي في الحياة من قوّة وجودها، ومن شجاعتها تغذّت حماستي في هزم مخاوفي، وكلّ حاجتي في تقوية عضلاتي كانت نابعة من رغبتي في إثارة إعجابها. بفضلها، وبفضل نظرتها، كففتُ عن أن أكون مجرّد شبح عن أبي؛ بفضلها ما عدتُ أصطدم بالأثاث، ولا

عدت أغرق في ظلي، وما عادت المرايا تخيفني: من صبيّ هشّ صنعت فيوليت قردَ أشجار وسمكة أعماقٍ وأرنبَ سباق. كنت «صغيرها الجسور» الذي تغلّب تماماً على الخوف، صغيرها الذي يستطيع القفز إلى الماء من أعلى الصخور، ولا يرتجف حين يمسك سمكة حيّة بيده. وحتّى بعد غيابها كنت أفرض على نفسي امتحانات تصبو إلى نيل رضاها: أن أداعب كلباً هيّجه القيد، وأن أقصد مدن الملاهي وسيارات الصِّدام، وأركب قطار الأشباح والسّجن الكبير؛ كلّ تلك الأشياء كانت فخاخَ رعبٍ تحرمني من رفقة دودو، في لحظات يبلغ فيها القلق مبلغاً يصير معه حضور دودو ضرورياً. أجل، أن أقتنع بأن دودو كان مجرّد أخ صغيرٍ نسجه خيالي، ذاك أيضاً أمرٌ استطاعت فيوليت أن تضطلع به! لقد منحتني فيوليت الإذن بالحياة. وتحت حمايتي ما كانت لتموت! لكن فيوليت ماتت.

65 سنة، 9 أشهر، 3 أيام — الخميس 13 يوليو 1989

وإذ أسترجع اليوم كلّ ذلك، أرى أنّ فيوليت هي مَن أورثني الرّغبة في أن ألتحق بالدّاخلية: ها أنت ذا يا صغيري الجريء، بعدما نبت العشب حول نافورتك، ينبغي أن تحبس نفسك في علبة. حتّى تستطيع الدراسة بالفعل! وحتّى لا تضيع استحقاقاتك! سترى كيف سيروقك الأمر. ستحلّق عالياً جداً!

65 سنة، 10 أشهر — الخميس 10 أغسطس 1989

ذكرى مانيس وهو يلقي بي في الماء كي أتعلّم السّباحة، في حين لم يكُن يجيدها لا هو ولا فيوليت. دع جسمك يتراخى، مثلما

twitter @baghdad_library

يفعل ألبير حين يسقط عن كرسيّه (ألبير كان هو سكّير ميراك) وستطفو مثل تلك الفلينات. ولثقتي المطلقة في فيوليت كنت أرخي جسمي بأكمله، فأطفو على سطح الماء، ثمّ أشرع في تنفيذ الإشارات التي تمليها عليّ فيوليت، تنفيذاً يراوح ما بين الجيّد والسيئ بينما جسدي معلّق على ذراعي مانيس المفرودتين، كذراعي الخادم الضّخم. إِسبح كالضفدعة، تقول لي فيوليت، لا تقل لي بأنّك لا تستطيع أن تسبح أفضل من ضفدعة؟ تقليد زائف للضفدعة، هكذا تعلّمت السباحة. (وفيما بعد أتى الدّور على دروس فرمانتان النظرية). مانيس، القِ بي إلى الماء! لا تلق بي حيث المعشبات، فهناك تستطيع أقدامنا أن تمسّ الأرض! الق بي في الخضمّ! غداً ستلقي بي هناك، اِحلِف! ولمَ لا تلقي بنفسك بنفسك؟ لأنّي خائف يا باردي! يتحوّل الخوف بشكل رائع إلى ابتهاج، القِ بي أبعد، القِ بي أعلى، هيّا، أكثر، أكثر؛ ثمّ ذاك القليل من التوجّس الذي يحوّل، في كلّ مرّة، خوفي إلى شجاعة، وشجاعتي إلى فرح، وفرحي إلى فخر، وفخري إلى سعادة. هيّا، أكثر! أكثر! هكذا يصرخ برونو أو ليزون أو غريغوار، كلّما ألقيت بهم أنا أيضاً في الخضم. أكثر! أكثر! تصرخ، اليومَ، فاني ومارغريت.

66 سنة، شهر واحدٌ، يوم واحد   السبت 11 نوفمبر 1989

ذاك النّسيان الذي يفصح عن نفسه أكثر فأكثر... التوقّف المفاجئ في وسط جملة، الصّمت البليد أمام غريب يصرخ باسمي، الحيرة أمام تلك المرأة التي أحببتها ذات يوم وما عاد وجهُها يعني لي شيئاً (على الرّغم من أنّهن لم يكنّ كثيرات، أولئك اللّواتي

أحببت!)، عناوين الكتب التي تُنسى ما إن تبرز الحاجة إلى الاستشهاد بها، الأشياء الضائعة، الوعود التي أعطيها ثمّ أُلام على عدم الوفاء بها. . . كلّ تلك المظاهر التي تصيبني منذ الأزل، كلّها مظاهر بغيضة. بيد أنّ أشدّ ما يثير سخطي هو وضعية الوحش المترصّد التي أصير إليها بسبب خوفي من نسيان ما **عليّ أن أقوله** أثناء حديث بالكاد بدأ! لم أثق يوماً في ذاكرتي. لا ريب في أنّي أذكر كلّ ما علّمني أبي في طفولتي، بيد أنّي أتساءل عمّا إذا كان تذكّر كلّ ذلك قد حدث على حساب الباقي: الوجوه والأسماء والتواريخ والأماكن والأحداث والقراءات والملابسات. . . إلخ. لقد أعاق هذا النّقص دراستي ومساري المهنيّ، دون أن يلحظ الأمر حقاً أحد. ففي الأحاديث كنت أخترع شروحاً حالما تعوزني كلمة مّا. كلّفني الأمر بين النّاس وصمة الثرثار. يجعلك الشّرح تتحدّث أكثر من مخاطِبك، تماماً مثل تلك الكلاب النبّاشة التي تحفر التراب فتقوم بما يساوي اثنتي عشرة مرّة جولة أصحابها.

لم تعد ذاكرتي اليوم تصلح لشيء، سوى تذكيري بأعطابها. تذكّر أنّك لا تملك ذاكرة!

66 سنة، شهر واحد، 21 يوماً الجمعة فاتح ديسمبر 1989

نمت جيّداً، ككلّ مرّة يهطل فيها المطر.

66 سنة، شهران، 15 يوماً الاثنين 25 ديسمبر 1989

عيد فصح مبالغ في الاحتفاء به. أكلت حتّى التخمة. ألححت في الأكل. وأنا أتحدّث وأضحك. أكلت كأنّي لا أزال شاباً. كان

twitter @baghdad_library

ثمّة ليزون وفيليب وغريغوار وبعض الأصدقاء. مونا تجاوزت نفسها. والنّتيجة: موجات حرارة ليلية، ودوار عند الاستيقاظ. كانت الغرفة بأكملها تلفُّ حولي. خصوصاً حينما أستيقظ. أما حينما أقوم فإنّ المنظر يثبت، لكن حذار من الأفعال الفجائية! فإنْ قمت أو جلست بغتة، يعاودني الدّوار. أنا محور غير ثابت، حوله يدور العالم. ماذا كانت تسمّى في طفولتي تلك البلابل المعدنية التي كنّا نرميها بواسطة خيط، فتدور حول ساق معدنية هي نفسها دوّارة؟

66 سنة، شهران، 16 يوماً الثلاثاء 26 ديسمبر 1989

المدوار (Gyroscope)! كنّا نسمّيها المِدْوار! وهذا الصبّاح لا يزال المدوار يلفّ فيّ، لكنّ المنظرَ ثابت.

66 سنة، 3 أشهر، 8 أيام الخميس 18 يناير 1990

ذاك الإحساس الخاطف بالدوّار الذي يتملّكني فوق قطعة جليد، مع أنّ قدمي لا تزلّ فوقها. أضع في البداية قدماً، ثمّ أضع الأخرى. وتبدأ ذراعي في البحث عن التوازن. على أنّ ملح البلدية يكون قد فعل فعله -فغدا الجليد محكوكاً وذا لون رمادي وغير مؤذٍ بالمرّة- ولا أسقط أبداً، لكنّي أحتاج إلى أن أبلغ أرضاً صلبةً، أن أبلغ تحديداً الرّصيف المقابل، حتّى أستعيد ثقة مشيتي. أنا إذن أملك «ثقافة دوار»، وككلّ حامل معرفة، أصير فريسة التأويلات الخاطئة.

66 سنة، 7 أشهر، 9 أيام السبت 19 مايو 1990

ما إن عاد برونو من الولايات المتّحدة حتّى تمّ استدعاؤه على

وجه السّرعة إلى المدرسة الإعدادية: غريغوار يمارس لعبة المنديل، وهي لعبة يتمّ فيها تقليد عملية الخنق، وسبق أن أوقعت عدداً من الضحايا. وطبعاً، غضبت الإدارة غضباً شديداً من غريغوار وشركائه. حتّى أنّهم هدّدوهم بالفصل من المدرسة. قلِقاً ممّا حدث، يتساءل برونو عن «غرائز القتل» التي باتت تجتاح الطفّولة المعاصرة، وضمنها غريغوار. ظلّ عاجزاً عن الكلام، إلى أن قال له غريغوار: لا شيء، الأمر ممتعٌ كثيراً فحسب! (إذ لم يكن يرى والده سوى مرتين أو ثلاثاً في السّنة، لم يكن ليقدم على الإفصاح عمّا يخالجه). أمّا أنا، فقد أعادني ما حدث إلى لعبة مماثلة كنّا نلعبها أنا وإيتيين عندما كنّا في سنّه. كانت اللّعبة نفسها في الواقع. ولو أنّنا ما كنا نحاكي الخنق وإنّما الاختناق، فإنّ الغاية من الأمرين سواء: أن تلهو مع حدود الإغماء، بل أن تتجاوزها. كانت اللّعبة تتلخص في قطع تنفّس الآخر بالضّغط على صدره، بينما هو نفسه يعمل على إفراغ رئتيه ما أمكنه الأمر؛ ولم تكن النتيجة تتأخر: إذ يسقط مغشياً عليه. إحساس لذيذ بالخدر ثمّ بالإغماء الخالص والبسيط. وما إن يقوم المغشي عليه على قدميه حتّى يُخضع رفيقه للمصير نفسه. كنّا نحب ذلك، نحبّ أن نغشي! هل كان الكبارُ على علم بالأمر؟ هل عرضت لنا حوادثُ؟ لا أذكر شيئاً عن ذلك. للعبة المنديل إذن سلفُها. ثمّة درس تشريح ينتظر أن أشرحه لغريغوار، درس عن الشرايين السباتية والأوداج... إلخ، حتّى يستطيع فهم خطورة الأمر. سألني لماذا الأمر ممتع على الرّغم من أنّه قد يكون قاتلاً. اِكتفيت بأن قلت له إنّ هذا يفسّر ذاك. تحدّثتُ عن الآثار الأخرى التي قد تنجم عن حرمان الدم من الأكسجين وما قد يعرض للدماغ جرّاء ذلك. الآثار نفسها

twitter @baghdad_library

التي قد تحدث أثناء ممارسة الغوص تحت الماء أو الارتفاع عالياً في السّماء، وهي ألعاب رياضية تتمّ في درجة قصوى من المراقبة. وإذ صرت مجدّداً مع برونو، سألته عمّا إذا لم يكن قد لعب في سنّ غريغوار لعبة مماثلة. مطلقاً! هيّا، هيّا، اعترف، ألم تمنح نفسك لحظات إغماء بواسطة سائل الإثير، مثلاً؟ يخيّل إليّ أنّني سبق أن شممتُ رائحة مماثلة في غرفتك... كفى يا بابا، لم يكن للأمر علاقة بما تقول! لكن بلى، بلى، ولقد كنت يومها قلقاً درجة قلقه على ابنه نفسها اليوم.

66 سنة، 7 أشهر، 13 يوماً　　　　الثلاثاء 23 مايو 1990

ردّ فعل تيجو عندما أخبرته عن واقعة غريغوار، وعن درس التشريح الذي استوعبَه: إنّ حفيدك محظوظ لأنّ لديه جَدّاً مثلك! فلو أنّ مانيس كان هو من يشرح له الدّورة الدّموية لبقَر خنزيراً. أمّا بالنسبة إلى الباقي، فلم يدهش تيجو للعبة المنديل. بالنّسبة له الخنق والاختناق والماء القرمزي والغراء والإثير والطلاء وكلّ تلك الأشياء التي تُشَمّ ليست سوى حلقة من حلقات التطوّر الذي يفضي إلى الكحول والمخدّرات المعاصرة. وكلّها تعود إلى وسواس قديم قدم الزّمن: السّعي إلى الجهة الأخرى من هذه المراهقة السّخيفة، ورؤية ما إذا كانت السّماء هنالك تمنح شعاع نور. ثمّ في غمرة حماسه سألني تيجو: وأنت أيّها الشّيخ، ماذا تستعمل؟

66 سنة، 8 أشهر، 25 يوماً　　　　الخميس 5 يونيو 1990

مررنا على إتيين ومرسولين أثناء نزولنا بميراك. جبينُه متغضّن

وعيناه جاحظتان وحركاته بطيئة، بيد أنّه ظلّ يبتسم مسروراً بزيارتنا. الحقّ أقول، وحده فمه كان يبتسم، ابتسامة لا إرادية، طيف ابتسامة، كأنّما هو يتذكّر أنّه سبق أن ابتسم ذات مرّة، لكنّه بالمقابل، لا يذكر اسم مونا. يطلق عبارات ينهيها بـ.. «وكلّ ذلك، أو ترى؟». أجل رفيقي العزيز، أجل إنّي أرى...

أسرّت لنا مارسلين بأنّ مرض إتيين يتطوّر بسرعة. يفقد ذاكرته، طبعاً، وتصير بعض حركاته عشوائية، ولكن ما يخيفها أكثر هو تلك النوبات العصبيّة التي تنتابه كلّما حدث ما لا يتوقّعه: شيء مّا ضائع، رنين الهاتف، ورقة إدارية عليه ملؤها. إنّه لا يتحمّل المفاجآت، وأبسط الانتكاسات تصيبه بقلق مرعب.

الشيء الوحيد الذي يملؤه رضاً هو مجموعة الفراشات التي يملكها. إنّها المعسكر الأخير حيث يقاوم فيه آخر ضبّاطه. تعالَ لأريك فراشة (Parnassius apollo) التي أملكها. ومرّة أخرى دهشت من عدم التّناسب الكبير ما بين أصابعه الضّخمة والرّقة التي يمسك بها أجنحة ضحاياه الهشّة. وقبل أن نفترق أسرّ لي بأمر: لا تخبر مارسلين بشيء، لقد ضعتُ. أضاف، وهو يشير إلى جمجمته: إنّها رأسي.

66 سنة، 10 أشهر، 6 أيام الخميس 16 أغسطس 1990

«تلوّث»، هذا ما أعلنته مونا وهي تضع أغطية الأولاد في آلة التصبين. تلوث ليليّ، أضافت موضّحة، وهي تضع زوج جوارب نتنة وتبّانَين ملطّخين بالمنيّ.

أجل، لقد اخترعنا المناديل للمخاط، ومناديل البصق للّعاب،

twitter @baghdad_library

والورق المنشّف للعرق، والعبوة الكابسة للبول، وكريستال الدّمع الرّهيف الذي ندين به لعصر النّهضة، لكنّنا لم نبتكر شيئاً خاصاً بالمنيّ. وبالتالي ما إن يبلغ المرء الحلم ويبدأ في تفريغ طاقته أنّى دفعته الغريزة أن يفعل، حتّى يسعى إلى إخفاء فائضه بما تطاله يده: الأغطية، الجوارب، قفازات الحمام، الفُوَط، المناديل، المناديل الورقية، مناشف الحمّام، أوراق تسويد، المذكرات اليومية، ورق ترشيح القهوة، كلّ شيء يصلح للعملية، حتّى الستائر والمسّاحات، والزّرابي. وبما أنّ المنبع لا ينضب والغرائز لا تستشير أحداً، فإنّ محيطنا كلّه يصير مزبلة مهينة. إنّه لأمر عبثي. من المُلّح أن يتمّ التفكير في صنع حاوية للمنيّ نهديها للولد في أولّ أيام قذفه. ستعالج المشكلة بطريقة ذكية، وسيتحوّل الأمر إلى ما يشبه الاحتفال العائلي، بل إنّ الصبيّ سيحمل حلّته في قلادة بالفخر نفسه الذي يحمل به ساعة عيد المناولة. أضافت مونا وقد راقتها فكرتي: ثمّ سيهديها إلى حبيبته يوم الخطبة.

66 سنة، 10 أشهر، 7 أيام الجمعة 17 أغسطس 1990

إلى عهد قريب كانت كلمة «تلوّث» «Pollution»، تشير إلى معنيين على وجه التحديد: إمّا تدنيس مكان مقدّس، أو القذف اللّيلي اللاإرادي، الذي يسمّى الاحتلام. إنّ اختيار هذه الكلمة، هذه الكلمة تحديداً، كلمة «تلوث» للإشارة إلى تدهور الفضاء الطبيعي بعد تعرضه للمواد السّامة يعود إلى سنوات 1960، السنوات التي عرفت أوج الحركة الصناعية.

66 سنة، 10 أشهر، 9 أيام الأحد 19 أغسطس 1990

ذاك اللايقين الذي يطبع فترة المراهقة: هل سأصير رجلاً؟ في الصيف كانت أوراق النباتات هي ما يمسح منّي. ليست مريحة.

66 سنة، 10 أشهر، 23 يوماً الأحد 2 سبتمبر 1990

نهاية العطلة الدراسية. أنهَكنا الأطفالُ. حرفياً تشير الكلمة مُنهَك «épuisé» إلى البئر الناضب «puits vide»؛ بئريْن فارغين صرنا. وحدها متابعة كمّ الطاقة الذي يبذلونه من مطلع الشمس حتّى مغربها يكفي ليشعر المرء بالإرهاق. أجساد لا تكفّ عن بذل الطاقة في الوقت الذي تجنح فيه أجسادنا نحن إلى اقتصادها. خمسة عشر يوماً كانت كافية لإفراغ كلّ احتياط الطاقة الحيوية التي جمّعناها. هؤلاء الأطفال يقصفون عمرنا، قلت مخاطباً مونا. ونسقط في سريرنا هامدين. أين تلك الرّغبة الجامحة التي انبثقت عنها هذه الأجيال؟ إنّي رخو كالمضغة ومونا جافة كعاصفة رملية.

66 سنة، 10 أشهر، 24 يوماً الاثنين 3 سبتمبر 1990

على ذكر الأمر، ألاحظ أنّي لم أقل إلى اليوم أيّ شيء عن رغبتنا التي تذوي مع الزّمن. لا تكمن أهميّة الأمر في معرفة الوقت الذي نكفّ فيه عن ممارسة الحبّ (وهو الموضوع الذي يثير عادة فضول المجلّات) وإنّما في معرفة كيف تمرّ أجسادنا دون صدمة من مرحلة التزاوج الدّائم إلى المتعة التي يمنحها إحساسنا بدفء أجسادنا

twitter @baghdad_library

وحده. يبدو أنّ هذا التناقص المتزايد للرّغبة لم يخلف فينا أيّ كسور نفسية، اللّهم بعض التوتّر النّاجم عن أنّ عضوينا ما عادا يكلّمان بعضهما. في شهورنا الأولى كنّا نمارس الحبّ أكثر من مرّة في اليوم، ومارسناه في كلّ ليالي شبابنا (باستثناء الشهور الأخيرة من فترة الحمل، إذ كانت مونا تخشى ما تسمّيه «قولَبة» الأطفال). وسرنا على تلك الحال ما يقارب عقدين من الزّمن، وكأنّما كان من غير اللائق أن ينام أحدنا خارج جسد الآخر. ثمّ صرنا إلى ممارسة أقل، ثمّ ما عدنا نفعلها تقريباً، ثمّ أتى حين ما عدنا نمارس فيه الحبّ مطلقاً، لكن جسدينا لا يزالان متشابكين، فذراعي اليسرى تطوّق مونا ورأسها ينام على كتفي، وساقها بين ساقيّ، وذراعها على صدري، وجسدانا العاريين ينامان في دفئهما المشترك، وتختلط أنفاسنا ويمتزج عرقنا؛ نضوع بذاك العطر، عطر الزّوجين... لقد ذابت رغبتنا في أتون حبّنا.

67 سنة، 3 أشهر، يومان — السبت 12 يناير 1991

لدى عودتي من منزل آل فيرن، كان سنّي مكسوراً. لا شكّ في الأمر: إنّها الضرس الأعلى جهة اليسار. لساني يتحسّس الأمر، يكتشف موضعاً مشبوهاً، يجوس حوله، نعم إنّه هو، كأنّ جبل سرفان في فمي. كانت تلك الضرس أصلاً شبه ميّتة. لحم دجاج أبيض وغراتان القرع وكعكة توت: حديث رخو، أي أنّه لم يكن ثمّة ما يمكنه أن يكسر ضرساً. هي ذي إذن البداية الفعلية للشيخوخة. هذا الكسر العفويّ. كل شيء يتساقط غباراً داخل كيسنا: الأظافر والشعر والأسنان ومفصل الفخذ. ينسلخ الجلد أيضاً مبتعداً عن

قطب جسدنا، لكنه يبتعد بصمت، دون أن يصرخ صراخ قطع الجليد الذي تفزع الليالي القطبية. أن يهرم المرء معناه أن يشهد هذا الذوبان. كانت تقول أمّي عندما تتحدّث عن عجوز مريض: لقد ذاب تماماً. كانت تقول أيضاً: لقد طار فعلاً. وكانت مخيّلتي الطفولية ترسم لي صورة رجل ثمانيني يقلع من ساحة مطار. وعن الموتى كانت فيوليت تقول: فلان رحل؛ فأتساءل إلى أين.

67 سنة، 4 أشهر، 13 يوماً السبت 23 فبراير 1991

عندنا أضطجع على جنبي، في وضعية من تلك الوضعيات التي صرت أتخذها بيسر بفضل التجربة، أحسّ قلبي ينبض في أعماق أذني التي يستريح فوقها رأسي بكامل ثقله. همسٌ عذب منتظم، حضنٌ آمن تهدهدني صحبته منذ نعومة أظافري دون أن يطغى همسه على طنين جسمي بأكمله.

67 سنة، 9 أشهر، 8 أيام الخميس 18 يوليو 1991

إحدى المقالب المفضّلة عند غريغوار: بينما أتقدّم في الرّدهة، تخرج يده من مكمنها وتقطع عليّ طريقي، ثمّ تلتقط لي صورة. بالطبع أثب مفزوعاً؛ فيقول غريغوار: جدّي المسكين، إنّك بشع للغاية، لدرجة أنّ صورتك تخيفك! يقتضي الطقس الذي تواضعنا عليه بأن ألاحقه، وأمسكه ثمّ أبدأ في دغدغته حتّى يطلب منّي الصّفح. وبعد أن نفرغ من ذلك أنظر إلى الصّورة. وفي كلّ مرّة يصدمني الأمر نفسه: كلّما كانت الصورة أكثر حداثة كلّما ألفيت صعوبة في التّعرف فيها على نفسي؛ أمّا إذا ما كانت الصورة قديمة،

twitter @baghdad_library

فإنّي أتعرف على نفسي فوراً. تلك الصورة الأخيرة، التقطها غريغوار منذ أسبوعين وحمّضها بنفسه. عليّ أن أعيد تركيب المشهد حتّى أتمكن من التعرّف على نفسي (لا يستغرق الأمر أكثر من لحظة خاطفة، لكنّه مع ذلك يظلّ تركيباً): مِراك، المكتبة، النافذة، السّرو، الظهيرة، الكنبة، وعلى الكنبة أنا، أسمع الموسيقى. قال غريغوار: من محياك التراجيدي الباعث على الشّجن، يبدو أنّك كنت تستمع إلى جوستاف ماهلر. هكذا إذن، تستطيع أن تخمّن الموسيقى التي كان يستمع إليها شخص مّا، من تعابير وجهه؟ تماماً؛ عندما كنت تستمع إلى ذلك البولوني، بِندِرِكي (Penderecki)، كنت تبدو مثل لعبة مكعب روبيكس مرميّة.

67 سنة، 9 أشهر، 17 يوماً السبت 27 يوليو 1991

أنفقت ثلاث ساعات مستلقياً على كرسيٍّ تمدُّدٍ أقرأ رواية بوليسية، ولا سبيل عندي للقيام دون أن أتّكئ بقوّة على مسندَيْ الذّراعين. ردفاي يؤلمانني، أحسّهما متصلّبين. وللحظة شعرت كأنّي ملقىً وسط الجليد. من الآن فصاعداً ثمّة عائق بيني وبين العالم: جسدي.

رأيت العمّ جورج مرّة في سنواته الأخيرة، جالساً على كنبته يتحدّث في كلّ الأمور دون أن يقول شيئاً، نظراته متلألئة ويداه مثل يعسوبين. كان هوَ هوَ، تماماً مثلما كان في سنّ الأربعين أو الخمسين، لكن ما إن ينهض حتّى تقرقع ركبتاه وردفاه وظهره. جالساً يكون شاباً؛ وحين يقوم يصير شيخاً أحدبَ، تتشنّج ملامحه من الألم، وتنبعث منه رائحة بول خفيفة. وقد احتفظ إلى أبعد

الحدود بعادته في أخذ الأمور بيُسر. كان يقول (مستشهداً بأحد لا أذكره): مع الزّمن تتزّحزح المواقف الصّلبة.

67 سنة، 9 أشهر، 18 يوماً الأحد 28 يوليو 1991

من أين يأتينا إحساس الديمومة ذاك، رغم كلّ شيء؟ كلّ شيء فينا يتدهور، لكن يظل فينا ذاك الابتهاج الدائم، ابتهاج الكينونة. فكّرت في هذا الأمر أمس وأنا أتابع مونا تتمشّى أمامي. مونا ولباسها الملكيّ كما يقول تيجو. منذ أربعين سنة وأنا أسير خلفها، لقد ثقل جسدها وفقَد مرونته، لكن كيف أقول؟ لقد ثقل جسمها حول مشيتها التي لم تتغيّر قطّ، وما زلت أحسّ المتعة نفسها وأنا أتابع مونا تمشي. مونا هي مشيتها.

68 سنة، 8 أيام الجمعة 18 أكتوبر 1991

أحد من كانوا تحت قيادة تيجو، مجنّد سابق بساق واحدة (فقدها في حرب الجزائر)، اِلتقاه على عكازتين. سأله تيجو: ماذا عن قدمك الميكانيكية؟ أخذ الرّجل يماطل في الإجابة. ثابر تيجو ما يكفي ليعلم، عبر حكاية شائكة، أنّه بعد جلسة سُكر تشاجر مع زوجته، وأنّها، بعدما ضربها ضرباً مبرحاً، صفقت الباب خلفها. رحلت وأخذت معها ساقه الميكانيكية! سألني تيجو: برأيك، إلى ماذا خلص مجنّدي ممّا جرى: (لعمري...) لقد خلص إلى: إنّها لا تزال تحبّني، لدرجة أنّها أخذت ساقي معها. وبدل أن يفسّر تيجو الأمر بغباء الرّجل، فسّره بحاجة الإنسان إلى أن يُحَبّ.

twitter @baghdad_library

كاحلي يؤلمني. زرت طبيباً مختصّاً في الروماتيزم، فوجّهني إلى اختصاصيّ أقدام؛ قال اختصاصي الأقدام واثقاً بعدما فحص قدميّ: لا ريب في أنّك لا تحسن الرّقص. أجبت موافقاً. لا عجب في ذلك، فمشط قدمك يرتكز على ثلاثة مواضع (عيّنها لي) بدلاً من أن يرتكز على كامل مساحتها. وهو ذا عجزي عن الرّقص، الذي طالما أرجعته إلى ضعف قدرتي على التّجسيد، يكشف عن سببه، سبب ميكانيكي تافه. ألفيت نفسي أشرح لاختصاصي الأقدام، أنّني على الرّغم من ذلك كنت في طفولتي أمارس الملاكمة وكرة المضرب، وكنت **بارعاً في لعبة كرة السّجين!** سخافة الجملة التي قلتها جعلتني أبدو كمدّعٍ، حتّى أنّي لم أنتظر أن يجيبني الطبيب إجابة لن تكون على الأرجح إلّا تفسيراً تقنياً. أنا ولعبتي، لعبة كرة السّجين! (آه يا فيولين!) كيف لي بعد خمسة وستين سنة أن أظل أقدّم نفسي كأحد أبطال لعبة كرة السّجين؛ لعبة ما عاد في الغالب يذكرها أحد؟ سرحت لوهلة واضعاً رأسي على راحة يدي ورأيتني في ساحة المدرسة، ألعب تلك اللّعبة ذات القواعد السريعة والعنيفة: التملّص والتعرّض والمكر والجرّ والبقاء وحيداً في الملعب، تشتيت صفوف فرقة الخصوم، تحمّل النيران من الجانبين في آن، بلوغ أقصى دراجات التيقّظ والقتال، أن لا يتمكّن أحد من القضاء عليك، آه! ذاك الفرح الجسديّ الخالص! ذاك التهلّل! كلّ دور ألعبه في لعبة كرة السّجين، كان بمثابة ولادة جديدة بالنسبة لي. إنّ تلك الولادة هي نفسها ما أحتفي به في داخلي كلّما افتخرت بأنّي كنت أحد أبطال لعبة كرة السّجين!

68 سنة، 7 أشهر، 20 يوماً السبت 30 مايو 1992

فاجأت غريغوار وهو غارق في عملية الاستمناء؛ هو حاملاً سلاح الجريمة في يده وأنا واضعاً يدي على مقبض الباب. انزعجنا معاً انزعاجاً كبيراً. مع أنّ الأمر لم يكن يتحمّل كل ذاك الانزعاج؛ فكما يقول بعضهم، كلّ رغبة لا تعانقها اليد لا يعوّلُ عليها. إحساس مهين بالتّطفل رافقني طيلة يومي. بقيت سجين لحظة سابقة للحظة المراهقة، لحظة ذاك الكائن الذي يُخرج نفسه من طفولته بجرّ نفسه من قضيبه. ومساءً قلبت كلّ المهملات حتّى وجدت لعبة مسار-الافتضاض التي كنّا قد ابتكرناها أنا وإيتيين في داخلية المدرسة. اقترحت على غريغوار ملاعبتي. هزمني. إذ بلغ الخانة رقم 12 (حيث يشير النّرد إلى الملابس المتّسخة، يهنّئك عمّك جورج: لقد صرتَ رجلاً)، شكرني بابتسامة عريضة. أهديته اللّعبة.

68 سنة، 8 أشهر، 5 أيام الاثنين 15 يونيو 1992

جولة أمس بمفردي في حديقة لوكسمبورغ. امرأة شابّة صرخت فرحةً باسمي، سألتني عن أخبار مونا، قبّلتني، ثمّ تابعت طريقها. من هي؟ ومساء أثناء خروجي من مسرح لو فيو كولومبيي (Le Vieux-Colombier)، لم أعثر على كلمتين أو ثلاث في خضمّ النقاش الذي جمعنا أنا وت. هـ.، وحين أردت أخذ سيارتي تهت في موقف سان-سولبيس، أخطأت الطّابق، فصعدت ثمّ نزلت، ودرت حول نفسي... أين عقلي؟ أتعجّب كيف أنّي إلى الآن لم أكتب عن هذا النّسيان الذي أفسد حياتي. كنت أفسّر الأمر بعيب خلقي. غباء! إنّها

twitter @baghdad_library

محض ظاهرة فيزيائية. الكهرباء هي العامل الحاسم في هذا الأمر، تلامس خاطئ لأسلاك الدّماغ. بعض الموصلات العصبية لا تؤدي عملها كما ينبغي، ولا تربط بين الخلايا العصبية المعنية بالأمر. إنّ الطريق مقطوعة، لقد انهار الجسر، وعلى المرء أن يتّخذ طريقاً أخرى، طريقاً طولها سبعة وعشرون كيلومتراً، حتى يجد الذكرى التي أضاعها. أوَليس عطباً فيزيائياً هذا الأمر!

68 سنة، 8 أشهر، 6 أيام الثلاثاء 16 يونيو 1992

كان عليّ أن أدوّن مذكرات نسياني.

68 سنة، 10 أشهر، يوم واحد الثلاثاء 11 أغسطس 1992

بلغت فاني سنتها الحادية عشر، وهي التي تتمتّع بحسَّ ملل يفوق مارغريت، سألتني عمّا إذا كان الزمن يمرّ عندي بالبطء نفسه الذي يمرّ به عندها. أجبتها بأنّ الزمن الآن يمرّ عندي سبع مرات أسرع، لكنّه يتغيّر كلّ مرّة. أجابتني معترضة، أنّه «من وجهة نظر البندول» (كذا)، الزّمن واحد بالنّسبة لنا معاً. أجبتها موافقاً، لكن لست أنت ولا أنا ذاك البندول، الذي من وجهة نظري، لا يملك أيّة وجهة نظر حول أي شيء. وأعطيتها درساً في الزّمن الذاتي، الزمن الذي بموجبه يكون إدراكنا للبرهة الزّمنية خاضعاً خضوعاً صارماً للزّمن الذي مرّ منذ ولادتنا. سألتني حينئذٍ عمّا إذا كانت كلّ دقيقة تمرّ عليّ أسرع ثماني مرات ممّا تمرّ عليها. (هذا الأمر معقّد). أجبت نافياً، فإذا كنت عند طبيب الأسنان بينما أنت تلعبين رفقة مارغريت، فإنّ بعض الدقائق ستبدو لي أطول ممّا تبدو لك. خيّم

بيننا صمت طويل. وبدأت أسمع تروس رأسها الصغير تحرّك ساعيةً إلى ربط مفهوم العرضيّة بمفهوم الكليّة. لاحظت أنّ طيّ التفكير بين عينيها يمنحها التعبير نفسه الذي كان يتّخذه وجه ليزون عندما كانت في سنّها. وفي آخر المطاف اقترحت عليّ ما يأتي: أن ننظر معاً إلى عقرب البندول، «حتّى نفرض على الزّمن أن يمرّ بالسرعة نفسها بالنسبة لنا معاً». وذاك ما فعلناه صامتين كأنّنا في دقيقة صمت ترحماً على أحدهم. وبالفعل كانت دقيقة صمت ترحماً، ذاك أنّ حديثنا الخافت ذاك كان قد عاد بي، وأنا أسمع دقات البندول، إلى ذكرى دروس «الفلسفة الصغيرة» التي كان أبي يهمس بها في أذني، منذ ستين سنة (كأنّها حدثت أمس). وإذ انقضت السّاعة، قبّلتني فاني على خدّي معلنة قبل انصرافها: جدّي، يعجبني أن أمَلَّ برفقتك.

69 سنة **السبت 10 أكتوبر 1992**

عشاء قليل الحضور، بمناسبة عيد ميلادي. «عيد ميلادي»، عبارة طفولية نجرّها معنا حتّى انطفاء آخر شمعة في حياتنا.

69 سنة، 9 أشهر، 13 يوماً **الجمعة 23 يونيو 1993**

نسيت أنّ مونتيني لم يكن يملك ذاكرةً:

يا لها من أداة رائعة، الذاكرة... إنّي أفتقدها. (...) وعندما يكون لديّ حديث مهمّ أقوله، ويكون هذا الحديث طويل النّفس، فإنّي أجد نفسي مضطراً إلى انتهاج تلك الطريقة البئيسة: أن أحفظ عن ظهر قلب كلّ كلمة. بعبارة أخرى لا شيء يضمن لي أن أسلَم من مقالب الذاكرة. بيد أنّ هذه الطريقة ليست سهلة بالمرّة. فلكي

twitter @baghdad_library

أحفظ ثلاثة أبيات أحتاج إلى ثلاث ساعات. (. . .) كلّما تحدّيت ذاكرتي كلما زعزعتني. تطاوعني الذاكرة أكثر حين تجمعنا الصدفة، عليّ أن أعاملها بلا مبالاة: ذاك أنّي حين أضغط عليها، ترتبك؛ وحين تبدأ في مطاوعتي، كلّما أحطت بها إلا وتعثّرت ووقعت في المطبّ؛ تطاوعني بحسب مزاجها، لا مزاجي. . . وإذا ما جرأت أثناء الحديث على أن أبتعد قليلاً عن خيط كلامي، لا آمن أن أضيع. (. . .) أولئك الذين يخدمونني، ينبغي أن أناديهم بوظائفهم أو بلدانهم، إذ لا أستطيع أبداً حفظ أسمائهم. (. . .) وقد يعرض لي أن أنسى كلمة الأمان التي تلقيتها من أحدهم أو أعطيتها إليه، قبل أن تمرّ ثلاث ساعات على الأمر، وأن أنسى أين خبّأت مدّخراتي. أُضيع تحديداً ما أحرص عليه. (. . .) أتصّفح الكتب بدلاً من أن أقرأها، ذاك أنّ ما يبقى في ذهني هو أفكار لا أذكر إنْ كان صاحبها أحد غيري؛ ذاكَ ما أفادت منه حصافتي، لقد تشبّعت بالكلام والخيال، أمّا أسماء المؤلفين والأماكن والكلمات وباقي الملابسات، فأنساها دوماً. Essais, livre II, chapitre 17.

وذكر هو نفسه في (Térence, l'Eunuque; I, 2, 25):

إنّي مليء بالثقوب، أنا أسيل من كلّ موضع.

70 سنة، 5 أشهر، يومان السبت 12 مارس 1994

أمس عند س. وأ.، طرحنا مسألة ما إذا كان السّرطان الذي أصاب و. ناتجٌ من أسباب نفسية. فرضية حظيت بالإجماع. أجل أجل، لم يستطع أن يتحمّل تقاعده ومرض زوجته وطلاق ابنته. . . إلخ، كان الجميع متّفقين إلى أن قال الشّاب ب.، وهو أكبر أبناء

المضيفين: «سيطمئن و. أكثر لو علم أنّه أصيب بمرض عضوي- نفسي. في كلّ الأحوال هذا الأمر أقل إثارة للاشمئزاز من سرطان القولون!». قال ذلك، ومضى مصفقاً الباب خلفه.

أحسب أنّي فهمت سبب انزعاج الولد. دون أن أعترض على فكرة أنّ أجسادنا تعبّر بطريقتها الخاصّة عمّا لا نستطيع التعبير عنه - فألم القَطَن[1] «lumbago» مثلاً يعني أنّ المرء لم يعد يتحمّل، ومغص فاني يُفصح عن رعبها من الرّياضيات-، أتفهم ما يمكن أن يعنيه القول بأنّ كلّ الأمراض سببها نفسي بالنّسبة إلى جيل الشّاب ب. إنّها تصمه بالوصمة نفسها التي كانت تدفعني إلى التمرّد حين كنت في سنّه، أقصد وصمة العفّة الزائفة. ففي سِنِيّ شبابي لم يكن الجسد يوجد كموضوع للحديث؛ لم يكن مقبولاً الحديث عنه أثناء الأكل. واليوم صار مقبولاً، شرط أن لا يتمّ الحديث عنه إلا بوصفه روحاً! فوق مياه القول بالأمراض النفسية-الجسدية، يطفو ذاك القمر القديم: أمراض الجسد بوصفها تعبيراً عن الأمزجة. فشل مرارة الشّخص العصبيّ، انفجار الشريان التّاجي عند الشّره، والزهايمر المؤكّد عند العدواني... لسنا مرضى فحسب، وإنّما أيضاً متّهمين بالمرض! بماذا ستموت يا رجل؟ بالألم الذي تسبّبه لنفسك؟ بالصفقات الصّغيرة التي تعقدها مع الأشياء الضّارة؟ بالمتع القصيرة التي تجنيها من الممارسات السيّئة؟ من مزاجك؟ في المحصّلة كلّما التزمتَ كلّما قلّلت من احترامك لنفسك! أناك الأعلى هو ما يقتلك. (في المحصّلة، لا جديد في الأمر، منذ أن كانت آثار الزّهري تسمح

---

(1) ألم يصيب الظّهر. (م)

twitter @baghdad_library

بقراءة روح الماركيزة مِرتوي[1] على وجهها). ستموت متّهماً بتلويث الكوكب، وبأكل أيّ طعامٍ، دون تمييز، وبالخضوع إلى شرط الحقبة التّاريخية دون السّعي إلى تغييرها، متّهماً بغضّ الطرف عن سؤال الصّحة الكونية إلى درجة إهمال صحّتك نفسها! فكلّ ذاك النّظام الذي أخفاه كسلك قد استعرّ مهاجماً جسدك، وها هو ذا يفتك به!

وإذا ما كان «النّفسي-الجسدي» يعيّن المُذنب، فإنّه يسمح أيضاً بالاحتفاء أكثر بالبريء. سيّداتي سادتي: إنّ جسدنا بريء، جسدنا هو البراءة نفسها، هو ذا ما يصرّح به «النّفسيّ-الجسدي»! لو أنّنا فقط كنّا طيّبين، لو أنّنا كنا نحيا حياةً سليمةً في وسط معقلنٍ؛ لو استطعنا فقط ذلك، لما ذاقت الرّوح وحدها طعم الخلود، وإنّما الجسد أيضاً!

كانت تلك خطبة طويلة لاذعة انخرطت فيها مع حماسة شبابي المستعادة، وأنا عائدٌ في السيّارة إلى المنزل.

وقالت مونا، ربّما كنتَ محقاً، لكن لا تنسَ أنّ الشّاب ب. لا يضيع أيّ مناسبةٍ للسُّخرة من والديه وإظهارهما مظهرَ البليدين.

70 سنة، 5 أشهر، 3 أيّام الأحد 13 مارس 1994

سيّداتي سادتي، إنّنا نموت لأنّ لدينا أجساداً، وكلّما مات أحدنا انقرضت معه ثقافةٌ.

---

(1) بطلة رواية **العلاقات الخطيرة**. (م)

70 سنة، 8 أشهر، 5 أيام **الأربعاء 15 يونيو 1994**

قال لي مدرّس غريغوار لمادة الفلسفة في الاجتماع الذي ذهبت إليه لأستلم إكليل التنويهات الذي صنعوه لحفيدي: إنّنا نعرف بعضنا. حقاً؟ قال مبتسماً: أجل، لقد نكّلت بك ذات مرّة في شبابك. وعرفته: إنّه ابن أخت الدكتور بِك! صاحب اليد الضّخمة التي خنقت صرخاتي حين استأصلت وَرَمِي الحميد منذ أربعين سنة. ومنذ بداية السّنة وغريغوار يكيل المديح لأستاذ الفلسفة «الرّائع حقاً!». كونه عملاقاً سنغالياً لا يدخل ضمن نطاق الوصف، إنّه تفصيل بلا أهميّة فلسفية. ربّت السيّد ف. على أنفه بإصبعه وقال: اليوم صار المرء ينام أثناء إجراء مثل تلك العمليات، لكنّ الأمر لا يزال بلا فائدة. حفيدك أيضاً يخرج الكلام شيئاً مّا من أنفه، لكنّ ذلك لا يمنعه من أن يكون فيلسوفاً بامتياز.

71 سنة، 5 أشهر، 22 يوماً **السبت فاتح أبريل 1995**

عدتُ من المستشفى حيث ذهبت برفقة غريغوار لعيادة سيلفي. لقد استطاعت أن تتعرّف علينا، لكن دون أن تستوعب الأمرَ على ما يبدو. نادت بصوت خافت «غريغوار»، وكان نداؤها يفتقد للواقعية. إنّه ولدها، إنّه اسم ولدها، هي تتذكّر ذلك، وثمّة نبرة حنان في صوتها، بيدَ أنّ الاسم والصورة لا يتطابقان. «كأنّما ترى بضبابية»، بحسب تعبير غريغوار، الذي أضاف: هي أيضاً مضبّبة، يبدو كأنّها تمشي بمحاذاة جسدها، ألا ترى ذلك يا جدّي؟ في بداية إصابتها بالمرض، كان غريغوار كلّما أراد إخباري بحالتها يقول لي:

twitter @baghdad_library

«أمّي ليست «صافية» تماماً» أو يقول «الحمد لله، هي اليوم «صافية»». وأرى ابتسامة ترتسم على شفتيه كلّما استقبلنا الطبيب و. في مكتبه وقال لنا: «سنضع تقييماً شاملاً للأمر/ سنحدّد النّقطة».

71 سنة، 5 أشهر، 25 يوماً الثلاثاء 4 أبريل 1995

وأنا أفكّر هذه الليلة في سيلفي (ستخرج من المصحّة في شهر)، استعدت كلمة «مختلّ التوازن/ خارج عن المَعْلَم» التي كانت أمّي تستعملها للشكوى منّي. تعطي تلك الكلمة إحساساً بالدوران والرّؤية الضبابية. لعلّ هذه المذكرات ليست في العمق سوى تمرين على التوازن/ التكيّف. سعي إلى الإفلات من الضبابي، سعي إلى إبقاء الجسد والرّوح على المَعلم نفسه... لقد قضيت حياتي كلّها ساعياً إلى «تحديد النّقطة».

71 سنة، 8 أشهر، 4 أيام الأربعاء 14 يونيو 1995

تداخل كثيف للجسد المشترك في الباص رقم 91 بمحطّة غوبلان. عندما صعدت في محطّة مونبرناس، كان الباص فارغاً. إستغللت تلك العزلة للغرق في قراءة بالكاد كان يقلقها بعض الرّكاب الذين يصعدون من محطّة إلى أخرى ويجلسون حولي. في محطّة فافان صارت كلّ مقاعد الباص مشغولة. وفي غوبلان امتلأ الممرّ. لاحظت الأمر بالأنانية البريئة لذاك الذي حصل على مقعد، فصار يستمتع أكثر بقراءته. كان ثمّة شاب يجلس قبالتي، غارقاً بدوره في كتاب. لا ريب في أنّه أحد الطلبة. يقرأ سيرة فريتز زورن المعنونة بمارس. وعلى الممرّ أمام الشّاب، امرأة ربعة، قد جاوزت السّتين،

تحمل في يدها سلّة مليئة بالخضر، وتتنفّس بصوت عالٍ. رفع الطّالب عينيه، فتلاقت نظراتنا، ثمّ رأى السيّدة، فقام تاركاً لها مقعده. تفضّلي سيّدتي. ثمّة شيء جِرمانيّ في أدب الشّاب. منتصب القامة، طويل، رقبة شديدة الانحدار، ابتسامة محتشمة: شاب مميّز. لم تتحرّك المرأة، لا بل يظهر لي أنّها نظرت شزراً إلى الطّالب. أشار الطّالب إلى المقعد مُلحّاً: أرجوك سيّدتي. رضخت المرأة، بمزاج سيئ على ما يبدو لي. على كلّ حالٍ هي لم تتفوّه بأيّ كلمة شكر. اِنزلقت إلى الكرسيّ الشّاغر وهي لا تزال تلهث، لكن دون أن تجلسَ عليه. وقفت قبالتي حاملة سلّتها، وأمامها الكرسيّ فارغاً. أحنى الشّاب رقبته أكثر وقال لها: اِجلسي سيّدتي، من فضلك. وهنا نطقت المرأة قائلة: ليس الآنَ، لا أحبّ الجلوس عندما يكون المقعد لا يزال دافئاً! تضرّج وجه الشّاب بحمرةٍ حادّة. كانت الجملة صاعقةً لدرجة أنّها منعتني من أن أعود إلى الغوص في كتابي. وبطرف خفيّ حاولت أن أستبين ردّ فعل باقي الرّكاب. كانوا يخنقون الضحكات، يثبّتون أقدامهم، يتظاهرون بالنّظر إلى الخارج، باختصارٍ كانوا منزعجين. وإذّاك مالت المرأة عليّ وأدنت وجهها حتّى غدا على بُعد سنتمترات من وجهي، كأنّما نحن من المعارف القدامى، وقالت لي: إنّي أنتظر أن يبردَ المقعد! وفي تلك اللّحظة استدارت النظرات كلّها صوبي. كانوا ينتظرون ردّ فعلي. فخطر لي في تلك الثانية بالضّبط أنّنا نشكّل جسداً واحداً داخل الباص رقم 91. الجسد نفسه الذي خضع للتربية. جسدٌ لا تتحمّل مؤخّراتُه حرارةَ الكراسي التي تخلّفها المؤخرات الأخرى، لكنّها تفضّل أن ترتمي تحت عجلات الباص على أن تعترف بذلك.

twitter @baghdad_library

71 سنة، 8 أشهر، 5 أيام الخميس 15 يونيو 1995

دونما تربيةٍ لا إمكانَ للهزليّ.

72 سنة، شهران، يومان الثلاثاء 12 ديسمبر 1995

بعض الأمراض، بسبب الرّعب الذي تخلّفه فينا، تستطيع أن تدفعنا إلى تحمّل الأمراض الأخرى جميعها. والميل إلى تخيّل الأسوأ حتّى نُصاب بالشّائع، هو أحد الأمور الأكثر تداولاً بالنّسبة إلى أبناء جيلي. أمس مثلاً كنا نتحدّث على مائدة آل فيرن عن نتيجة تشخيص مرض ت. س.: كانَ يخشى أن يكون مصاباً بالزهايمر، لحسن الحظّ يعاني مجرّد اكتئاب لا غير. أوف! لقد سلِمَ شرفه من الأذى. لن ينهي حياته أقلّ خبلاً، لكن على الأقل سيفلت من براثن ألوا[1].

أسخر من الأمر في سرّي، دون أن أستبعد نفسي من دائرة المعنيين بالأمر. إنّي أفضل أن أموت على أن أعترف بالأمر، لكنّ تهديد الزهايمر (وأفكّر هنا بالطّبع في إتيين الذي ازدادت حالته تدهوراً) يرعبني مثلي مثل الجميع. على أنّ لهذا الرّعب فضلاً: إنّه يحرّرني ممّا يصيبني فعلاً؛ نسبة السكّر في دمي مقلقة، والكرياتنين أعلى من المعدّل، وطنين أذنيّ يشوّش على الموجات الصّوتية أكثر فأكثر، وداء السّاد (ماء العين الأبيض) يجعلني أرى الأفق ضبابياً،

(1) ألوا ألزهايمر، طبيب ألماني مختصّ بالأعصاب، ويرجع إليه الفضل في تشخيص مرض الزهايمر. (م)

أستيقظ كلّ صباح على وجعٍ جديد. باختصار تزحف الشيخوخة على جميع الجبهات، بيْد أنّي لا أبدي سوى خوف واحد: الخوف من ألوا ألزهايمر! لدرجة أنّي أفرض على نفسي كلّ يوم تمارين ذاكرة، يراها فيّ المحيطون بي تزجية وقت يقوم بها بحّاثة. أستطيع أن أستظهر مقاطع بأكملها من عزيزي مونتينيْ، ومن الكيخوطي، ومن صديقي القديم بلين، ومن الكوميديا الإلهية (وبلغاتها الأصلية لو سمحتم!)، لكن إن عرض لي نسيان موعد أو فقدان مفاتيحي أو عدم التّعرف على فلان، أو عدم تذكّر اسم مّا، أو ضياع خيط حديثٍ، ينتصب أمامي مباشرة شبح ألوا. عبثاً أحاول إقناع نفسي بأنّ ذاكرتي كانت دائماً مزاجية، وأنّها كانت تخونني منذ طفولتي، وبأنّي هكذا ولن أكون إلا كذلك. لقد انتصرت قناعة ألزهايمر على كلّ قناعة سواها، وبتّ أرى نفسي أغرق في المرض درجة درجة، حتّى أبلغ الدرك الأخير حيث أفقد صلتي بالعالم وبنفسي، أن أصير شيئاً حيّاً لا يتذكّر أنّه كان يحيا.

في انتظار ذلك، هم أولاء يطلبون منّي أن أستظهر لهم قصيدةً، فأذعن بعد توسلاتهم، وأستظهرها كأفضل ما يكون. آه! على الأقل أنت لا يترصّدك مرض ألزهايمر!

72 سنة، 7 أشهر، 28 يوماً الجمعة 7 يونيو 1996

فريدريك، طبيبٌ وعشيق غريغوار وأستاذه في مادة الطّب الداخلي، يشتكي من أنّه لا يستطيع أن يتعشّى في المدينة دون أن يتعرّض لقصف من الأسئلة المرتبطة بصحّة المدعوّين. لا تمرّ سهرة واحدةٌ دون أن يطلب منه نصف المدعوّين إمّا تشخيصاً أو علاجاً،

twitter @baghdad_library

أو مشورة أو نصيحة لهم أو لأحد أقاربهم. يؤسفه الأمر. يقول إنّه منذ أن بدأ ممارسة الطّب، وحتّى حينما كان لا يزال طالباً لم يسأله أحد يوماً عن اهتماماته في الحياة خارج مهنة الطبّ! حتّى أنّه عافَ الخروجَ. ولولا أنّ غريغوار متعلّق بهذا الميدان لكان هو قد تركه لأنّ. . . (وهنا، يمرّر يده فوق رأسه)، الكيل طفح! إنّ المائدة، على ما يرى، تحوّل الطبيب إلى شامان. فما إن يرى النّاس الطبيب يأكل ويشرب مثل الجميع، حتّى ينزلونه منزلةَ الصديق، يصيّرونه ساحرَ العشيرة، المعلّمَ الرّوحي للسيّدات؛ ذاك الطبيب المميّز - والإنساني جداً!-، الذي كنّا قد التقيناه في منزل فلان، هل تذكره يا عزيزي؟ أمّا في المستشفى، فأكون في أعين أولئك النّاس أنفسهم، وأشدّد على أولئك النّاس أنفسهم، مجرّد موظّف كبير يترصّد أعطاب الصّحة ليراكم سيارات البورش؛ لكن ما إن تجمَعُنا مائدة واحدة، حتّى أتناسخ في روح طبيب إنسانيّ، طبيب محترم وكفؤ. وإذا ما كنتَ طبيباً جرّاحاً، والتقاك أحدهم عند أحد معارفه، فسيتبعك كحيوان أليف حتّى طاولة الجراحة، وسينصح الجميع بدكّانك، ذاك أنّ الأطباء يشبهون المُربّى في هذا: ليسَ ثمّة أفضل من ذاك الذي تصنعه العائلة! عندما أرى طلبتي يتكالبون على قسم المستعجلات، تنتابني الرّغبة في أن أصرخ بهم: اِرحلوا، اهجروا مرضاكم، اِذهبوا للعشاء في المدينة، فهناك يصنع المرء مستقبله، وليس في قاعة المداومة!

هاج فريديرك بمفرده قِسماً مهماً من السّهرة، ثمّ قام عن المائدة، ونظر إليّ بخبثٍ عيناً لعينٍ، وسألني: وأنت؟ هل أنت بخير؟ هل صحّتك على ما يرام؟ هيّا، اِستغلّ فرصةَ وجودي هنا!

72 سنة، 7 أشهر، 30 يوماً الأحد 9 يونيو 1996

مثلية غريغوار. حاولت أن أكون واسع الأفق ما أمكن («أن يكون المرء واسعَ الأفق» ما أضيقها من عبارة!)، لكنّ مخيّلتي تظلّ محدودة أمام مسألة المثلية. فإذا ما كانت مبادئي تقبل الأمر، فإنّ جسدي لا يستطيع تصوّر كيف بإمكانه اشتهاء مثيله! غريغوار مثليّ جنسي، فليكن، إنّه ابننا غريغوار، ليفعل ما شاء، لا سبيل إلى مناقشة اختياراته، لكنّ أن يكون جسد غريغوار يحقّق إشباعه من جسد رجلٍ آخر! ذاكَ ما يستعصي على ذهن جسدي، إن جاز ليَ القول، تصوّرُه. لا يتعلّق الأمر بالممارسة الشّرجية، كلا. فأنا ومونا لم نتجنّبها، كانت أعضاؤنا تحبّها، وكم كانت مونا تبدو ولداً جميلاً حينئذٍ! لكنّ ما كان يجعل الأمر ممكناً هو أنّ مونا ليست ولداً. أفكّر في مثلية غريغوار وأنا أغرق في النّوم... أو تحديداً، أكفّ عن التّفكير فيها، اللّغز ينازعني، يصير هو نفسه مادة النّوم الذي يبتلعني.

72 سنة، 9 أشهر، 12 يوماً الاثنين 22 يوليو 1996

وحدي في الحديقة، أرفع عينيّ عن الكتاب، وقد لفت انتباهي غناء عصفور أسِفتُ لأنّي لم أستطع تحديد نوعه. يسري الأمر أيضاً على جميع الزّهور التي تحيط بي والتي أجهل أسماءها، وعلى بعض الأشجار، وأغلب الغيوم وأغلب العناصر التي تكوّن قطعة التّراب التي تفتّتها أصابعي. لا أستطيع تحديد اسم أيّ شيء من تلك الأشياء. لم تعلّمني أشغال المزرعة التي كنت أمارسها في طفولتي، شيئاً عن الطّبيعة. فالحق يُقال، لم تكن تلك الأشغال تهدف إلى

twitter @baghdad_library

شيءٍ سوى تقوية عضلاتي. وذاك النّزر القليل الذي تعلّمته، نسيته. باختصار، ها أنا ذا تمدّنت حتّى ما عدت أملك أيّ معرفة أساسية! والعصفور الذي استلّني من قراءتي، يغنّي وسط صمت جهلي. وفي الواقع، لستُ أنصت إلى غنائه بقدر ما أنصت إلى الصّمت. الصّمت المطلق. ثمّ فجأة يباغتني السؤال: أين اختفى طنين أذني؟ أنصتّ بانتباه أكبر. تماماً كما حسبتُ، لا طنين هناك، لا شي سوى غناء العصفور. أغلقت أذنيّ لأستمع إلى داخل جمجمتي. لا شيء. لقد اختفى الطّنين تماماً. رأسي فارغ، يطنّ قليلاً فقط، تحت ضغط إصبعاي، كأنّما وضعت أذني لصق طبل يُقرع. الطّبل فارغ تماماً. جمجمتي فارغة من الصّمت، وذاك يسعدني؛ لكنّي أجهل أساسيات المعرفة، وذاك يحزنني. أتابع قراءتي العالمة لأزداد فراغاً أكثر فأكثر.

72 سنة، 9 أشهر، 13 يوماً الثلاثاء 23 يوليو 1996

بالطّبع عاودني طنين الأذن. متى؟ لا أدري. هذه اللّيلة كان حاضراً، يصفّر في ليل أرقي. لقد اطمأنّت نفسي. إنّ تلك الأمراض التي يرعبنا ظهورها، تنتهي بأن تصير أكثر من رفيق درب بالنّسبة لنا، إنّها **تصيرنا**. لذلك كان من الطّبيعي قديماً، أيام كنّا نعيش في القرى، أن تكون هي ما يدلّ علينا: متضخّم الغدّة الدرقية، الأحدب، الأقرع، المتأتئ... ومن تلك النّعوت التي تبدو مجرّد معطيات واقعية، صنع العصر الوسيط أسماء عائلات: كورت-كويس (قصير الفخذين)، لوغرا (السّمين)، بُتيبيير (بيير الصّغير)، غروجان (يوحنّا الغليظ)، لوبورنيْ (الكفيف)، وهي كلّها أسماء لا تزال

متداولة إلى اليوم. أتساءل أيّ كنية دفعت بي إلى معانقة هذه الحكمة الوسيطية الفظّة. لوسفلور؟ دوسفلي؟ الأب دوسفلي؟ ليكن الأب دوسيفلي. تعرفونه؟ ذاك الذي لديه صفير في رأسه! اِقبل نفسك كما أنت، دوسيفلي، واصنع من اسمك مجدَك.

72 سنة، 9 أشهر، 14 يوماً الأربعاء 24 يوليو 1996

كنت أفكّر في ذاك العصفور الذي لم أعرف نوعه، فخطرَت ببالي أبيات سوبرفِيِيْ الآتية:

مكانَ الغابة
سيرتفع نشيدُ عصفورٍ
لا أحد بوسعه تحديد مكانه،
أو تمييزَه، أو حتّى سماعه،
لا أحدَ سوى اللّه، وحده سينصت إليه
قائلاً: «إنّه طائر حسّون..»

أحسب أنّ القصيدة من ديوان **تجاذبات**، وعنوانها «نبوءة». أجل، لكن عصفوري أنا، عصفوري الواقعي، ما كان اسمه؟ غداً سأسأل روبير.

72 سنة، 9 أشهر، 16 يوماً الجمعة 26 يوليو 1996

منذ أيام وأنا أعاني سطوة الغازات. تجتاحني رغبة لا تردّ في الضراط. أفاجأ بأنّي أضرط بينما أسعل، آملاً في أن تخفي السّعلة

twitter @baghdad_library

صوت الضرطة. لا سبيل لمعرفة ما إذا نجحت الخطّة، لأنّ تردّد صوت السّعال داخل رأسي، يغطي على كلّ صوت خارجي. على أنّ هذا الانشغال لا معنى له: فأنا محاط بأناس مهذّبين لدرجة أنّهم يفضّلون الموت على مواجهتي بنقص تربيتي. من جهة أخرى، لا أحد يهتمّ بسعالي. أيّها المتوحّشون!

أمتع اعترافي تيجو، فأهداني بالمقابل واحدة من قصصه المضحكة. ومثلما هو الشّأن دائماً مع قصص تيجو ذات الطّابع الجسديّ العميق، لديّ في هذه القصّة انطباع حسيّ حرّيف، لدرجة قد تدفع بي إلى استهلاك دورق كبير من عطر شانيل.

تيجو والضُرّاط الأربعة:

اِلتقى أربعة أصدقاء قدامى. فقال الأول: عندما أضرط أصدر صوتاً رهيباً ورائحة لا تطاق. قال الثاني: أمّا أنا فأصدر صوتاً رهيباً، لكن لا رائحة البتّة. قال الثالث: أنا، عندما أضرط لا أصدر أيّ صوت، لكنّي أصدر رائحة، وأيّة رائحة يا أبنائي! وقال الرّابع: أما أنا، فلا رائحة ولا صوت. وبعد صمت طويل، ونظرات من طرف خفيّ، سأله أحدهم: وإذن، لماذا تضرط؟

72 سنة، 9 أشهر، 27 يوماً الثلاثاء 6 أغسطس 1996

هيّا، هيّا، تشجّع قليلاً: ما هي تحديداً طبيعة الأسئلة غير المصاغة التي أطرحها على نفسي بخصوص مثلية غريغوار؟ هو ذا السؤال الفعليّ! فكّرت فيه ظهيرة اليوم بينما أنظر إليهما، هو

وفريديريك، يقطفان التوت البريّ. وجاءتني الإجابة من غريغوار نفسه بعد العشاء، وتحديداً بعدما ابتلع آخر لقمة من حلوى الكرومبل[1]. وبينما نتجوّل في الحديقة تأبّط ذراعي وقال لي إنّه يعرف تماماً بما أفكّر. تتساءل يا جدّي من منّا، أنا وفريديريك، يركب الآخر. (ذهل الجدّ قليلاً). إنّه لأمر عاديّ لو تعلم، فالجميع يطرحون مثل هذه الأسئلة عندما يتعلّق الأمر بالمثلية. (فاصل زمنيّ). وبما أنّك تحبّني مثلما أحبّك، فإنّك تتساءل عمّا إذا كان حفيدك يأخذ كامل احتياطاته حتّى لا يُصاب بتلك القذارة المسمّاة «سيدا». قضي الأمر، وانفكّت العقدة التي تنكسر عندها انشغالاتي. وأطلقت العنان لسيل الأسئلة التي قد تعذّب الصبيّ ولا يجرؤ على مطارحتها مع أحد: ماذا عن اللّعاب؟ هل يمكن أن يكون وسيلة لنقل المرض؟ والقضيب؟ هل يمكن أن تنتقل السيدا أثناء لعق القضيب؟ والبواسير؟ واللّثة؟ هل تعتني بأسنانك؟ ووثيرة الممارسة؟ وتعدّد الشّركاء؟ هل أنتما على الأقل وفيّان لبعضكما؟ لا تقلق يا جدّي، ففريديريك لم يترك زوجته ليخونني مع رجل! أمّا أنا، فمثلك يا جدّي أحاديّ العلاقة. أمّا عمّن يركب الآخر، فكلّ مرّة واحد، بحسب المزاج أو سيرورة المعركة. أحياناً نفعلها بالتناوب. قمنا بدورة أخرى في الحديقة فأعطاني شرحاً أكثر تقنيّة: أمّا عن السؤال: لَمَ **اخترتُ المثلية**؟ فذاك سؤال فضفاض يا جدّي! لنظلّ على السّطح، رجاءً؟ وحده الرّجل يستطيع أن يقنع فعلاً بالرّجل. لنأخذ مثلاً اللّعق، من وجهة نظر تقنية صرف: ينبغي أن يحسّ المرء بنفسه

(1) حلوى ذات أصول بريطانية، تصنع من الفواكه. (م)

twitter @baghdad_library

مدى متعة أن يُلعق، لكي يصير لاعقاً جيّداً! أمّا المرأة فمهما عَلا كعبها، فلن تحيط سوى بنصف المسألة.

وفي وقت متأخر من اللّيل، حين بقينا لوحدنا أمام المدفأة، أسرّ لي بهذا: في الحقيقة أنت يا جدّي السبب في اختيارَيّ معاً. لقد صرت طبيباً حتّى لا أدعك تموت، ومثليّاً لأنّك اصطحبتني لمشاهدة غريستوك. لقد كان ذاك الفتى الوسيم العاري بين الأشجار، ملاكي المبشّر! لكنّ سنّك لم يكن يتعدّى آنذاك ثمان سنوات! أي نعم، لقد دخلت هذا الميدان أيضاً، مبكراً!

وفي وقت متأخرٍ أكثر، أثناء حديثنا عن الطبّ، حكيت له واقعة موت فيوليت. فشخّص الحالة بتجلّط وريديّ عميق. لقد كانت فيوليت تشهق أكثر فأكثر، ودواليها تكبر، وتجهدها الأعباء البدنيّة، وفي ذلك اليوم صعدت خثرة دمٍ من ساقها أو فخذها حتى وصلت الصّدر، فحبست تنفّسها. لقد تعرّضت فيوليتك يا جدّي لانصمام رئويّ حادٍ. ما كنت تستطيع أن تفعل لها شيئاً، لا أنت ولا أحدٌ غيرك.

لأوّل مرّة، منذ ستين عاماً، أفكّر في موت فيوليت وأنام مرتاحاً.

8

73-79 سنة

(2003-1996)

ما السّن التي نكفّ فيها عن التّصريح بسنّنا؟
ما السّن التي نستعيد فيها تلك العادة؟

twitter @baghdad_library

73 سنة، 28 يوماً **الخميس 7 نوفمبر 1996**

نهاية غير متوقّعة البتّة لندوتي في بروكسل. أمسكني كلّابان من جنبيّ، وضغطا عليّ إلى أن قطع الألم أنفاسي. مؤكّد أنّ لوني شحب. قطّبت حواجب الحضور. استجمعت قوايا كلّها حتّى لا أنكسر جزأين، وحتّى أظلّ منتصباً خلف منبر الخطبة الذي أتشبّث به. وعندما استعدت إيقاع تنفّسي ومجرى حديثي خُيّل إليّ أنّ صوتي نزلَ درجةً في سلّم الموسيقي. حاولت جاهداً أن أرفعه، لكنّ الألم كان يحرمني من الهواء اللازم. غمغمت خلاصةً كيفما اتّفق، وانسحبت. لم أحضر العشاء، وفور عودتي إلى باريس اتّصلت بغريغوار الذي نصحني، بعد استشارة فريدريك بأن أجريَ فحصاً بتخطيط الصدى على مثانتي وكليتيّ. لقد تحجّرت مثانتي وتضاعف حجم كليتيّ. البروستات هي السّبب، فإذ تضخّمت ضغطت على قناة التبوّل حتّى جعلتها في سمك الشّعرة. ولم يعد البول يجري بالسرعة المطلوبة فانتفخت مثانتي كقربةٍ حتّى فقدت مرونتها (وهذا المقصود بمفهوم «التحجّر»)، فاحتفظت الكليتان بالسّائل الذي ما عادت تستطيع طرده. من الضروري إجراء فحص دقيق للمثانة. يتطلّب

twitter @baghdad_library

الأمر -كما وضّح لي غريغوار- إدخال كاميرا عبر قناة القضيب لاستكشاف المثانة من الدّاخل. فكرة أن يدخل أيّ شيء عبر قضيبي ترعبني. أن تُؤتى من قضيبك! كان عليّ أن أبلع حبّتين من عقار Xanax[1] حتّى أتقبّل ما وصفه لي غريغوار بضرورة فحصية، لكنّها طريقة تعذيب صينيّ تلك، على المجرى أن يكون منتصباً مثل سلك شديد التوتّر! لا تقلق يا جدّي، سنجري لك تخديراً موضعياً ولن تحسّ بشيء. ستخدّرون مثانتي؟ كيف بالإمكان تخدير المثانة؟ عن طريق حقنة؟ وأين؟ في الدّاخل؟ مطلقاً!

ليلةٌ بيضاء تماماً.

73 سنة، شهر واحدٌ، يومان الثلاثاء 12 نوفمبر 1996

أسلمت نفسي أمس، ميتاً أكثر منّي حيّاً، لفحص المثانة ذاك، لكنّي كنت واعياً بما يكفي لأتتبّع تسلّل ذاك الثعبان الكاميرا داخل مجرى قضيبي. لم يكن الألم بالقدر الذي تخيّلته. يتقدّم الإحساس بداخلي، كأنّ أحدهم يزحف بداخلي. فكرت في مترو **فلّيني روما**[2]، في العجائب التي تبحث عنها تلك الكاميرا وهي تنتهك مثانتي. ألفى الرّاديولوجيّ صعوبة في إيجاد المدخل. اصطدم رأس الكاميرا عدّة مرّات بما حسبته الجدارَ الخارجيّ لمثانتي، قبل أن يتمكّن من الدّخول. حسناً، ينبغي توسيع هذا قليلاً. (ثمّة أنواع عديدة من الأطبّاء: من يقلّلون من شأن الأمراض، ومن يهوّلون

(1) عقار يوصف في حالات القلق القصوى. (م)

(2) **فلّيني روما**، فيلم من إنتاج فرنسي إيطالي، أخرجه المخرج الإيطالي فدريكو فيلليني سنة 1972. (م)

الأمر، ومن يصرخون في وجهك، ثمّ من يفسّرون لك (شأنَ طبيبنا هذا). إنّهم كما يقال «أناس مثلهم مثل غيرهم»، توجِّههم معرفتُهم ومزاجهم. انتهى المطاف بالكاميرا إلى الوصول إلى الجهة الأخرى، وقال لي الطّبيب: انظُر إنّنا داخل مثانتك. لا علاقة للأمر بروائع فلليني المختفية في قبو روما؛ مجرّد صورة بالصّدى، تعجز عيوني غير الخبيرة عن فكّ شفرتها. جيد، إنّها ليست في حالة سيّئة جداً. متحجّرة فقط. ما إن أخذ الصّور حتى سحب الكاميرا: خذ نفسك. فاجأني إحساسي بها تسحب أكثر من إحساسي بها وهي تدخل، كأنّما أعضائي أَلِفت تلك العين المتجسّسة النّاتئة عند طرف ذاك المجسّ النّباتي. ظهيرة اليوم نفسه، زرتُ الجرّاح. سأجري العملية يوم الجمعة عند السّاعة الثالثة ظهراً. سيتمّ توسيع قناتي البولية بالتّضييق على البروستات، وسأُعطى مسباراً محمولاً إلى أن تستعيد مثانتي مرونتها، وتستعيد مع المرونة وظائفها. أكّد لي الجراح: لا تقلق إنّها من الحالات المعتادة، أجري عشرة عمليّات مماثلة في الأسبوع الواحد.

73 سنة، شهر واحد، 4 أيام　　　　الخميس 14 نوفمبر 1996

قضيت هذه الأيام الثلاثة كالمستفيد من تأجيل التّجنيد. ضربت صفحاً عن حراسة جسدي، الذي صار الآن بين يديّ الطبّ، وأرخيت العنان للملذّات التي تنفتح أمامه وتمنحه قيمة الحياة التي لا تقدّر: طاجينُ حمام لذيذ: استشرى الكزبر والزّبيب الأبيض والقرفة حتّى بلغ مُخَيْخي؛ وصيحات الأطفال في البهو؛ وعتمة قاعة سينما حيث أمسكت يد مونا ولم أتركها (دائماً تقول لي إنّ المرض يجعلك

twitter @baghdad_library

رومانسيّاً)؛ غروب شمس فوق ممرّ قنطرة الفنون، كأجمل ما يكون. وشفافية هواء باريس رغم كلّ شيء! هواء باريس لا يتحوّل قطّ إلى هواء بنزينيّ بالكامل.

73 سنة، شهر واحد، 5 أيام السبت 15 نوفمبر 1996

خرجت مرتاحاً عقب التّخدير الكليّ. ولا قلق في الأفق. ليس لأنّ الأمر لا يدعو إلى القلق، ولكن لأنّ تلك إحدى فضائل المستشفى: ما دام الأمر يتعلّق بالجسد فحسب، فلنستغلّ الفرصة لتدعيم الرّوح. بعبارة أخرى، لا حاجة لتقليب الأمر كثيراً. ما دمت لا أتألّم فلا حاجة إلى القلق. الأنبوب يشتغل بدلاً منّي. الأمر مريح. فقط حين يُسحب الأنبوب نتألّم، بحسب ما أخبرني جاري في الغرفة. سنرى. بلى، إنّي أعرف ما أقول، إنّها المرّة الثالثة التي أعود فيها إلى هنا. إنّ هذه العمليّة الحقيرة لا تصمد لفترة طويلة! سنرى. لقد خَبِرتُ كلّ شيء.

من جهة أخرى إنّ قصّة جاري مثيرة للاهتمام، لكنّه كذب عليّ. هو لم يعد للمرّة الثالثة من أجل العمليّة نفسها. لقد دخل المستشفى في المرّة الأولى لتضييق حجم البروستات، مثلي بالتّأكيد، لكنه في المرّة الثانية عاد بغرض استئصال تلك الكمأة تماماً لإصابته بالسّرطان. (لمَ تصوّرت طيلة حياتي البروستات على شكل كمأة؟). أمّا في المرّة الثالثة فقد عاد لسبب آخر. فما إن غادر المستشفى، حتى طبّق تعليمات الطّبيب: لا تغيّر شيئاً من عاداتك السّابقة. هل أحيا تماماً كما كنت أعيش من قبل؟ تماماً كما كنت تعيش من قبل يا سيّد شارلمانيْ (اسمه شارلمانيْ)! فذهب الرّجل إلى الصّيد، تماماً

كما كان يفعل من قبل. كان اليوم يوم 15 سبتمبر، أي عشيّة انطلاق موسم الصّيد، كيف له أن يفلّت مناسبة مثل تلك! تعثّر رفيقه (كان برفقة صهره)، فانطلقت الرّصاصة، وها هو السيّد شارلمانيْ محشوٌ بالرّصاص بدل بروستاته. كان يحكي ويضحك. وضحكت معه.

– لكن الأمر لا يمنع من أنّنا نتعذّب لحظة سحب الأنبوب!

– سنرى يا سيّد شارلمانيْ.

– لقد خَبِرتُ كلّ شيء.

73 سنة، شهر واحد، 8 أيام الاثنين 18 نوفمبر 1996

لا أحبّ الزّيارات في المستشفى. مثلما لم أكن أحبّها عندما كنت في المدرسة الدّاخلية، ومثلما سأرفضها في السّجن، لو دخلته يوماً مّا. إنّ ما يضمن أدنى درجات راحتنا هو إحساسنا بأنّنا مستقلون بعوالمنا الخاصّة. إنّي وحيد في المستشفى رفقة عُزلات أخرى تضمن لي رفقة مؤثّرة. لا زيارات إذن، باستثناء زيارات مونا وغريغوار طبعاً، وتيجو الذي أتى يخبرني حكايةَ لويس جوفي الذي غادر المستشفى بعد استئصال البروستات. أراد نادل المقهى الذي اعتاد جوفي شرب قهوته الصّباحية فيها، أن يسأله بكلّ طيبة عن حالته الصّحية. وبما أنّ النادل يلُجُّ أثناء الكلام فقد أتى الحوار كالتّالي: سي... سي... سيّد جوفي، ما... ما هي... ما هي... ما هي الب... الب.. البر... البروستات؟ فأجابه جوفي: البروستات يا ولدي هي حين يتبوّل المرء مثلما تتحدّث أنت.

twitter @baghdad_library

73 سنة، شهر واحد، 17 يوماً الأربعاء 27 نوفمبر 1996

للمرّة الثّانية في حياتي تركت جسدي في المستشفى. أمس، لحظة خروجي، ظنّوا أنّ بالإمكان سحب الأنبوب، لكنّ مثاني رفضت الاشتغال. حصل لي ما أسماه الممرّض «انحباس المثانة». هو ذا التّعبير المناسب. المثانة تنحبس. إنّها كالقفل المسدود. لا تسمح بمرور ولا قطرة واحدة. أمّا الألم فيتعاظم وينتشر من أسفل البطن حتى أعلى الرّكبة. ثمّ تحسّ أنّك تنكسر نصفين بأعصاب متوتّرة. عيناك تجحظان من هول المفاجأة، وتغرق في عرق بارد، ولا تستطيع الكلام، بالكاد تخرج كلمات تشير إلى أنّك تتألّم: انغلقت حول عانتي، أنفاسي محبوسة بسبب الصّلب المنصهر الذي ينقذف منّي. وشارلمانيْ يعلّق على ما يحدث لي: ألم أقل لك، إنّ عمليّتهم لا تنجح البتّة؟

وما إن أعادوا الأنبوب إلى موضعه حتّى اختفى الألم، كأنّما بفعل السّحر. ينبغي الاحتفاظ بالأنبوب شهراً أو شهرين حتّى تستعيد المثانة عافيتها. حسن، حسن، حسن.

73 سنة، شهر واحد، 18 يوماً الخميس 28 نوفمبر 1996

خارج المستشفى بصحبة أنبوب، إذن. ينطلق من مثانتي، ويخرج من قضيبي، ويمتدّ على طول ساقي اليمنى ويفضي إلى كيس تبوّل مثبّت أعلى كاحلي. يتمّ إفراغ الكيس كلّما امتلأ. تقريباً مرّة كلّ أربع ساعات. يا للمفاجأة، مرونة كبيرة ولا إحساس بالألم في قناتي البولية! أنا الذي كنت أخشى دخول الكاميرا في مجرى قضيبي

أدرك الآن أنّ بالإمكان تمرير قطار آلي هناك.

لكن الأهم ليس هنا: الأهم هو وظيفة **التبوّل** نفسها. تلك الوظيفة التي حسبتها دائماً وظيفتي، خِلتُها خاضعة لوعيي وإرادتي، ومعبّراً عنها وفق حاجاتي، وها أنا الآن أُلفيها خارجةً عن نطاق إرادتي، متحرّرة وغير خاضعة سوى لنفسها. جسدي يُفرغ نفسه بحسب امتلائه، وهذا كلّ ما في الأمر. دورة مستقلّة عن إرادتي. وأسفل ربلة ساقي هذا الكيس الذي أفرغه مثلما يفرغ المرء البرميل (مثل الصنبور الذي يُفرغ به برميل النّبيذ). كم مرّة سمعت الحديث عن الإهانة التي تسبّبها وضعيات مثل وضعيّتي؟ هل تدرك الأمر، إنّه يعيش بواسطة آلة. ودائماً يتبع الأمر صمت مُشفقٌ، وأحياناً ادّعاء شجاعةٍ مضحك: لو كنتُ مكانه لأطلقت على نفسي رصاصة! (آه! بطولة الأصحّاء!). في مثل تلك الأحاديث تعوّض كلمة «الآلة» المحتشمة كلمات «البول» و«الدّم» و«البراز». كلّما تحدّث أحدهم عن الآلة استحضرَ مواجهة المريض بإفرازاته. فتكون النّتيجة الاشمئزاز أو الكبت. كلّ ما سعينا إلى إخفائه طيلة حياتنا هو ذا الآن مكشوفٌ أمام العين واليد. الأمر باعث على الاشمئزاز! ومع ذلك لست أحسّني، لا مشمئزاً ولا مهاناً ولا محتقَراً. هل كنت لأحسّ ذلك لو أنّ محادثيّ كانوا على علم بحالتي؟

73 سنة، شهر واحد، 21 يوماً الأحد فاتح ديسمبر 1996

في العمق، أشهد كلّ يوم تنفّس كليتيّ.

twitter @baghdad_library

73 سنة، شهر واحد، 28 يوماً   الأحد 8 ديسمبر 1996

أمس مساءً، وقعت لي حادثةٌ عند آل أ. الذين تعشّينا عندهم لأوّل مرّة. حركة غير محسوبة بين قدميّ فكّت خردتي. مزّقت ساقي اليسرى الأنبوبَ. تدفّق السائل على امتداد ربلة ساقي اليمنى مكوّناً بركةً صغيرة حول قدمي. تظاهرت بأنّ منشفتي سقطت، وانحنيت لألتقطها، وهناك مسحت البول وأعدت تركيب آلتي، دون أن يفطن أحد للأمر. عليّ الانتباه إلى هذا الأمر من الآن فصاعداً. وحين أردت الانصراف اختلست المنشفة (أفضّل أن تلحق بي وصمة لصّ مناشف، على أن أسمّى الضيفَ الذي يبول تحت المائدة).

73 سنة، شهران   الثلاثاء 10 ديسمبر 1996

يتحدّث الجميع حولي عن الأمراض. «أنت لا تستطيع أن تفهم الأمر، لم يسبق لك أن كنت مريضاً!» من حسنات هذه المذكّرات حفظها لجميع حالات جسدي. سترضي هذه المذّكرات كثيراً من يتحدّثون حولي عن الأمراض.

73 سنة، شهران، يومان   الخميس 12 ديسمبر 1996

أنا ساعةٌ مائية.

73 سنة، شهران، 4 أيام   السبت 14 ديسمبر 1996

بشرتي لا تحتمل اللّصقات الطبيّة التي تشدّ الأنبوب إلى ساقي. تهتاج. تلتهب. غيّرت غير ما مرّة موضعها، وانتهى بي المطاف إلى

نقل الأنبوب إلى السّاق الأخرى. النتيجة: ساقيّ معاً يشبهان ذراع مدمن حقن. ينبغي إيجاد حلّ آخر.

73 سنة، شهران، 5 أيام **الأحد 15 ديسمبر 1996**

وجدت الحلّ حين شاهدت كوكبة درّاجين في الشان-دو-مارس، وتأمّلت شكل أفخاذهم. غداً سأشتري ذاك السّروال اللاصق الذي يلتحم بهم كجلد ثانٍ. عندئذٍ سيلفي الأنبوب نفسه محشوراً بين السّروال اللاصق والفخذ؛ ولن أحتاج إلى لاصقات طبيّة.

73 سنة، شهران، 7 أيام **الثلاثاء 17 ديسمبر 1996**

نجح الأمر. السروال يثبّت الأنبوب لصق جلدي. ضحكت مونا عندما رأتني: يا درّاجي الجميل! مؤخّرتي شبيهة بمؤخرة ثعلب الماء. سروال الدرّاج ذاك اشتريته من متجر أدوات رياضية يشرف عليه شاب تبدو عليه أمارات الصّحة والعافية. وقع بيننا شنآن بسيط. كنت قد انتبهت إلى أنّ كيسي قد امتلأ فسألته عن موضع المرحاض، أجابني: لا مرحاض للزّبائن! أخبرته أنّ الأمر مستعجل، فكرّر: لا مرحاض للزّبائن! وإذ أوليته ظهري دون إلحاح، سمعته يغمغم: لكلّ منّا برازه!

اِتّجهت صوب رواق الأحذية، تظاهرت بأنّي أقلّب بينها، ثمّ اخترت حذاء صيد كأجمل ما يكون، أخضر وباطنه ومقدّمته من جلد طبيعيّ، وأفرغت فيه محتوى كيسي.

twitter @baghdad_library

73 سنة، شهران، 10 أيام **الجمعة 20 ديسمبر 1996**

في الحانة، حيث دعوت المحامية ر. احتفاءً بالانتهاء من قضيّة رافعت فيها لصالحي. اِقترحت عليها، كما يجب، أن تجلس على المصطبة بينما أجلس أنا على الكرسيّ. هي شابّة ذكيّة ومرحة ومتألّقة وجميلة. وبما أنّه ما عادت من حاجة للحديث عن ملفّنا، فقد أخذ الحديث سريعاً مجرىً خاص. وسريعاً- ماذا أقول؟- سريعاً نسيت الأنبوب اللّعين بين فخذيّ، ونسيت سنّي، بل أكثر من ذلك نسيت فرق السنّ بيننا. إلى أن تحرّكت الشّابة فوق مصطبتها وجعلتني أرى وجهينا جنباً إلى جنب: وجهها طريّ وشاب ومتألّق وحليبيّ ومتورّد؛ ووجهي في المرآة متوقّف عن النّمو ومتغضّن ومصفرّ وشائخ. تفاحة طريّة جنب تفاحة ذابلة.

73 سنة، شهران، 11 يوماً **السبت 21 ديسمبر 1996**

بينما أعيد قراءة ما كتبت أستعيد إحدى حكايات تيجو الأكثر طرافة:

متشرّدان جالسان على الرّصيف يتابعان فتاةً مارّة. قال الأوّل للثّاني:

- أرأيت تلك الفتاة هناك؟ أمس كان بإمكاني أن أضاجعها.

الثاني:

- هل تعرفها؟

- لا. لكنّ قضيبي أمس كان منتصباً.

73 سنة، شهران، 16 يوماً الخميس 26 ديسمبر 1996

غداً يتمّ تخليصي من أنبوبي. هل أتوقّع انحباساً جديداً للمثانة؟ حين سألت الجرّاح منحني ليلةً بيضاء: أرجو أن لا يكون ذلك. أن يحمل المرء ذاك الأنبوب لمدّة شهر، هو في حدّ ذاته إنجاز كبير. لا أرى ماذا بوسعنا أن نفعل أكثر!

73 سنة، شهران، 17 يوماً الجمعة 27 ديسمبر 1996

خلّصوني من الأنبوب إذن. إذا ما كانت كلمة «الترقّب» تعني شيئاً، فأحسب أنّي عشت إحدى أكثر لحظات حياتي «ترقباً»! هل ستعمل مثانتي مجدداً أم لن تعمل؟ لقد تردّدَت. انتابني إحساس غريب (هل تخيّلته)، إحساس الكرة التي تتمطّى إذ ننفخها. ومع تمطّيها عاودني ألم قديمٌ، ألم يلوّح بانحباس في المثانة. ازداد الألم بازدياد الضّغط. بدأ الألم يستشري داخل فخذيّ. حبست أنفاسي. تعرّق صدغيّ. صرخ فيّ الممرض: تنفّس! كفّ عن التيبّس هكذا، استرخ! وإذ حاولت إفراغ رئتيّ لم أستطع أن أفرغَ سوى منخريّ. دمعت عينايَ. ثمّ انتفخت المثانة ورُفع السدّ دفعة واحدة، فامتلأ الوعاء ببول مضمّخ ببقايا دمٍ، لكنّه كان بولاً ثقيلاً كبول الحصان. قال الممرض: هل رأيت ما تستطيع أن تفعل حين تريد!

أودّ أن أقضي فترة في كلّ مستشفى من مستشفيات فرنسا حتّى أدرس اللغة التي يُتحدّث بها إلى المرضى.

twitter @baghdad_library

73 سنة، 3 أشهر، يومان **الأحد 12 يناير 1997**

أعيش هذه الأيام لحظات انتعاش ولحظات تدهور. فرحي بأنّي تخلصت من ذلك الشّيء الذي كان مزروعاً بين فخذيّ، يحدّ منه خوفي من أن يعيدوا وضعه لي. لهذا أفحص دفق بولي بشكل دائم. الكمية والكثافة متغيّرتان. من حين إلى آخر يصدر عنّي دفق بول فعليّ قمين بأن يسقيَ [الأرض]، فترنّ له جفنة المرحاض ويصاحبها تهليلي الشّبيه بذاك الذي قد يصدر عن مراهق واثق من إمكاناته. أمّا باقي المرّات، فلا أصنع أكثر من نافورة واهنة.

73 سنة، 7 أشهر، 10 أيام **الثلاثاء 20 مايو 1997**

اِصطدمت اليوم اصطداماً عنيفاً بأحد أعمدة الشّارع. كنت أتمشى قرب السوربون. كانت الشّمس ساطعة. وعلى الرّصيف المقابل جماعة من الطالبات يرحبن بمقدم الرّبيع. لقد أتين مصطحباتٍ نهودهنّ المتحرّرة تحت أقمصتهن الخفيفة، بل إنّ نهدَي إحداهن كانتا يانعتان تحت قميص مارسيلي[1]. أوه! يا لسائقة الشّاحنة الجميلة! ظللتُ أتابعهن وأنا أتمشى، فرحاً بأنّي ما عدت أستطيع أن أشتهي أيّاً منهن. إعجابٌ خالص إن جاز لي القول. لم يُعر العمود أيّ اهتمام للأمر. لقد صفعني بعنف كأنّما أنا عجوز قذر يستعدّ للانقضاض على فريسته. سقطت إلى الخلف. شبه مغمىً عليّ. ساعدوني على الوقوف، وأجلسوني على رصيف مقهى. كان

---

(1) قميص بلا كمّين ولا ياقة، يكشف النّحر والذراعين. (م)

العمود لا يزال يرنّ داخل جمجمتي. كنت أنزف. أرادوا طلب سيّارة إسعاف. رفضت. اِقتنوا مُطهراً ولاصقة طبيّة من صيدلية مجاورة. وتمكّنت طيلة فترة إغمائي من تأمل صدر تلك التي كانت منحنيةً عليّ تضع لي الضّماد. أحقاً لا تريد أن نطلب لك الإسعاف؟ أجل، لا أريد! طلبوا سيّارة أجرة، فرفض سائقها نقلي بسبب الدّم على قميصي. هاتفت مونا، وبينما أنتظر وصولها، طلبت كأس كونياك وماءً بالنّعناع وفنجانيْ قهوةٍ امتناناً للصّغيرتين. هل أنت على ما يرام؟ هل أنت متأكد من أنك على ما يرام؟ أجل، أنا على ما يرام، إنّها ليست سوى ضربة عمود في جميع الأحوال. عمّ بوسعنا الحديث؟ عن عمود الإنارة؟ عن دروسهنّ؟ لن يرغبن في الحديث عن شيء آخر أكثر من ذلك. عن انتحار رومان غاري، حين أحسّ نفسه بلغ مرحلة العجز؟ أم عن راحة بونويل حين شعر بأنّه تحرّر أخيراً من طاقته الجنسية؟ وحين عادت الصّغيرات إلى كلّيتهنّ طلبتُ كأس كونياك أخرى، شربتها في صحّة بونويل. كان يردّد بأنّه لو اقترح عليه الشّيطان استعادة قوّته الجنسية لرفض، مفضلاً أن يستعيد عافية كبده ورئتيه كي يستطيع أن يدخّن ويشرب حتّى الثمالة.

73 سنة، 7 أشهر، 11 يوماً الأربعاء 21 مايو 1997

منذ متى اقتنعت بأنّي ما عدت أرغب في النّساء؟ منذ أن أجريت جراحة البروستات؟ منذ أن توقّف قضيبي عن الانتصاب، أو لم يعد ينتصب إلا قليلاً؟ منذ زمن أبعد من ذلك؟ منذ أن أدخلني لقائي بمونا إلى عالم الجنس الأحادي الشّريك؟ الحق أنّي لم أخنها قطّ. ونادراً ما اشتهيت نساءً أخرياتٍ. لقد رضي كلّ منّا بالآخر، بكلّ

twitter @baghdad_library

معنى الكلمة. ودامَ لنا الرّضا، لكن مع الزّمن توقّفت رغبة مونا، فهل كان ينبغي أن تتوقّف معها رغبتي؟ هل كونها لا تريد يستلزم بالضّرورة أنّني لا أستطيع؟ هل هي حكمة جسدٍ مشترك، بمعنى من المعاني؟ انظر! ما بين «ما عدت أستطيع» و«ما عدت أرغب»، لا تفصل سوى خطوة، لكن على المرء أن يجتازها بعينين مغمضتين. ضارباً صفحاً عن كلّ ما هو خارج نفسه. فلو فتحت عينيك، مهما كانت الفتحة صغيرة، سنرى أسفل أقدامنا الهاوية السّحيقة، هاوية «**أن لا نكون**». همنجواي وغاري وحشد من المجهولين فضّلوا القفز بدلاً من أن يواصلوا المشي على الطّريق.

ثمّ، سواءً كانت ثمّة رغبة أو لم تكن، فإنّ عيني مقفلة ونصف وجهي متورّم، ممّا لا يجعل منّي البتّة موضوعاً للرّغبة.

73 سنة، 7 أشهر، 12 يوماً الخميس 22 مايو 1997

تيجو: ما كنت لأستطيع أن أخلص لامرأة واحدة. لأنّي ساعة تقديم امرأتي كنت لأشعر بأنّي أستعرض قضيبي.

73 سنة، 7 أشهر، 14 يوماً السبت 24 مايو 1997

عشاء عند ابن ن. عشاءٌ كان موعده قد حُدّد منذ مدّة طويلة. أصرّ الولد على شكري. كنت قد قدّمت له خدمةً. وسبق لي أن أجّلت الموعد. لا سبيل إذن إلى الاعتذار مرّة أخرى، حتّى لو تحجّجت بالرّأس. الرأس التي لم يثر أحد موضوعها طيلة السّهرة. مع ذلك، وحده اللّه يعلم كم تستحقّ التأمّل! قوس قزح بالأبعاد الثلاثة. هذا النّوع من الكدمات يتلوّن بينما يُشفى. تمرّ عليه كلّ

الألوان وكلّ الدّرجات. نحن الآن على مشارف المرحلة البنفسجية البرّاقة والصفراء الكبدية. محيط الكدمة، حيث ينحبس دم متلكّد، يكاد يكون أسودَ، لكنّ لا أحد ممّن يجلسون إلى المائدة ألمح إلى هذا الأثر الفنيّ الرّائع. لا أحد يتحدّث عن وجه السيّد. وهذا يناسبني. على أنّه في الجزء الثاني من السّهرة قام سؤال الجسد (ما نُخضعه له) بهجوم مضاد مباغت. ليز، الابنة الصغرى لـ ن. والتي تكون في العادة ثرثارة بحسب شهادة والدتها، والتي لا تصبر على بسط تظلّماتها من والديها أمام الحضور («أليسَ كذلك حبيبتي؟»)، ظلّت صامتةً طيلة العشاء. لم تتفوّه بكلمة واحدة ولم تأكل لقمةً واحدة. وما إن جمعت المائدة، حتّى انسحبت الفتاة إلى غرفتها. وشوشة الأم بصوت خافت وهي تعلِن الأسوأ: إنّ البنت مصابة بفقدان الشّهية. وهو التّشخيص الذي قلّبه زوجها بهدوء وبصوت منخفض. كلا، كلا يا عزيزتي، الصغيرة تغيظني، وتغيظك أنت أيضاً، والأمر عاديّ لا يدعو إلى القلق. غمغمت زوجته، ثمّ تشاجرا شجارَ الأزواج، وأخذ صوتهما في الارتفاع، إلى أن خرجت ليز من غرفتها صارخةً بأنّ الكيل طفح بها، الكيل طفح، «طفففففففففح»! وإذ أفصحت عمّا بها، فُتح فمها وُسعَه فكشف عن قرطٍ صغير ذي رأس فولاذي يتذبذب كالزّئبق عند طرف لسانها المتورّم. يا للفظاعة! ما هذا يا ليز؟ ما هذا الشيء الذي في فمك؟ تعالي هنا فوراً! لكنّ ليز أغلقت بابها بالقفل. الأمّ، وقد أحسّت بالعار، قلقةٌ لنوع الرّفاق الذين تصاحبهم ابنتها أكثر من قلقها على لسانها. وهنا تدخّل د. ج. وهو محامٍ من جيل مضيفينا نفسه. ووجّه الحديث صوب قضيّة التأثير.

twitter @baghdad_library

- قولي لي يا جونفييف، هل تلبسين السترينغ؟
- عفواً؟
- السترينغ، ذاك التّبان ذو الخيوط، الذي كان كلوديل قد أسماه منتصفَ النّهار، والذي يلقّبه البرازيليون بخيط تنظيف الأسنان.
ساد صمت بليغ، صمت يؤكّد، أكثر ممّا تؤكد الطريقة النّاعمة التي تنزل بها تنورة سيّدة المنزل على ردفيها المقسّمين تقسيماً رائعاً، أنّها ترتدي بالفعل سترينغ، وليس أيّ سترينغ!
تابع المحامي كلامه:
- وهل سألتك نفسك من أين التقطت هذه العادة، مع أنّ معارفك من خيرة النّاس؟
صمت.
- لأنّي أعتقد، لو سمحتم لي، أنّ السترينغ كان في الأصل لباس عاهرات، أليس كذلك؟ لباس عمل، مثله مثل القبّعة العسكرية. كيف صار اليوم إذن قطعة رائجةً حتّى بين العائلات الأشدّ محافظةً؟ ما مصدر التأثير؟
مال الحديث إلى مناقشة آثار العولمة. صمتنا أنا ومونا عن النقاش دون أن نبيّن ذلك.

73 سنة، 7 أشهر، 15 يوماً الأحد 25 مايو 1997

عدد الرّجال الأربعينيّين ممّن أهملوا حلق لحاهم في تلك الحفلة! إنّه لأمر باعث على العجب، فلسنا في عصر من العصور التي تطبعها المغامرة. أغلبهم هنا مؤمِّنون ومحامون وبنكيّون ورجال

اتّصالات ومعلومات وبورصة، كلّهم أُجراء عالمٍ افتراضيّ، جميعهم يَنُوؤون بثقل المَهام، ومستقرون إلى درجة تركٍ حفرة على الأرضية التي يستقرون فوقها. عقولهم منغمسة في حياة العمل المبتذلة، لكنّ هيئاتهم هيئات مغامرين. كأنّهم عادوا جميعاً للتوّ من صحراء تينيري (النيجر) أو هبطوا من قمّة أنابورنا (الهمالايا). الشّيء نفسه ينطبق على سترينغ مدام ن.، فهي امرأة فاضلة، أشدّ فضيلةً من عمّتي المرحومة نويمي. أستطيع أن أقسم على ذلك واضعاً يدي في النّار. إنّها باختصار، الموضة القائمة على قلب المعنى. أمّا أطفالهم، أولئك الصّغار الموّشمون ثاقبي أجسادهم، فهم ضحيّة هذا العصر الذي لا جسد له، بالمعنى الحرفيّ للعبارة.

74 سنة، 4 أشهر، 15 يوماً الأربعاء 25 فبراير 1998

عشاء عند آل ف. كدت أن أبصق لقمةً في صحني، بسبب مذاقها الفظيع. منعني من ذلك حوار مباشر مع سيّد المنزل. بلعتها كما هي، دون أن أتلمّظها في فمي. وحينئذٍ بصق محاوري اللّقمة من فمه في الصّحن، وهو يصرخ: عزيزتي، ما هذه الفظاعة! فأكّدت عزيزته: محار سان-جاك فسد.

74 سنة، 5 أشهر، 6 أيام الاثنين 16 مارس 1998

نهاية ندوتي في بيتلهايم (البرازيل). وضعت نازاري (مترجمتي) يدها على يدي وتركتها طويلاً، بينما أصبعين من أصابع يدها يداعبان معصمي. قالت لي: أرغب في أن أقضي معك هذه اللّيلة، أقصد اللّيالي الثلاث الباقية على رحيلك. كانت طبيعيّة في طلبها، حتّى

twitter @baghdad_library

أنّي بالكاد تفاجأت. شرّفني طلبها، لكنّه لم يفاجئني. شعرت أيضاً للحظاتٍ بالتأثّر. (كانت ثمّة لحظات ذهول كذلك، عليّ الاعتراف). نازاري كانت قد حضّرت معي هذه الندوة، تكلّفت هي بالاستقبال، عبّأت المناضلين، وطرقت جميع الأبواب بحماس. وأنّى حللنا: ساو باولو، ريو، روسيفي، بورتو أليغري، ساو لويس، كانت تعرف دائماً كيف تجنّبني الموائد الرّسمية، لتقودني إلى الأحياء التي تختارها بعناية، فاتحةً أمامي حلقات الموسيقى والفلسفة التي رغبت في تعريفي بها. ثمّ ها هي ذي يدها فوق يدي. صغيرتي نازاري (هي في الخامسة والعشرين)، شكراً لك، لكنّ الأمر سيكون مجرّد مضيعة للوقت، لقد حالت السّنون دون ذلك. قالت معترضة: أنت لا تؤمن إذن بالبعث! ليس فعل الزّمن فقط ما يمنعني، ثمّة أشياء أخرى: لقد مرّ مبضع الجراح من هنا، وماتت الرّغبة، وأنا مخلص لامرأة واحدة، وسنّي يفوق سنّها ثلاث مرّات، وبعد كلّ هذه السّنوات بلا ممارسة ما عدتُ أعرّف هويّتي بجنسي، وهي ستملّ في فراشي وأندم في فراشها. كانت أعذاري كلّها واهيةً، حتّى أنّ غرفة واحدة جمعتنا قبل أن أكمل جرد أعذاري. دعنا ننزلق فوق بعضنا بعد أن ننزع ثيابنا، فالأمر يكمن هنا تحديداً، في الانزلاق، بطء على بطء، عري فوق عري، احتكاك دقيق حتّى يغيب الإحساس بالزّمن والجاذبية والخوف. قلت لها «يا نازاري»، وشوشتني وهي تمطر عنقي بقبل قصيرة: «سيّدي، نحن لسنا في الندوة، استرخِ». ثمّ قبّلت بحنوّ صدري وبطني وظهر قضيبي الذي لم يرتعش لذلك، الأحمقُ، لكنّي لا آبه له، هو حرّ إذ لم يرغب في أن يلعب معنا لعبتنا. بلغت قُبل نازاري باطنَ فخذيّ، لسانها يفتح الطريق أمامَ وجهها بينما يديها

تنزلقان أسفل إليتيّ، أنثني، أصابعي تغيب في شعرها الرّائع، لسانها يجوسُني وشفتاها تغرقانني، وها أنا ذا في فمها، لسانها يضطلع بعملية لفّ بطيئة، بينما شفتاها تتحرّكان جيئة وذهاباً كالنّحات، وأنا أينع يا إلهي، أينع بتواضع، لكنّي أينع، أوه نازاري، يا نازاري، أجذب وجهها نحو وجهي، ونلفّ معاً على بعضنا، نازاري تنفتح وتستقبلني، نازاري التي أطرقها كمن يعود إلى بيته بعد غياب طويلٍ، خجولاً في البداية، أقف ساكناً عند العتبة، لن يدوم الأمر أقول لنفسي، فتهمس نازاري في أذني: لا تقل إنّ الأمر لن يدوم طويلاً، أنا أحبّك. وها أنا ذا بكاملي فيها وفيَّ، في منزل الأسلاف، أنزلق داخل الحرارة والرّطوبة المستعادتين، أكبر وأكبر واثقاً من نفسي، والزّمن يتقوّض، حتّى إنّي أستشرف الآن الانفجار قادماً من بعيد. أغنم ما وسعني من صعودها فوقي، أستمتع بوعودها، أتحسّس كيف تركبني، قبل أن أقلبها مرّة أخرى، قبل أن أقذف في النّهاية. ها أنت ذا، تقول نازاراي، نعم ها أنا ذا، أقذف كمن بعث من جديد.

74 سنة، 5 أشهر، 7 أيّام　　　　الثلاثاء 17 مارس 1998

وأنا أعيد قراءة ما دوّنته أمس، أفكّر في الدّور الذي تلعبه الضمائر في الوصف الإيروتيكي: لسانها يجوسُن(ي) وشفتاها تغرقان(ني)، وها (أنا ذا) في فمها. . . لم ألجأ إلى تلك الضمائر بدافع من العفّة (فأنا بالفعل أتحدّث عن خصيتيّ وقضيبي) ولا رغبة في رفع الأسلوب (فلن يكون الأمر في أفضل الأحوال سوى حجة أخرى على فشلي في ذلك)، كلا، إنّ الأمر بالفعل علامة هويّة مستعادة. فتلك الضمائر تشير إلى أنايَ. والأمر نفسه ينطبق على

twitter @baghdad_library

الاستعارات التي أشير بها إلى فرج نازاري، نازاري التي أطرقها، منزل الأسلاف، إنّها تشير إليها، إلى هويّتها كامرأة.

74 سنة، 5 أشهر، 9 أيّام الخميس 19 مارس 1998

بشرة نازاري المسودّة، عمق لونيّ لا يُسبر غوره؛ الهالات التي تحيط بفرجها، سمراء، رصاصيّة، زرقاء، حمراء؛ لسانها الورديّ؛ بياض راحتيها الورديّ؛ ليس بوسعي أن أحدّد من أيّ العجائب نهل بصري، ومن أي عمق ارتفع؛ أن ترى جسد نازاري عارياً معناه أن تغوص في جلدها. لأوّل مرّة أدرك أنّ جلدي ليس سوى لباس خارجي. جلد نازاري النّاعم، بمسامّه الضّيقة إلى درجة أنّها تكاد لا تُرى، جلد كالصّخرة المبلّلة، ترقص الفساتين فوقه مع كلّ خطوة. نهداها ومؤخرتها وبطنها وفخذاها وظهرها، كلّ تلك الأجزاء الشّديدة الكثافة، حتّى أنّ جسدها يبدو كأنّما هو الطّاقة بعينها. إيروسية نازاري... وإذ ألوم نفسي لأنّي لم أُبعث فوراً، توضّح لي نازاري: سيّدي، إنّك تحصر الجنس في وظيفته... في وظيفة... الإيلاج. وتستتبع كلامها بكرنفال من اللّمسات الجانبية، وغمر من المعانقات التي لا قبل لي بها، معانقات تفجّر هزّات نازاري الجنسيّة. نهدا نازاري جزيرتان على سطح حمّامنا الحليبي: أقدّم لكم بلَدَيْ إقامتي! نكهة نازاري، خليط من العسل والفلفل الحار؛ رائحتها، رائحة العنبر؛ رمال صوتها؛ عانتها الإفريقية المتفجّرة، حيث تضيع أصابعي. فلسفة نازاري: قلت وأنا في قمّة النّشوة: لا بأس، جيد! فاعترضت: بل قلْ: رائع! وأبانت لي على أنّ الكنايات والتوريات التي نستعملها نحن الأوروبيون كغاية للتّربية، تحدّ من

حماستنا وتضعف أدوات إدراكنا؛ لقد غطّى الأسلوب على كلّ شيء في حياتنا، وإنّنا نندحر. مزاج نازاري الهادئ: آه، يا سيّدي، تقول في زفرة طويلة وهي تغرق في النّوم؛ ولا أريد منها أن تناديني باسم آخر غير ذاك اللّقب السّاخر. دموع نازاري وهي تودّعني: بكت دون أن تحرّك وجهها، دموع صامتة تسيل على صخرتَي وجنتيها. والشقّ الذي بقيَ كالأثر على صدري لفرط ما ضممت إليه ذاك الكنز.

74 سنة، 5 أشهر، 15 يوماً الأربعاء 25 مارس 1998

أنا الذي تأثّرت كثيراً بسبب التباين بين وجهي ووجه المحامية ر. («تفاحة يانعة، تفاحة فاسدة»)، وأنا الذي احتفيتُ بموت رغبتي الجنسية حين كانت تعالجني الطالبة الشّابة ذات النّهدين النّافرين، وأنا الذي خلت أنّ عمليتي قد دقت الجرس ناعيةً انتصابي، أنا الذي ما عدت أحسب عقود الزمن؛ ما عدت أفكّر في نازاري من وجهة نظر فرق السّن. ما الذي كان سيحدث لو أنّ قوّة مّا أخرجتني من ذاتي، وأجبرتني على رؤية جسدي الشّائخ لصق جسدها الشّاب؟ هل ستكون صورة فظيعةً؟ صورة فاضحة؟ شيخ مقرف؟ ثمّة ضرب من الإعجاز يمنع قيام تلك الرؤية الموضوعية. ألا تؤمن بالبعث؟ تهمس لي نازاري. إنّه الآن حقيقة. أعرف الآن ما يحسّه المُبْعَثون، يحسّون عودة الحياة إلى هذا الجسد المتهلّل، يحسّون اختلاطَ الأزمنة/ الأعمار.

74 سنة، 5 أشهر، 16 يوماً الخميس 26 مارس 1998

أهنأ لي أن أموت وأنا في وضع المُبعَث.

twitter @baghdad_library

74 سنة، 6 أشهر، يومان　　　　　　　الأحد 12 أبريل 1998

قال لي تيجو وهو على سريره بالمستشفى: لقد بدأتَ حياتك في جسد شيخ، من العدالة إذن أن تنهيها في جسدٍ يافع. أضاف ضاحكاً ضحكة تختلط بالسّعال: ثمّ إنّ المؤتمرات صنعت من العربيدين أكثر ممّا أنتجت من العلماء! ضحكنا، واختنق، فنهرته الممرضة التي تحمل له عقاقيره. قال لي عندما انصرفَت: إنّهم يعالجونني.

75 سنة، شهر واحد، 17 يوماً　　　　　　الجمعة 27 نوفمبر 1998

مات تيجو هذا المساء. ودّعني أمس ومنعني من زيارته اليوم. لا تعقّد موتي... كلّما زرته، كنت أرى كيف يتقّدم المرض وتزداد العلاجات ضراوةً؛ لقد جعلوا من ذاك الجنوبي الأسمر شيئاً مُبيَضاً، أقرع ولا لون له، منتفخ كقربةٍ، وأصابعه ممتلئة بالماء الذي لم تعُد كليتاه تستطيعان طرحه. وبخلاف أغلب المحتضرين الذين يتقلّص حجمهم، تعاظم حجم تيجو كثيراً. بيد أنّه لا المرض (سرطان رئة استشرى في الأعضاء كلّها) ولا الطبّ ونصائحه (تيجو لم يشرب أو يدخن كثيراً يا سادة!) استطاعا أن يفلّا من عزيمة تهكّمه السّاخر الذي يحترم الموت ويأخذ الحياة كما هي: مجرّد جولة آسرة. عندما هممت بالمغادرة أشار لي بالاقتراب منه. وهمس في أذني: هل تعرف قصّة الرّث الذي لم يرد تَرْك الغابة؟ كان صوته قد صار مجرّد نفحة هواء، لكنّه كان لا يزال ينطوي على الحتمية الضّاحكة نفسها وعلى -ماذا أقول؟- ويفرض على مخاطبه الاستماع بتيقّظ.

هذه حكاية رثّ. رثّ من جيلك وليس من جيلي. يعني رثّ مسنّ جداً. رثّ نضبت خصيتاه وسقطت أنيابه. فطردته الخنازير اليافعة من العشيرة. وفجأة صار المسكين وحيداً في الغابة، مثل أحمق. صار يسمع صوت اليافعين وهم يأتون إناثه. فقرّر أنّ عليه ترك تلك الغابة والبحث عن مكان آخر، لكن المشكلة هي أنّه ولد في ظلّ تلك الأشجار، وقضى حياته كلّها فيها. «مكان آخر» كلمة مرعبة بالنّسبة له. لكن أن يسمع اليافعين يأتون إناثه، يقتله. فاتّخذ قراره النهائيّ. سأرحل! وها هو ذا يتقّدم إلى الأمام مطأطئ الرّأس، بين الأيكات، فالشّجيرات، فالأجمات، فشجيرات العلّيق، حتّى وصل طرف الغابة. وهناك ماذا رأى؟ رأى حقلاً منبسطاً تحت الشّمس! حقلاً أخضر! عجيبةٌ برّاقة! ووسط الحقل ماذا رأى؟ زريبةً مربّعةً! ووسط الزّريبة ماذا يوجد؟ خنزيرٌ ضخم. خنزير من الضّخامة بحيث يكاد يفيض عن الزريبة. خنزير عظيم ورديّ تماماً، أملطٌ بالكامل، كأنّه أصلاً لحم خنزير جاهز للاستهلاك! دهشاً، صاحَ الرّث العجوز بالخنزير الورديّ.

- هيه! أوه! أنت!

اِستدار الخنزير الغليظ صوبه.

فسأله:

- أليسَ صعباً. . . العلاج الكيميائي؟

twitter @baghdad_library

**75 سنة، شهر واحدٌ، 28 يوماً		الثلاثاء 8 ديسمبر 1998**

أيّاماً قبل وفاة تيجو، كنت قد اتّصلت بصديقه الأعزّ ج. س. (على مستوى الصّداقات، كان تيجو يتفاهم أكثر مع اليافعين). أجابني صديقه الأعزّ بأنّه لن يذهب لزيارته في المستشفى؛ فهو يفضّل أن يحتفظ في ذهنه بصورة تيجو المفعم «بحيوية لا تنضب». إنّه رقّة نجسة، تترك كلّ واحد يحتضر في عزلته. أكره الأصدقاء الرّوحيين. لا أحبّ غير الأصدقاء من لحم ودم.

**75 سنة، 9 أشهر، 6 أيام		الجمعة 16 يوليو 1999**

نثرت رماد تيجو في البرياك، كانت تلك وصيّته. من أعلى الشجرة حيث كان في طفولته يقطف ثمار القُرنية. (تيجو هو من أوحى لي بالفكرة.) إذ رأيت حفيدي يتسلّق تلك الشّجرة التي تضاعف حجم جذعها ثلاث مرّات بلا ريب، رأيتني لوهلة، أصعد لنجدة تيجو. كان تيجو هو مسلوخ معجم لاروس قافزاً من غصن إلى آخر، لكنّه كان يقفز بمرونة، دون ذلك الجانب المتصنّع الذي طبعتني به تمارين الإرادة، في حين ظلّ تيجو متحرّراً منه. حينما ألقيت رماده في الريح، اجتمع، ثمّ تفرّق، ثم اجتمع مرّة أخرى، وانعطف جانباً قبل أن يتناثر في السّماء. ودّعَنا تيجو وداع فتىً طائشٍ.

**75 سنة، 10 أشهر، 5 أيام		الأحد 15 أغسطس 1999**

أيقظتني مثانتي في الثانية صباحاً. قاوم كسلي الأمر، إلى أن

أجبرتني على النّهوض ضحكات قادمة من أسفل. غريغوار وفريدريك والتوأم يلعبون لعبة المسار. فاني تعترض على أنّ تعويذة سحرية تمنعها من التّقدم، وفريدريك يقهقه قائلاً إنّ رميتين من رقم ستّة تفصلانه عن الفوز. اِنتبهوا، هو ذا! أشارَ لي غريغوار بإصبعه، فمالوا جميعاً على اللّعبة، كأنّهم يخفونها عنّي. صاحت مارغريت كأنّها لا تزال طفلةً صغيرة: إنّه سرّ، لا يحقّ لك أن تنظر! حسبتها في البداية لعبة مسار الافتضاض، تلك التي كنت قد أهديتها له عندما كان لا يزال مراهقاً، لكنّ الأمر أنكى من ذلك: إنّها لعبة مسار مريض الوسواس، لعبة صمّمها أثناء ليالي الحراسة التي قضاها في المستشفى. من الأمراض الفظيعة إلى الأمراض الحقيرة ينتقل اللاعب بين الخانات، حتّى يصل إلى الخانة الأخيرة، خانة الموت، تلك التي تحرّره من الخوف من المرض. سألتني فاني: هل تريد أن تلعب معنا؟ (وأسجّل إعجابي بصيغة الاستفهام تلك التي تخرج من فم بنت من بنات جيلها.) أعطوني ثلاث رميات أتقدّم بها. أصبتُ خانة تصلّب الأنسجة، ممّا يعطيني الحق في أن ألعب مجدّداً. (هو ذا قانون اللّعبة، كلّما مرضت أكثر، كلما تقدّمنا أكثر). قالت مارغريت: غداً نلعب الفئات السبع! الفئات السّبع التي تقصدها، هي اثنان وأربعون مرضاً نتخلى عنها طواعيةً. (في فئة السرطان، طلبت البروستات؛ وفي فئة الأمراض الجلديّة، طلبت القوباء التّناسلية؛ وفي فئة الأطباء، طلبت باركنسون... إلخ)، قال غريغوار باسماً: لننزع الطّابع المأسوي عن الأمر، لننزع الطابع المأسوي، ففي جميع الأحوال، الخانة الأخيرة هي نفسها بالنّسبة إلى الجميع! يبدو أنّ الصّغار -الذين صاروا الآن كباراً- يحبّون اللّعبة.

twitter @baghdad_library

75 سنة، 11 أشهر، يومان **الأحد 12 سبتمبر 1999**

عشيّة موته قال لي تيجو، الذي كان يصغرني بعشر سنين: حتّى في السنّ، لحقتُ بك! الأكبر سنّاً هو الأقرب إلى باب الخروج.

اليوم نفسه، الخامسة مساء.

أكتب ما يلي وأنا أشرب الشّاي. لقد تخلّيت عن شرب القهوة منذ أجريت عمليتي. عندي انطباع بأنّ الشّاي يطهّرني. كأنّه حمّام داخلي. تشرب كأساً واحداً، فتبول ثلاثةً، هكذا كانت تقول فيوليت. ربما أنتقل يوماً مّا إلى شرب الماء السّاخن، كما كانت تفعل عمّتي هوغيت في آخر أيامها.

76 سنة، يومان **الثلاثاء 12 أكتوبر 1999**

على ذكر عمّتي هوغيت التي كانت لها «حُرقتها»، أو أمّي التي كانت «تصنع حموضتها» هل لا تزال هذه الصّيغ متداولة؟ وتلك المرأة التي كانت تتقلّب كلّ ربع ساعةٍ خمسَ دقائق، حتّى يسريَ البزموت[1] جيّداً في دواخلها... طريقتها في تمثّل نفسها كبرميل كانت تُضحك مَن حولها. ومع ذلك، لسنا في نهاية المطاف، مع حفظ الاختلافات بيننا، سوى أوعية. تأخذ مونا دواءً ضدّ هشاشة العظام، تشربه صباحاً على الرّيق بعد أن تخلطه بقليل من الماء. وبعد ذلك، عليها أن تظلّ واقفة نصف ساعة لا تستلقي فيها، لأنّ

(1) عنصر فلزيّ، ذو خصائص علاجية. (م)

وضعية الاستلقاء، قد تدفع بالدّواء إلى الالتصاق بمريئها كالغراء. نحن إذن أوعية، لا أقلّ ولا أكثر. وبين قوسين، صار البزموت يعدّ اليوم سماً، ويمنع الأطباء منعاً باتاً تناوله.

77 سنة، شهران، 8 أيام الاثنين 18 ديسمبر 2000

أيقظني ألم في مفاصل السلامى المرتبكة بالبنصر، هو نفسه الإصبع الذي كنت قد كسرته في حديقة مدام ب. منذ عشر سنوات. إنّ المرابي يطالب بما تراكم من فوائد.

77 سنة، 6 أشهر، 17 يوماً الجمعة 27 أبريل 2001

لياليَ التي تقضّها حاجاتي الملّحة وغير المنتجة. تبوّل مستحيل (عنوان جميل[1]). كم مرّة؟ هكذا كان يسألني فيما مضى القسّ. كم مرّة؟ هكذا صار يسألني اليوم اختصاصي المسالك البولية. كان الأوّل يتوعّدني بالسّلام الملائكي والصّلاة الرّبانية؛ بينما يهدّدني الثاني بتضييق البروستات مجدّداً: لا فائدة، عليك أن تقوم بالأمر مرّة أخرى. لن تعود إلى سنّ العشرين، لكنّك ستنعم بليالٍ أطول. أكيد، لكن ما الذي سيحلّ بتلك المنامات التي أمنحها لنفسي، وأنا على عرش الملك غير المنتج؟ في تلك السّاعات اللّيلية حيث توقظني الرّغبة في التّبول، لا أتصوّر مثانتي كقربة منتفخة، وإنّما كصدفة متحجّرة، صدفة كلسية أفرغها رويداً رويداً دون أن أضغط

---

(1) يلعب المؤلف هنا على الجناس بين كلمتي Miction (تبوّل) وكلمة Mission (مهمّة)، في إلماح إلى الفيلم الأميركي المعروف **مهمّة مستحيلة**. (م)

twitter @baghdad_library

عليها. مسارٌ عموديّ مؤسف. أعزّي نفسي بصور حمار مسنّ متروك في مرعى، ويثيرني الحمار بهدوء؛ أو أفكّر في فضيحة تلك العين التي تركها جيران مانيس المرسيليّون تجفّ. كانت عيناً يهدهد نومي جريانُ مائها. صوتٌ من الأصوات المهدّئة، مثله مثل صوت وقع الأقدام على الحصى، وصوت الرّيح في التّعريشة، وصوت مِجلَخ مانيس... (كان مانيس يقضي ساعات اللّيل الأولى في شحذ أدوات اشتغاله على المِجلخ والسّندان، كنت أحبّ أيضاً صوت الضّرب على السندان، ضربات مثنى مثنىً: ترينغ-ترينغ ترينغ-ترينغ). جفّت إذن عين المارسيليّين. صارت ماؤها إلى رغوة، ثمّ إلى مياه موحلة، ثمّ خيط ماء داكن وصامت، فمجرّد قطرات ماء، وفي الأخير لا شيء. وغضبٌ عارم من مانيس، الذي لا يستبعد أن يكون هو من أغلق منبعها.

78 سنة **الأربعاء 10 أكتوبر 2001**

أهدانا غريغوار وليزون والتوأم مِسلاطاً ودستَة أفلام من تلك المفضّلة لديّ: **التوت البريّ** لإينغمار برغمان، و**الوحش والسيّد موير** لمانكايفيس، و**الميّت** لهوستون، وأيضاً **وليمة بابيت**، آه! وليمة بابيت! من هو مؤلّف هذا الفيلم؟ غابرييل أكسل! ذكّرتني فاني. المجد إذن لهذا الغابرييل أكسل! منذ زمن طويل لم تسعدني هديّة بهذا القدر. حتّى أنّي سألت نفسي لمَ لم أشتر المسلاط بنفسي؟ ما إن فتحت مونا العلبة، حتّى أطلّ فرحي في اللّحظة نفسها التي أطلّ فيها المسلاط. ودهشت حين ألفيت نفسي أنتظر حلول الظلام بنفاد صبر طفل. وحين نشرنا غطاءً أبيض على الحائط، استعدتُ إحساس

الإثارة الذي كان ينتابني عندما كانت فيوليت تضع اللمبة السّحرية فوق منضدة الصالون. ترك لي الأطفال ومونا الاختيار، فاخترتُ **التوت البريّ**، يوبيل البروفسور إيزاك بورغ، الذي دهشت من تذكّري اسمه! إبرهارد إزاك بورغ، الذي ذهب رفقة زوجة ابنه ليحتفل بيوبيله في كاتدرائيّة لاند. كان في الثامنة والسبعين، مثلي! بالطّبع نسيت هذا الأمر، لأنّي حين شاهدت الفيلم لأوّل مرّة، لم يكن سنّي يتجاوز الأربعين. ثمانية وسبعون سنةً إذن. بالطّبع شرعت في تفحّص وجه الشّيخ (الذي بدا لي أكثر شيخوخةً منّي). بحثتُ عن التجاعيد المشتركة بيني وبينه، وتعرّفت فيه على شيء من البطء الذي يميّز حركتي، وعلى أنصاف الابتسامات التي يجعلها السنّ تبدو بعيدة، لكنّي تعرفت فيه أيضاً على شرارات الحياة المباغتة، تلك التي تستدعيها الرّغبات المفاجئة (حين قرّر مثلاً أن يذهب إلى اليوبيل في سيارته مع أنّ تذكرة الطّائرة في جيبه)، أو ذاك المرح الذي أيقظه فيه الشّبان الثلاثة الذين أقلّهم هو وماريان من على الطّريق، ذاك المرح نفسه الذي أستعيده بحضور غريغوار ومارغريت وفاني أثناء العطل: مقالبهم وشجاراتهم ومصالحاتهم الفورية...

كنت غارقاً في الأحداث التي تدور أمامي، حين شدّ انتباهي شيء خارج الفيلم، شيء له علاقة بالآلة نفسها، آلة المسلاط. إنّها علبة سوداء نضع فيها قرص دي-في-دي عبر فتحة، وتتكلّف بما تبقى: العرض، الصوت، وضبط الصورة... إلخ. موضوعة في وسط الصالون كانت الآلة تعرض الصورة فوق الغطاء، على بعد أربعة أمتار قبالتنا، صورة كبيرة بالأبيض والأسود، صورة تقادمت بفعل الزّمن، لكنّها صافية بما يكفي لكي لا أفكّر في انسداد عدسة

twitter @baghdad_library

العين الذي أعاني منه. كنت أستمع إلى الشّيخ إزاك وماريان زوجة ابنه، منتبهاً إلى شجارهما الكئيب -صراع الأمزجة والأجيال-، حين تساءلت فجأةً، من أين تأتي هذه الأصوات. كانت تبدو آتية من الشّاشة أمامي حيث تتكلّم الشّخصيات، بيد أنّ الأمر مستحيل لأنّ الصوت كان يخرج من المسلاط الموضوع قربي على طاولة الصالون الخفيضة. نظرت إلى الجهاز: لا شك في أنّ الصوت يخرج من هنا، من هذا المكعّب البلاستيكي الأسود الموضوع على بعد خمسين سنتمتراً من أذني اليسرى، لكن ما إن أعدت عينيّ إلى الشّاشة حتّى عادت الأصوات لتلتصق بأفواه الممثّلين! إذ أذهلني هذا الخداع البصريّ، حاولت أن أنظر إلى الشّاشة مركّزاً سمعي على المسلاط فحسب. لا فائدة، ظلّت الأصوات تنبعث من فم الممثّلين السويديّين، هناك على الغطاء المشدود على بعد أربعة أمتار منّي. أغرقتني الملاحظة في ضرب من الجذب البدائيّ، كأنّما أنا أشهد معجزة الحضور الكليّ. أغمضت عيني، فعادت الأصوات إلى جوف المسلاط. فتحتهما مجدّداً فعادت الأصوات مجدّداً إلى الشّاشة.

في فراشي، فكّرت طويلاً في ذاك التلاحم بين مصدر الصّوت الفعليّ والشخصيات التي تتحرّك أمامنا على الشّاشة. وكنت قد بدأت في تشكيل استعارة نيّرة عن الأمر، حين داهمني النّوم. وفي الصباح لم يبق في ذهني سوى انطباعٍ عن الأمر... كأنّما جسدي يتكلّم هناك، بعيداً أمامي، بينما أدوّن وقائعه الصّامتة هنا، على هذه الطاولة حيث أكتب.

78 سنة، 4 أشهر، 3 أيام الأربعاء 13 فبراير 2002

«لِمَ يدفع رجل يتثاءب رجلاً آخر إلى التثاؤب؟» السؤال طرحه روبرت بورتون في القرن الخامس عشر، وتحديداً في الصّفحة 431 من كتابه **تشريح الملونكوليا** الذي ترجم مؤخراً إلى الفرنسية في دار نشر كورتي. (دون أن يقدّم تفسيراً مقنعاً، يعزي بورتون عدوى التثاؤب تلك إلى الأرواح)، أعادني سؤاله إلى تلك التجارب الفزيولوجية التي كنت أقوم بها بدافع الملل أثناء اجتماعات العمل: ما كان عليّ سوى أن أتظاهر بالتثاؤب لينخرط الجميع في التثاؤب معي. حسبتُ نفسي قد قمت بكشفٍ، لكنّي لم أكتشف شيئاً. ينقضي وجودنا الفيزيائي في فكّ رموز غابة وطئتها آلاف الأقدام قبلنا. مونتيني وبروتون كتبا كتباً، لكن كم من الكشوف لم يصرح بها أحد، وكم دهشة لم يعبَّر عنها، وكم مفاجأة وُئدت؟ كلّ أولئك النّاس الوحيدون جداً في صمتهم!

78 سنة، 6 أشهر، 14 يوماً الأربعاء 24 أبريل 2002

أفضل لي أن أعترف بالأمر الآن: عقب بعض الوجبات الدّسمة يميل الضراط إلى التعبير عن نفسه في شكل متغيّرة تنفّسية شرجية. شفط الغازات في أربع أو خمس خطوات، ثمّ طردها خلال الخطوات الأربع أو الخمس الموالية، مع ثباتٍ رئويّ. وهذا العقد من الجواهر لا يكون دائماً صامتاً كما يودّ وضعي الاجتماعي، وتميّزي الطبيعي، وكرامتي بوصفي أحد الأسلاف. ولم تعُد تكفي سعلة خفيفة لتغطيته، لهذا بتّ أجد نفسي مضطراً، حين أكون برفقة

twitter @baghdad_library

أحدهم، إلى إطلاق جملٍ طويلة بحماسة، مهمّتها تمويه ذاك اللّحن الطّباقيّ.

78 سنة، 11 شهراً، 29 يوماً الأربعاء 9 أكتوبر 2002

هاتفني غريغوار، الذي دعا نفسه إلى عيد ميلادي، يعلمني أنّ نزلة قُماحٍ (جدري الماء) أصيب بها في المستشفى، تلزمه الفراشَ. داء القُماح في الخامسة والعشرين، هل تدرك الأمر يا جدّي؟ أنت الذي تقول دائماً إنّي سابق سنّي! عليك أن تراني، صرت شبيهاً بالمصفاة! مصفاة عبقرية، لا بأس، لكنّها مصفاة. لم يكن صوته واضحاً، صوته مكتوم قليلاً ربما، ولأوّل مرّة أتساءل عمّا إذا كان تعلّقي بهذا الولد راجع إلى النّبرة الموسيقية المطَمئِنة في صوته! حتّى قبل أن يبلغ، عندما كان لا يزال طفلاً صغيراً، كانَ غريغوار يملك أكثر الأصوات مَبعثاً على الهدوء. وهل سبق لنا أن شاهدناه غاضباً؟

79 سنة الخميس 10 أكتوبر 2002

قلبي، قلبي الوفيّ. أقلّ صلابة من ذي قبل، بلا ريب، لكنه وفيّ، آه كم هو وفي! ليلة أمس أسلمت نفسي لأحد الممارسات الطفولية: أن أحسب عدد المرات التي خفق فيها قلبي منذ ولدت. لنقل بمعدل اثنتين وستين خفقةً في الدّقيقة، ونضرب العدد في ستين دقيقة لكلّ ساعة، ونضرب المجموع في أربع وعشرين ساعة لليوم الواحد، ونضرب الحاصل في ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً لكلّ سنة، ومجموع سنواتي تسع وسبعون سنة. بالطّبع لم أستطع ضبط الحساب ذهنياً. إلى الآلة الحاسبة إذن. تقريباً ثلاثة مليار خفقة! دون

أن نأخذ بعين الاعتبار السنوات الكبيسة واللّحظات الذي شهدت تسارع نبضات قلبي! وضعت يدي على قلبي وتحسّست نبضات قلبي، هادئة ومنتظمةً، النبضات التي بقيت لي. عيد ميلاد سعيد يا قلبي!

79 سنة، شهر واحد، يومان **الثلاثاء 12 نوفمبر 2002**

مات غريغوارنا. غداة مهاتفتي كان قد دخل في غيبوبة. ظنّها فريدريك في البداية التهاباً دماغياً بسبب القُماح، بالإمكان الشّفاء منه، لكنّ الأمر كان أخطر من ذلك: متلازمة راي. لقد استغلّ المرض داء القماح وهاجم غريغوار مسبّباً قصوراً حاداً في الوظائف الكبديّة. وبحسب فريدريك، لقد انطلقت المتلازمة على الأرجح بسبب الأسبرين، إذ وجد حبوباً منه في جيوب غريغوار. لقد رغب غريغوار في مقاومة الحمى بواسطة الأسبرين الذي كان يجهل مضاعفته النادرة تلك. وحين أوصله فريدريك إلى الإنعاش، كان الوقت قد فات. ذهبنا أنا ومونا بأسرع ما نستطيع. لم نستطع أن نتعرّف عليه في البداية. فعلى الرّغم من حضور سيلفي وفريدريك راودني أمل مجنون في أنّ الأمر قد يكون مجرّد خطأ. هذا الجسد المشمّع الذي تملأه البثور من جبهته حتّى أطراف أصابعه لا يمكن أن يكون جسد حفيدي. فكّرت في أحد الأفلام التي يُصاب فيها عالم مصريّات بلعنةٍ فيسقط محنّطاً قرب الرّفات الذي انتهك حرمته، لكنّه كان حقاً حفيدي. ضيّقت عينيّ فاستطاعت نظرتي أن تحوز بعض الوضوح، وانمحى الواقع الفظيع الذي ترسمه البثور واستعدت غريغوار، غريغوار الذي طالما فاح جسده بلطف مرِح، وحتّى الآن

twitter @baghdad_library

وهو مسجّىً وسط هذا الضّباب الأصفر، لا يزال هو غريغوار المرح. عندما كان غريغوار يلعب التنس كان يلعب لأجل اللّعب في المقام الأول، كان يقلّد الأبطال الذين نشاهدهم على التلفاز، وبينما يستمتع خصمه في التّعرف عليهم، يسجّل غريغوار الأهداف ويربح المباريات. ينتهي المطاف بخصمه إلى أن يغضب، فيطالب غريغوار بقليل من الجدّية، أو يسبّ، ويرمي المضرب ويغادر الملعب، مثلما حدث مع أبناء و. قبل ثلاث سنوات. تلك كانت الطّريقة التي علّمته أن يلعب بها التنس -وكان عمره آنذاك عشر سنوات أو اثنتا عشر سنة-، وهي نفسها الطريقة التي كنت أمارس أنا بها تلك الرياضة الرّاقية التي حوّلها التلفزيون إلى مواجهة ثنائية فظّة. لم أكن أرغب في أن ينساق غريغوار وراء الجانب البشع من الحركات الرّياضية. يا إلهي كم كنت أحبّ ذاك الولد! وكم يسعى يراعي عبثاً إلى تفادي الحديث عن موته. أيّ إجحاف يجعلنا نفضّل إلى هذا الحدّ شخصاً على آخرين! هل كان غريغوار يتمتّع بكلّ المزايا التي يصبغها عليه حبّي له؟ لا بد أنّنا سنجد فيه، إن نقّبنا جيّداً، خصلتين سيّئتين أو ثلاث. كلا؟ حولَ أيّ هوس بغيض كان سيجدل حياته لو أنّه بلغ سنّي؟ يشاء القدر أن يموت أفضلنا! وإذا ما كنت أكتب أشياء لا معنى لها فإنّ مردّ ذلك إلى رغبتي في أن أملأ الصّمت الذي رماني فيه حداد مونا الأخرس. فيمَ تفكّر مونا، وقد أخذتها فجأةً نوبة انعزال؟ هل تفكّر مثلي في أنّ غريغوار كان ليظلّ حياً لو أنّ برونو قبِل أن يُرسله إلينا صيفَ جدريِّ الماء؟ فقط لو أنّ برونو كان قد قبل ذاك التّطعيم الطّبيعي؟ لكن لا بدّ للمرء من أن يتحلّى بروح اللّعب كي يقبل بأمر كذلك، وبرونو توقّف مبكّراً عن اللّعب.

كان الأطفال عراةً، وما كان يحتملون حتى احتكاك قميص خفيف. وحين كان يشتكي أحدهم من شدّة الحكّة، كان الآخرون ينفخون على بثوره ذات الرؤوس الشّفافة، ثمّ يدلكونها برفق. أحسب أنّ ليزون هي من كان قد اخترع تلك اللّعبة. كان الأطفال يحملون في دواخلهم رياح البندقيّة الثّمانيَ، لكنّهم لم يكونوا سوى سبعة، كانت تنقصهم الرّيح الثّامنة، الرّيح الضّاحكة القويّة، ريح غريغوار، الرّيح التي كانت لتكون حيّة اليوم! اِحتاج برونو يومين للعودة من أستراليا، ووصل مع موعد الدّفن. إذ لم يكن ممكناً تأخير الدّفن أكثر. وحين عانقت برونو لاحظت أنّ وزنه قد ازداد. عضلات ذراعيه قد تركّز فيها الشّحم. وكان فرق التّوقيت، والحزن، قد جعلا خدّيه ثقيلين ووجهه حاداً. لم يصافح سيلفي التي رفضت، ضداً على رغبته، إجراء جنازة على الطّريقة الدّينية. كان في الأمر حرج عائليّ. ولم يتطرّق أحد لذلك. بعد مراسيم الجنازة، أخذت التوأم وليزون يبكين متعانقات، بينما سيلفي تحدّث نفسها في مونولوج بلا موضوع محدّد، تبيّن فيه كم كانت أمّاً قلقة، وكيف كان غريغوار يمازحها مضايقاً جانب القلق فيها- هل تذكر يا أبي، كيف كنت أنت أيضاً تتهكّم من قلقي!-، جملٌ صغيرة كنت تطلقها وسط الحزن الغامر. بينما انتحى فريدريك جانباً منطوياً على عزلته المزدوجة، عزلة المثليّ الجنسيّ وعزلة الأرمل، وكانت ليزون إلى جانبه وفق ما تفرضه مبادئها وصداقتهما. ولأوّل مرّة أنتبِه إلى أنّ فريدريك وليزون لهما السنّ نفسه، أي أنّ فريدريك كان بالإمكان أن يكون والدَ غريغوار. حضر جميع زملاء غريغوار وكانوا يسخرون من عظة القسّ. لهذا تصلح الجنازات، لأن يتواجه المؤمنون وغير

twitter @baghdad_library

المؤمنين بكامل قناعاتهم الخاصّة، أن يوجّهوا أسهم حزنهم إلى القسّ، أن يحوّلوا كلّ عبارة ينطقها إلى نقد يتحدّث باسم الميّت. والميّت الذي يكون طرفاً فاعلاً في النّقاش الإلهي، الميّت الذي نحسب أنّه قد تمّ الاحتفاء به كما ينبغي، أو أنّه قد شُتم بشناعة، ذاك الميّت يصير ميتاً أقلّ، كأنّما هي بداية بعثه. كلا، بالنّسبة إلى الجوّ العام [هنا]، ليس ثمّة سوى الله.

79 سنة، 5 أشهر، 6 أيام الأحد 16 مارس 2003

أيّ أثر يمكن أن يخلّفه الحداد على أجسادنا! خلال الشهور الثلاثة التي تلت وفاة غريغوار أسلمت جسدي لكلّ الأخطار الممكنة. حطّمت وجهي في المترو (أصرّت مونا على البقاء بعض الوقت في باريس، حتى تنعم برفقة مارغريت وفاني)؛ وفي شارع سان-مارسيل كاد أن يسحقني سائق سيّارة، اضطرّ إلى أن يصدم حاوية أزبال حتّى يتفاداني؛ وفي طريق عودتي إلى مِراك انزلقت بيَ السيّارة مرّتين فسقطت في خندق جارتيير، دُمّرت السيّارة، وشُقّ حاجبي؛ وأخيراً، بينما أقطف الفطر ذات ظهيرة في أحراش برياك، انزلقت حتّى سقطت على الطّريق الوطنيّة حيث تجري السيّارات بأقصى سرعتها في الاتّجاهين. قالت لي مونا: إذا ما كنت تودّ الانتحار، أعلمني. فإمّا أن نموت معاً أو أسافر، لكن لم تكن لديّ أيّة نيّة في الانتحار، هي فقط الملابسات التي يفرضها تطوّر الواقع المغلوط، تؤيّدها رغبتي، وكأنّما وعيي قد سلّم جسدي إلى صدف الحياة. فما كنت أقوم به، كان جسدي يخضع له دون أن يفكّر فيه، وللعجب ظلّ جسدي يقاوم رغم كل ذلك، ظلّ تقريباً منيعاً. كنت

أخرج من المنزل وأترك جسدي يعبر الشّارع دون أن ألتفت يُمنة أو يُسرة، وللسّائق أن يكبح فرامله ويصطدم بحاوية الأزبال، أمّا روحي فلم تهتزّ لذلك حتّى. وفي المترو، كانت حركة آلية من يدي هي من دفع يد الشّاب الثّمل الذي كان يتحرّش بالجالسة جنبي. لم أكن قد انتبهت إلى أنّه يفوح برائحة الخمر، ولا إلى أنّ تصرّفه تجاه المرأة لم يكن عنيفاً، وإنّما كان بالأحرى رقّة خرقاء. لقد ضربت يدي يده، مثلما نطرد ذبابة، دون أن أعيره أيّ اهتمام، وإذّاك فقط أحسّ وجهي بقبضة الشّاب تصطدم به، وأدركت عينايَ أنّهما فقدتا النّظارة تحت ضغط الضّربة. وما إن هدأ المعتدي حتّى قدّمت لي المرأة نظارتي قائلةً: لقد سقطت نظارتك يا سيّدي. والأمر نفسه، حين كنت أسوق سيّارتي على طريق جارتيير، وأخذت أبحث في جيب سترتي عن لائحة المشتريات، ثمّ ملت على الكرسيّ الخلفيّ ناسياً أنّي أقود، وأخذت أبحث عن تلك القائمة في سيّارة تسير دون سائق، سيارة انتهى بها المطاف طبيعياً محشورة في خندق. وطيلة تلك الأحداث التي تتالت لا أذكر أنّي أحسستُ بأدنى خوف. لم أخف حتّى عندما تدحرجت إلى الطريق الوطنيّة ظهيرة يوم قطف الفطر؛ لم أخف حتّى وأنا أشاهد ذراعي المكسورة تضرب الهواء في استقلال تام عن كوعي، ذراعي اليسرى، لم أحسّ بالدّهشة ولا بالخوف ولا بالألم، وإنّما أحسست بالأحرى بحالة من التثبّت. كان ذلك إذن ما يقع لي، وكأنّما ما عادت الحياة تمنح أيّ معنى لدماغي الذي يعيش الحداد، وكأنّما فقدان غريغوار يمسّ جميع الأحداث، ويحرّرها من كلّ تراتبيّة، وينزع عنها كلّ معنى؛ وكأنّما كان غريغوار هو مبدأ كلّ شيء، وما إن رحل حتّى فقدت الحياة

twitter @baghdad_library

برمّتها كلّ معناها، لدرجة أنّ جسدي صار يسير وحده دون أن يتحّكم فيه عقلي.

إلى البندقيّة؛ اِقترحت مونا أن نذهب إلى البندقيّة، البندقية قد تجعلنا نسلو.

79 سنة، 5 أشهر، 17 يوماً الخميس 27 مارس 2003

في البندقيّة. أفلتَ طفلٌ من ذراع والدته وانتصب أمامي بذقن مرفوعة قائلاً: أنا عمري أربع سنوات ونصف! ولاحقاً، في الظّهيرة، عند مركن الرّابطة الفرنسية، قالت لي عجوز كانت تريد أخذ موضع الرّكن: إنّ عمري اثنتان وتسعون سنّة، لو كنت تدري! ما السّن التي نكفّ فيها عن التّصريح بسنّنا؟ ما السّن التي نستعيد فيها تلك العادة؟ أمّا أنا، فلا أصرّح قطّ بسنّي الحقيقية، وإنّما أكتفي بإطلاق عبارات من قبيل: «والآن، وقد صرت رجلاً مسنّاً»، عبارة لا أستطيع كبحها، لكنّي ما إن أطلقها -مع ضحكة باردة- حتّى تمتلئ نفسي غضباً وخجلاً. ما الذي أبحث عنه؟ أن أتشكّى -لم أعد كما كنت؟ أن أثير الإعجاب- انظُر كيف ما أزال نضِراً؟ أن أحيل مخاطبي على ضعف تجربته، وألبسَ ثوب العجوز الحكيم- وتبعاً لذلك أنا أعرف أكثر ممّا تعرفه؟ ومهما يكن الأمر، فإنّ تلك الشّكوى (لأنّها بالفعل شكوى يا إلهي!) يفوح منها سلس بول مخيف. أفلتُّ من ذراع والدتي كي أنتصب بذقن مرفوعة أمام ذاك الأربعيني العتيد قائلاً: «أنا عمري تسع وسبعون سنة ونصف!»

79 سنة، 5 أشهر، 20 يوماً الأحد 30 مارس 2003

إنّ هذا الشيّخ وهذه العجوز (الرّجل يضع ذراعه في جبيرة) اللّذين يلعبان دور الأعمَيان في البندقيّة، راكضَين خلف أحاسيس شبابهما، هما جَدّا ميِّتٍ كان ليُحبّ هذه اللّعبة. انظُروا إليهما، أنصتوا إليهما يضحكان وسط المدينة المائيّة، مثلما كانا يفعلان منذ خمسين عاماً، أيّام كانا يحتفلان بحبّهما. لقد شاخا ألفَ عام.

79 سنة، 5 أشهر، 25 يوماً الجمعة 4 أبريل 2003

الأكوا ألتا. مدّ بحريّ من الدّموع. غارقَين حتّى الفخذين، نتقدم أنا ومونا بخطىً حثيثة، في المادة نفسها التي تشكّل حزننا. أحياناً، بفضل مضخّة يُفرِغ منزل من مائه، ويكون فيضاناً مهولاً بالنّسبة إلى بقرة في المرعى.

79 سنة، 5 أشهر، 29 يوماً الثلاثاء 8 أبريل 2003

بلى، بلى، إنّنا نحسّ نفسينا، أنا ومونا، بأفضل حال هنا، إنّنا سعداء، إنّنا نستغل دون تحفّظ سعادة الحيوان، سعادتنا في أن نكون معاً، تلك السّعادة التي لطالما سَلَتنا عن كلّ شيء! زرنا الأماكن التي كنّا نمارس فيها الحبّ خفية، وهناك لم يكن لغريغوار وجود. موته يفرّ بعيداً خلف وجه مونا الذي لا تعبّر أيّ واحدة من قسماته عن الحزن. أمّا أنا فأذرع الأرصفة والجسور والسّاحات، متشمّماً الهواء مثل جرو مُسنّ.

twitter @baghdad_library

79 سنة، 6 أشهر **الخميس 10 أبريل 2003**

للأسف، ينبغي تصديق استيقاظنا. حلقي المختنق لحظة استيقاظي يقول لي: غريغوار مات. غريغوار لم يعد هناك حيث ما زلت أقيم. غريغوار لم يرحل، غريغوار لن يتركنا، غريغوار **مات**، ليس ثمّة كلمة أخرى.

79 سنة، 6 أشهر، 3 أيام **الأحد 13 أبريل 2003**

باستا، ريزوتو، بولنتا، حساء الزوكّا، منستروني، سبانخ، أنتيباستو بحريّ أو نباتيّ، شرائح لحم الخنزير المقدّد أكثر رهافة من المناديل الورقيّة، موتزاريلا، غورغونزولا، بانا كوتا، تِراميسّو، جلاتي، الإيطاليون يأكلون أكلاً رخواً. النّتيجة: أتبرّز برازاً رخواً. في البندقيّة، ألقوا أيّها المسنّون أطقم أسنانكم في القنال الكبير، لقد وصلتم!

79 سنة، 6 أشهر، 8 أيام **الجمعة 18 أبريل 2003**

لكي يعبّر الإيطاليون عن النعومة في جميع تجلّياتها، النّفسية، والعاطفيّة، واللّمسيّة، والغذائيّة، والصوتيّة، يقولون: morbido. ليس بالإمكان تخيّل حالة من morbidité (الاعتلال) تفوق تلك التي أستيقظ بها كلّ صباح!

9

الاحتضار

(2010)

من يقضي حياته يدوّن مذكّرات جسده
لا يمكن أن يرفض لحظة الاحتضار.

twitter @baghdad_library

عزيزتي ليزون،

ها أنتِ ذي تلفين نفسك اليوم أمام قطيعة دامت سبع سنوات. بعد موت غريغوار ما عادت ثمّة أهميّة لملاحظة جسدي. صار قلبي خارجي. وبدأت كلماتي تخونني كلّها دفعة واحدةً! ولكي أكون صادقاً، لم أتقبّل يوماً موت أبي، ولا موت فيوليت، ولا موت تيجو، ولن أتقبّل موت غريغوار. ولأنّي لم أملك سوى ثقافة الحداد، فقد طوّرتُ شعوراً متوحّداً وصفراويَّ المزاج. ليس من السّهل على المرء أن يدرك ما يجتاحه لحظة رحيل من أحبّهم. لنترك جانباً تداخل العواطف وإيمان المشاعر وتواطؤ الفرح، صحيح أنّ الموت يحرمنا من «المتبادل»، لكنّ الذاكرة تعوّضنا عن الفقد رويداً رويداً. (أتذّكر أبي يهمس في أذني أحياناً. . . عندما كانت فيوليت تريد أن تطمئنني كانت تردّد دائماً. . . لو أنّ تيجو حكى حكاية. . . عندما كنّا بالمدرسة الداخلية، كان إتيين. . . عندما كان غريغوار يضحك. . .). أثناء حياتهم ينسج موتانا الذّكريات بواسطة أجسادهم، لكن حين يموتون لا تكفينا الذكريات وحدها: نفتقد أجسادهم! ماديّة أجسادهم، تلك الغيريّة المطلقة! هو ذا ما أضعته!

twitter @baghdad_library

لم تعد تلك الأجساد تعمّر مشهدي. موتايَ كانوا الأثاث الذي صنع تناغم بيتي. كم افتقدت، فجأةً، حضورهم الفيزيقي! وكم افتقدت نفسي في غيابهم! أشتاق رؤيتهم وشمّ رائحتهم وسماعهم، الآنَ وهنا! أفتقد عرق فيوليت المُفلفلَ. أفتقد صوت تيجو الأجشّ. أفتقد أنفاس أبي التي تكاد تكون منهكةً، كما أفتقد فرح جسد غريغوار. في لحظات صفائيَ أتساءل عن أيّ جسد أتحدّث. أيّ جسد تقصد، باللّه عليك؟ كان تيجو عنكبوتاً في الخامسة من عمره ذا صوت أجشّ، قبل أن يصير ذاك الرّفيق السّاخر، الهائل الجثّة والمسودّ البشرة، الذي يهدر هدير السّجائر، فعن أيّ تيجو تتحدّث؟ كان تيجو بثقل السندان عندما كان يستحمّ طفلاً، قبل أن تلحقه طراوة العضلات ونعومة الحركة! لكنّه فعلاً كان الجسد ما أفتقده، جسد غريغوار وتيجو وفيوليت، حضورهم الفيزيقي! جسد أبي، تلك اليد ذات العظام البارزة، وتلك الوجنة الشبيهة بركنٍ. موتايَ كانوا يملكون أجساداً، وما عادوا يملكونها، وتلك الأجساد الفريدة هي ما أفتقده. أنا الذي لم أكن ألمس أجسادهم قيد حياتهم إلا قليلاً! أنا الذي يقولون عنّي إنّي ضعيف التّواصل الجسديّ! أطالب الآن بأجسادهم!

تأتيني من حين إلى آخر لحظات جنون أصير فيها طيفَهم: مَثَلُ ذلك، حين مددت يدي إلى وعاء السّكر، الأصبعان اللّتين أخذت بهما السّكر حاكتا بالضّبط حركة غريغوار حين كان يهمّ بوضع السكّر في قهوته؛ لقد حاكيت حركته بالضّبط وهو يضع قطعة السّكر في القهوة بإصبعيه: السبابة والوسطى، لم يكن يستعمل الإبهام مطلقاً (هل انتبهت إلى هذا التّفصيل؟) لقد أسلمت نفسي إلى نوبات

الاستحواذ القصيرة تلك: أن أصير في لحظات خاطفة غريغوار وهو يضع السكّر في قهوته، أو تيجو وهو يضحك، أو فيوليت وهي تتهادى على الحصى، لكنّي كم وددتُ لو أنّي رأيت تلك الحركة! أو سمعت تلك الضحكة! أو أني أزحت مرّة أخرى طيّة ثوب فيوليت! يا إلهي، كم أفتقد تلك الصّحبة، ويا إلهي كم صرت أدرك الآن معنى هذه الكلمة: صحبة!

ولأشهر عديدة تركت أمواج الحزن تلك تأخذني. وما كانت أمّك تملك لي شيئاً، هي التي بلا ريب تحسّ نفسها أكثر وحدةً منّي. وإن لم أكن قد أهملت نفسي، فإنّ الفضل يعود في ذلك إلى العادة. الفعل الآلي للاستحمام وحلق الذقن وارتداء الملابس، لكنّي ما عدت أشبه أحداً. شاردٌ وعكِرُ المزاج. وانكشف الأمر في نهاية المطاف. صرتَ سريع القلق. أبي بدأت قدراته الذهنية تضعف، هل هو على طريق الخرف! لقد خلخله موت غريغوار تماماً. لقد رجوت مونا كي تأخذني إلى باريس. رجوتها أن تفعل ذلك لأجلنا معاً. قرّرت فاني ومارغريت أن تعدّلا مزاجي فأخذتاني إلى السينما. لا تقل إنّك توقفت عند أفلام برغمان يا جدّي؟ هل تريد أن تموت غبيّاً؟ هل شاهدت فيلم *The Hours*، فيلم *The Hours* لستيفان دالدري؟ لا تقلق إنّه فيلم مناسب لسنّك، فهو يتحدّث عن فيرجينيا وولف! نصحتني مونا بأن أسمع كلامهما. إنّي شيخ يحتاج أن يستعيد شبابه، هكذا كان تشخيصها لحالتي. لمَ لا أرافقهما إذن؟ أحبّ توأمك كثيراً يا ليزون. مارغريت بجبهتك، وفاني بأنفها الدّقيق تحت حاجبيك المقطّبين. لقد صار التّوأم الآن امرأتين، امرأتين شابتين رائعتَي الجمال. وأكثر من ذلك، هما شديدتَا الحيويّة.

twitter @baghdad_library

وعندما غازلهما أحد الشبّان في المترو، ادّعتا البلاهة: لا نستطيع، معنا جدّي! أليس كذلك يا جدّي، نحن معك؟ إنّه ذاهب بنا إلى السينما. بحشرجة موت مذهلة النّبرة، ووسط مجموعة رائعة. فتاتان جميلتان في الخامسة والعشرين من عمرهما! كان دوري يقتصر عل الإذعان، فأذعنت بهزّة كتف حزينة. نزل الشّاب في المحطّة الموالية. وقد أبدى التّوأم قدرة هائلة على الثبات: فيلمان أو ثلاثة في الأسبوع الواحد، لكن كان عليّ أن أتخلى عن حصص السينما تلك. صارت الصور تجتاحني. وبدأ موتايَ يعانون منها. الممثلون يسرقون أطيافي. عندما غادرنا القاعة بعد مشاهدة *The Hours*، على سبيل المثال، صرت مهووساً بجسد إد هاريس النّاحل. ما عاد ثمّة مكان لجسد غريغوار. ما عدت أرى سوى إد هاريس، بجذعه السَّلعيّ[1]، وعينيه البرّاقتين وابتسامته الغامضة، أراه في المشهد حيث يتأرجح من النّافذة كي يضع حداً لضراوته الحيوية. سلبتني الصّورة! طُرد غريغوار ما إن حضر أوّل ممثّل! كان فيلم *The Hours* آخر فيلم أشاهده. أخطأ التّوأم تقدير سبب عدولي عن الذّهاب إلى السينما. سمعتهما يتخاصمان: لقد أخبرتُكِ، لكنّك حمقاء لا تسمعين الكلام، لا شكّ في أنّ قصّة المثليّ الذي اصفرّ جسده بسبب المرض، قد ذكّرته بغريغوار!

في الشّهور اللاحقة قدتُ موتايَ إلى حديقة لكسمبورغ. كنت أجلس على تلك الكراسي المائلة، التّي صُمّمت بطريقة تمنع الشّيوخ

(1) مصاب بداء الخنازير. (م)

من النّهوض. كنت أترك عينيَّ تسبحان فوق جريدتي لتتابعا المتجوّلين الذين ما كانوا يعنون لي شيئاً. ليست مزحة، لو تعلمين، عدم الاكتراث الذي يُقال عن المسنّين! فقد كانت تنتابني الرّغبة في أن أصرخ على الشّباب الجالسين باللّوكو: يا أبنائي، لا أكثرت البتّة لأنماط وجودكم المعاصرة! وكنت أغضّ الطرف تماماً عن أولئك النّسوة اللّواتي يدفعن أمامهن عربات الأطفال! وحتّى محتوى تلك العربات ما كنت لآبه له، تماماً مثلما لا آبه إلى محتوى المقال على الجريدة، والذي يحاول كاتبه أن ينوّرني حول مستقبل البشرية. تلك البشريّة التي أكاد لا أطيقها، لو علمتِ! أنا بؤرة لا اكتراثِها الأهوج!

كنت مكتفياً بوجودي كنصب تذكاري، حين انبثق الحاضر مجدّداً في حياتي. حدث الأمر في ظهيرة ربيعيّة (لـمَ هذه الدّقة في تحديد الزّمن، مع أنّ الفصول، شأنها شأن غيرها، ما كانت تعني لي شيئاً). أعادني الحاضر إلى نفسي! في ثانية! بُعثتُ من جديد! سلاماً أيها الموتى. هكذا نحيا، ما بين فقد وبعث يتواليان. وهكذا ستتجاوزين موتي، أنت والتوأم. كنت جالساً إذن في تلك الظهيرة، كعادتي، في حديقة لوكسمبورغ على أحد تلك المقاعد المستحيلة، جريدتي مفتوحة بدافع العادة (إحذري يا ليزون من السقوط في براثن اليوميّ، أن تشتري مثلاً لوموند ولا تقرئيها، هي إحدى علامات الشيخوخة المبكّرة)، انجذب نظري إلى متجوّلة عرفتها فوراً. حضور مباغت لماضيَّ! إِمرأة في سنّي ذات مشية ثقيلة لكن راسخة، رأسها غائص بين كتفيها، كتلة أنثويّة تتمّسك بالأرض بقوّة! من النّوع الذي لا شيء يستطيع إيقافه. كان ذاك القدّ مألوفاً بالنّسبة لي. إنّه يعود للأمس. وعلى الرّغم من أنّي لم أرها إلا من الظهر، فقد ناديتها باسمها.

twitter @baghdad_library

- فرانش!

اِستدارت، سيجارتها في فمها، ورمقتني بنظرة لا دهشة فيها ثمّ سألتني:

- كيف حال كوعك يا مفرقعتي؟

فرانش رفيقة سلاحي! هنا، حاضرة، ولم تتغيّر رغم القرون التي مضت! تباطأت، لكنّها لم تتغيّر! صار صوتها منطبعاً بحنجرتها المدخِّنة، لكن دون أن يتغيّر! تضاعف حجمها، لكن دون أن تتغيّر! فرانش لم تتغيّر في نظري. عرفتها ما إن ظهرت، على الرّغم من ذاكرتي التالفة. تساءلت عن آخر مرّة رأيتها فيها. في جنازة مانيس، على ما أعتقد. مرّت ثمان وأربعون سنة! وها هي ذي بغتةً أمامي، مطابقةً تماماً لما كانت عليه. فرانش أو الدّيمومة! مالت فوراً على جريدتي، سألتني ماذا أقرأ. وصاحت بعنوان المقال: «زراعة دون مزارعين!» استدار متجوّلان أو ثلاثة. لقد انطلقت شرارتها. صارت تصرخ بأعلى صوتها. كلّ أولئك الفلاحين الصغار الذين يرسلهم المستثمرون الكبار في شكل أُسَر تعمّر مدن الصّفيح في العالم بأسره، والذين ينتحرون جماعات. أوَ تدرك ذلك يا مفرقعتي! في أفريقيا، وفي الهند، وفي أميركا اللاتينية، وفي آسيا الجنوب-شرقيّة، بل وحتّى في أستراليا! حتّى في أستراليا! وبتواطؤ الحكومات. كوكب دون مزارعين! كانت تعرف تفاصيل الملفّ كلّها، وأعطتني أهمّ النقط المتعلّقة بعلبة أسرار تلك «الزّراعة ملتهمة البشر»، ومن بين ما حدّثتني عنه، ثمّة مؤسسة فرنسية عملاقة، كانت تعرف هيئة إدارتها كاملةً. وبدأت تصيح بأسماء أولئك الأعضاء، واحداً واحداً، بما فيهم سيناتور كان بإمكانه سماعها من نافذة مكتبه

المفتوحة. الأمر يثير اشمئزازك أنت أيضاً يا مفرقعتي؟ حمداً لله أنّي أعرف جيداً موقفك بهذا الصّدد! أو تعلم؟ لقد قرأت لك، وسمعت محاضراتك! وعدّدَتْ أمامي كلّ محاضراتي! وأغلب مقالاتي وحواراتي. لقد كنت أتابعكَ دوماً، أتابعك من بعيد، لكن عن قرب في الوقت نفسه، إن فهمت قصدي. جيد ما تقوله! أكاد أشاطرك الرّأي دوماً! وأصغيت إليها تسرد مواقفي من هذه القضية أو تلك، ولحظات غضبي النادرة التي عزت ندرتها إلى حذري. ما كنت أعرف أنّك تهتم بأخلاقيات علم الأحياء أيضاً. أمّا ما قلته بخصوص حقوق المرأة، حين تحدّثَتْ عن الإنجاب بالنّسبة إلى الآخر، فقد أثّر فيَّ! دهشت وتأثّرت! كانت عيناها تبرقان، وكانت تنظر إليّ كأنّني قضيت عمري في ملاحقة الظلم أينما حلّ. عبثاً حاولت إفهامها بأنّها تبالغ في تقديري، وبأنّي حتّى أيام المقاومة، كنت مجرّد مقاوم صدفة، وبأنّي منذ سنوات ما عدت أحارب على أيّة جبهة، وبأنّ ملَكة المقاومة فيّ قد اضمحلّت تماماً، وبأنّي غرقت في الحداد، لكنّها لم تنصت إلى أيّ شيء ممّا قلت. مرّت على كلامي، كأنّما لم تسمعه، وعدّدت لي بعض الفضائح التي من الواجب علينا أن نشجبها عاجلاً. لن نشجبها باسم الأيام الخوالي، وإنّما على طريقة الأيام الخوالي، أيام كنّا بالمجلس الوطني للمقاومة، أيام كنّا نناضل في سبيل حقّ كلّ فرد في أن يضمن حاجات أسرته! وذاك الحق تحديداً، ذاك الحق صار اليوم مهدّداً أكثر من أيّ وقت مضى! كانت تخاطبني، وأنا أنصت إليها وأحسّ أنّي أتزحزح، نظرتها البرّاقة تعيد إلى ضميري صفاءه! خلاصة القول، كما تعلمين يا ليزون، انصعتُ لها. وقفت كشاب، استللت نفسي من تلك القذارة المسمّاة مصطبة،

twitter @baghdad_library

وتبعتها. لقد وسّعت العروق، فسرى فيها دفق دمٍ جديد. سنطلق بعض الصيحات الصحيّة يا صاح! وسينصتون إلينا، صدّقني! الشّباب منهم خاصّة! الشّباب بحاجة إلى من يلهمهم! ما عاد آباؤهم يضطلعون بذلك. صاروا يلتمسون مساعدة الأكبر سنّاً. وهذا سبب إضافي، كي لا نجعلهم يسقطون بين أيدي الشيوخ البلداء.

تبعتها. وضعتُ ملفاتي تحت تصرّفها، أعدت تحيين سجلّاتها، قرّضت بحوثها، وحملت عنها الحقيبة، وطيلة هذه السّنوات الأخيرة انشغلت بجسدها أكثر من انشغالي بجسدي. وفي هذا الزّمن، حيث سؤال الصّحة والحياة السليمة هو الشعار المهيمن، كانت فرانش تدخّن ما يمكن أن يدخّنه أربعة أشخاص، وتشرب ما يمكن أن يشربه اثنا عشر، وتتغذّى على لقيمات قليلة، وتشتغل حتّى تسقط من التعب فتنام على مكتبها؛ كنت أنبّهها، حذار يا فرانش، بهذا الإيقاع لن تبلغي مائة سنة. فكانت تجيبني: كلا يا مفرقعتي، إذا كان على المرء أن ينهيَ الأمر، فالأحرى أن ينهيه سريعاً، بأسرع ما يمكنه. بوسع المرء أن يبدأ رويداً رويداً، لا بأس في ذلك، لكن النّهاية ينبغي أن تكون سريعة، أن لا يدّخر شيئاً من جسده؛ مبدأ التسارع، كلّ شيء يكمن هنا، في هذا المبدأ، فنحن لسنا قذائف رخوة الحركة، وإنّما نحن كُرات وعي مرميّة على منحدرات حياتنا الوعرة أكثر فأكثر! أن تتبع جثّتنا الإيقاع أو لا تتبعه، ذاك شأنها.

تركنا جثتنا إذن وشأنها، كي نهتم بصحّة العالم. وتعرفين البقية عزيزتي: محاضرات، منابر، منصات في الهواء الطّلق، لقاءات، ثانويات، مدارس، طائرات، قطارات، كلام لا ينضبُ صادرٌ عن خردةٍ ذاتِ ذاكرةٍ بعيدة ووعيٍ يقظ. أنا رجل الملفات (ما عاد ثمّة

أيّ ثقب في ذاكرتي!) وفرانش سيّدة المناظرات. مدهش كم كانت على الموضة! كان خصومنا يتكهّنون بقرب نهايتنا. لن تزعجنا هذه الخرداوات إلى الأبد! كانت فرانش تردّ على المتهوّرين الذين يناظرونها وجهاً لوجه: أرى أنّك تنتظر موتي أكثر ممّا تنتظر إجابتي. كانت تكسب تعاطف المفكّرين والسّاخرين. الغاضبون كانوا يجدونها أكثر غضباً منهم، والدّمويون يعتبرونها أكثر دمويّة. وأنا كنت أمرّنها على عدم الصرّاخ كثيراً، لأنّ الصراخ يشوّش على خطابها. كان صياحها نتيجة سببين هما مزاجها وصممها. كان التّصدي للسّبب الثاني أسهل. حشونا أنا ومونا أذنيها بذاك الجهاز السّمعي الذي قوّى سمعها فأجّج نيرانها أكثر، إذ صارت تسمع وشوشات الخصوم، فما عاد أحد يستطيع أن يتكلّم عنها خلف ظهرها. أقحَمَت جيلاً جديداً في دوّامتها. والتّوأم اللتان كانتا تعتنيان بالمسائل اللّوجستيكيّة، لامَتاني على عدم تعريفهما بالعمّة المناضلة. وفي ذلك الوقت كانت مارغريت قد أنجبت الصّغير ستيفانو، وفاني (ربما هو أثر التّوأم) منحته ابن خالة توأم، هو لويس. صار لي أبناء أحفاد إذن، وأنت صرت جدّة، ومونا جدّة أمّ! هذا يعوّض ذاك في نهاية المطاف. اِنضاف إلى لائحتي موتى جدد، منهم فرانش نفسها التي خمدت أنفاسها في مستشفى بيتيي-سالبتريير منذ ثلاثة أسابيع.

وكانت آخر كلماتها: دع عنك هذه السّحنة يا مفرقعتي، أنت تعلم أننا ننضم جميعاً إلى الأغلبية في نهاية المطاف.

*

twitter @baghdad_library

86 سنة، شهران، 28 يوماً الخميس 7 يناير 2010

لم أفتح هذه المذكّرات منذ موت غريغوار. مرّت سبع سنوات إذن. ما عدت آبه لجسدي، تماماً مثلما لم أكن آبه له في طفولتي المبكّرة، عندما كان تقليد أبي يكفيني. ما عادت المفاجآت تدهشني: لا خطواتي التي تصير أقصر، ولا الدّوار عندما أستيقظ، ولا ركبتي التي تتصلّب، ولا الوريد الذي ينبض بشدّة، ولا البروستات التي تضخّمت مجدّداً، ولا الصوت الذي يتحشرج، ولا العملية التي أجريتها على السّاد، توماض[1] العين الذي انضاف إلى طنين الأذن، صفار البيض المتكلّس عند طرف الشّفة، السروال الذي يشقّ علي ارتداؤه أكثر فأكثر، سدّادته التي أنساها مفتوحة، التعب المفاجئ، تضاعُف فترات القيلولة، صار كلّ ذلك الآن مجرّد روتين. أنا وجسدي نعيش آخر أيامنا معاً، كمتساكِنَين لا يكلّمان بعضهما. لا أحد يهتم بنظافة البيت، وهكذا أفضل. ومع ذلك، تهمس لي آخر الفحوصات بأنّ ساعة أخذ اليراع لآخر مرّة في العمر قد أزفت. من يقضي حياته في تدوين مذكّرات جسده لا يمكن أن يرفض لحظة الاحتضار.

86 سنة، شهران، 29 يوماً الجمعة 8 يناير 2010

منذ صار فريدريك يفحص دمي كلّ ستّة أشهر، ما عاد فتح مظروف التّحاليل يثير فيّ أيّ شيء. يحلّل فريدريك النتّائج فنخلص

(1) ظاهرة بصرية قد تنشأ عن الضّغط على شبكية العين، بحيث يرى المصاب بها هالات ضوئية حول الأشياء. (م)

إلى أنّ معدّلات هذا المكوّن أو ذاك تبقى ثابتة في الحدود المرتفعة التي يفرضها سنّي. إنّكَ حالةٌ شاذة مقبولة جداً! مع أنّ رقماً من تلك الأرقام قد أقلقني أوّل أمس: وهذا الانخفاض في عدد الكريات الحمراء، أليسَ...؟ إنّه لا شيء، تعب بسيط لا أقل ولا أكثر، فأنت تتصرّف كرجل أربعينيّ بالغَ في الإجهاد. صديقتك فرانش أنهكتك، وموتها هدم معنوياتك، وهذا كلّ ما في الأمر. هيا، أغرب عن وجهي، لا أريد رؤيتك هنا قبل ستة أشهر، إلا في حال ما دعتني مونا إلى مائدتكما أثناء ذلك.

هي ذي علاقتي بعشيق غريغوار الأرمل. في الواقع، مونا تدعوه إلى العشاء من حين إلى آخر، فمزاجه الفظ يروقها. عندما سألته مونا لماذا يتحوّل العديد من النّاس من الجنس الغيري إلى المثلية، بينما نادراً ما نرى العكس، أجابها ببرود: لِمَ الإصرار على العيش في الجحيم حين يكون بمقدورنا دخول الجنّة؟

86 سنة، 5 أشهر، 8 أيّام الخميس 18 مارس 2010

أنا منهَك. عندما حانت ساعة النّوم بدا لي سلّم بيتنا مثل هضبة. ما الذي دفعنا إلى جعل غرفة النّوم في الأعلى؟ منذ أيام، صارت يدي اليمنى هي من يدفعني حتّى الأعلى. وعند كلّ خطوة أصعد المنحدر في داخلي، وأنا أهتف «هيلا هوب!». أسحب شبكة الصيّاد. أسحب نفسي إلى المركب. أصير أثقل مساءً بعد آخر. صيد موفّق. والأهم من هذا كلّه لم يدفعني أحد. كلّ العيون تتابعني من أسفل. أحرص على أن لا أُقلق الصّغار؛ فلطالما شاهدوني أصعد هذا السلّم بخطوات واثقة. ما إن أبلغ نهاية السلّم، وأتوارى عن

twitter @baghdad_library

الأنظار، حتّى أستند إلى الجدار مستعيداً أنفاسي. الدمّ يجري بكلّ سرعته من صدري حتى أخمص قدميّ. لم أعد سوى قلبٍ.

86 سنة، 8 أشهر، 22 يوماً الجمعة 2 يوليو 2010

يبدو أنّني كنت محقاً، كان ينبغي أن نأخذ بجديّة أكبر انخفاض الكريّات الحمراء في الدّم. ذاك ما قرأته في عينيّ فريدريك حين كان يقرأ تحاليلي الجديدة. هل تحسّ نفسك متعباً جداً هذه الأيام؟ ينقطع نفسي عندما أصعد درجات سلمّ بيتنا. لا عجب في ذلك، فقد انخفض معدّل الهيموغلوبين إلى 9,8. هل تنزف؟ على حدّ علمي، لا. لا تنزف لا من الأنف ولا من مكان آخر؟ اقترح عليّ إجراء فحوصات مكمّلة. هل تستحقّ هذه الجثة حقاً أن نفحصها؟ لا تزعجني، اِفعل ما أقول لك فحسب! أخذَ عيّنة أخرى من الدمّ. وحلّلها فوراً. النّتائج هي هي. إضافةً إلى هذا التفصيل: لا نقص في فيتامين ب 12. قلت: آه، جيد إذن. كيفَ جيد؟ إنّه ليس بالخبر السّار، فمن المحتمل أنّك تعاني أنيميا مقاوِمة! مقاوِمة لماذا؟ أجاب منزعجاً: مقاوِمة لكلّ علاج. وللحظة نسيَ أنّه يتحدّث مع مريض، وخال نفسه يتحدّث مع طالب فاشل، كيف تجهل وأنت بهذا العمرِ الأنيميا المقاومة؟ صمتٌ غاضب. أحسست أنّه يلفّ ويدور حول قضيّة قذرة، قبل أن يعلن: سنجري لك تصويراً على النّخاع. تصويراً يقوم على ماذا؟ على ثقب نخاعك. ثقب نخاعي الشّوكي؟ بمعنى إدخال إبرة في عمودي الفقري، أبداً! أخذ ينظر إليّ دهشاً. ومن قال إنّنا سنثقب نخاعك الشّوكي! لا أحد سيتعرّض للنّخاع الشّوكي! ماذا تقول؟ وهل تعتقد أنّنا سنخترق عظمة القصّ والمَنصف والقلب

والشريان الأبهر، حتّى نبلغ نخاعك؟ فريدريك، أنت من تحدّث عن النّخاع؟ قصدتُ النّخاع العظميّ وليس الشوكيّ! نخاعك العظمي! لم يصدّق نفسه. كميّة جهلي تصدمه. جهل، هو بالنّسبة إلى ذهنية البيداغوجي التي تميّزني (كان غريغوار يرى فيها أستاذاً رائعاً)، رديف اللامبالاة. أنت إذن لا تعرف شيئاً عن جسدك؟ أرض مجهولة؟ تلفّ الأرض كلّها للعناية بصحّة العالم، وتترك جسدك للأطبّاء؟ إنّ الأمر يتعلّق بجسدك، بحقّ السّماء، وليس بجسدي! بجسدك أنت! صمتٌ. غمغم قائلاً: عفواً، ولم يستطع أن يكبح نفسه من أن يضيف: أنت وتميّزك اللّعين!

86 سنة، 8 أشهر، 26 يوماً   الثلاثاء 6 يوليو 2010

أنتظر فحص النّخاع بالأشعّة. سيتمّ الأمر بعد غد. طلبت من فريدريك أن يوضّح لي العمليّة بالتّدقيق. نُقحم مبزلةً في عظمة القصّ ونسحَبُ عيّنة من النّخاع العظمي بغاية فحصها. وها أنا إذن منظوراً إليَّ كنخاع عظميٍّ. طلبت رؤيةَ المبزلة. هي إبرةٌ ثاقبة من الفولاذ الصّلب، طولها بضع سنتمترات، ومجهّزة بواقٍ حتّى لا تثقب أبعدَ من المطلوب. تشبه أحد تلك الخناجر التي كان ندماء الحكام في عصر النّهضة يقتلون بها أنفسهم بهدوء. والعملية نفسها تعيد إلى الذّهن ميتات دراكولا التي لا تحصى. يسعون إلى أن يخرقوا صدري بوتد، لا أقل ولا أكثر. والاسم المضبوط الذي قد يناسب الوتد هو «مبزلة مالارمي». ما علاقة الأمر بالشّاعر مالارمي؟ كلّ ما أعرفه عنه هو أنّه مات وهو يحاول أن يحاكي أمام طبيبه أعراض المرض الذي دفعه إلى عيادته. وكأنّما القتل الفعلي تمّ أثناء إعادة تمثيل الجريمة.

وبالطّبع دفعني ردّ فعل فريدريك تجاه لا مبالاتي بأمور جسدي

twitter @baghdad_library

إلى الابتسام. سيكون من الممتع أن أسلّمه هذه المذكّرات! على أنّه ليس مخطئاً تماماً. فأنا لم أنظر قطّ إلى جسدي كموضوع فضولٍ علميّ. لم أنقّب بين الكتب سعياً إلى فكّ شفرته. لم أخضعه لمراقبة الأطباء. تركت له حريّة مفاجأتي. وكان لهذه المذكّرات فضل احتضان مفاجآته فحسب. ومن هذه الزّاوية، أنا فعلاً جاهل بجسدي. أيّ سيماء كانت لتنطبع على وجوه الأطباء لو أنّا كنّا نأتي إلى عياداتهم مسلّحين بكلّ معارفهم ومتمكّنين من تشخيصاتهم؟ لقد رغب الأطبّاء في شقّ الفيلسوف كوندورسي نصفين لتجنّب مثل ذلك الأمر. على فريدريك أن يتذكّر ذلك!

86 سنة، 8 أشهر، 28 يوماً الخميس 8 يوليو 2010

فحص النّخاع العظمي إذن. تخديرٌ موضعيّ. وبعدما تمّ التأكد من أنّ قوقعتي ستتحمّل الصّدمة، أولجوا في صدري «مبزلة مالارمي». ضربة مذهلة. حذار من كسر عظم القصّ! قفصي الصدريّ يعوجّ تماماً، لكن دون أن ينكسر. حسناً. يشرح لي الطبيب الجرّاح -هو أيضاً طالب سابق لفريدريك- مرغماً أنّ الواقي يمنع المبزلة من أن لا تخترق العظم. لن يربطوني إلى طاولة العمليات، وهكذا أفضل... (فراشات إتيين... مجموعة فراشاته الثمينة... دائماً ما كنت أقطّب حاجبيّ عندما كانت الإبرة تخترقها. يقول إتيين: ولكنّها ميّتة! لكنّي كنت أنسحب مع ذلك. هو خوف وراثيّ ارتكاسيّ من الخازوق أو الصليب.) هيّا الآن، إلى شفط العيّنة. قال الطبيب: ها أنا ذا أسحب. المكبس يصعد. أخبرني فريدريك بأنّ الأمر مزعج قليلاً، ثمّ أضاف بنبرة ماكرة: لكنّ المرء في سنّ الثامنة

والستّين يضعف بصره، ويقلّ سمعه، ويقصر مدى بوله، وتضعف مرونة عضلاته، ويبطأ كلّ شيء فيه، وبالتالي يقلّ إحساسه بالألم؛ صغار السنّ هم من يعانون في مثل هذا الفحص. كان مخطئاً، فقد احتفظ الألم بكامل شبابه: ألم فظيع. آلام الموت. كان النّخاع يصرخ من كلّ أليافه. ترفض ترك عظمها. أنت بخير؟ يسألني الجلاد. أجيبه. ودمعةٌ تسيل على خدي: أجل. سأواصل إذن.

86 سنة، 8 أشهر، 29 يوماً الجمعة 9 يوليو 2010

اِنتابني هذا الصبّاح إحساسٌ بأنّ صدري مهتوك. أنا ميت أكثر ممّا أنا حيّ. أرواحنا في عظامنا. لقد انتزعوني منّي، والألم لا يزال قائماً. بقيت في فراشي، أكتب فوق صينيّة. أفكّر في تلك الكناية التي يستخدمها الأطباء حين يحدّثوننا عن الألم، كناية «الإزعاج». لا يحدّثوننا عن ذاك الألم العضال الذي ينبجس من أجسادنا، ذاك الألم الذي لا نتوقّعه قطّ ولا نحسب حسابه، ذاك الألم الذي هو خاصتنا؛ وإنّما يحدّثوننا عن الألم المتوقّع، الألم الطبيعي، الألم الذي يفرضونه هم أنفسهم على مرضاهم: الرّتق، إدخال الأجهزة الكاشفة، إخراجها، مبزلة مالارمي... يسأل المريض: هل الأمر مؤلم؟ فيجيبه الطبيب: إنّه «مزعج» بعض الشيّء... ومع ذلك هم يملكون إمكان تجريب تلك الأمور «المزعجة» على أنفسهم (وذاك أضعف الإيمان)، لكنّهم لا يفعلون ذلك قط، لأنّ أساتذتهم لم يفعلوا ذلك، ولا أساتذة أساتذتهم. لم يسبق لأحدّ أن سجّل الطبيب في مدرسة الألم الذي يلحقه بالآخرين. ومجرّد الجرأة على طرح السؤال تجعل المرء يبدو مرهف الشّعور.

twitter @baghdad_library

مثلما كان متوقّعاً، النتائج غير مطمئنة. اِنخفض معدّل الهموغلوبين أكثر، ويبدو أنّ نخاعي غنيّ بـ«البلاستات» وهي خلايا غير قادرة على إنتاج الكريات، سواء منها الحمراء أو البيضاء. هي «البلاستات» إذن. (لكلّ شيء اسم). نخاعي غنيّ بالبلاستات. الغزو المرعب. لقد توقّف المصنع، نهاية الإنتاج. لا مزيد من الكريات. لا وقود. لا أكسجين. لا طاقة. سأعيش الآن على رأسمالي من الدّم. ذاك الرّأسمالي الذي بدأ ينهار أمام نظري. وتنهار معه قوايَ. هذا المساء خارت قواي على بعد نصف درجة من نهاية السلّم. قرّرت مونا أن تُنزل سريرنا إلى الأسفل، في المكتبة. قالت بطريقة مسرحيّة: سيكون الأمر مؤقّتاً. وتبادلنا نظرات حازمة.

*

إلى ليزون،

أمّك وهي تخرج من المكتبة: اِنعطافة جسدها ما بين دفّة الباب وجانب المكتبة. عليّ الاعتراف بأنّي إذا لم أكن قد رغبت في تحويل موضع قطعة الأثاث تلك، فإنّ مردّ ذلك يرجع فقط إلى رغبتي في أن أستمتع بحركتها السنّوريّة. (سنّور في السادسة والثّمانين من عمره، هل تدركين يا ابنتي في أيّ حال من الذّهول رمتني مونا!) وفجأة أدركت أنّ مذكّرات حميميّة، كانت لتعطيَ صورة أخرى عن علاقتنا كزوج. وما كان ليهيمن على المذكّرات بلا ريب، هو خصوماتنا الزّوجية، التخمينات التي تغرقني فيها لحظاتُ صمتها، تلك المسافة

الغامضة التي كانت تنسجها بينك وبينها، وغموضها بشكل عام. وكنت لأسهب القول في تهيّبها من التّواصل، لكنّ الأمر هنا مختلف. إنّ وجهة نظر الجسد مختلفة تماماً عن غيرها. لقد أحببت جسدها حدّ تبجيله. ومع أنّ السّنون قد أتت على علاقتنا الجنسية، فإنّ ما بقيَ من مونا في مونا لم يكفّ عن إرضائي. منذ أن ظهرت في حياتي، مرّنتُ نفسي على فنّ النّظر إليها، ليس فقط رؤيتها وإنّما النّظر إليها. كنت أستثير ابتسامتها لأتمتّع بإشراقها المفاجئ، وكنت ألحق بها في الطريق دون أن تحسّ بي، حتّى أتمكّن من متابعة مشيتها التي بالكاد يحسّ المرء ارتفاعها، وأن أتمعّن فيها وهي تغرق في أحلامها بينما تؤدّي بعض المهام المكرورة، أتأمّل يدها موضوعة على مسند مرفق، أو انحناءة رقبتها على كتاب، بياض بشرتها التي بالكاد تتورّد بحرارة الحمّام، ظهور أولى التّجاعيد عند طرفيّ جفنيها، وتجاعيدها العمودية نفسها التي حفظتُها مع الزّمن مثلما تُحفظ أسطر عمل أدبي كبير. خلاصة القول، عندما أرحل، بإمكانكم أن توسّعوا المدخل ما بين الباب والمكتبة.

*

86 سنة، 9 أشهر، 8 أيّام **الأحد 18 يوليو 2010**

مسكين فريدريك، لقد أتى صباح اليوم (واليوم يوم عطلة!) عند طرف سرير ليجريَ الجزء الأشقّ من مهنته: أن يبوح بتوقعّاته. بغض النّظر عن الزّاوية التي ننظر بها إلى الأمر، فإنّ تجاوز عتبة سنّ مّا يعني الخضوع لحكم الموت. سهّلت عليه المهمّة: وإذن يا فريدريك، كم بقيَ لدينا من الوقت؟ ضمير نحن هنا هو ضمير الشرّكاء، فهو طبيبي كيفما كان الحال. سنةٌ إن لجأنا إلى العلاج الكيماوي وستّة

twitter @baghdad_library

أشهر إن لم نلجأ إليه. في حدود ذلك. نظرنا إلى العلاج الكيماوي من زاوية الإيجابيات والسلبيات. في نهاية المطاف هو مادة استهلاكية مثل غيره. ستّة أشهر من الحياة أمرٌ لا بأس به، لكنّ الأمر مرهق، كما أنّي سأفقد ما تبقى من شعري (كيفما كان)، تقيّء دائم، وضمان، مؤكّد بدرجة مّا، أن تؤتى دمي القوّة كي يتجدّد دون بلاستات. التقيّؤ الذي قدّره فريدريك بكميّة لا أهميّة لها، هو ما حسم الأمر. إنّي أكره أن أتقيّء. ذاك الانقلاب، كأنّنا نسلخ جلد أرنب، لطالما أشعرني بالعار والغضب. لن أخاطر إذن. مونا لا تستحقّ أن أودّعها بجلد مقيت. لا علاج كيماويّ إذن. ثمّة حلّ آخر: نقل الدّم. ستدفع بي قليلاً. وسيدوم مفعول كلّ نقلة دم حتّى موعد النّقلة الموالية، ما دام ثمّة إمكان لنقلة موالية. أمّا عن النّهاية، النّهاية الحقيقية، فسواء اخترت العلاج الكيماوي أو نقل الدّم، فالحظّ هو من سيقرّر في نهاية المطاف، هو من سيختار بين نزيف داخلي بسبب هبوط في الصّفائح الدّموية، أو التهاب مّا، أن أصاب مثلاً بذات الرّئة (pneumonie) بسبب انعدام الكريات البيضاء (كان الإنجليز يقولون: pneumonia is the old man's friend)؛ أو الاحتضار الهُزالي الطويل، مع موكب التّقرّحات الذي يرافقه، فوق سرير طبيّ يحرمني رفقةَ مونا. أفضّل موتاً عادياً، سكتةً قلبيّة ليليّة. أن أموت في نومي، ذاك أقصى أماني رجل قضى حياته في تمرين نفسه على فنّ النّوم.

86 سنة، 9 أشهر، 12 يوماً الخميس 22 يوليو 2010

نقل الدّم يوافق تماماً صورة دراكولا. ها أنا ذا على سرير مستشفى أُترع قطرةً فقطرة بدم شخص آخر. كنت أودّ لو أنّي رحلت

ليلاً، ثملاً بعدما أفرغت ثلاث ممرّضات، بيد أنّ مصّ الدّماء فقد كلّ جاذبيّته حين صار قانونياً. ثمّ إنّي ما عدت أملك أسناناً. حتّى أصبّر نفسي اقترحت عليّ مارغريت أن أضع جهازها الآيبود في أذني، لا ريب في أنّها ملأته بشكسبير وماهلر. كلا، كلا بنيّتي، لا أريد أن أشرد، فهذه أوّل مرّة أجري فيها عملية نقل دمّ، أريد أن أنصت إلى سقوط كلّ قطرة. عندنا مفاجأة لك، ماما هي من سيمرّ لأخذك إلى البيت، لا تقل لها بأنّنا أخبرناك! المفاجآت تسرّ أكثر من يقوم بها! ماما؟ آه! ليزون! عادت ليزون من جولتها؟ قبل الموعد؟ هل عليّ انتظار زيارة برونو أيضاً؟ أحسّ أنّها نهاية اللّعبة.

تبدو عملية نقل الدّم بطيئة ومخدّرة. لن أُبعث فوراً. كيفما كان الحال، لقد تطلّبت قيامةُ أفضلنا ثلاثةَ أيام[1]. أخطائي تطفو على سطح شبه-نومي، الدّماغ يلاعب نفسه برخاوة. عادت إلى الذّهن كلمة «بلاستات». كنت أحسبها تشير إلى مدى الصّدمة[2]. لكن لا، البلاستات هي الخلايا القاتلة، بلاستات... صراصير تغزو أرفف مكتبتي... تزيّت أجنحتها بدماء الكتب وتخرج مجسّاتها...

هل تراها، هل ترى البلاستات؟

86 سنة، 9 أشهر، 15 يوماً الأحد 25 يوليو 2010

صدفة أستعيد عبارة ذاك الموسيقي -رفيق ليزون العابر- الذي

(1) إشارة إلى قيامة المسيح. (م)

(2) يعود أصل كلمة Blastes الفرنسية إلى اللّغات الكريولية، وتشير في لغة إلى مجال الانفجار أو مدى الصدمة، لكنّها أضحت في القاموس الطبيّ تُستخدم للدلالة على الخلايا النخاعية غير المنتجة. (م)

twitter @baghdad_library

كان يستعمل المخدّرات حدّ الموت، والذي كانت مونا قد طلبت منه أن يصف لها «بدقّة» أثر حقنة هيروين. فكّر برهةً ثمّ قال بصوت ناعم (لم أصادف في حياتي كلّها فتّى متجرّداً من نزعات العنف إلى ذلك الحد): حقنة حقيقيّة؟ آه! عندما نحقن نفسنا بها نعرف كلّ شيء، كأنّما نتهدهد بين ذراعيّ الرّب نفسه. ذاك هو الأثر نفسه الذي تخلّفه فيّ عملية نقل الدّم. كأنّي مولود حديث بين ذراعَيّ الرّب! كيف لي أن أعبّر بطريقة أخرى عن انبعاث الحياة مجدّداً في جسد ميّت؟ إنّه انبعاث فعليّ. ثمّة شيء من البراءة، شيء حديث تماماً، شيء ما كنت أنتظره إلا بقدر ما ينتظر المرء أن يولد. «شيء ما أفضل»، لا تعني هذه العبارة شيئاً؛ يخبرونك بأنّ العملية ستمنحك «شيئاً أفضل»، لكني لا أحس بشيء أفضل، أحسّ بأنّي أحيا! أنا حيّ، نيّر، واثق، هادئ. أنا بين ذراعي الرّب. وتحدوني رغبة في أن أنزل كي أصعد سلّم بيتنا وأعود إلى غرفتي. إنّ كل ما فعلته أمس: غرفتنا، مكتبي، دفاتري، تحبير الصفحات السابقة، كتابة تعليقاتي إلى ليزون، لأنّي بالطّبع لم أستطع طيلة الأيام السّابقة أن أضع كلمة واحدة بجانب أخرى، وإنّما أخذت بعض النّقط فقط؛ كلّ ما سبق هو باختصار: انبعاث! ولنوضّح الأمر، لا أدّعي أنّي أعود إلى سنواتي العشرين، فقد ماتت تلك السنوات، مثلما ماتت العقود التي تلتها، وإنّما فقط أولد مجدّداً كما أنا في سنّي، لكنّي حديث الولادة مع ذلك. إنّه شفاء دون الاضطرار إلى الانتظار في ردهة النّقاهة، دون أن أضطرّ إلى تعلّم الحياة من جديد. [كأنّي] استعملت مخدّراً. طلقة!

86 سنة، 9 أشهر، 16 يوماً **الاثنين 26 يوليو 2010**

نحن، حتّى النّهاية، أطفالُ أجسادنا، أطفالٌ حائرون.

86 سنة، 9 أشهر، 19 يوماً **الخميس 29 يوليو 2010**

هذا الصّباح صعدت ضحكةٌ من أعماق طفولتي، بينما كنت أحلق ذقني ولاحظت في المرآة أذني العموديّة التي لم أحاول يوماً تقويمها، والتي أعرض للحديث عنها لأوّل مرّة! كنت قد شكوت الأمر لوالدي. فسألني علامَ ألوم تلك الأذن. هل ألومها على أنّها ليست مثل الأذن الأخرى! وما الذي تجده رائعاً في الأذن الأخرى؟ إجابته هي ما أضحكني. ثمّ انصرف أبي إلى التفلسف في التّناسق: إنّ الطبيعة تنفر من التّناسق، إنّها لا تسقط في فخ هذا الذّوق السيئ. ستذهل من انعدام التّعبير في وجه متناسق، إن قيّض لك أن تصادف وجهاً متناسقاً! كانت فيوليت تتابع حديثنا وهي ترتّب باقةً فوق المدخنة، فتدخّلت: هل تريد أن تشبه مدخنةً؟ فكان أبي هو من ضحك هذه المرّة. ضحك ضحكة من تلك الضحكات الزّافرة، ضحكات أسابيع عمره الأخيرة... كان قد بقي له من الأيّام ما بقي لي الآن.

86 سنة، 9 أشهر، 21 يوماً **السبت 31 يوليو 2010**

في المطعم حيث نحتفل بقيامتي. هنّأت فريدريك على حسن اختياره المتبرّع بالدّم: إنّه دم طازج! تبادل النّظرات مع ليزون، وخمّنا أنا ومونا الأفكار المضمرة التي تدور بين المتحابّين الذّكيّين: دعوه يستمتع بهذا التمجيد، فآثار نقل الدّم سريعاً ما تختفي.

twitter @baghdad_library

86 سنة، 9 أشهر، 22 يوماً الأحد فاتح أغسطس 2010

خرجت فاني عارية من الحمّام. أوه! آسفة. وما إن زال عنّي الذّهول حتّى تذكّرت رعبي يوم كنت في سنّ العاشرة، ودخلت إلى الحمام كي أغسل أسناني، ففاجأت أمّي خارجة من حوض الاستحمام، عارية تماماً. ولعلّ المفاجأة أو الغضب هو ما جعلها تلتفت شطري. كانت تواجهني عارية، وقدّها يختفي خلف ضباب البخار. أتذكّر جيداً جسدها، الجسد النحيف ذا الثديين الصّلبين (الذي يبدو لي الآن مثل جسد فتاة شابّة)، جلدها وقد تورّد بفعل حرارة الحمام، فمها الفاغر المشدوه، عينيها الجاحظتين، ثمّ المرآة خلف ظهرها وقد ضبّبها البخار. أطلقتُ صرخة وأقفلت الباب بسرعة، وذهبت إلى النوم دون أن أغسل أسناني، يفترسني رعب مقدّس. مع أنّي كنت أجهل يومئذٍ كلّ شيء عن ديانا، إلهة الصّيد الرّومانيّة، التي فوجئت في الحمّام، وعن أكتيون الذي افترسته كلابه. ومساء ذلك اليوم لم تكتف أمّي بمراقبتي عن بعد للتّأكّد ممّا إذا كنت قد نمت، وإنّما أتت تقبّلني على جبيني، ثمّ كرّرت على مسامعي مرّتين: «يا رجلي الصّغير»، وهي تمرّر يدها خلَل شعري.

86 سنة، 9 أشهر، 23 يوماً الاثنين 2 أغسطس 2010

أنّى لنا، أنّى لنا أن نفكّر في الهيكل العظميّ كرمز للموت، في حين أنّ العظام هي مبدأ الحياة! ذاك أنّ الدّماغ الذي يفكّر، والقلب الذي يضخّ، والرّئتين اللّتين تهوّيان، والمعدة التي تهضم، والكبد والكليتين التي تصفّي، والأمعاء التي تقي، كلّ تلك الأعضاء ما هي

إلى إكسسوارات بجانب عظامنا؛ أمّا الحياة، الدّم، الكويرات، الحيّ فينا، فمن نخاع عظامنا!

86 سنة، 9 أشهر، 29 يوماً الأحد 8 أغسطس 2010

أمرٌ جَلَلٌ. الصغير فابيان، ذو السبع أو الثماني سنوات، صديق لويس وستيفانو، ضرط أثناء القدّاس. والأنكى أنّه فعلها لحظة الصّمت الذي يرافق القيام من القدّاس! لقد أثّر الأمر على الأولاد جميعهم. وقد فاجأتهم وهم غارقون في النّقاش، يشغلهم أكبر همّ يستحوذ على تفكير الأطفال: إيجاد ارتباط بين الأسباب التي ينتجها عالمهم الصّغير، والنّتائج التي تترتّب على ذلك في مجرّة الكّبار. بالطّبع «ما كان على فابيان أن يفعل ذلك»، أن يطلق العنان لجسده هناك حيث تسود الرّوح القدس، لكن فابيان «لم يتعمّد فعل ذلك»، ما كان على أبيه أن «ينهره أمام الجميع»، والعقوبة التي فُرضت عليه قاسية. إنّ المسكين محبوس في بيته طيلة يوم الأحد، في حين كان مدعوّاً لعيد ميلاد لويس. (في المحصّلة، يظلّ والد فابيان مجرّد شاب مسيحيّ يمارس بحماسة جامدة ديانة لا تقلّ عبثاً عن إلحادي. طفله شفّاف، مثل أمّ أربعة وأربعين رُبّيت تربية حامي مقدّسات. إنّها معجزة أن يضرط الصّبيّ).

وإذ لاحظوا أنّي أنصت إليهم، سألني ستيفانو ولويس رأيي في الموضوع، بوصفي الجدّ الذي يعلم كلّ شيء. من الصّعب أن أعطي رأياً في الموضوع، إذا كنت أنا نفسي مسجوناً منذ سنوات داخل إشكالية الضراط-السّعال. ومع ذلك كنت حازماً في رأيي. قلت لهم إنّ إمساك الضّراط مضرّ جداً بالصّحة. ولِمَ؟ لأنّنا إذا ما تركنا جسدنا يمتلأ بالغازات، فسنطير مثل بالونات! سنطير؟ سنطير، وحين سنصير

twitter @baghdad_library

في الهواء ويشاء سوء حظّنا أن نضرط -ودائماً ما يحدث ذلك لأنّنا لا يمكن أن نمسك ضراطنا أبد الدّهر- نُفرَغ من الهواء ونسقط محطّمين على الصّخور. حقاً؟ هل هكذا ماتت الديناصورات؟ أجل، فلقد قيل لهم أنّ الضراط عيب، فأمسكوا ضراطهم، وأمسكوه، وأمسكوه، ثمّ انتفخوا وانتفخوا وانتفخوا، حتّى طاروا، وحين طاروا اضطرّ المساكين إلى الضّراط، فأُفرغوا وتحطّموا على الصخور حتّى آخر واحد فيهم! (كان للصّخور أثر عظيم!)

86 سنة، 10 أشهر، 6 أيّام الاثنين 16 أغسطس 2010

رحلت جوقة الأطفال في اليوم الموالي لعمليّة النّقل الثانية. إلى اللّقاء يا جدّتي! إلى اللّقاء يا جدّي! إذا ما كان هؤلاء الأطفال لا يشكّون في أنّهم سيروننا مرّة أخرى، فإنّ مردّ ذلك إلى أنّهم يعرفوننا منذ البداية. عندما نكون أطفالاً، فإنّنا لا نرى الكبارَ يشيخون؛ تكون أولويّتنا هي أن نكبر، أمّا البالغون، فلا يكبرون إنّهم متروكون رهناً لنضجهم. المسنّون أيضاً لا يكبرون، إنّهم مسنّون منذ ولادتهم. وتجاعيدهم تضمن لهم الخلود في نظرنا. بالنّسبة إلى أبناء أحفادنا، أنا ومونا كنّا موجودين منذ الأزّل، ولذلك سنظل خالدين. وللسّبب نفسه سيكون وقع موتنا عليهم أعظم: أول لقاء مع تجربة الزوال.

86 سنة، 10 أشهر، 9 أيّام الخميس 19 أغسطس 2010

ليس لعملية نقل الدّم الثانية النّكهة نفسها التي كانت للأولى. كما أنّ آثارها المنشّطة لن تدوم قدرَ ما دامت آثار الأولى. علمي بهذا الأمر يكفي وحده ليفسد عليّ نشوتي.

بينما أراقب ليزون ترتّب سريرنا وفريدريك يدوّن الوصفة الطبيّة بعدما أخذ منّي عيّنة دم، خطر ببالي أنّ على المرء أن يعمِّر طويلاً حتّى يشهد شيخوخة الآخرين. إنّها ميزة محزنة تلك التي تجعلنا نشهد الزّمن يأتي على أجساد أبنائنا وأحفادنا. لقد قضيت السنّوات الأربع الأخيرة في متابعة تغيّر ذويَّ. إنّ هذا الرّجل الستينيّ ذا الشّعر المصفرّ، واليدين المنمّشتين، والعنق النّاحل، الذي بدأ جسدُه يتخلّع، ليسَ هو فريدريك ذا الرّقبة الممتلئة والأصابع المرنة الذي سقط في غرامه غريغوار. أمّا ليزون فما عادت تشبه في شيء فاني ومارغريت اللّتين تهبطان السلالم هرولةً وهما تعداننا بالعودة في الشّهر القادم كي «تعتنيا بي كالطّفل»؛ وهما نفسهما، مهما بلغت درجة روعتهما، فإنّهما صارتا تفتقران إلى الكثافة الضّاغطة التي تسمح للويس وستيفانو بالقفز في كلّ أرجاء المنزل.

وإذا ما نظرنا إلى اللّباس على سبيل المثال، فإنّ سراويل الجينز التي يلبسها الجميع، وتعدّ منذ القدم لباساً عالمياً يوحّد ما بين الجنسين ويعبُر الأجيال، يمكن أن تعدّ علامة رهيبة على الزمن الذي يمضي. إنّ الجينز عند الرّجال يميل مع الزّمن إلى الفراغ، بينما يميل إلى الامتلاء عند النّساء. وتبدو الجيوب الخلفية مسطّحة فوق المؤخّرة التي ذوت، وتصير منطقة ما بين الفخذين مثنيّة، وسحّاب السّروال يتموّج، لم يعد الشّاب يسكن سروال جينز المفضّل، لقد عوّضه شيخ تفيض حواشي سرواله عند منطقة الحزام. أمّا المرأة النّاضجة فتملأ سروالها بشكل مثير للشّفقة. آه! ذاك السحّاب الذي

twitter @baghdad_library

يبدو كأثر جرح مَخيط! في زمني كان لكلّ مرحلة عمريّة زيُّها: تبان الرّضع الواسع، سروال وقميص البحّارة بالنّسبة إلى الطّفل، سروال الغولف الذي يوافق مرحلة المراهقة، بذلة الشّباب الأولى (فلانيلا[1] خفيفة أو تويد[2] بكِتفيّتين مبطّنتين)، وفي آخر المطاف، هذه البذلة من ثلاث قطع، بذلة النضج الاجتماعي الموحّدة، تلك البذلة نفسها التي سيُلبسونني إياها قريباً وهم يضعونني في التّابوت. كان برونو يقول: ما إن تجتازون الثّلاثين حتّى تصيرون جميعكم شيوخاً داخل تلك البِذل. صحيح، إنّ تلك البذل تجعلنا نشيخ قبل الأوان، أو بالأحرى تشيخ هي بدلاً منّا، أمّا رجال ونساء هذا الوقت فيشيخون داخل سراويل الجينز.

86 سنة، 10 أشهر، 14 يوماً الثلاثاء 24 أغسطس 2010

رغم كلّ شيء، ما زلت أرى شباباً لا يقهر في أولئك الذين يصغرونني بعشرين سنة! كما أرى أمارات الطّفولة الأولى على وجوه أطفالنا الكبار. أوه يا ليزون، يا حُلوتي!

86 سنة، 10 أشهر، 18 يوماً السبت 28 أغسطس 2010

*

إلى ليزون،

هل تذكرين يا ليزون، تلك القراءة التي أرعبت فاني وأضحكت

---

(1) ثوب من الصّوف أو القطن النّاعم. (م)
(2) نسيج صوفيّ خشن. (م)

مارغريت؟ كان نصاً لغارسيا ماركيز. كانت مونا تقرأ لهم، في **الصيف الماضي**، غارسيا ماركيز. **ساعةَ القيلولة**. أحسب أنّها كانت تقرأ رواية **مائة عام من العزلة**، لست أذكر حقاً. لكنّ حصّة القراءة تلك أذكرها جيداً! كانت القصّة كما يلي: بمناسبة أعياد الميلاد، أو عيد ميلادها، كانت امرأة شابة تستلم كلّ سنة هدية من والدها. كان والدها يسكن بعيداً، لسبب لست أعرفه، لكنّه كان منضبطاً فيما يخصّ عادة إرسال الهديّة السّنوية. كانت الهديّة دوماً صندوقاً كبيراً يبتهج أطفالها بمحتواه اللّامتوقّع. (كانت المناسبة أعياد الميلاد على الأرجح، لأنّي أذكر جيّداً بهجة الأطفال)، لكن في إحدى السّنوات وصلها الصندوق قبل موعده. المرسِل نفسه والمرسَل إليه نفسه، لكن ثمّة خطأ بسيطاً في التّاريخ. هرعت الأسرة إلى الصندوق، وعندما فتحته، كانت المفاجأة: في الصندوق كان يرقد جسد الأب نفسه! هل كان متحلّلاً؟ محنّطاً؟ محشوّاً؟ لا أذكر، لكنّه كان جسد الأب حقاً. قالت فاني مرعوبة: «إنّه لأمر مقزّز!»، أمّا مارغريت المنتشية فصاحت «رائع!»، بينما كنت أنت على عادتك تصوّرين المشهد بقلم الرّصاص على دفاتر رسمك. قولي لي يا ليزون، ألستُ الآن أقوم بالأمر نفسه معك؟ صدقاً، لن أتقلّب في قبري إذا ما ألقيت بكلّ هذه الأوراق إلى النّار.

86 سنة، 10 أشهر، 29 يوماً الأربعاء 8 سبتمبر 2010

الممرّضة التي تقيس انخفاض كرياتي الدّمويّة، تتعقّب أوردتي. فالأوردة التي أنهكت تصلّبت وصارت تتملّص. واخِزتي تبحث عن أوردة أخرى. على ظاهر يدي، وعند طرف كاحلي، أورامٌ دمويّة،

twitter @baghdad_library

وخدوشٌ، وقشورٌ. . . لأنّك تحكّ نفسك فوق كلّ هذا! انظروا إلى هذا! قلت لفريدريك رغبةً في مضايقته: «لمَ لا تحقنني بالهروين، ما دامت قد صارت لي سمعة مدمن؟ انظر إلى ذراعيّ! ثمّ إنّ الأمر سهل بالنّسبة لكم، يكفي أن تعالج قفل صيدلية المستشفى!» غضب المسكين مجدّداً، قال إنّه ليس موزّع مخدّرات، واتّهمني بالخلط بين المورفين والهروين: «لعلمك، الهروين والمورفين، ضداً على لا مبالاتك المعتادة، ليسا شيئاً واحداً! إنّك حقاً. . .» نظر إليّ وهو يحكّ رأسه، ثمّ فاضت دموعه. حسناً. أخذ يشهق. ثمّ غادر القاعة. ذاك التّعب الذي يحسّه الأطباء أمام الموت. . . أنا أيضاً كنت لأغضب لو أنّي شهدت موت مرضاي. حتّى أولئك الذين يشفون، يموتون في نهاية المطاف. أن تشهد من يتحسّنون، ومن يموتون. . . كلّ يوم في حياتك. لا يمكن أن لا يُلام المحتضرون. أيّها الطبيب المسكين! تقضي حياتك في إصلاح برنامج وُضع ليفنى. آخرون يكتبون **صحراء التّتار**[1]. إنّ فريدريك أثرٌ أدبيّ عظيم.

86 سنة، 11 شهراً، يوم واحد السبت 11 سبتمبر 2010

بينما أضع الحواشي إلى ليزون في هذه المذكّرات أنتبه إلى كلّ تلك الأشياء التي لم أدوّنها. كنت أصبو إلى أن أقول كلّ شيء، لكنّي ما قلت إلا قليلاً! بالكاد لامست الجسد الذي أردتُ وصفه.

---

(1) إشارة إلى رواية دينو بوزاتي: **صحراء التّتار**. (م)

86 سنة، 11 شهراً، 4 أيام **الثلاثاء 14 سبتمبر 2010**

كلّما شارفت على النّهاية إلا وكثرت الأشياء التي عليّ تدوينها، ووهنت قوايَ. جسدي يزداد ضعفاً يوماً عن يوم. يزداد تفسّخه سرعة بالقدر التي تزداد وظائفه بطئاً... أشبه قطعة نقدية تدور على نفسها.

86 سنة، 11 شهراً، 27 يوماً **الخميس 7 أكتوبر 2010**

أخيراً أنهيت كتابة التّعليقات الموجّهة إلى ليزون. الكتابة تنهكني. القلم ثقيل جداً. كلّ حرفٍ عقبة، وكلّ كلمة جبل.

87 سنة، عيد ميلادي **الأحد 10 أكتوبر 2010**

مسلوخ لاروس معلّق للمرّة الأخيرة على حاشية المرآة. وبجانبه، في المرآة، أنا، جوب، فوق بقاياي. عيد ميلادٍ سعيد.

86 سنة، 17 يوماً **الأربعاء 27 أكتوبر 2010**

لم يعد ثمّة إمكان لنقل الدّم. لا يعيش المرء إلى الأبد معلّقاً بخطاطيف البشريّة.

86 سنة، 19 يوماً **الجمعة 29 أكتوبر 2010**

والآن يا عزيزي دودو، ينبغي أن نموت. لا تخف، سأريك كيف تفعل.

twitter @baghdad_library

المحتويات

تنبيه 5

1. اليوم الأول (سبتمبر 1936) 11

2. 12-14 سنة (1936-1938) 19

3. 15-19 سنة (1939-1943) 75

4. 21-36 سنة (1945-1960) 111

5. 37-49 سنة (1960-1972) 185

6. 50-64 سنة (1974-1988) 231

7. 65-72 سنة (1989-1996) 275

8. 73-79 سنة (1996-2003) 311

9. الاحتضار (2010) 353

دانييل بِناك

مذكّرات جسد

«أريد كتابة مذكرات جسدي لأنّ الجميعَ يتحدثون عن أشياء أخرى».

❖ ❖ ❖

بدأ الراوي في كتابة مذكراته عن جسده منذ سن الاثني عشر وواظب على ذلك حتى مماته في سن السابعة والثمانين. كان مشروعه هو مراقبة المفاجآت الكثيرة لجسدنا التي نحتفظ بها لنفسنا من بداية حياتنا حتى نهايتها. وأدخل في كل صفحة شخصيات ومواقف وحوارات وأفكار جعلت دم الألفة يجري في هذا الجسد، بحيث أن القارئ يتعرف عليه كما لو أنه جسده الخاص.

لكن اختزال هذه الرواية إلى وصف الجسد وتقلباته خلال الزمن لا يفيها حقها، لأن الراوي يعبّر فيها قبل كل شيء عن عقله وعواطفه واضطراباته وذكرياته الوجودية الجميلة.

❖ ❖ ❖

«إذا ما قُيّض لي نشرُ هذه المذكرات، فسأهديها إلى النّساء في المقام الأوّل. وبالمقابل سأكون سعيداً بقراءة مذكرات امرأة عن جسدها، رغبةً في أن أفُكّ جانباً من اللّغز».

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

لوحة الغلاف لماتيس

ISBN 978-9953-68-748-3
9 789953 687483

المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com

twitter @ baghdad_library